

رواية

القطاف

حنا



حناء مينة

القطاف

رواية

الجزء الثالث

من «بقايا صور» و «المستنقع»



وصلنا اللاذقية في نحو الساعة الثامنة ليلاً قالت أمي وهي تضع يدها
على رأسي

- ها ولدت يا بني!

وقال والدي لسائق الميكروباص، الذي توقف في ساحة الشيخ ضاهر:

- إلى كيسة «المرساب».. هناك يسكن أخي، وهناك جميعاً.

قال السائق:

- دُلّني على الطريق.. أنا لا أعرف أين تقع هذه الكنيسة.

قالت أمي مستغربة!

- كيف يا شحود؟ أنت من اللاذقية ولا نعرف الكنيسة؟

قال السائق الذي أصبح ترقاً في نهاية الرحلة الطويلة، الصعبة

- أنا لا أعرف الكنائس ولا الجوامع..

قالت أمي:

- أنت تمزح!

- وإذا أفسدت لك أبي لا أرحم؟ هذه ساحة الشيخ ضاهر: تفضلوا

اعتفوني

قال الوالد مدارباً الموقف:

- صلّ على النبي يا شحود.

قال شحود:

- اللهم صل وسلم عليه . قلت لكم لا أعرف كنيسة مارسابا هذه
دعوني عليها أو تفضلوا بالرول

قال الوالد .

- عل مهلك إذن . دعني أنزل وأتيك الطريق .

- لماذا ؟ نسيت ما شاء الله ؟

- لم أنسه . ولكن خمسة عشر عاماً يا شحود . فكُرت خمسة
عشر عاماً لم أدرس اللادفة . ولا أعرف . في هذا الليل ، أوما من
أحرها . دعني أعرف أين نحن . رأسي دائع من صجيج السيارة

قال شحود :

- قلنا لك إننا في ساحة الشيخ صاهر . وهذا جامع العجان عن يميننا .
إذن تقدم قليلاً . امش إلى آخر الساحة . وهناك أسأل . اختمها
بالمسك يا شحود .

- بالمسك أو بالرفث . أو الذي علّمني هذه الصعنة . من الصبح وأنا
أتعذب .

قالت أمي :

- الحقّ معك يا شحود . كانت رحلة صعنة . الله يجازي الذي كان
السبب . الله يجازي تركيا التي هجرتنا . أنزل يا سالم . أنزل واسأل
المارة .

رول والدي وهو ينقض إليه شرواله . كان طربوشه قد ارتكز على قمة
رأسه كجما اتفق ، وكانت شرايته من أمام ، ورجلاه ، كما قال ، قد تبيستنا ،
والسّت غتدف ، الجالسة قرب باب السيارة ، سدّته بجسمها الملحم ،
وقاص وركها عن المقعد ، وهي منصرفة إلى إتمام ريبتها ، تبصق على قطعة
طربوش بيدها ، وتدعكها على وجتها بدل الحمرة . ووالدي الذي يحث
عن سبب للانحجار ، يصيح بها قائلاً :

- مؤخرتك من الطريق .. العمى ! نحن أين وأنت أين؟ .. أنت بحاجة إلى سيارة وحدك .

قالت الست غندف وهي ماضية في التدليك :

- لا ترقّر كلامك يا مصري .. وصلنا والحمد لله .. الآن سنفترق .. لن ترى وجهي بعد اليوم .

صاح والدي :

- بالنافص .. ولك انقلعي .. دعيني أرق فقط .. قومي من الباب .

تزارحت الست غندف ، شدّت جسمها إلى أمام ، باتجاه الداخل ، وهي تقول :

- على مهلك .. لا تدفري من وراء ..

قال والدي وهو يمزق :

- أعود بالله .. أنت مرة أنت ؟ لياخذك الشيطان .. الحق عليّ أنني جثت بك معي .

قالت الست غندف ورأسها عشور بخلفية مقعد السائق :

- بفلوسي يا مصري .. سمعت؟

فصاحت بها أمي :

- انكتمي .. احرمي .. دعينا نصل بسلام ..

خرست الست غندف ، ولملم والدي شرواله ورائه ونزل ، بينا الذين في السيارة يضحكون ، وقد وضعوا أكفهم على أفواههم حتى لا يتعالى الضحك ، وشحود أسد رأسه على مقود سيارته في حالة احتجاج وحرّد ، ورائحة الأجسام المحشورة في السيارة تفوح ، وتحت السقف الواطئ ، للسيارة العتيقة ، الخربة تدافع الرؤوس باتجاه النوافذ ، طلباً للنسمة من حرّ تموز ولزوجته .

كنت أجلس بحوار أمي . عائلتنا تتألف من الوالدين ، وثلاث أخوات وصهر ، ومني ، ومعنا في السيارة الست غندف والدها ، ورجل آخر

وروجته، ومعها طفل رضيع، وشابان فتيان وبتان، وصاحب السيارة الذي هو معاون السائق في الوقت نفسه، وفي السيارة تسعة مقاعد، وهي تحمل على الظهر أغراض كل هؤلاء الركاب، وتمتلئ في الداخل، بأصناف من السلل والصرر والسطول والطناجر والدجاج والأشياء البيئية، وموفها موم محرة بدأت ولا يعرف أحد كيف تنهي

كنت قد قلت لامي، في الصباح، ونحن نعلق الباب حلقتنا

- لا أريد الهجرة . اذهبوا وتركوب
- كيف؟ نحن مهاجر لأهلك يا عبون أمك . الخوف من الأتراك، عليك
وعلى أحوالك

- وعليك وعلى والدي ؟

- لا . أنا والوالدك عجزون . الأتراك لا يحتاجون إلى المعائن .

- ولماذا تخافون علي؟

- أه ماذا أقول يا بني ؟ الأتراك لا يرحمون . كنا في مرسين ونعرف .

- هذه أسكندرونة . بلدنا . وطننا .

- لم يعد لنا وطن . أحدهم الأتراك . الناس مهاجرون . يتركون كل شيء
ويسجون بأنفسهم .

- أنا لا أريد أن أترك بيتنا .

- وماذا تفعل به ؟ ليذهب البيت إلى الشيطان . ينهدم . ينعب فيه
البوم . فقط سجو بأنفسنا نحن أيضاً .

- وما هو الخطر الذي يتهددنا ؟ هذا الدعر كله أثاره الأرمس

- الأرمس معدورون . من لم يبق الطفرايه لا يعرف شو الحكاياه هم
داقوها يا كبده . دبحوا منهم في كيليكيا وحدها مئة ألف .

- ليدبحوني . لا أريد الهجرة . كيف نذهب وننشرذ ؟

- لكنك عاقل بما يكفي كي لا تعذبني . قلت لك الخوف عليك أنت لا

علينا . تريد أن يسي الأتراك أخواتك؟ .

لم أجب، خيّل إليّ أنها أفحمتني . . . كانت تعرف أن هذا هو الوتر الحساس بالنسبة إليّ . . . لقد تحمّلت العائلة ما يكفي من الألم في سبيل أخواني، وكنت الحامل الأكبر لهمومها . . . ولأمر ما، كانوا يقولون «الأرض والعرض» هذه التسمية التي هي حجّة المهاجرين، والتي، في مستوى عقلية الناس، ستظلّ الحجّة الكبرى، ما دام العرض مبعث غيرة مجنونة . . ثم إنه، بالنسبة إليّ، أنا الذي يغار من النسيم، كان مبعث غيرة مرضية، ولاجله وافقت على الهجرة، وركبت السيارة مع العائلة، تاركاً للدموع أن تسيل في قلبي لا عل وجنتي.

كنت صغيراً، نلت الشهادة الابتدائية عام ١٩٣٦، وعملت في المرفأ، وأجيراً في دكان لتأجير الدراجات، ثم أجيراً في دكان حلاق، وكتبت رسالة إلى ابن عمي في اللاذقية، قبل الهجرة بشهرين، أسأله ما إذا كنت أجد عملاً لو هاجرت، فاحتر في الجواب، وحسم الأمر بأن أهمله، لذلك كنت الوحيد في السيارة، تقريباً، الذي يرى الشمس صفراء على جوانب الطريق، والسماء، على ررقتها، خرساء، وكل ما يحيط بي، وما تطالعه عيناوي من النافذة، حزناً حزناً صدئاً يسمّ أحشائي . كانوا يستمعون الوصول، وكنت، في ذاتي، أنطوي على أمنية خائبة في الانصل . صحيح أننا غادرنا البيت، والمدينة، وحدود اللواء، لكن السيارة كانت كالسفارة، أرضاً محايدة . إنها عالم قائم بذاته، لا هو من اسكندرون ولا من اللاذقية، بل نقطة معلقة في فراغ، ما دمت فيها فأنا في وطن، أرض، بيت، وحين سأعادرها، أكون قد قطعت مع تلك الأشياء الحبيبة، الالية . أكون واجهت الغربة، وذقت مرارة الحقيقة التي تنطوي عليها حتى قبل أن أجريها .

لمادا، يا رب، كتبت عليّ أن أبقي في هجرة موصولة؟ من اللاذقية إلى السويدية، ومنها إلى الأكبر، وقره أغاج، واسكندرون، وفي كل مدينة أو قرية، تقضي سنوات، ثم يحمّلنا الوالد، كالزوّادة الفارغة، في عنقه،

وعيشي، وعلى جوانب الطرق، في التيه الكبير، تشتد العائلة. يضيع أفرادها. كذلك ضاعت أختي البكر، ومات صبيان وبنات، وصارت الأم إلى الخدمة في بيوت الناس، وتبعثها أختائي، وارتحل الوالد خائباً، وأقام خائباً أيضاً، فكان الحية نجمة الذي لا يريد أن يغور، حتى عرفنا، من جرّاء ذلك، الفقر، والمرض، والجوع، والذل. وحمدت الله، بعد كل شيء، أن صار لنا بيت في اسكندرونة، بسقف من القرميد الأحمر، عرضناه للبيع، في أيام الهجرة تلك، فلم يتقدم أحد لشرائه، ورفض البقال يونس نفسه أن يشتريه، ولو بأربع ليرات ورقية، فعمدنا، انتقاماً، إلى تكسير قرميده، ليلاً، وإلى تخريب حيطانه، كالفرقة العسكرية المنسحبة، والتي يعز عليها، وهي تتراجع على أرض وطنها، أن تنسف جسراً أو محطة أو مصنعاً، بدل مواطنوها جهوداً مضنية في بنائها.

أنا الطفل، ابن المدرسة، حامل الشهادة الابتدائية، أجير الحلاق، كسرت يديّ الاثنتين قرميد بيتنا. وبالفأس خربت الجدران، وقطعت التينة، كي لا أترك الأشياء للأعداء من بعدنا. كنت كمن يقطع قلبه، وكمن يخرب دورته الدموية، وعانيت، في ذلك الامتحان الرهيب، معاناة راهب يهدم دير، ويعرف أن عليه، بعد ذلك، أن يهيم على وجهه، لا دير، لا سكن، لا استقرار، بل روح هائمة، ناثقة، كالريح المولولة في الحريف، يهده التعب، ويرغب، كل خطوة، أن ينهاوى على الأرض، ويغوص فيها، رحماً جاء منها وعاد إليها، صدرأ حنوناً دفع به إلى الوجود، وما هو يسترّه.

أنساء الآن، هل يفكر الطفل قبل أو ان التفكير؟ هل يحزن وهو في سنّ الفرح؟ وما ذلك الابهاط الذي يصيب القلب، فيكون منه على الوجه أسمى، وجوم، وكآبة تنقط من الأصابع دون أن يراها الآخرون؟ لقد كنت، طوال الرحلة، من اسكندرونة إلى أنطاكية، ومنها إلى «الأوردو» فكسب فاللاذقية، حزيناً، مهموماً، مفكراً بالمستقبل الذي يتبدى جداراً أسود، لا ثغرة فيه للضوء، تماماً كما كان هذا المستقبل، المليء بكل ضروب

الزواحف، يشدّ بالارجل إلى تحت، والصلصال يرتفع إلى أعلى، ونحن نتخبط عبثاً في محاولة للثبات أو الخلاص.

توقّفنا في مدخل السوق التي تنفرع من الشيخ ضاهر، باتجاه ساحة النصارى. لم يكن والدي يعرف اسم هذا الشارع، ولم يكن للشارع اسم، بل امتداد سوقى أشار لنا إليه رجل استوقفه الوالد، وقال بلهجة لاذقانية وجدتها، لأول وهلة، عوجاء ممطوطة.

— من هنا دوغري. في خطّ مستقيم، وبعد اجتياز نقطة البوليس، امضوا إلى أمام تجددوا كنيسة مار سابا على اليسار.

لكن رجلاً آخر كان معه، أضاف باللهجة الممطوطة نفسها:

— لا يا ابن السابا. بعد نقطة البوليس اسألوا. لا تمضوا بعيداً.
فانتهره الأول:

— شف هذه الآلة المزفتة. رح يا عمي كما قلت لك.

رحنا كما قال لنا. شققنا طريقنا في السوق، فوجدت، لأول مرة، هذه الخاصية لأسواق اللاذقية، أن الناس يتركون الأرصفة ويمشون في عرض الطريق. وكان السائق شحود لا يرفع يده عن الزمور، لكن المازة لا ترفّ جفونهم لهدير السيارة، ولا يفسحون المجال، والميكروباص القديم، المترنّع، يشق طريقه بصعوبة، ويكاد، من أمام وعلى الجانبين، يمسّ اكتاف الناس، وهم يصيحون به:

— على مهلك!

وشحود الذي تصاعد نرقه، يشتم ويزمّر، وينتهرهم صائحاً:

— أبوكم وأبو مهلكم. روحوا من الطريق يا بجم!

بينما الست غندف، وقد عرفت بقرب الوصول، تزيد من تبليل قطعة الطربوش، وتدلّيك وجهها الممّعج، والوالدة تقول:

— انتبه يا سالم. قالوا الكنيسة على اليسار.

والوالد يوجه السائق بكلمة تتكرّر ذاتها:

— لقدّام، لقدّام يا شحود. .
وأنا أسأل الله في سرّي، أن تكون المسافة الباقية طويلة، أو أن تطول إلى
ما لا نهاية، كيلا نفارق الأتوبيس، ولا تبدأ الغربة التي أحسّها المأ في
أحشائي، ودعراً في نفسي.

فجأة، سمعت الوالد يصيح :

— ستوب!

توقّفت السيارة برّجة قويّة، وإذا الكنيسة على اليسار. لقد وصلنا زمر
شحود عدة مرات، لا لسبب معلوم، بل ربما فرحاً بالخلاص أو رغبة في
تنبيه الذين يسكنون قرب الكنيسة كي يبادروا إلى استقبال هذه «الشحنة»
الآدمية، ويساعدوا في تنزيل الحمل عن ظهر الأتوبيس، وفي تفريغ محتوياته
العجيبة من الداخل.

دخل والدي باباً يطلّ على الشارع، كانت الإنارة ضعيفة، وبالكاد
ميّزت كنيسة أخرى تقوم عن يمين الشارع، هي كنيسة الموارنة. لم تكن
السماء، رغم ليلة الصيف، ضاحكة. خيل إليّ أنها ترصد ما على الأرض
بحيدة باردة، وأن نورها أصفر كأنها مسلولة. وصفّرت باخرة في مكان ما
قريب، فأدركت أننا لا نبعد عن البحر. كان ثمة شارع يمضي في التواء
نصف دائري إلى أمام، وآخر يتجه نزولاً، من أمام كنيسة الموارنة، هابطاً
إلى حيث ترسو الباخرة وتصفر. وانفتح الباب المطلّ على الشارع وبدت
عليه امرأة عمّي مرّحة.

قال والدي :

— نحن ثلاث عائلات. معنا فرشاتنا. نستطيع أن نفردها وننام، فإذا
كان الصباح تدبّرت كل عائلة مكان إقامتها.

— أهلاً وسهلاً، الدنيا صيف، والحديقة واسعة. ادخلوا كلكم.

دخلنا.

كنا سندخل بغير دعوة. ليس لنا، في هذا الليل، من مكان آخر.

وكانت السيارة قد أنزلت، وأفرغت، حولتها على الرصيف. الركاب بقوا واقفين، بانتظار إشارة الوالد للدخول، والأغراض تراكت عند قدم الجدار، وفوق الرصيف. السيارة التي جمعت حبالها في ربطة، هدرت ومضت، وعندئذ أحسست أن غربتنا قد بدأت، وأن عليّ أن أتقبل الواقع، وأحمل، كغيري، بعضاً من العفش، أنقله، إلى الداخل، وأركمه حيث يراكم الآخرون ما يحملون.

لم تكن معنا أسرة، أو مقاعد، أو أية قطعة أثاث خشبية أو معدنية. الفرش فقط، وبعض الصناديق الصغيرة، وصرر كثيرة، وطربوش الوالد، ومنديل الوالدة، وأنا في بنطال قصير، أسود، خاطته لي أمي، مع قميص قصير الأكمام، يشكّلان معاً لباس العيد اليتيم. وكانت أخواتي يلبسن فساتين شيت، فاتحة، معرّقة، والست غندف فستاناً بقية كرسي وأذبال واسعة، وابنها الذي يتألف كله من مؤخرة، يرتدي بنطالاً أصفر، وليس ثمة ألوان فاقعة، لأن الوالد، قبل بدء الرحلة، أوصى بالحشمة، فتقيّد الجميع بما طلب، ولم يكن قوس اختيارهم واسعاً، إضافة إلى أنهم لبسوا أجود ما عندهم.

عبرت الباب الخارجي حاملاً فراشاً على كتفي. كان الممر طويلاً، يفتح بعد عدة أمتار عن فسحة فيها أشجار زنزلخت متفرقة، وقبور رخامية بيضاء، وفيها بيتان، في زاويتين متقابلتين، متباعدتين، بينهما بضع أشجار من التين وحديقة. كانت وحشة المقبرة ترسم على القبور، الرخام، الأشجار، والجدار الدائري، الذي يفصل بين الكنيسة والمقبرة، ويفصل بينها وبين حدائق مجاورة فيها بيوت واطقة، من طابق أو طابقين. كنت أمشي في الدرب غير المعبّد بين القبور، تأخذني حيرة في أمر حلي، وأين ألفي به، وأين يمكن أن «يعسكر» هذا «الفصيل» المهاجر الذي كتب عليه، في أول ليلة يامها خارج بيته، أن يلقي عصا الترحال في مقبرة تُنبت، مهما كانت قديمة، أشباحاً غير مرئية، أشباحاً تقول لك إننا جيران، نحن الراقدين في المسيح، كما تقول أمي، وأنتم الذين سترقدون على اسم

المسيح، بفعل هجرة فرضها عليكم تأمر بين غرباء.

انتهى نقل الامتعة إلى داخل المقبرة. بذلنا جميعاً جهوداً طيبة، وجلست النساء يتسامرن، يتساءلن عن الأحوال، والظروف، والهجرة. وتعدّد الشاب الذي كلّه مؤخرة على رخام قبر، كأنه يستلقي على فراش وثير، وأخرج الجميع ما تبقى من زوّاداتهم لطعام العشاء، فوق ما أخرجت امرأة عمي من حواضر البيت، ونادتني أُمّي للعشاء فرفضت. كنت بغير شهية. امتزجت، الآن، كآبتي الشخصية بكتابة المقبرة، وخيل إلي أن القبور قيعنة، في كل لحظة، أن تنشق ويخرج الموت، باكفانهم، أشباحاً بيضاً، في أيديهم جهاجم، وفي أفواههم زمامير، ومن عيونهم الوقبية بطل ظلام كهوف حجرية مات سكّانها من مئات القرون.

كان والدي ينتظر أخاه الذي لم يره منذ أربعة عشر عاماً، وكانت امرأة عمي، القوّة بما يكفي لمجابهة كتيبة، تغتصب الترحاب بنا اغتصاباً. لقد توقّعت، منذ بدأت الهجرة من اللواء، أن تأتيها مهاجرين، لكنها لم تتوقع أبداً أن تأتيها ومعنا هذا الجمع المتناثر أزياء وسمات. كانت تفرح مع والدي على طريقتهما.

— وبعد، يا مصري، لقد عدت..

— والعود أحمد كما يقولون. لكننا عدنا مرغمين.. الهجرة يا امرأة أخي.

— وماذا فيها يا مصري؟ أنت مهاجر أبداً.. كم بلداً عرفت منذ غادرتنا؟

قالت أُمّي:

— لا تسأليني يا سلفتي.. سالم لا تلتصق مؤخرته بأرض.. خلق لك يرحل..

— ولكن ما ذنبكم أنتم؟

— أسأله..

— هذا ما أراد الله

قالت أُمّي:

— سبحانه وتعالى . أنت لا تعرف سوى أن تلقي المسؤولية عليه .

نرفز والدي .

— ولكن على من نلقيها إذن؟ قولي أنت . . أليس كل شيء بإرادته؟

— الله لا يريد الشقاء لعباده .

— المسيح قال : لا تسقط شعرة من أجسادكم إلا بإذني .

— دع المسيح جانباً .

— لماذا؟ لأنني أقول الحقيقة؟

قالت الست غندف :

— أنت دائماً تقول الحقيقة، ودائماً تنساها .

عندئذ واثت الفرصة ليتحرّش الوالد بها . كان يناكدها، يكرهها، أو يخيل لوالدي ذلك . وكانت تنهأ عن كرهها . ماذا فعلت المسكينة؟ فيجيها
الوالد : «سكين برقبتها هذه البقرة التي ينام طفل في صدرها» . تجيب
والدي : «عيب يا سالم . . كلنا مخلوقات الله . . من غير غيره بشكله فكأنه
يعير الله في خلقه . . أليس هو، تمجد اسمه، من خلقها على هذا
الشكل؟» .

لكن الست غندف، بين دهشة أمي ولعنتها، كانت ما تفتأ تنحشر
بوالدي كيفما تحرك . . يشتمها، يضربها، يطردها، وهي مقبلة عليه،
لاصقة به، كأنما تستعذب كرهه، أو تراه على وجه يغيب عن الوالدة، ولأمر
ما، لعلها مؤخرتها المترججة، كنت أمقتها، إضافة إلى أنها صاحكة أبداً،
دون سبب، تمازح الآخرين بغير مبالاة، وتنصاي أمام الوالد .

مرة واحدة أبصرتها من النافذة تجلس على الخوان في بيتنا، وتكشف عن
فخذها قائلة لامي : «أليس حراماً ألا يمسه رجل منذ وفاة المرحوم؟» وقالت
أمي مازحة بدورها : «انقيري . . صرت عجوزاً وعينك رفيعة، ألا تشبعين
من الرجال؟» فقالت وضحكتها تملأ وجهها الطفح : «الموز، يا אחتي،
فاكهة لا يشبع منها»، وغمزت بعينها غمزة معبرة أثارت اشمئزازي .

لذلك قال والذي الآن، في رمز لم يفهمه أحد سواء:

- انتبهى، قد يزورك اللبلة عقريت:

قالت الست غندف:

- العقريت لا شغل له في المقابر:

- بالعكس، العقريت هو الذي يسكن المقابر:

قالت امرأة عمي:

- عدم المؤاخدة: أنزلناكم بين القبور لأن بيتنا:

قاطعتها والدتي:

- وأين تذهيب بهذا العدد؟ لا عليك: المقبرة بيتنا الأخير:

قال الوالد:

- الأول أو الأخير، لا فرق: المهم أن نعيش:

قالت غندف:

- وأن لسكر:

- السكر له وقته: بعد التعب، بعد السمر: إذا وُجد السمك:

- وإذا لم يوجد أيضاً:

صاح بها الوالد:

- كيف إذا لم يوجد؟ نهريين بي؟

- معاذ الله: أنت نشرب على فحلة:

قالت لوالدة:

- على حبة ملح:

استعاد الوالد بالله: كانت قولة الوالدة هي التي أثارت أكثر غندف لها

حساب: هي فاجرة لكنها تخافه: أما الوالدة فإنها تهتبل أية فرصة للغمر

منه: ماذا تريد؟ بعد هذا العمر كله؟ تريد أن تحلقه من جديد؟ إنه يسكر،

يسكر على سن الرمح، وماذا في السكر؟ لولا الدمعة يقول، ماتت همتا، لا

يزيل أهم سوى الشراب: متى نفهم زوجته هذه الحكمة؟ المسيح نفسه

قال: «قليل من الخمر يفرح قلب الإنسان» ألا تؤمنين إذن بالمسيح؟ ونقول

الوالدة : تمجّد اسمه . هو قال إن قليلاً من الخمر لا يخالف الدين . أما السكر ؟ أنت تسكر حتى تعقد الوعي ، حتى تطرح أرضاً . وسمعتها مرة تقول له : « أنت تسكر حتى تبول في سروالك » وعندئذ صفعها . رثت الصمعة على خذّها ريثماً موجعاً . أحسنت بها صمعةً على خذّي ، على كبدي ، ووقفت في وجهه صارخاً : « لماذا تضربها ؟ » قال ميلاً إلى التهذؤة : « أما سمعت ما قالت ؟ » ورعقت الوالدة وهي تبكي . « قلت الصحيح . أنت تشرب حتى تبول في سروالك » مئة مرة فعلت هذا فنهض الوالد ومضى وهو ينتمن : « أعود بالله من شرّ حواء » ثم ملتفتاً إليها : « سأسكر سابور في سروالي هذا أنا عجبك وإلا لا »

لم يعجب الوالدة ، لكنها كانت مضطرة إلى السكوت . سكنت دعت عليه في سرّها . والنوى حنكي من الحق ، لكنني لم أستطع شيئاً . أصرب والدي ؟ أكثر الأحلام إبلاماً هي الأحلام التي أرى فيها نفسي وأنا أتصارب معه . إنه يعدّ بالإفلاق عن السكر ، لكنه لا يفي بالوعد . إدمانه بطله ، والعمر يمضي ، كما تقول الوالدة ، ولا فائدة من إثارة الفضائح .

هذه المرة ، أمام امرأة عمي ، رغب الوالدان عن الشجار . استعاد الوالد بالله وسكت ، ولأدت الوالدة بالصمت ، وأدركت امرأة عمي ما عليها أن تفعل ، دخلت المطبخ ، خرجت بزجاجة عرق ، وجاءت بالكؤوس فائلة .
— يا الله يا مصري . حد لك كأساً ولا تؤاخذني . . كان عليّ ، منذ أحضرت الطعام ، أن أفكر . . اللعنة على النسيان .

قال الوالد في دلال كذوب

— اللعنة على العرق . لن أشرب .
— أكر الشر . بعد هذه الرحلة وهذا التعب . أنا أيضاً سأشرب كأساً صغيرة معك

قالت عذف وهي تمّد يدها إلى الزجاجاة :

— معك حق يا أختي . الكأس تخلو ولو كنا في مقبرة . سأصّب كأساً

مثلك . العرق يفتح الشهية .

قال الوالد وقد تراخى :

— تشرين سماً . . تاكلين مثل بقرة ، وتريدن فتح شهيتك أيضاً ؟

ضحكت الست غندف وقالت :

— شهيتي للطعام مثل شهيتك للعرق . . نحن من طينة واحدة . .

في هذه اللحظة أطلّ عمي من المدخل . . كان يصيح وهو يتقدّم نحونا :

— أهلاً، أهلاً . زمان يا أحبائي . . زمان والله . .

نهضنا جميعاً، والذي الذي لم ير شقيقه منذ أربعة عشر عاماً، أمي التي تكن مودة خاصة للعمّ، الذين حضروا معنا ونزلوا ضيوفاً في المقبرة إلى أن يطلع الضوء، وزوج وأولاده، وأقبل العمّ يعانق الوالد وهو يبكي :

— يا كافر . . الا تقول إن لك أخاً؟ . . أربعة عشر عاماً ولا تزورني . . لولا الهجرة . .

عانقه، غمره بين ذراعيه، قبله كثيراً، قبل الوالدة ولما جاء دوري صاح :

— أهذا هو ابنكم؟

وقالت الوالدة :

— إنه وحيدنا . . شمعة من الله . . كل شبر بنذر يا سلفي .

— ما شاء الله، ما شاء الله . صار شاباً . . ولكن لماذا هو انحيل إلى هذه الدرجة؟

أخذني عمي في حضنه، كان مشتاقاً حقاً وأخذني في حضنه . كان يعبدي عنه قليلاً، ويتفرّس فيّ، ثم يدينني منه، يشدني إلى صدره، وهو يهتف من العجب .

— ماذا صنعتم للولد . ؟ وجهه مثل بروة الصابون . . الخاتم يدخل في خصره . . كيف ذلك وهو في سن الشباب . . غير معقول . . أكاد لا أصدق عيني .

قالت أمي :

— هذا حظنا . بعد ثلاث بنات جاء . بعده ولدت خمسة أولاد ولم يسلم منهم أحد . . . وحيد يا سلفي . . هذه قسمة الوحيد . .

قال عمي :

— ولكنه بالغ النحف . . كأنه يأكل مال الدبر . . يجب أن يتغذى . لا بد أن نعرضه على طبيب . .

— أنا داخلة عليك . . كلما رأيته غاص قلبي في صدري . أخاف عليه خوفاً عليه يكاد يقتلني . . أخوك لا يبالي . لا يفكر إلا في نفسه

قال والدي :

— فكّرت كثيراً فماذا نفعلني التفكير؟ . . خلقته هكذا . . مسد ولد وهو ينوس . . لولا ستر الله لكان لحق بأخوته الذين توفوا . .

قالت امرأة عمي :

— الشر بعيد عنه . . لا تقل هكذا . . خذه إلى طبيب . . أعطه مقويات . .

كانت أمي قد طففت تيكبي ، كلام العم نكا جرحها . . فعلت لأجلي كل ما تستطيع ، كنت مريضاً بفرط الحساسية . أذبل مثل ورقة زهر . . كان مرضي لا ينفع فيه دواء ، جرّبت الوالدة كل صنوف التغذية . . كنا فقراء . . كان فقرنا أسود . . كانت مدينتنا فقيرة ، وحيّنا فقيراً ، وكنا أفقر من في الحيّ ، وكانت الوالدة تعمل خادماً ، وكنت أرى كلّ ذلك وأنحسر . . تحرق الحسرة قلبي فتزداد حساسيتي وأدوب كشمعة أمام نار ، ولم تكن الوالدة تستطيع شيئاً حيال الفقر ، ولا حيال مرضي الناشئ عن عواطف بهظها فقرنا ، وقد ارتاحت الوالدة للهجرة ، عسى أن نجد في اللاذنية خيراً . . وأن تبذل حالنا ، وتحسّن صحيّ ، لكنني أسألم أكن أشاركها ارتياحها . . كان هذا اليوم ، وهو الأول على هجرتنا ، قد أرمضني إلى درجة البكاء الآخرس .

قام والدي بمهمة التعريف بين الذين معنا وبين شقيقه ، كانت الست

عَدَفَ مَا تَزَالُ وَالْقَلَّةُ صَالِحُهَا عَمِّي وَهُوَ يَنْسَمُ صَافِحَ الْأَحْرِيرِ عَطْلُ
إِبَاهِ الَّذِي كُلُّهُ مُؤَخَّرَةٌ مُسْتَلْقِيًا عَلَى الْقَبْرِ، وَلَآنَ عَمِّي عَلَى دَرَجَةٍ مِنَ الْإِبْجَانِ
وَالطَّبْعِ، فَقَدْ نَهَاهُ عَنْ مَعْنَتِهِ

— لَا يَجُورُ يَا أَمِّي — الْقَبْرُ مُقَدَّسٌ حَرَامٌ أَنْ يَدُوسَهُ أَوْ سَامَ عَلَيْهِ

قَالَتِ السَّتُّ عَدَفَ

— لَكُنَا سَامٌ فِيهِ أَحْيَرًا —

— مَعَ ذَلِكَ لَا يَجُورُ — حِينَ يَمُوتُ الْإِنْسَانُ يَرْفَعُ جَسَدُهُ فِي الْقَبْرِ أَمَّا
رُوحُهُ

فَصَاحَ وَالَّذِي بِالْعَمَى

— أَقْعَدُ يَا سَبِيلَ — أَمَا شَعْتُ نَوْمًا طَوِيلَ الطَّرِيزِ؟

بِهِضَ الْعَمَى الَّذِي كُلُّهُ مُؤَخَّرَةٌ وَهُوَ بِمَرْكَ عَجِيهِ سَأَلَ عَنْ طَعَامِ الْعِشَاءِ،
كَأَنَّهُ أَكُولًا إِلَى دَرَجَةٍ أَلَّنَ وَالِدَتُهُ لَا تَعْدُ فِي الْبَيْتِ مِنْ أَحْسَرٍ مَا يَكْمِيهِ، وَفَدَّ
عَمَلٌ عِنْدَ حَبَاطَةٍ، ثُمَّ نَحَارَ، ثُمَّ عَمِلَ مُعَاوَسًا فِي أَوْتَرِييسَ بِسَاقِرِ بِيْسَ
اسْتَكْتَرُونَهُ وَفَرَى أَرْسُورَ كَالِ يَأْكُلُ بِكُلِّ مَا يَكْمِيهِ، وَيَشْكُلُ، بِالسَّيَّةِ
لِلْسَّتِّ عَدَفَ، عَنَّا ثَقِيلًا، كَدَّ قَمْبًا أَلَّنَ بِصَبْهَا هَمَّهُ، لَوْلَا أَنَّهُ خُلِقَتْ عَيْرُ
مَالِيَةٍ، وَهِيَ تَأْكُلُ مَا لَا يَبْقَى عَنْهَا، وَلَدَيْهَا حَارِحَتَانِ حَائِثَتَانِ أَدَا قَمْعَهَا
وَلِسَانَهَا

مَدَّتِ السَّمْرَةَ بَيْنَ الْبَيْتِ وَالْقَبْرِ، فِي مَسْجِدٍ أَمَامَ الْمَطْعِ، وَكَانَتْ، أَلَّا،
بَرْسَمَ الْكَارِ فَقَطَّ لَقَدْ أَكَلَ الصَّعَارُ وَدَامُوا، وَعَمِيَ الَّذِي يَعْمَلُ صَاحِبًا فِي
الْكَارِ، يَعُودُ مُتَأَخِّرًا مِنَ الشَّعْلِ، وَغَالًا لَا يَأْكُلُ فِي بَيْتِهِ، وَهُوَ يَقُولُ إِنْ
رَاحَتِ الطَّحْ نَقَطَعَ شَهْبَتَهُ، وَمَعَ ذَلِكَ، فِي لَيْلَةٍ كَهَذِهِ، لَيْلَةٍ صَبِيغَةٍ صَافِيَةٍ،
رَافِعَةٍ، هَوَافُهَا رَهْوٌ مُعْشَرٌ، وَمَعْنَاةُ عَوْدَةِ الْأَحْ عَائِبٍ، فَقَدْ رَغِبَ الْعَمُّ
فِي الْأَكْلِ وَالشُّرْبِ، نَعْمِيرًا عَنْ فَرْحَتِهِ الْعَائِقَةِ

تَحَلَّقُوا حَوْلَ طَبَقِ النَّقْشِ، السَّتُّ عَدَفَ رَمَتْ بِمَحْبِلَتِهَا عَلَى الْحَصِيرِ،
وَتَرَبَّعَتْ أَمَامَ الْمَائِدَةِ، دُونَ أَنْ تَنْتَظِرَ أَيَّمَا دَعْوَةٍ هِيَ حَائِثَةٌ، وَعَظْمَتِي،

وفرحة سوصولها بالسلامة، ونجد من حفظها، بعد هذا كله، أن تاكل وتشرب، ولديها القدرة على المناقشة، ونجد من نفسها استجابة لمناقشة الوالد في السكر، أما أنها فقد قهرص إلى جانبها، غير مكتسرة بنظرات الوالد الذي رأى في سلوكه وقاحة ليس هذا أو أن رجره عليها.

كانت نمة، على المائدة، رجاجة عرق كبيرة. والدي تستعبد بالله من رؤية أمثاله، ولقد نظرت نظر عمي إلى أن قدحاً واحداً للترويع عن النفس بكفي، لكن الوالد انتهرها.

- دعي الرجاجة - نحن لن نكرعها كلها.

وقال العم

- لشرب الليلة بأكثر ما نستطيع. أه من العراف. أربعة عشر عاماً. أربعة عشر عاماً يا كافر ولا خبر منك. بماذا كنت مشغولاً عني طول هذه المدة؟

قال والدي بعد حرعة طيبة

- لا تسأل يا حي. لو حكيت لك كل ما مرّ معي لشاب رأسك.

فالت أُمي

- ومن المسؤول عن كل ما لقينا من عذاب؟

- الرمز يا حرمة. الرمز دولاب، لا عمك ولا خالك.

- الرمز دولاب صحيح. لكن ما أصابنا كان من يدها.

قال عمي

- ما صار قد صار. لا تأسفوا على شيء. فات الحمد لله على

السلامة بصحتكم.

شربوا بصحة العم، وامرأة العم، والخاصرين، وكان الوالد، وهو يكثر من الشرب، يمتنع أحياناً، ولم يقنه، وهو يفعل ذلك، أن يشرب بصحة والدي. قال عنها كلمات طيبة أيضاً. وكان عمي يعرفها، يعزها، يفكر كرمها وطيبتها وتصحتها، فتاوها الكأس وهو يقول:

- بنت أصل .. يرحم البطل الذي حملها ..
- قال الوالد :
- هي طيبة لولا ..
- ضحك العم :
- لولا أنها تنهاك عن السكر ..
- السكر؟ معاذ الله .. عن الشرب كله .. إذا ذهبت إلى الكنيسة أتهمتي أنني كنت في الخمار ..

تكررت الست غندف بالضحك، فاندلقت كأس الوالد إثر ارتطامها بصحن حرّكه على طبق الفش، وكان هو ينتظر هذه المصيبة لتكمل ليلته، لذلك نهض وهو يقسم أنه لا يجلس إلى مائدة عليها امرأة، وغاب عمي في ضحك معافي، قائلاً لوالدي :

- هذا أنت .. كأنني لم أفارقك يوماً واحداً ..
- وفي ناحية أخرى، بين القبور الرخامية، البيضاء، المستلقية كأكفان مستطيلة، يتمدد داخلها أموات فارقوا الحياة لتوهم، كان يتكلم «العفش» الذي جثا به من مدينتنا البعيدة ..

وفي ختام السهرة التي انتهت حوالي منتصف الليل، فردت النساء الحصر، وفتحن الفرشات عليها، واستلقى الجميع حيث وجدوا مكاناً، يسندون فيه رؤوسهم، سوى غندف، التي حملت وسادة وبساطاً وأعلنت أنها ستنام بعيداً، لأنها لا تستطيع الرقاد إذا سمعت شخيراً، وسوى الوالد الذي خرج مغاضباً ليقوم بجولة على البحر، قبل أن يأوي إلى فراشه ..

أذكر تلك الليلة جيداً، كان القمر، في تلك الساعة المتأخرة، قد توسّط، تقريباً، السماء الصيفية، البلورية، وصبّ من قرصه الفضي نوراً باهراً على الكائنات لم يكن فرحاً ولا حزيناً، كان يتكلّم مع الجميع بلغة، ويكلّمني بلغة أحسنه منيراً، جميلاً، بدرأ، على نحو أخاذ .. كان، ليلة أمس، على مثل سطوعه هذا، ونحن في اسكندرون، مدينتنا التي فارقناها .. خيل إليّ أن القمر هاجر معنا بدوره، وأنه يجنّي إلى حدّ أنه لحقني في تلك

الدرب الجبلية، المشجرة، المتعرجة، الطويلة، في الرحلة التي أمضيناها،
والتي استغرقت نهراً بطوله. كنت أحسب أن القمر لن يأتي. كنت حزناً
لأنني فارقته، ولأنه لن يأتي، لكن القمر أتى، صار هنا كما كان هناك، شمع
نورا فضياً كغلالة بيضاء لعروس من الجن. غمر كل شيء، أضاء كل
شيء، وبدا سطح كنيسة مار سابا القرميدي الأحمر قديماً، هراماً، يذكر
بكنيسة القديس جاورجيوس في مقبرة بلدتنا، ويقع صامتاً، ساكناً، فوق
بناء من الطراز العثماني، ضخماً بجدرانه، بارداً بأحجاره، معزولاً عن
الأبنية بتوحيده، متميزاً بقبته التي تتدلى منها ولا شك ثرياً ضخمة كما هي
الحال في جميع الكنائس.

في حال كهذه كنت نهياً لأحاسيس مذبذبة. كان، في مدينتنا اسكندرونة،
شاب يدعي فريد يني. كان ابناً لصاحب مطبعة، هي الوحيدة في المدينة،
وكان فريد متعلماً، وحسبياً يقولون في حيننا، كان متبحراً. لا يري إلا شعره
منفوش، ونحت إبطه كتاب، وهو سادر النظرات، بمشي وحيداً، على غير
هدى، وقد تضاربت الأقوال حوله، فمنهم من قال إنه مجنون، ومنهم من قال
إنه مسلول، لكنه، فجأة، خطب في سيلها روكسي، وهاجم الفرنسيين،
فاعتقل وسجن في حلب حيث مات.

أنا أيضاً، لأنني حزين، مولع بالقراءة، بحيل، حساس، كانت والدتي
تخشى عليّ مصيراً كمصيره، خاصة بعد أن اشتركت، ذات يوم، في مظاهرة
ضد الفرنسيين. ومن عجب أن خشية أمي انتقلت إليّ، فتصوّرت أنني
سأجرّ أو أصاب بالسل، ولأدفع العدوى، نسخت كلمات من الإنجيل،
جعلتها في ما يشبه الحجاب، وعلقتها في رقبي. كان إحساسي المرهف
يتصاعد ليغدو مرضاً، ولكم عانيت، ولكم كتب عليّ أن أعاني، من رهافة
إحساسي هذا، حتى بت على ما يشبه اليقين، أنني سائر إلى إحدى حالتين:
الموت أو الجنون.

في تلك الليلة الأولى للهجرة، وبفعل قهر داخليّ ذي سطوة لا تدفع،
رقت أحاسيسي، شقت، انقلبت إلى داء عصابي، تمنيت معه، وأنا في

المقبرة، أن أرقد فيها كجميع الرافدين، فلا أنهض أبداً، ولا أواجه عالماً عربياً علي، ومدينة مجهولة مني. لقد كنت إناءً بلورياً تنعكس عليه الألوان التي تحيط به. ولسوء الحظ، كان لون الموت هو اللون الطاغوي في ما حولي، وقد جفاني النوم، وتباطأ تنفسي، وأصابني، تلك الليلة، أرق شديد.

لقد هدمت كنيسة مار سابا الآن، وشيّدت مكانها الكلية الأرثوذكسية، ورفعت القبور، وسوّيت الأرض، وغدت باحةً للكلية. وقد رأيت، بعد سنوات، هذا التحول بأمّ عيني، ووجدت المصلّين، بعد قدّاس يوم الأحد، ويأمر من المطران، يشرعون معاولهم، إشارة البدء في المشروع الجديد، مشروع الكلية. ذلك أنّ المقبرة كانت مهجورة قديمة، لم يعد يدفن فيها أحد. وكانت القبور قد درست، ولم يبقَ منها سوى الكبيرة، الرخامية، لأصحابها الأغنياء، الذين رحلوا بدورهم، ولم يعد أحد يذكر من كانوا أو كيف كانوا.

تقلّبت على فراشي طويلاً، كنت بحاجة إلى النوم، وكان النوم، كعادته بعد كل إرهاق عصبيّ، بجفوي، لذلك كان رقادي خفيفاً، طافياً، تكفي النسمة، إذا اشتدّت وحركت الأغصان حولي، كي توقظني، لكن النسمة حين توقف إنساناً، تبعث فيه شعوراً بالراحة، أين أنا منه وقد استيقظت على حركات مربية، وهمس خائف، صادر عن والدي والست غندف.

للوهلة الأولى لم أتبين ما كان يجري على مقربة مني وراء قبر رخاميّ مرتفع. خيل إليّ أن ما سمعته عن الحياة في المقابر صحيح، وأن سكان القبور قد خرجوا، في ضوء القمر، يستطلعون أحوال الناس، ويتسامرون كما تقول الحكايات. لكنني ما أن رفعت رأسي، وأطللت من فوق القبر، حتى رأيت والدي يتهاشم والست غندف، وهما في وضع مريب. ولقد أثارني المشهد، الذي كان الأول من نوعه في حياتي، أثارني إلى درجة الارتجاف، فكهرت غندف هذه، وكهرت والدي، وتمنيت أن يغيب القمر، وتسود الظلمة، حتى لا أرى أيّاً منها.

والدي أنقذتني من هذا الموقف. أفاقت وصرخت. كان صراخها

مكتوماً، فيه غضب وسخط، ودمع، وكان على كتامته، كافياً للتنبيه، وعلا
بكاؤها في تلك الليلة المنذورة للهجرة والحزن، علا، واستمر، وتطاول، ولم
يعرف به أحد، لأن الوالدة، ومنذ زمن بعيد، اعتادت أن تأخذ الألم
لحسابها الخاص، وتسكت.

أفتت باكراً. كان الآخرون يغطّون في النوم، مبشرين بين القبور والأشجار، مستسلمين لأحلام وردية أو كابوسية. كان الفضاء، من حولي، مضاء بنور أبيض، يميل، مع حمرة الشفق، إلى أرجوانية تتبّع على الأبنية، وشيء ما، كالبهجة، يشعّ في كل شيء، وبرودة منعشة، تشعرك بها النسائم، وقبة عالية، بعيدة، ماسية، موشحة، بسحب متفرقة، ذات أشكال غريبة، تنشأ، وتشكّل، ثم تتداخل، وتحمي، لتنشأ، من جديد، وتشكّل وتمضي مع الريح.

هذا يومي الأول في اللاذقية، كانت المراثيات، في ضوء النهار، تبدو جديدة لعينيّ، وكانت الكنيسة، والمقبرة، والحديقة، والبيوت، تأخذ شكلها الحقيقي، وتبعث في نفسي راحة، فيها من النوم أثر، ومن الشعور بالواقع أثر. لقد أيقنت، الآن، أن اسكندروسة صارت بعيدة، وأني في اللاذقية، ولا فائدة من الحسرة، ولا من الأسف، وأنّ عليّ، منذ اللحظة، أن أعيش واقعاً جديداً ومدينة جديدة، وأتخذ أصدقاء جددًا، كما عليّ، فوق ذلك، أن أتعرف إلى هذه التي ستكون مدينتي وأرتضيها، وأعتادها، وأحبّها أيضاً.

لم أكن، ذلك الصباح، أدري أنّ اللاذقية ستكون أحبّ المدن إلى قلبي، وأثرها في نفسي، وأنّي سأعيشها، وأقرأها، وأتنفّسها، وأعشقها، وأكتب

عنها، وأنها ستكون المدينة التي أفارقها، كلما فارقتها، على كره، وأن اسمي سيقترن باسمها، وكلماتي ستستمدّ نسغها من ضوئها، وفيئها، وشمسها وغيمها، وأن مقبرة الفاروس فيها، ستضم رفات أعزّ الناس عندي، وأني أنا أيضاً، ذات يوم، سأدفن فيها، كما أرغب، وكما أوصي، لو احترمت رغبتي ونفّذت وصيتي.

لقد زال عني كابوس الليل بزوال الظلمة، وبانتهاء رعدة الكره، حينها رأيت أبي يتهاشم مع غندف. انتهى ذلك الشعور الأليم الذي انتابني. ومع كل الإشفاق الذي أخذني على أمي، والتوجّع لدموعها، بدت الكائنات، هذا الصباح، مقبولة مني، محايدة بالنسبة إليّ.

كان والدي ينام بعيداً عنا، نوماً عميقاً، فيه شخير، من فعل السكر، وغندف التي انفردت عنا، أول الليل، عادت ونامت إلى جانب ابنها الذي كلّه مؤخرة، وأمي المسكينة المفجوعة أبدأ بزوجها، والتي تجددت فجيعتها ليلة أمس، تغفو مع الصباح، وأنا الوحيد الذي أفاق مبكراً، كأنما رنّ في أذني منبه، وقد عادت إلى ذاكرتي، بلجاجة، الصورة البشعة للهمس المثير، الذي سمعته وحاكمته، محاكمة ظالمة لا إنسانية، متأثراً بجوّ التعاليم الدينية، والكنيسة، وطهارة الأم، وكل تلك البيئة الفاضلة التي وفرتها، داخل البيت، لي ولأخواتي.

كنت راغباً عن الآخرين، حريصاً على ألا يراني أحد منهم. كان ذلك استمراراً للشعور بالأمان إذا ما اختليت بنفسي. فقد كانت الوحدة ملاذاً لي، ولكم طوّفت، في البيت، والشارع، والمدرسة منفرداً، منذ كنت طفلاً، وفي حالة كهذه فقط كنت أحسّ بالطمأنينة، والراحة، والعدوية، وينفصح المجال لعالمي الداخلي، أن يستعرض، يتأمل، ويبيّن نفسه على مهل.

غسلت وجهي من صنوبر الماء أمام المطبخ، بللت شعري جيّداً زاد انتعاشي، تنامت قدرتي على مواجهة العالم الخارجي ارتديت بنطالي

ونيفسي، وانسلت من المفيرة، متجهاً إلى المدينة، مجتاراً ذلك الشارع الذي يمتد إلى «نقطة البوليس» في حي النصارى، ويستطيل حتى ساحة الشيخ ضاهر، والذي سأعرف، بعد ذلك، أن اسمه شارع فيصل. كان هذا الشارع يتقاطع، في حي النصارى، وعند «نقطة البوليس» تماماً، مع شارع آخر، يمتد من القلعة إلى البحر، عرفت، كذلك، أن اسمه شارع فرنسا، عندما سكنا حي القلعة.

سرت متمهلاً، متملياً، دون غاية، دون هدف، ودون رغبة بالكلام مع أيما إنسان. وقفت عند نقطة البوليس، بعد مروري بدار البلدية القديمة، فانفسحت الرؤية أمامي عبر الشارع الهابط إلى البحر. هكذا شاءت المصادفة، ذلك الصباح، أن تصع لي مفاجأة. صحيح أن البحر لم يكن يبين، من حيث أقف، وأن أشجار المشية تحججه، لكن رجلاً كان يقف هناك، أفادني أن الشارع يقود إلى البحر، وأن عليّ، إذا أردت بلوغه، أن امضي باستقامة حتى أصل المشية، التي يقع الكازينو في طرفها.

في اتحداري، عبر شارع فرنسا، صارت «نقطة البوليس» - وهي عبارة عن مصطبة خشبية يقف عليها شرطتي السير - وراثي، ولعتني، إلى اليسار، سينما أمبير، وعلى واجهتها إعلان لفيلم «دموع الحب»، وبعد قليل، رأيت مبنى مصرف سورية ولبنان، وعلى يميني، كان مكتب المحامي اليكسي مرفص، وبعد ذلك بيت سعادة، الأبيض، بطابقين، وحديقة، وباب حديدي أوحى إلى برهة غير مبررة، ثم بساتين، إلى أن بلغت دار التدوينة، وواجهتي، في الصدر تماماً، المشية، وعلى طرفها جامع البطرنة، وفيها المقهى الذي يحمل ذات الاسم.

عندما أطلت على البحر أحسست بنداوة في قلبي. كان ذلك الأزرق الصامت، المرتعش تحت أشعة الشمس المنكسرة، يمتد بعيداً، راحلاً بالنظر إلى مدى لا محدود، كأنما هدم، لأجلي وحدي، كل السدود والحواجز التي حالت، في المدينة، بيني وبين إرسال النظر إلى بعيد، إلى نحو الأفق الذي تكاثفت عنده سحب بيض، لها شكل خريطة مبعجة الجوانب. كان، ثمة،

جدار حجرّي، يصطفق عليه ماء البحر، عند نهاية المنشية، وكادت المياه الزرقاء، قد خلقت لنفسها جوناً هناك، وفي الجون رقيب في الدرك يستحمّ عارياً، مستغلاً خلوّ الحديقة والشاطئ، من الناس وعند اتصال الجون بالبحر، رست فلائك صيد صغيرة، وإلى اليسار صخرة كبيرة، مرتفعة، محدبة، يمكن الوصول إليها عبر جسر صخريّ ضيق، وراءه فسحة صخرية عليها آثار أوراق وحضرة وأشياء مما يخلفه المترهون عادة.

وقفت فوق الجدار الحجرّي المتساوي مع سطح الحديقة، والذي يسبح رقيب الدرك عند قدمه. كنت، في السحر الصباحي، وعند طلوع الشمس على البحر، وأمام الزرقة المنبسطة كأنما على سهل، مفتوحاً كأنني لا أعرف البحر، أو كأنني فأرفته منذ دهور. أنا أعرف أن اللاذقية ميناء، وأنها على المتوسط، وأني سأعيش البحر فيها كما كنت أعيشه في اسكندرون، لكن سرعة وصولي إليه، وإطلالتي الصباحية على رحابته، ورجيل عيني على سطحه، ومعابيتي تكسر موجاته الكسل على شاطئه. كلّ ذلك أحدثني بعيداً، لفني بثوب أبيض من البراءة والطهر واللذة، فطاب لي الوقوف حيث أنا، مما أخرج رقيب الدرك وجعله يخرج من الماء ويرتدي ثيابه الملفقة على صخر قريب بسرعة.

بعد ذلك ارتفعت الشمس. سقط غمر من أشعتها الذهبية على الماء، وراح يتراقص، معطياً للزرقة لون الزمرد، وانطلقت، شيئاً فشيئاً، حركة الحياة، وعلى شرفة الكارينو وقف رجل في ثياب النوم، مرتدياً معطفاً صيفياً، ونقاطر الربائن على مقهى البطرنة، وأطلّت الحديقة، من ورائي. خالية، وفي السماء الشاهقة، الماسية اللون، حي الضوء وذاب وانحد لوتاً طحيباً.

فكرت في البحر. إنه بحرنا أيضاً. تساءلت: «هذه المياه، تذهب، نحبي، تنتقل، تسافر أم تبقى مكانها؟» فكرت في الموجة. «هل هي ذاتها التي ترتطم على الصخر، وتعود إلى البحر، وتشكل الماء نفسه، أم أنه ماء آخر، لموجة أخرى، ترتطم فترتد، ونعود إلى اللجة التي جاءت منها؟»

فكرت في نفسي: هل أنا ذاتي الذي كنت، قبل أن أكون، وكتب عليّ، كما كتب على الآخرين، أن أموت ثم أحيأ ثم أموت وأحيأ في سلسلة من الحيات والميتات التي لا تنتهي؟

كنت قادراً، في وقتي تلك، أن أرى وأفكر معاً الرؤية تبعث على التفكير، والتفكير ينشط الرؤية، والخيالات، وأحلام اليقظة، والهموم التي تنبت من تحت الأظافر، وهذا الفضاء الشبيه بإناء كبير، ونحن في جوفه، أسماك صغيرة نضطرب، فمتى ينكسر جامه ونتحرّر جميعاً؟ تساءلت: لو خرجنا جميعاً من هذا الإناء الفضائي، ألا نصبح في إناء فضائي آخر؟ ومنى نستطيع السمكة الصغيرة التي هي أنا، أن تحطم جميع الأنية الفضائية ونتحرّر منها؟ أليكون الموت، إذن، هو هذا التحرّر، وهو المغدى لما نى يتكرر إلى ما لا نهاية؟

الصباح الأسيان، والفضاء الماسي، والبحر الأزرق، وخضرة الحديقة، مضافاً إليها حزني الباع من سريرة طفلية، وتوقي الملحاح لمعرفة ما سيكون عليه الغد، وماذا ينتظري في المدينة، وأين تسكن وماذا لتشتغل، كل ذلك حفر في ذهني أحاديث من التفكير المضني. ومن عجب أنه كان تفكيراً أسراً، وهبته نفسي بكل إرادتي، ومضيت مع ربحه المندفعة بسرعة قصوى حتى غبت عما حولي، ولم أفطن لنفسي إلا والشمس تحرقني، والحديقة قد امتلأت بالناس، وبالفتيان الذين وقفوا مثلي، يرنون إلى بعيد، وتتعلق أصدارهم باللجة التي لا يعرفون عنها إلا القليل.

كان عليّ أن أعود ولو كارهأ. ذلك أن أمتي التي لا بد أنها استيقظت واقتدني، ستكون نبأ لقلق مفترس بسببي. إنها لا تعلم من أمر سريري إلا ما تراه على وجهي الناحل من سهوم لا تبلغ ملاحظاتها أن تدقه عني. وهي التي استيقظت وسمعت الهمس المريب، لا تعلم أنني استيقظت مثلها وسمعت ما سمعت، وكان الفارق بيننا أنها بكّت، وأنا حبست دموعي في محجرين اتقد فيهما أتون صير الدمع بخاراً. لقد نفست بالدمع عن كربنها، أما أنا فقد كبّت ما بي، وتعاملت على نفسي وقمت بهذه الجولة، واغتسلت،

ولو في الأمانة، في بحر اعتدت أن أغتسل فيه وأغسل متاعبي وآلامي .

على باب المنشية كان يقف سوداني يبيع الفستق - ليس من ميناء، في هذه الدنيا، إلا ولها سودانيون يبيعون الفستق . إنهم أصعياء البحر ومن أحبته، وهذا الفستق الذي يبيعونه ليس إلا تعلقة للمكوث على الشاطئ . ومن الحق أنهم مهرة في تحضير فستقهم إلى درجة أنني لا أمر بهم إلا ابتعت شيئاً من بضاعتهم، ومن حس الحظ أن بضعة قروش كانت في جيبى، فاشتريت فستقاً بقرش، ورحت أندوقه في طريق العودة، سالكاً الطريق التي جئت منها، دون أن أحيد عن الاستقامة التي أفضت بي إلى «نقطة البوليس» ومنها انعطفت إلى يمين، حتى بلغت كنيسة مار سابا .

كانت أمي على باب الدار تنتظرنى، كانت ملهوفة قلقه، وقد صمّنتي إلى صدرها وقالت :

- أين ذهبت يا حبيبي ؟

- - قمت بجولة حتى البحر . . .

- هل نمت جيداً ؟

- نمت جيداً جداً .

- ولماذا نهضت باكراً ؟

- نهضت بعت نوماً .

تفرّست في وجهي وقالت :

- ما أظن . . أنت لم تنم جيداً .

أكدت لها :

- نمت جيداً، وفي الصباح الباكر استيقظت وقمت بجولة في المدينة،

وتنزهت على البحر .

- أعجبتك المدينة ؟

- ليست سيئة .

- كنت تفضل إسكندرية، أليس كذلك ؟

- وأنت؟
- أنا مثلك . اعتدت حياتنا هناك . ولكن ماذا نفعل؟ . الهجرة كتبت علينا .
- وهل سنستقر الآن؟
- إن شاء الله . أعمامك هنا، والأقرباء هنا، ولن نغادر اللاذقية .
- وإذا رحل الوالد؟
- تأملتني بإشفاق !
- أنت خائف؟
- قليلاً .
- لا ليس قليلاً . أنت خائف، وأنت متضايق . لم تنم جيداً، ربما لم تنم أبداً . أعرفك، ولكن، يا ولدي ماذا نستفيد من الزعل؟ الهجرة تمت، نحن الآن في اللاذقية، غداً نبحث عن بيت، لن تبقى في المقبرة .
- وهذه البقرة؟
- ابتسمت أُمِّي رغماً عنها . ابتسمت بعفوية، لكنها لم تفلح تماماً في أن تخفي عني ما كان من والدي وغندف ليلة أمس . تراها أدركت أنني استيقظت وسمعتها؟ تقدّر الألم الذي تسبب به؟ وهي، عندما أفاق والدي في الصباح، كيف نظرت في وجهه؟ وغندف هذه، البقرة المبقعة، أما خجلت من البقاء؟ تراها هربت قبل أن يفيقوا؟
- قالت أُمِّي بطيئتها:
- لا تنفس عليها . إنها أرملة . وهي مسكينة، بعد كل شيء .
- لا تذكرني اسمها أُمَامِي .
- لن أذكره . انسها ما شئت . بعد قليل ستغادرتنا . ستبحث عن بيت، ولن نراها .
- لا أريد أن تزورنا .
- لن تزورنا . سأطلب منها ألا تزورنا . (وبعد صمت) ولكن مَنْ لها،

في هذه الغربة ، غيرنا؟ لا تكن حقوداً . المسيح منحنا المغفرة ، وطلب منا أن نغفر لمن أساء إلينا . كن مسيحياً ، مسيحياً حقيقياً يا بني .
والآن تعال . أدخل . يجب أن تفطر . عمك ذهب إلى عمله في الكازينو ، وامرأة عمك سألت عنك . قلقنا جميعاً لغيابك .

دخلنا البيت ، كانوا قد جمعوا الفرشات والحصر . كؤوسها فوق أحد القبور . أغراض كل من جاء معنا على انفراد . غندف تلوك شيئاً ما . تآكل . لا يهتمها سوى أن تآكل ، قالت أمي إنها ستذهب للبحث عن بيت ، طلبت مني أن أغفر لها ، أن أكون مسيحياً وأغفر لها . أخفقت . أخفق الروح الذي في داخلي . نظرت إلى غندف بحقد وكره . والذي أدرك من هيئتي أنني لست على ما يرام . أطرق ولم يرفع رأسه إليّ ، أعرف هذا الأب ، يرتكب الإثم ويندم ، كأنه يجد لذة أخرى في الندم . أنا لا أستطيع أن أحقد عليه ، أو أن أحقدي لا يطول ، تعذبت من أجله ، وبفعله ، مثلما تعذبت أمي . سأتعذب أيضاً ، إنه لا يستطيع إلّا تعذيبنا ، لكنه يبدو وكأنه لا يريد ذلك . مغلوب على أمره . الندم يصرخ في وجهه طلباً للصفح ، أمي تصفح . ماذا تفعل ؟ إنها مسيحية حقيقية ، لكنني أنا ، وما سمعته أمس ، وماضيه الطويل في السكر ، والترحال ، والماخورية ، كل ذلك إنهم رهيب ، وأنا لا أقوى على مغفرة كل هذه الأثام ؟ الله يغفرها ، من أجل ذلك كان هو ، وكانت رحمته التي تسع الكون . أما الإنسان ، وأحاسيسي المرفهة ، فإنها لن تكون ، ولا تطمع أن تكون ، غفورة إلى درجة لا تطيقها . ومع أن والذي دافع عن نفسه ، وقال إن الموقف لم يتعدّ الكلام الهامس ، فإن أمي لم تصدقه ، ولم تصدق أنها كانا يتسامران فقط .

أفطرت قليلاً . شربت فنجاناً من الشاي مع قطعة من الخبز . أمي ألحت ، رجت ، توسلت أن أكل أكثر ، لم تكن لي شهية . حاولت ، كرمي لها ، أن أتابع الأكل ، لكن اللقمة كانت جافة في حلقِي . جفّ رضابي لارضاب يبلل المضغة . كانت امرأة عمي تراقبني ، اندفعت في بعض النصائح ، ووجهت لوالدي بعض الشتائم مداعبة ، لكن والذي لم يردّ ،

أعرف أنه، اليوم، وربما غداً وبعده، لن يرّد، يعيش إثمه، وهو حين يفعل ذلك، يدفع من سكوته ثمن إثمه. لكنه مضطّر إلى مرافقة الوالدة، بحثاً عن بيت.

كنت قد طلبت من أمي أن تبحث عن بيت بأسرع ما تستطيع، لا لأن وفادة بيت عمي قليلة الحرارة، ضئيلة الحفاوة، بل لأنّي أريد أن يكون لنا بيت، وأن أمارس فيه، كما هي عاديّ، الوحدة التي صارت جزءاً من حياتي.

بعد الغداء خرجت إلى المدينة مرة ثانية، سرت، كما في الصباح، إلى «نقطة البوليس»، وانعطفت يمينا، مصعداً إلى حيّ القلعة، على طول «شارع فرنسا». لم أكن أدري، في تجوالي هذا، أننا سنسكن حيّ القلعة، وأن أياماً فيه سنغرق الحرب العالمية الثانية بطولها. بلغت أقصى الشارع، استدرت عائداً فيه، مزعماً أن أمضي حتى البحر، ما دام الشارع يوصل إلى هناك، لكنني رأيت فجأة، في حيّ النصاري، ابن خالي، وكان قد سبقني في الهجرة مع أهله. احتضنته، عانقته، كدت انطنط من الفرح لمراه، فهو عدا كونه قريبي، ورفيق مدرستي، فإنه ابن بلدتي، إسكندرونة، ومهاجر مثلي من اللواء.

كانت والدته تدعى ظريفة، وهي، كما تزعم، من أصل أرمني، لأنّ جدّتها لأمها، كانت أرمنية، ولما كانت السلطات الفرنسية قد نقلت أرمن إسكندرونة في بواخرها، إلى حيث يشاؤون من مرافق سورية ولبنان، فإن امرأة خالي ذهبت إلى مختار الأرمن وطلبت الهجرة معهم: قالت إنها أرمنية، وأن أمها تدعى «زارتوي»، وأنها مقطوعة، وتطلب السفر مع زوجها وأولادها في إحدى البواخر. ألحّت؛ أصرت، ويبدو أن المختار، الذي كان يمنح أوراق السفر لكل أرمني في اللواء، قد أشفق عليها، أو أنها استثارت حميته الأرمنية، فمنحها شهادة، وأوراق سفر، وعادت، مساء أحد الأيام إلى حيّ «الصارة» تقول لسكانه:

- أنا مسافرة على باخرة .
 - أنت تمزحين ولا شك . البواخر للأرمن فقط .
 - وأنا أرمنية . أرمنية أباً عن جد .
 - يا داهية ! قالت أمي ، في وقت الشدة عرفت إلى من تلجئين . أمنت
 سفراً مريحاً ، مجانياً ، بينما نحن ننتظر رحمة الله . عافاك . هكذا تكون
 النساء .

تعانقت المراتان ، كان العناق ، في أيام الهجرة تلك ، سرعان ما يستثير
 الدموع ، وكان الوداع يجري كل يوم . بل يجري عدة مرات في اليوم .
 وقالت امرأة خالي للأم :

- سنسافر إلى اللاذقية . لأجلكم اخترنا اللاذقية . السّم داهيين إليها ؟
 إذن نسبقكم ، وعندما تصلون يجتمع الشمل . هناك لنا أقرباء ، نحن
 أيضاً .

في مساء يوم السفر ، جرى حزم الأغراض ، وتطوّعت أمي بإعداد
 العشاء . وعلى المائدة شرب الرجال كأس الوداع ، وغنت امرأة الخال ،
 بصوتها الحلو الحزين ، أغنية تركية تستدر الدموع :

«أمان دكتور ، جانم شقتي دكتور ، دردماء بيرشاره»^(١)

لقد انطبعت تلك الليلة ، والأغنية الحزينة ، وحرقة الوداع ، والدموع ،
 في مخيلتي . كنا ، تلك الأيام ، نحسب ألا لقاء بعد ، وأن الفراق سيكون
 أبدياً . ذلك أن اسكندرونة كانت كل ديانا ، وكنا نظن أننا سنضيع في بلاد
 الشام ، وأن هذه البلاد واسعة بشكل لا يحُد ، وأن اللاذقية بعيدة ،
 وسيكون علينا أن نتنظر أعواماً حتى يلقي بعضنا بعضاً ، لهذا فقد كان
 سروري كبيراً بلقاء ابن خالي ، وقد مرّ بخاطري كل ما جرى لنا ، وذكرته
 به ، وضحكنا .

(١) «آه أيها الطبيب - ألا دواء لعلي»

كنت متلهفاً لمعرفة متى وصلوا، وهل كانت الرحلة مريحة؟ وأين
يسكنون؟ وكيف الحال الآن؟ وقد أجابني أنهم لم يجدوا صعوبة في السفر،
وأ أنهم يسكنون حتى القلعة، وأنه يعمل في مكتب المحامي الكسي مرقص،
وفعلًا رأيت حانة مفتيح تتدلى من حزام بنطاله القصير، وفيها عدة
مفتاح، أحدها مفتاح المكتب ولا شك. هنأته على هذا التوفيق، تمنيت له
ولأسرته النجاح، طلبت منه أن يسير بي إلى أمه، بينما طلب هو مني، في
المقابل، أن أخذه إلى أمي التي هي عمته.

كانت الصدمة، حين قادني إلى البيت، شديدة. لقد كانت لنا، هناك،
في اسكندرون، بيوت خشبية، وأحياناً قصيبة محشوة بالطين، متفرقة،
متباعدة، أمامها حدائق صغيرة، وأشجار مثمرة، والشمس تشرق من نافذة
وتغرب من أخرى. كانت بيوتاً في فلاة، وكانت معها الحرية، والشمس،
والرياح، وكل ما يهب الصدر القدرة على التنفس، ويهب صاحبه الطاقة
على مواجهة بؤس الحياة بنوع من شعور بالتشرد. كنا غجرًا هناك، لكننا كنا
غجرًا سعداء. أما هنا فقد كان بيت خالي عبارة عن غرفة واحدة، في قبو
للأخوين شومان، وكانت هذه الغرفة القبوية مستطيلة، معتمة، رطبة، لا
توافد لها، ولا تدخلها الشمس حتى بمرآة عاكسة.

قالت امرأة خالي التي قبلتني وبكت بعين تحفظ على أيامنا الماضية:

- ما كان أحملها من أيام يا بني!
- أنا أقول كذلك أيضاً.
- وأمك؟
- أمي تشاركني شعوري لكنها لا تتكلم. لا تريد أن تزيد في أساي.
- وأبيك؟
- كما تعرفين.
- فرح بروية أخويه؟
- ماد أقول؟ فرح أم سكر أم ارتكب معصية؟ إنه غير مبال. تغيير

الاماكن، والمدن، أو الوجوه لا تأثير له عليه يعيش حاصره فقط. أمي لا يذكر الماضي، لا يتحسر عليه، لا يترك لأحاسيسه، إذا وجدت أن تعبر عن نفسها. لكنني أشك، بل أوقن، أن لا أحاسيس له، والدي ابن ساعته. إذا وجدت العرق، والمرأة، والرغيف، فعلى الدنيا السلام قلت:

- فرح والدي برؤية أخويه.
- وانت؟
- كنت حزينا حتى رأيتمكم، وكنت غريبا حتى اجتمعت بكم، عادت تقبلني.
- لكم أنت حساس يا ولدي!

كان ذلك وقت الاصيل، كانت بقعة من الشمس في باحة البيت. صفت ذراعاً بفضاء الغرفة العاري، المعتم، النائح نواحاً أخرس. خرجت إلى الباحة. كان فيها بعض النساء. كانت الدار القبوية تتألف من عدة عرق، وفي كل غرفة تسكن عائلة. كانت غرفتهم تستعمل لكل شيء، بما في ذلك الطبخ والغسيل والطعام والسهر والنوم. وفي باحتها رأيت عجوزاً طاعنة، باهتة، عتيقة، تميل بشرتها، بفعل السن، إلى سواد، وتبدو بشعرها كأنها امرأة كهف، وكان هناك أطفال، ودجاجات، وموقد فوقه طنجرة، وبخار يتصاعد.

قلت لامرأة خالي:

- بكم هذا البيت في الشهر؟
- بليرة ونصف.
- أما كان بالإمكان استئجار بيت بغرفتين؟
- ثلاث ليرات؟ إنها كثيرة. نحن مهاجرون. اسمنا «المهاجرون» ولا ينادوننا بغير ذلك هنا.
- هل العثور على بيت صعب؟

- قل على عرفة - إذا وجدتم غرفة فأنتم محظوظون .
- لا بأس أن تكون غرفة . لكن ليس مثل هذه .
- لن نجدوا أفضل منها .

قالتا واثقة، عن تجربة - كانت قد بحثت طويلاً . كان حي الصاز، على ما فيه من فقر وبؤس، مفقداً، الآن . كانت تحنّ إليه، نحن لا كالشبهي، أو المشتاق، بل كالمتأسف . ذلك «التعيم» الذي كنا فيه قد زال إلى غير رجعة . لقد أعطتني، أنا الذي لا أحتاج في نظري إلى مزيد من السواد، شحاراً . كان كل ما في البيت، والدار، والوجوه، يكتسي شحاراً أراه وحدي، وأنا لم له المأصامتاً كثيراً .

وكي نتأكد مما قالته، كان، علينا، أبي وأمي وأنا، أن تبحث، في اليوم التالي عن بيت . قررنا ذلك في المساء، غندف أدركت أن عليها أن ترحل فرحلت . كل من جاء معنا تدبر أمره بطريقة ما . نحن لم نكن على عجلة من أمرنا، إلى حدّ يبرر أن نقلق منذ اليوم الأول لوصولنا . جاء عمي الآخر في المساء ليرانا . كانت دموعه، منذ دخل البيت، تسيل على وجنتيه وتنسرب فتضيع في شاربهِ الأسيب، وتجاوِ وجهه المكسّ بشعر أهمل حلاقته . كان عمي هذا هو الأكبر، وكان الأحنّ، لكنه، كوالدي، لم يكن ناجحاً في أيما عمل راوله . كان معمارياً، وعنه أخذ أبي ، في ما بعد، شيئاً من هذه المهنة، لكن هذا العم ما بنى بيتاً في مدينة . كل عمله كان في القرى، وكان يبني بيوتاً للفلاحين، لكن تلك البيوت التي بناها شكت من اعوجاج ما دأبها . كان يحمل خيطاً، وشاقولاً، ولديه «مسطرين»، غير أن عدته التي قد تحدد الذين لا يعرفونه، سرعان ما تنكشف عن نقص في مهارة صاحبها . وهكذا كانت مهنته تدرّ عليه قليلاً، بل قليلاً جداً، وكان يعيش من هذا القليل هو وزوجته وولده الذي تباه، أما ابنه الكبير، الوحيد، فقد تطوّر في الجيش، وكان يجيد الفرنسية، ويرطن بها كالمصريين .

بكى عمي منذ رآنا ، ربما كانت المناسبة تقتضيه ذلك ، أو كان الدمع

يحبش في صدره أصلاً . تساقطت دموعه فبللتنا حين قبلنا . وبعد ذلك لا شيء . كان فقيراً مثلنا، وكان يسكن غرفة أشبه بالقبو هي أيضاً، في زاووب يقال له العنابة، وقد أصرّ، ذلك اليوم نفسه، أن يأخذني إلى بيته، وأن يقدم لي بعض رؤوس الصبار، وكلما تذكر بعدنا عنه، أربعة عشر عاماً، رجع إلى ذرف الدموع، وهو يقول :-

- تشردتم كثيراً يا أحبابي . أبوكم رحل بكم لا أدري إلى أين . . .
قلت له :

- والدنا لم يستقرّ بنا في مكان . . كان كثير الإفلاس كثير التنقل يا عمي .

- هذا ما أراده الله . .

- الله لا يريد التشرد لعباده . .

عندئذ قال وهو يمسخ دموعه :

- لا تعترض على حكمة الله . .

- أية حكمة هذه؟ . . الله لا علاقة له بها .

- حكمة لا ندرها نحن البشر . .

- ولماذا كتبت هذه الحكمة علينا وحدنا؟

- لتجربتنا . .

- تجربتنا طوال أربعة عشر عاماً؟

صاح بي :

- قلت لك لا تعترض . . هذه مشيئة الله .

قلت :

- استغفر الله

كان عمي قد عمل، هو وزوجته، في مدرسة إنجيلية . وبضبط من القسيس، ومدير المدرسة، صارا انجيليين، لكن المذهب البروتستاني الذي اعتنقه، لم ينفع في حالتين: منعه من الشرب، ومن نقل أخبار غير صحيحة، لا رغبة في الكذب، أو استساغة له، بل لأنه كان يصدّق أيّ خبر، ومهما كان غريباً، لمجرد سماعه .

وفي الليل جاء والدي ووالدي إلى بيت عمي، واتفقنا معه، أن يسأل لنا عن بيت، لكنه، في الصباح لمسي ما اتفقنا عليه في المساء، فكان علينا، نحن أصحاب الحاجة، أن نقلع شوكتنا بأيدينا، وأن ننتقل في ضحى اليوم التالي، باحثين عن بيت مهما يكن موقعه أو شكله.

كنا نظرق الأبواب فيسألوننا:

- ماذا تريدون؟
- بيتاً للإيجار.
- من أين أنتم؟
- من إسكندرونة.
- يعني من المهاجرين.
- أي نعم.
- مع الأسف.
- ولكننا سمعنا أن لديكم بيتاً للإيجار.
- عدلنا عن تأجيرها.

نذهب إلى بيت آخر، وآخر، وثالث، ورابع، ونجد الجواب نفسه تقريباً. كانوا لا يريدون تأجير بيوت للمهاجرين من اللواء. الكلمة وحدها كانت تفزعهم، وما كنا قادرين على الكذب، ولا مصلحة لنا فيه، ولو أجزنا لأنفسنا أن نكذب فستكشف كذبتنا، ومع ذلك كانوا يضطروننا إلى مقارفة هذه المعصية.

ثلاثة أيام من الدوران المستمر دون نتيجة. لقد رافقت والديين طوال هذه الأيام. ومشيت معهم في حرمتموز، ومثلهم وقفت على الأبواب، كشحاذين فقراء، نقرع باباً باباً، ونعيد السؤال، فيعيدون الجواب، دون أن نحصل على غرفة تؤوينا، غرفة مهما تكن مواصفاتها، شريطة أن تكون رخيصة، بقدر ما نملك من نقود، وهي شحيحة، لا تزيد عن ليرتين في الشهر، وبعد ذلك نكون قد اشتغلنا، ويكون الله قد فتحها في وجوهنا.

لامرأى، شاء الله ألا يفتحها في وجوهنا، أمي قالت هذا، وفي البيت،

حين عدنا إلى المقبرة، قالت لي على انفراد:

- غداً نذهب وحدنا .

- دون الوالد؟

- دونه .

- لماذا؟

- لأن الله، بوجوده، لن يوفّقنا إلى بيت .

احتججت . . صحيح أنني لم أكن على وفاق مع الوالد، وكنت أعرف معايه وأثامه، لكن مسألة العثور على بيت رخيص، في مدينة صغيرة، وبشروط ما نحمل من نفود قليلة، كانت مسألة فقر، ولا علاقة لله بها . كنت، أنا نفسي قد أدركت هذه الأشياء قبل الهجرة، منذ أن اختلطت بالعمال، وقرأت الكراريس مع سييرو الاعور^(١) وتردّدت على بيوت «المشبهين» الذين يبشّرون بالثورة على الفرنسيين ويدعون إلى تأليف النقابات . الحقيقة أنني لم أكن، في تلك السن، وأنا ألبس البنطلون القصير، ثورياً، لكن الثوريين، في الحى، كانوا قد التقوا بي، باعتباري الكاتب القارئ الوحيد فيه، ولأن «فراستهم» قد اكتشفت في مادة خاماً صالحة للتبشير بما يحملون من آراء .

لقد هاجر آخرون من اللواء، وجاءوا مدينة اللاذقية نفسها، واستأجروا بيوتاً سكنوها . نحن فقط، وقبلنا بيت خالي، والآخرون الذين من أمثالنا، كنا نظرق الأبواب فتغلق في وجوهنا . إننا نريد غرفة، نريد مأوى، نستر فيه أنفسنا، لكننا كنا فقراء، وإذن فالمسألة واضحة، هي الفقر . كنا فقراء في اسكندرونة، فسكننا حي المستنقع، بين الأفاعي والزواحف، وكنا فقراء هنا، بل أشدّ فقراً، لذلك كان علينا أن نجد حياً مائلاً . وحتى لو وجدناه . فإننا لا نملك ما نبني به بيتاً أو كوخاً، فكيف ونحن لم نعر، في اللاذقية، على هذا الحى، ولا نعرف إلا الأحياء الشعبية، نلوب بين دورها، لعلنا

(١) اسبيرو الاعور، أحد أبطال رواية «المستنقع»

نقع على بيت رخيص، على غرفة في بيت، على قبر، على كوخ ريشا تندبر
أمورنا.

شرحت كل هذا لأمي. أهميتها أن الفقر سبب شقائنا، فكان جوابها:
«نصيب!» اختبات، كعادتها، وراء الحظ، هذا الذي يلعنه الفقراء،
ويتعزّون بذلك. كنت اعتبر إصغاء الوالدة إلى أقوالي، تقدماً تحقّقه على
طريق فهم أفضل لمصدر شقائنا، ولم أنشئت بأن الله لا علاقة له بالموضوع.
ما دامت أمي لا تستطيع، ولا تجرؤ، أن تعفي ربيها من هذه المسؤولية، فهي
في آخر المطاف، امرأة متدبنة، كلمة الخوري عندها بألف من كلماتي، أنا
ابنها الغالي كما تقول.

هذه الأيام الثلاثة من البحث عن بيت، ملأتني حقدًا على الحياة
الشوهاء التي نحياها. تذكرت معها، اسكندرونة. هناك كان المتظاهرون
ضد فرنسا، المناضلون ضد الوضع الاجتماعي القائم، المطالبون بالحقوق.
وكنّت أعرفهم، وأحبهم، وأثق بكلماتهم، وأنطوي، معهم، على أمل في أن
كل شيء سيتغير، أما هنا، في اللاذقية، فلأنني لا أعرف أحداً منهم، ومن
حديثي البسيط مع ابن عمي، استنتجت أن كل تلك الأفكار التي عرفتُها
سابقاً، وعشتها بجاذبية سحرية، لا يوجد منها شيء هنا، ولم يسمع بها
أحد، فكان اللاذقية في قطب آخر، وكان لا عمال فيها ولا فلاحين، وكان
«الطيبين» لم يمروا بها، ولم ينثروا بذارهم السحري في أرضها.

نعدّينا، في اليوم الأول لبحثنا، عند بيت خالي. لطمت أمي خديها وهي
ترى يؤس الغرفة التي يسكنونها، وفي اليوم التالي ظلّت تلطم، لكنها، في
اليوم الثالث، تمتن غرفة مثلها فلم تتحقق أمنيته. كنا نخرج من بيت
عمي في الصباح، وننتقل في الأحياء، ونبقى، أحياناً بغير غداء، كي لا
نرجع والحياة محسولنا المر. وكنّت، حتى عندما نعود في المساء، أرفض
الطعام، وأنذرع بحجج مختلفة كي لا أقترّب من المائدة، خجلاً من بيت
عمي، أو انتفاءً لشهيتي، حتى ازدادت نحولاً، وغارت عيناها في وقيبهما من
الجوع والقهر، ولت نفسي لأنني لم أنشئت بالبقاء في اللواء، ولم أفلح باقناع

أمي وصرفها عن الهجرة. وفكرت، نعم فكرت، أن أعود أدراجي، فأتسلل عبر الحدود، راجعاً إلى بيتنا، ذاك الذي بقي وحده ليخبر عن حكايتنا من يأتون بعدنا.

كنت أخرج في المساء، وأطوف في المدينة على غير هدى. فإذا عدت نظرت إلى القبور، وحسدت من فيها، لأنهم ماتوا واستراحوا. «الموت، كنت أقول في نفسي، صعب، ولكنه، كما تعلمت من قراءتي، النهاية المحتومة، وما دامت النهاية محتومة، طال زمانها أم قصر، فلماذا لا نحل الآن؟ لماذا لا تأتي اليوم، قبل الغد فاستريح؟ من المؤكد أنه كان باكراً، باكراً جداً، على فتى مثلي أن يفكر على هذا النحو، لكن فرط حساسيتي كان يدفعني نحو اليأس، طالما أنني، في ظروف الغربية، وانقطاع الصلة بالمناضلين، ما كنت قادراً على الاندفاع نحو الأمل، وتحويل اندفاعي إلى عمل مجد. إن ذلك سيصير يوماً، لكن هذا اليوم، في بدء رحلة الغربية والشقاء، كان في مطاوي الغيب، ولعل المحنة هي التي قربته. لكن محنة عائلتنا، التي وعيتها منذ وعيت الوجود، كادت تقضي عليّ، جسدياً وعقلياً، لكن رومانتيكية الفتوة هي التي حمّني، فأنا كما أعرف أن اليأس، أعرف، صباح كل يوم، أن استنبت الأمل من اليأس نفسه، وبهذا اتعلل، وأعيش.

طفنا خلال أيام ثلاثة الأحياء الفقيرة كلّها، أما الأحياء الغنية فلم نقرّبها. ماذا لدينا فيها؟ عمّ سسّال هناك؟ آية وجوه معرّة من الرافة، ستطالعنا ونحن نعرض، لا فقرنا وحده، بل هجرتنا أيضاً؟ «الفقير، كما تقول أمي، يحنّ على الفقير، أما الغني فيشمت» كنّا في بلوانا، بغنى عن السماتة، تضاف إلى قائمة المكدرات، لذلك تحبّتنا أن نطرق باباً لبيت يبدو عليه اليسر، وتحاملنا على أنفسنا كي لا نسقط إعياء أمام العتبات، أو نجلس على أيما درج، لبناية كبيرة، واليد على الخذ، كالعامل العاطل في صبيحة عيد. طوّفنا، طوّفنا، وأحياناً سلّنا شربة ماء، وإذا صادف ومررنا بأناص نعرفهم، سبقونا في الهجرة، أو كانت لنا بهم معرفة في

الماضي، نقبل دعوتهم لتناول القهوة، وللحديث عن المصيبة التي نحن فيها. كان هؤلاء الناس يتألمون لحالنا، أو يفتحون لنا قلوبهم ويتحدثون بدورهم عن آلامهم، وكنت ألاحظ أن المدينة الصغيرة، الجميلة، فقيرة من الداخل، بائسة، تترنح من شكاة لا تقل عن شكاتنا.

هذه الأحاديث، التي دارت، والتي تكررّت في كل حيّ، سمحت لنا أن نعرف عن حياة المدينة ما كنّا نحتاج في معرفته إلى شهور أو أعوام. ومن تلك المعارف أن بضع أسر إقطاعية هي التي تحكم المدينة مع غيرها من أسر تمالها إقطاعاً وثروة عقارية. الصناعة لم تكن موجودة، وباستثناء معمل التبغ، وكان معروفاً بالريجي، لم تكن في اللاذقية أيّا صناعة. وتحدث الذين تكلمنا معهم، عن امرأة جميلة، بالغة الجمال، هي زوجة (...)، تأمر وتنهاي في المدينة، على الناس، لا على زوجها وحده، أو أسرتها وحدها. قالوا إنها قوّة الشخصية، فائقة الجاذبية، بالغة التأثير، وأنها وحدها، لو قصدناها، يمكن أن تسعى لي بعمل ما، ما دمت أقرأ وأكتب. لكننا لم نقصدها، بموقف حازم مني، وبرفض باتّ لكلّ رجاء من الوالدة. كنت على يقين أن الطلب سيذهب هباء، إذا لم تكن لهذه السيدة مصلحة في السعي لي عن عمل. وما هي هذه المصلحة؟ أن تخدم أمّي عندها؟ لا، إن ذلك لن يصير، وأمّي التي خدمت في إسكندرون، لن تكون خادماً في اللاذقية أيضاً.

الطريف في الأمر أن هذه السيّد التي تحكم عائلتها، ولها نفوذ في المندوبية، ولها سطوتها في كل مكان، لم تكن المرأة الوحيدة المشهورة في المدينة. كانت، ثمة، ثلاث نساء هنّ شهرة أيضاً، كل في دائرتها، أو في حيّها، الأولى وتدعى «أم يانكو» ومركزها حيّ القلعة، ولقد رأيتهما فأنكرت ما هي عليه من تبرّج أخرج. كانت تطلي وجهها الأبلق، المدوّر، بمساحيق فائقة، وتكثر من البودرة حتى لتخال أن الوجه، بما فيه من نتوءات، ومن جيّن يتصل بالشعر، ومن ذقن مفلطحة، قد مرحت بكلس أبيض. حتى العنق نفسه، وكان عنقاً غليظاً، لامرأة كانت على ملاحاة ذات يوم، دهن

بياض كلسي، على نحو ما يكون المهرج في السيرك. وعلى الوجنتين، في دائرة واسعة، تبقع الأحمر الرخيص الصارخ في أحمراره، وفوق الشفتين طلاء قرمزي، كثيف، يعطي لشفتهما السفلى حجماً يزيد في ضخامتها. وكان شعرها أصفر، أو يميل إلى الصفرة، طبيعة أو صباغاً، وتحت عينان جاحظتان، واسعتان، يتحرك فيهما بؤبؤان حركات قلقة، وتحتها أنف كبير الفتحتين، يفترس، بقناته الغضروفية، المعالم الأخرى، ويجور عليها

وكان ابنها يانكو أبرش، ورث عن أمه بياض البشرة، وله فم مفتوح أبداً، وشفتان تنفرجان عن لثة انحسرت عن جذور أسنان تبدو كبيرة، منفرة، وله عينان مدوّرتان، فوقهما جبين عريض، يعلوه شعر رمادي، خالطه الشيب ولم يشتعل فيه، وقامة لا بأس بها، سوى أن الكتفين مهيضتان، فكأنما ثقل غير منظور يبهظهما، ومن المؤكد أن في هذا الابهاظ أثراً من أمه، التي يقال إنها قضت حياة حافلة، وهي الآن قوادة متقاعدة، أو هكذا يشاع، تجلس من الصباح إلى المساء أمام بيتها، متحرّشة بالمارّة، ولا سيما النساء اللواتي كنّ يتجنّبها.

أم يانكو هذه ابتسمت لنا منذ رأتنا ندخل حيّ القلعة، من زقاق بيت البيطار، وأدركت من سؤالنا أننا غرباء. الواقع أن المرأة احتفت بنا، سألتنا عن حالنا، دعتنا إلى بيتها الشبيه بالوكرك، لكننا لم ندخل. من المؤكد أن شكلها، تبرّجها، نظرتها الفضولية، كلّ ذلك دعانا إلى الحذر، وإلى اجتناب الدخول. ولما عدنا، مساء، إلى بيت عمي، وقصصنا ما جرى معنا في يومنا، ضحكت امرأة عمي وهي تسمع أننا صادفنا «أم يانكوه» أمام بيتها، كالمتعاد، لا سيما في الصيف، وقالت:

- هذه امرأة مشهورة.

سألتها أمي:

- بماذا؟

ضحكت وأجابت:

- بالتقوى!

- وتستخدم بينها في ما لا يرضي الله؟

- نعم - الذي لا يرضي الله ولا العبد.

- وكيف يسكنون عليها في الحي؟

- وماذا يفعلون بها؟ جربوا أن يضايقوها فصمدت، وتعاركت معها جاراتها

فغلبتهن بفجورها وسفاهتها، إنها، عند اللزوم، تهاجم حياً بمفردها،

ويكفي لسانها البديء لبوسخ سمعة آية امرأة شريفة. أم يانكو مشهورة

في القلعة، ولا يمكن أن يذكر الحي إلا مفروناً بها.

- أليس لها عائلة؟

- لها يانكو وحده. وقد كبر المسكين، ولا أحد يحرو أن يروجه ابنته.

وبسبب أمه، وزنختها، وتغييره بها، أصبح شبه معنوه، مع أنه، في

الشباب، كان سوياً مستقيماً، وطيباً أيضاً.

لطمت أمي على خدّها وقالت، إذ تذكرت شيئاً كانت قد سبته فقي

حي القلعة، حين كنا نظوف بحشاً عن بيت، قالت لنا أكثر من امرأة:

«اقصدوا أم يانكو» ولم نفهم ما وراء هذا الكلام من غمز بالمرأة، وهزء بنا.

وقد أسفت الوالدة لأن الزم جار علينا إلى درجة أنهم يدلّوننا على بيت

مشبه كهذا، غير أنها، سرعان ما أشفقت على أم يانكو، فاستطردت: «ألا

يجوز أن تكون المسكينة ضحية؟ ألا يفترى الناس عليها لأنها فقيرة؟ من

جهتنا لم نر منها إلا كل مودة، لقد كانت، بالنسبة للواتي قابلناهن، امرأة

لطيفة، كريمة، دعتنا إلى بيتها، كما دعت المجدلية يسوع ذات مرة»

رفضت امرأة عمي منطق الوالدة. قالت

- أم يانكو قوادة.

وأصرّت الأم:

- «من كان منكم بلا خطيئة فليترجمها بحجر».

ثم استدركت:

- حاشاك يا سلفي.. أنت ست الحراير..

المرأة الثانية منطقتها غريبة، وتدعي «ن»، والمرء لا يحتاج، مع هذا الاسم، إلى دليل. مجرد أن تلفظه، إذا كنت راغباً في الاهتداء إليها، يفقدونك إلى الحي، ودرجاً إلى بيتها بالذات كانت «ن» غير معنية بمرضاة الخالق. كان المخلوق كل همها، فهي توجه عنايتها إليه، وتتقدم بخدماتها إليه، من توفير امرأة، إذا كان الطالب راغباً في الزواج، إلى ترشيح خطيبة، وجمع رأسين على وسادة واحدة، إذا كان شاباً يريد عروساً، إلى الغناء على الموق وتديهم لقاء ما تيسر، أقله كلمة طيبة، أو غير مبعثها الشهامة، أو التطوع إذا كان الميت من الحي، أو جاءت دعوة من أهل الفقيد.

كانت شجاعة. إذا وقفت في فم الزاروب، تعذر على أحد اختراقه وكان نصف شجاعته في لسانها، ونصفها الآخر في قوتها البدنية، فإذا أمسكت رجلاً من صدره، شالت به عن الأرض، أو ضربت به الجدار. وقد تلجأ إلى طرحه أرضاً، والويل له إذا ساجزها عن بُعد، فقاموس شنائها ضخم إلى حد لا يصدق، وإذا لم تجد من تجرب به مفرداتها، حولتها نحو أولاد الزاروب، والآم التي تناصر ولدها، وتتصدى لها، نصيها الضرب، والسباب، ونف الشعر، ثم الركل بالقدمين إلى أن تستجير، فإذا لم يكف هذا كله، طالتها بلسانها حتى تعود إليها نادمة مستغفرة.

إنني أذكر هذه المرأة، بوجهها المستدير، الواسع، الطفح شيئاً ما، وعينيها اللوزيتين، السوداوين، وجشها التي هي أقرب ما تكون إلى جثة لبوة، وزنديها العامرين، الملحمين، وصدرها الذي يلعب عليه خيال، ومؤخرتها المقنطرة وراءها، فهي تموج، في مشيتها، على الجانبين، وتفتح، في حال التعب، كافعى، وتقرأ الفنجان، وتزعم أن قراءتها لا تخيب.

لم تكن مبودة كأم يانكو، ولا مهانة من أحد، وجميع الأبواب تفتح لها، وهي عذبة الحديث، ذربة اللسان، حاضرة النكتة، ونكتها، غالباً، بذينة، تحكي عن مسائل الجنس الحكايا، وتعرف أسرار المدينة كلها، لكنها لا تبدل نفسها، ولا تنم، أو تشي، وفي وسع قاصدها أن يطمئن إلى

مساعدتها، إذا اقتنعت به أو وجدت سبيلاً لهذه المساعدة.

مآثرها الكبرى كانت في الغناء على الأموات. إنها ندابة قلّ نظيرها، والميت الذي تزينه هي، كالعريس الذي تجلوه غيرها. إنها، بعد كل شيء، تعرف أن تشارك، وجدانياً، في الحزن، وربما تأثرت لفقد شاب، فنسيت أنها ندابة ماجورة، وتلبّست دور الأم، هي التي لم تعرف الأمومة، فأخذت تنوح، وتدب، وتغني غناء حزيناً، رقيقاً، موجعاً، يستدرّ الدمع. كان في صوتها شجو حمامة، وفي إنشادها تطريب مفجع، فأنت لا تستطيع، حين تسمعها، أن تحبس دمعتك، وحين تصرخ أوف، تكاد تنتزع الأفئدة، وكثيراً ما نسيبت في إغناء أم الميت أو اخته أو روجه. أما الرجال، وحتى أكثرهم رصانة وغماسكاً، فإنهم يبتعدون عن مرمى صوتها، كي لا يدرفوا الدموع كالنساء. ومهما حاول سماعها أن يقاوم، فهو يستسلم إذا ما غنت موالاً، أو غنت «يا غزالي» أو رجت أهل الفقيده أن يسمحوا لفقيدهم بالمبيت عندهم «هذه الليلة» هذه الليلة فقط.

المرأة الثالثة هي «هـ» ومنطقة نفوذها وسط المدينة. كان أخوها، الخادم في الكنيسة، يتفادى الاحتكاك بها، ويمارس إحساساً بأنها ظهيرة له في الملأ، لذلك فهو ينطلق في خدمة الكنيسة من موقع قوة، وينطلق في لذائذه بشعور الإنسان الذي له من يحمي ظهره، ومن يشهر لسانه دفاعاً عنه فيحرس جميع الألسنة.

وقد اشتهرت، عدا جبروتها، أو بسببه، بأنها «تنزل الحبال عن ظهر حصانه» وأن لها في ذلك أساليب ليس أقلها قوة الساعد، وهي، من هذه الناحية، شبيهة بـ«ن» سوى أن هذه أكثر ملاحظة منها، فالست «هـ» عاطل عن العمل، وتشبه الرجل بشاربها، ومثله، إذا كان «فتوة» تسير في الحي، فتمشي سطوتها بين يديها، ليراها الجميع ويؤدوا لها التحية والاحترام.

كانت بدينه، لها شكل برميلي، ينتهي برأس صغير، نسبياً، ورجلين نحيتين، ربلتاهما مدوّرتان، معضلتان، كأنما مارست رياضة رفع الأثقال بها، فإذا حطت فإنها تغط الأرض بكل ثقلها، وبحطوات وثيدة كخطى

الفيل، وتمضي وهي تهملج في مشيتها، مستأنية، متأملة، كأنها تقوم بجولة تفقدية لرعيّتها.

ولقد عجبت وأنا اسمع كل هذه القصص، عن شجاعة هؤلاء النساء. كبرن في نظري. غنّيت، بيني وبين نفسي، أن تكون أُمي على مثل هذه الشجاعة، وأن تتخلّى عن ضعفها، لا تجاه والدي وحده، بل تجاه الناس، والمدينة، والديار، وأن تكف عن ذرف الدموع التي لم تحصل من ورائها على شيء، ولم يفتح لأجلها باب، ولم تُفَرِّ بيت نستقرّ فيه.

من جهة أخرى، زادت غربيّ وراد نفوري. أسفت، بغير تحفّظ، على تركي الاسكندرونة، تلك المدينة التي للشجاعة فيها معنى آخر، ووجهة أخرى. هناك كان الناس يتظاهرون ضد فرنسا، ويعملون السلاح في مقاومتها وهم عمّال نقابيون، لهم أفكارهم، وقناعاتهم، وقد جذبهم النضال السياسي، بينما يجذب الناس، في هذه المدينة، الخلاف على النفوذ وعلى قوة هذه المرأة أو تلك، ولهم، في العمل الوطني، نضال ضد فرنسا، لم يبلغ ما بلغه في إسكندرونة من عنف واستمرار.

اغتممت لأنّ أحداً لن يفهمني هنا، وأن أحداً لم يسمع بالأفكار التي كنت أؤمن بها، ولأن المفهوم النقابي لا وجود له، والنضال في سبيله عدم، وليس من أثر للوعي العمالي، وليس ثمة، بين عمّال الريجي، وهي الشركة الوحيدة الموجودة، من احتفل بأول أيار.

فكرت بكلّ ذلك تفكيراً ملحاً، موصولاً، وشعرت باستحالة أن يصير ذلك يوماً، وأن تعرف هذه المدينة كيف تهتمّ بما هو خارج المنافسة على الزعامة، أو بما له قرابة بفكرة العدالة الاجتماعية، وأن أعثر فيها على «الطيبين» الذين عرفتهم في مدينتي.

وقعت في اليأس. كان ياسي بحجم عمري، وحجم تجربتي، كان ياساً طفولياً، لم يلبث أن تبدّد، ولم تلبث الحياة أن حفلت، هنا أيضاً، بالطيّين، وانتشر الوعي النقابي، وبرز النضال ضد فرنسا، وضد الاقطاع، ولأجل

العدالة الاجتماعية، وفي غمرة مقاومة عنيفة ضد فرنسا وزلمها، تألفت
بعض النقابات، وكانت مفارقة كبيرة، أن السيدة «هـ» حصلت على بطاقة
عضويتها النقابية، بعد ذلك بأعوام، باعتبارها من العاملات في شركة
الريحي!

حصلنا أخيراً على بيت في حيّ القلعة . استأجرنا غرفة في دار قديمة خربة، يستأجرها عجوز اسمه شعبان، له زوجة أصغر منه سناً، تدعى زهرة، مهترئة العينين، تتلمّس الطريق بيديها، لأنها ترى نصف رؤية . لقد تزوج شعبان ستره لأخوته، فهو، كزوج، توقّف عن فاعليته منذ زمن بعيد، وهي، رغم قابليتها النسبيّة بعد، فإنها على حال من القذارة، وورثاة الثياب، وتذراف العيون، وانحناء الظهر، واصفرار الأسنان، بحيث أن أحداً لا يجارف بالنظر إلى وجهها، ناهيك بأن يرى هذا الوجه قربه على الوسادة .

كانت الدار في زقاق يتفرّع من شارع فرنسا، عند دكان المختار، ونتجّه نحو حي العويّنة، مقابل مقهى يربك . ولم تكن دارنا بعيدة عن الدار التي استقرّ في إحدى غرفها بيت خالي سوى خمسين متراً، وهي مثلها قبوّه، رطبة، معتمة، تشبه الغرف الأخرى التي لا نوافذ لها، ولا تفيد، من الباحة التي تطلّ عليها، سوى في إنارة عتباتها . أما من الداخل، فإن الساكن يحتاج إلى ضوء في النهار، وإلى مدّ رأسه من الباب لاستنشاق الهواء . ولم يكن في الدار ماء، وفي تأمين حاجتنا منه، للاستخدام أو الشرب، علينا أن نغضي إلى شارع فرنسا، وأن نعطف إلى يسار، فنسير قليلاً حتى نبلغ زقاق كنيسة مار تقلا، الذي يقع صنبور الماء العمومي على مدخله .

عرفنا كانت إحدى ثلاث غرف في الطابق الأول، ومن سوء الحظ أنها كانت أشد الغرف سوءاً، فهي محبوبة بطرف متقدم من جدار الدكان التي يحتلها شعبان وزهرة، ولا يراها الداخل لأنها اختبأت في ركن شمالي شرقي، ولها باب بحدائه نافذة عليها مشبك حديدي، وكلاهما لا يقلحان في إثارة ربيع العرفة، وتنفى الأرباع الثلاثة معتمة

وصما تحتين حشيش، في راويتين متقابلتين، ووضعما الصدوق الوحيد الذي غللكه تحت الدفلة، وفي الصدر خواساً، مع بضعة كراسٍ خشبية مفشنة، وهذه هي كل الموبليات التي أنشأها بيننا الأول بعد الهجرة

بكت أمي يوم سكنا هذه الغرفة، لم تفلح زهرة في إقناعها أن البيت ملائم، وأنه للمبيت فقط، ويمكننا، في النهار، أن نغضي أوقاتا في الباحة لم يكن شمة مطبخ، كان هناك جدار منهدم، في قاعه مرحاض لا يمكن أن تكشفه دون صوء، وإلى جانبه، في عرفة جد صغيرة، تسكن فلاحه عحور. تدعى أم صفر، تعمل خادماً في البيوت، ويقوم صفر، وهو ابنها الوحيد، سفل الماء إلى الجيران وأهل الحي، وتسكن العرفتين المحاورتين عائلتان قرويتان، الأولى مؤلفة من أب وأم وطفل، وكنا ندعوها أبا جميل وأم جميل، والأخرى تصم روجين من الضواحي، هيذا المدينة حديثاً

الطابق الثاني يُرفى إليه بدرج مسور بحاجز خشبي، والدار كلها بناء قديم الطراز، والباحة تصفبة مكشوفة، تطل عليها غرف الطابق الأعلى، ومنها تتلفى النفايات المتساقطة، والتراب الذي ينحله السقف مع ذلك كنا نشعر بشيء من حسد، خبراتنا الدين قوق، فهم قادرون على تنسم الهواء، والاستمتاع بالشمس، بيننا نحن محرومون من النعمتين، إضافة إلى نعمة باب الدار، الذي يفتح على الزقاق، ويجعلنا في باحة الدار، حيث نضطر إلى الطبخ والإقامة في النهار، عرصة لأنظار المارة

قالت أمي، وهي تشعل شمعة وتحرق بخوراً في العرفة

— اللهم اجعله مسكناً مباركاً

وقال والدي -

- نحن لن نترج قبه، حين نشغل، سنتقل منه.

ولم تعلق أخواني بشيء. كان واضحاً أن هذا البيت سيكون بيتنا إلى أمد بعيد، وأن علينا أن نعتاده ونعتاد رطوبته وعتمته، والأزبد في حجرة الأم، وكتابها، فالليرة السورية التي ندفعها أجرة، نقتطعها من لقمتنا، ومن المتعذر، في اللاذقية، أن نعود الأخوات إلى الخدمة في بيوت الناس. كان هذا، في مدينتنا هذه، مستفحاً، فالخادم تدعى «صانعة»، وسمعتها مدعاة للريبة، ولم نكن العائلات، حتى أشدها فقراً، تقبل بأن تخدم فتياتنا في بيوت الآخرين، ولم يكن لنا من حيلة للعيش، سوى أن تشتغل الأم، والأخوات أيضاً، في الريجي.

بعد استقراءنا بيومين، جاءنا كيس طحين من عمّتنا التي تسكن المدينة نفسها. كانت حاتها ميسورة، وكان ابنها البكر يعمل في مكتب «دولاكي» وهو فرسي متقاعد، يشتغل مدتيّاً في اللاذقية، وقد سبر، لأول مرة في تاريخ المدينة، «أوتوكار» بينها وبين حلب، إضافة إلى أن المكتب وكيل لشركة الطيران الفرنسية.

وصعنا مسألة عملي موضع البحث منذ دخلنا البيت الجديد. تناقشنا، أمي وأنا، عما يمكن أن اشتغل. كنت لا أجيد أيما مهنة، والشهادة الابتدائية التي أحملها لا تؤهلني لشيء، وبنيتي ناحلة لا تصلح لأي عمل جسدي. كنت أرغب أن أعمل مثل ابن عمي. كان هذا يعمل في التبغ المدخون مع شقيقته، وكان عمله في فرع «شركة الامبريال» ودوره أن ينقل التبغ المدخن، وأن ينقيه من الأعشاب والعيدان، والغايات. لهذا كان العاملون معه يرتدون ثياباً عتيقة، ممزقة، تستبدل آخر النهار، ولا يمكن العودة بها إلى البيت، لأنها تغدو سوداء، مزينة، بسبب ما يفرز الدخان من قار. كذلك كانت أجسام العاملین سوداء، ملوثة بالقار، باستثناء الفم والعينين، وكان العاملون يصطحبون صابوناً يغسلون به وجوههم وسواعدهم قبل الانصراف. وفي البيت يغتسلون بالماء الساخن، وهذا وحده فقط كان

كفيلاً بإعادة أحاسنهم إلى لوها الطبيعي. أما الأجرة فهي أربعة فروش للمرأة، وستة للرجل، وللأحداث نعمة خاصة

ثم يتحقق حلمي بالعمل مع ابن عمي في المدحون، كان السبب المباشر أن العمل محدود، وطال به كثيرون، وهو عمل موسمي، يدوم أشهر الصيف فقط، ونحن وصلنا اللادقية في أواخر تموز، حين كان موسم المدحون في هباته. لقد كانت هذه هي الصدمة الأولى التي أتتني، وقد تأملت من جزائرها، وعدت إلى البيت حزيباً، فحاولت أنمي ملاحظتي، وقالت إن الله سيفتحها في وجهي، ولا بد أن يوفّر لي الرزق كما وفّر له لعيري

لكن امرأة عمي، دون مراعاة لمشاعري، تقدّمت بهذا الاقتراح

— لماذا لا يبيع الخرائد، كسواه من الأولاد؟

صرخت الأم على صدرها

— خرائد يا سلفتي؟

— وماذا يعني؟ كل الأولاد يبيعون الخرائد والسكاكر أو الأشياء المماثلة.

— لكن ولدنا ابن مدارس يحمل السرنغيك.

— مرحبا سرنغيك، أبي يحمل مثلها.

— اسك يعمل في المدحون.

— كنه عمل المهم الحصول على الرزق.

رفضت والدتي الفكرة. حسمت أمرها ورفضتها. أنا لويت رفي من دن أولاً لم أكن ولداً كنت في الخامسة عشرة من عمري، وثالباً يبيع الصحف يحتاج إلى صوت جهوري، ومن سوء الحظ أن هناك عاهة في صوتي، فكانت كنت وجيهاً، وكان حديراً ساهلي أن يحشوا لي عن عمل لائق، وأن يعلموني مهنة، وراحاً يبيع الصحف وقف على الأيتام والمتشردين في الأزقة، وهذا ما سبب لي، عند عرصة، صدمة فوية، كان من جزائرها أبي سقطت مريضاً، وتشتيت في دموع عذيرة، صداقة، لأمي

لم أبع الصحف، اشتغلت في متجر «ديلاكي»، كنت بمثابة اذن، أقصي حوائج المكتب، وبيت المعلم، وأردت على المؤلف، وكادت الأمور تستقيم، لولا أنه، في شهر من أيلول ١٩٣٩، أعلنت الحرب العالمية الثانية، ودخلتها فرنسا، فدعي السيد ديلاكي، وهو كائن متقاعد، إلى الخدمة العسكرية، وبذلك أغلق المحل وعدت بطلاً من جديد

في هذه الأثناء كان والدي قد دثر عملاً، كان عملاً غير مألوف منه، ولم يعكر يوماً أنه سيمارسه، لكن الحاجة اضطرنه إليه فقبله، ملتحقاً بعني الذي كان يعمل في القندق الكبير بصلفله. كان عمل الوالد «مارموتا»، بفصل الصحون، طوال فترات النهار، وفي الليل، والصباح الباكر، يساعد عني في الطبخ، بفقر الصل والطاقات، ويشارك في تكتيس الأرض وجمع الخوئد والكرامي، وإعادتها بعد المسح والتظيف، لكن هذا العمل سرعان ما انتهى بانتهاء الصيف، فعاد الوالد بطلاً أيضاً، وعدنا نعيش على الكفاف، مغلبين على شيء لا يعرف ماذا سيكون حالنا فيه.

كنت، بعد تركي العمل في متجر ديلاكي، وبعد اندلاع الحرب العالمية الثانية، أتمرق شعورياً، وأتخط في عيني كائنات أعواماً. لقد أدركت ما هي صعوبة أن يكون رتب البيت عاطلاً عن العمل ومورد الرزق مفطوعاً، وأن بقرع كيس الضحك الذي بعث به عمّنا، وأن تعود، في صعوبة وصعاب، إلى حال من اليأس المدمر.

أحب أتي، في هذه الأيام الشقية، عرفت اللاذنية معرفة ستكون معبدة لي في المستقبل. كنت أطلق صباحاً من البيت، دون إبطار، دون كلمة، وأمضي إلى الشوارع صارماً فيها على غير هدى. أحترق في تجوالي ما قبل الظهر، أحياء الشخاير والصلية والموارثة، حتى أبلغ المستشفى الوطني، ومن هناك أواصل السير إلى عمود القديسة الكسندرة، وأشرف على الرأس الصحري الذي يطل على البحر، فأقف، أو أجلس، وأتابع حركات التوارس فوق الموج، وأبعث بحواطري بعيداً إلى اللجة، كأنما أطمعها هناك، أو أعتلها في المياه، وكثيراً ما وددت لو أن مركباً عابراً

ياخذني كنت أفكر بالسفر، واللقاء نفسي بين ذراعي المجهول، ولشدة ما أنا مشوق إلى الرحيل، كنت، لدى مرور أية باخرة، أتخيل نفسي راحلاً فيها، أقوم بالعمل داخلها، مهما يكن نوع هذا العمل، مسافراً هكذا بغير هدف، دون أن أفكر بالعودة ثانية هذه الأمنية في الرحيل ستعيش معي، بعد ذلك، العمر كله، ولعلها استقرت في ذاتي منذ تلك الأيام البعيدة، فانا ما زلت أحيأ على أمل الرحيل، دون أن أحدد إلى أين يكفي، أقول في نفسي، أن أوان الضياع، زمن التشرّد، وقت الهجرة إلى المحيط أو إلى القمر. وما هذه الأفكار إلّا رجع أفكاري حين كنت أجلس على الصخر، عاطلاً عن العمل، خاوي البطن، فارغ الجيب، أتشبّث بالبقاء حيث أنا، كيلا أرجع إلى البيت، وأنظر في عيني أُمّي الحزيتين، وفي عيون أخواتي الفارغة. غير أنني كنت أعود مضطراً، لأنه وقت الظهر، ويبغي أن أكون في البيت، نقياً لقلق أُمّي، وتطميناً للعائلة بأنني ما زلت حيّاً، ولم أنتحر باللقاء نفسي في آية هاوية.

ولم أكن أسأل عن طعام، كنت أعرف أنه لا طعام، وأن كسرة خبز، وحبات من ريتون، هي زاد اليوم، كما كانت زاد الأمس، وما قبله، وكانت أُمّي تمجد للتسرية عني، فتخترع قصصاً عن الفرج، وكلاماً عن الرزق، وتذكرني بكلمات الإنجيل: «لا تكونوا كمن لا رجاء له...»

لكن هذه المواعظ لم تكن تزيد سوى في إثارة نقمتي على الدنيا. إنني في النقطة التي أعي فيها ما يجب أن أكون، إلّا أن هذا الذي سأكونه ما كان ممكناً بسبب هزالي، وعندئذ كانت تتفجّر نقمتي غضباً على الزمن الذي أراد لي أن أكون نحيلاً إلى هذا الحد، وعلى الأب الذي أنجبني بهذا الضعف، وعلى أُمّي، على أُمّي وأسماء، التي عاجتني في صغري وحالت بيني وبين الموت. كنت ساخطاً على نفسي، قليل الحيلة في أمري، فاقد الثقة بإمكاناتي، فإذا كان بعد الظهر، خرجت من البيت لأذرع نصف المدينة الثاني، مجتازاً حي العوينة، إلى الشيخ ضاهر، ومن هناك إلى حي الأميركان، فالبحر، حيث أمشي على الشاطئ حتى السجن، وأصعد من

هناك إلى عبر أم إبراهيم، فأبلغ البراري وأتوغل فيها، تندفع قدمي في الطريق، وغالباً في الفلاة، بينا مئات الأفكار، ومن أشدها قتاما، تطوف في رأسي، وتطن أصدائها في أذني.

لماذا البراري لا سواها؟ لماذا البحر؟ لماذا الشوارع الخلفية للأحياء الشعبية؟ ماذا كنت أجد هناك؟ ما هي الأفكار التي كانت تملي عليّ تطوافي هذا، وهي محمولة في الرأس، بينما في الصدر هم ثقيل؟ ربما كنت، في ابتعادي عن الناس، أفكر في الناس، أفكر بنفسي من خلاهم، أفكر فيهم من خلال نفسي. القاسم المشترك بيننا هو الحياة الشقية، الخالية من البهجة، المحتاجة إلى أدنى مقومات الغيش الإنساني. كنت أمرّ، وربما كل يوم، في خروجي إلى الفلاة، بمقبرة الفاروس، هذا الدير القديم الدارس الذي جاءه المعري يوماً، وفيه أطلع، من الرهبان، على أطراف من الفلسفة اليونانية، وأنعم لديهم بحسن الوفادة. إنه أشبه بالرابية، وكان رابية مرتفعة، سميت بالفاروس، وهي كلمة يونانية تعني المنارة، وكان مرأى مقبرة الفاروس، يلقي في روعي المهابة لا الخوف. ما كنت أخاف القبور، أو الشواهد، وكان يحلو لي، أحياناً، أن أمرّ بينها وأقرأها، وكنت أحسد الراقدين فيها، وأتساءل في كثير من الأسى: «ما الفرق بين الصمت ههنا، والكآبة الصامتة هناك، في المدينة؟ وكيف يحيا الناس هذه الحياة الرتيبة، المتصلة، الملأى بالشفظف، دون أن يفكروا بالانتحار، وبالاتحار الجماعي؟» لقد كنت، آنذاك، قريباً جداً من فكرة الموت، وكان الكآبة وأنا أجلس على حافة قبر، يريح أعصابي، لكن الدمع كثيراً ما عصاني كان يقف في خاتي ويحرقها. يتحير في المآقي دون أن يذرف منها، وكنت أحتفي عن أمي، وعن أهلي، وكذلك عن ابن خالي، حين لقاء، ما أنا فيه من حزن، وما يخالجي من شجن، وكيف أهرب من البيت وأطوف في الشوارع والأحياء. كنت أستشعر، بيني وبين نفسي، ضعفاً مشيناً في موقفني هذا من المدينة والحياة، وكان أجدر بي أن أطرح كل ذلك الاكتئاب، وأمدّ لساني للفقر، لولا أن نشائي كانت بائسة، وكانت جملتي العصبية من الرهافة

بحيث لم يبق بيني وبين التلف إلا القليل.

ولقد أعارني ابن خالي كتاباً يتحدث عن اللاذقية. كان كتاباً تاريخياً وجده في مكتب معلمه اليكسي مرقص، وقد فرحت به فرحاً غير قليل، وحملت معي حينما طوّفت. كنت أقرأه على البحر، وفي البرية، وتحت أشجار الزيتون مقابل مدرسة بوقا الزراعية، وفي مقبرة الفاروس، ومنه، عرفت عن تاريخ اللاذقية أشياء كثيرة كنت أبحث لها، في فراغ أيامي، عن مواقع جغرافية في المدينة، حتى صار ذلك هوايتي، فإذا قرأت عن الطابيات مضيت إليها، وإذا أطلعت على تاريخ القلعة، صعدت إليها عن طريق جامع المغربي، وكنت أقارن بين ما كانت عليه اللاذقية، حين كانت تحمل اسم راميتا، وبينها الآن، فقد تطوّرت من قرية صغيرة مبنية على تل صخري، تابعة للمملكة الأوغاريته، إلى مدينة، فتحها بيكانور، قائد الإسكندر الكبير، وزارها المتنبي، وفيها حيّ الأسكلة، الذي هو حيّ الميناء، وقد اشتهرت بتجارة التبغ، وكانت له شركة رئيسها إبراهيم آغا أبو بلطه، ومقرّها في خان بيت مرقص، مكان المندوبية الآن.

لم أكن، حينذاك، أدري أنني سأكتب يوماً. كانت هذه المعلومات، وما عرفته عن جغرافية اللاذقية وتاريخها، أشياء للتسلية، وقد نهتني أمي عن كثرة القراءة، في ضوء فانوس الكار، وخافت على عيني، وكانت ما تفتأ تقول:

— حرام عليك، يا بني، أنت تضع وقتك ونظرك

وكنت أجيبها:

— وفي صانع على كلّ حال. أم نظنّ أني أشغله بالصياغة؟

— وعيناك؟

— أسلم ما فيّ عيناك. إنني أقرأ على ضوء القمر.

— وماذا تقرأ؟

— تاريخ اللاذقية

— للاذقية تاريخ؟

- لكل شيء تاريخ .
- غريب . ومن يكتبه؟
- الكتاب
- مثلك أنت؟
- أنا؟ لو كنت كاتباً . اسمعي يا أمي ، لماذا لا أعود إلى مهنة الخلاقة؟
- فكرت أمي وقالت :
- تريد ذلك يا حبيبي ؟
- بل أتمناه . . لقد بدأت بتعلم هذه المهنة فلماذا لا أكملها؟ من الغد
- أبحث عمّن يقبلني أجيراً عنده .

لكنني ، في الغد ، كنت في طريقي إلى قرية «ح» لأعمل مع عائلتي في جمع الزيتون . كان هذا أول لقاء لي مع ريف اللاذقية ، ولم تكن هذه القرية التي يملكها بيت «ف» تبعد كثيراً عن المدينة ، ودورنا فيها دور الباطور ، فأصحاب كروم الزيتون ، خشية أن يسرقه الفلاحون ، يستأجرون تواطير من العائلات الفقيرة ، تقيم كل عائلة في طرف من الكرم ، تحرسه ليلاً نهاراً ، مقابل واحد بالعشرة مما تجنيه من الزيتون عندما ينضج في الخريف .

الذي رشحنا لهذه النظارة يدعى «أبو نعمة» ولقبه المطعون ، وكان يعمل محاسباً ، يقوم بتقنين الزيتون المرسل إلى المعصرة ويسجل عنده الأرقام ، يقدمها ، مساء كل يوم ، إلى الشوباسي ، وهذه كلمة تركية محرفة أصلها «سوباشي» أعني رئيس المياه .

جرى ذلك بيسر شديد ، فبعض العائلات ، من معارفنا ، يقوم بهذا العمل كل عام ، ينظر كروم الزيتون الكثيرة المنتشرة في ريف اللاذقية ، وقد سمع المطعون بهجرتنا وفقرنا ، فعرض علينا أن ينظر الزيتون كسوانا كانت النظارة قد بدأت مند مدة ، لهذا تخصصنا بنظارة «البورة» التي يجمع فيها الزيتون المقطوف خلال النهار ، ويوزن بعد تعبته بالشوالات ، وتأتي الجمال فتحمله إلى المعصرة .

كان مصقياً، إذن، أن يقبل العرض دون تردد، وهذا ما فعلناه. اسندان
الوالد، لا أدري من، معصر الفود، اشترينا بها كيباً من الطحير، وهذا
كلّ مؤنثا، وأتى بعد الظهر، معربة وطيرة وصعنا فيها بعض الأحايث -
فرشات صميرة، وساطين، وطحرة، وملاعق، وشيئاً من الرعل الذي
أحصراه معنا من إسكندرية، ومضى الطير أمامنا، نجره نعل عجوز، يسير
المويبي، وسرنا وراه، في أول رحلة إلى الأرياف بعد الهجرة

لواقع أن الوالدة وافقت على مخصص وافقت لأنه لم يكن لنا خيار.
فحل عاطلون عن العمل، وليس لنا مورد، وانتظار الفرج طال، ولنا أسوة
بالعائلات الفقيرة المماثلة عبر أسا، بما سبق وعاباه من التشرد في الريف،
لا سيما في قرية الأكر، قبل استقرارنا في المدينة، كنا كسر لدع من ححر.
ولا سريد، أو لا تريد الوالدة، أن تتكرر اللدعة، لكن الحال، هـا،
نخسف، ما دام العمل قريباً، في قرية نعدّ في الصواحي، وما دام ذلك لن
يدوم سوى شهرين إلى ثلاثة وينتهي بانتهاء موسم الزيتون، ثم إن الحاجة
ندفعنا إلى الحميم لا إلى الريف وحده، فالزروح هـا مؤقت، وسيكون لنا
العشر، وهذا متوقّف على همتنا، واجتهادنا، وأفضل ما نقوم به عائلة، نعدّ
حس أنفس، أن نجتمع الزيتون، إضافة إلى حراسة الوالد التي لها أجرها
المستقل، وهو أحر بسيط، لا يذكر، لكنه أفضل من لا شيء.

مع ذلك قالت الوالدة وهي تنكبي
- أرحو، يا سلم، ألا يكون هذا الخروج للعمل في الزيتون بداية تشرد
حديد

قال الوالد

- وكيف يكون تشرداً؟

- لا أدري، لكنني أخاف التجربة، المحكوم بالإعدام بخاف من جرّ
الحل

تنزواني، سريع الرق، وفان

- إذن سفر هنا، وتمنح أفواهنا للريح
- أما كان بالإمكان أن نجد عملاً مع حبك في الكاريو؟
- ومادا أعمل؟ مارماتوما؟
- ومادا فيه؟ كله عمل
- أنا لي مهني
- ستعود إلى بيع المشبك؟
- بعد عودتنا من الريتون
- يعني نعود إلى نعمة إسكندرونة؟
- صاحب
- وما فيها هذه النعمة؟ ألم نعيش من بيع المشبك؟
- ومن الخدمة في بيوت الناس
- على العائلة أن تتعاون
- لكنا هنال نخدم لن أرسل بناق للخدمة في اللادوية
- قال الوالد مدارياً
- لدينا الوقت لبحث هذا الأمر أنا مثلك لا أريد دعينا نذهب لجمع الريتون، وحين نعود يمرجها الله
- ذهبا كما طلب الوالد، كان خروجنا من المدينة أشبه بالروح، وكنا، معي ما، نازحين، فالأرض السلية غدت بعيدة الآن، والحجر الذي كان في موضعه فنظراً قدفته يد قاسبه فاندفع ليسقط بين الشوك والعليق
- الشمس تبيل عن سمها في القنة الرفاه العالية، والضوء المتوهج لشمس الخريف بدا غليلاً ورشياً، ومن حولنا، ونحن نتبع الطير المحمل بأمتعتنا، كانت المدينة تحرق سا بعبون باردة، فتأتي تطراتها وتنبقع على جسامنا
- كانت الألبية، والشرفات، والأقبة، والأرصعة، والدكاكين، ومحتوياتها، وأصحابها، وربانها بطرون إلينا، وكانت في عيوسهم نظرات تساؤل داكنة، محايدة، لا مالية، كأنما هي نظراتهم وجنارة تمر، وخلفها جمع قلبل من أهل الغفيد

كان النعش محملاً على الطير، وكنا نحن المشيعين، وأقرباء الميت، وما كانت دموع، ولا شعور محلولة، ولا ثياب سود، لكن الموكب، في صمته، وإطرافه السائرين فيه، وانكسار نظراتهم، والوجوم الذي يلفهم، يعطي الرحلة طابع التشيع، ويجعل خروجهم من المدينة باتجاه الريف، مثل خروج الجنائزة باتجاه المقبرة، مع فارق واحد، هو أن الميت له قبر، والمقبرة لها مكان، والمشيعون يعرفون أنهم سيعطون عزيزهم للارض، في حفرة معينة، ويعودون، بينما نحن لا نعرف الريف، ولا القرية، ولا طريقة النظارة، أو كيفية جمع الزيتون، أو طول الرحلة، ومدة الغياب. كنا خمسة أشخاص مستسلمين للقدر: الوالد، الوالدة، אחتي الكبيرة، אחتي الصغيرة، وأنا، وكان في استسلامنا نوع من الخطو القلق، في عتمة نفوذ إلى مجهول، وكلّ منا ينطوي على شعور بالإهانة، بالمرارة، بالكراهة للعبون الحجرية المحذقة بنا، ويتجلّد كي يتحمّل وخزها، منتظراً بشوق، ونفاد صبر، تلك اللحظات التي يخلف فيها المدينة وراءنا، ونلقي بأنفسنا بين ذراعي الريف، ونخلّ بيتنا وبين الشمس والهواء والخضرة، ونرى أمامنا، على مدّ النظر، الفضاء الرحب، والدنيا التي تستحمّ بشمس الأصيل.

خرج الطنبر عن الطريق العام. تبعناه، مضى في درب وعرة، تبعناه أيضاً. وبعد أن دخل بين أشجار الزيتون، تلتفتنا إلى وراء. دارت عيوننا فيما حولنا. كانت المدينة قد ابتعدت، كفت عيونها الحجرية عن دقّ نظراتها في أجسامنا مرة أخرى، بعد سكّنى المدينة أعواماً طويلاً، نجد أنفسنا في الريف، وبلغى الريف يحنّوتنا برفق، وتقوم، من اللقاء الأول، ألفة بيتنا، ويتبدّل شيء ما في الجوّ المحيط بنا. الشمس تصصح أبهى، والهواء أبرد، والقصوى أقلّ كثافة، ولزوجة البحر تنأى، وحوار ما، صامت، مريح، إلى الكلام، ولا صوت بين الكائنات، ثم يقوم بيتنا وبين أنفسنا، ويتحطّى ذلك إلى الكلام، ولا صوت بين أحداً والآخر، فنشعر بالحريّة، بالخفة، بالخطّة، ونعارقنا صورة الجنائزة والمشيعين، وتتخذ، شيئاً فشيئاً، صفّة حلّ في طلب عمل، ملجأ، مأوى، وتدخل في ثوب الطبيعة، وبحسه

طازجاً، نظيفاً، مبهجاً، كأنما استحمنا، لنونا، في ماء بارد ليسوع على الطريق، وتواصلنا مع الله والملائكة وصار قدرنا أقل جهمة وقتاً

كان «الطبر» يسير في المقدمة، وراءه الوالد، فالوالدة، والأختان، وأنا الحق بهم على مبعدة، حريصاً على ألا أكلّم أو أنكلم، قانعاً بهذا الاخلاص من المدينة، والهرب من عيونها التعابية، والارتقاء الروحي في فضاء واسع، والاسترخاء بعد طول توتر، بفعل الهجرة من اللواء

هنا، في البرية، لا أحد يملك قصراً أو كوخاً تحن والآخرين سواء. وهنا لا أحد يملك عملاً كبيراً أو حقيراً. الدونية التي فرضتها المدينة على مشاعري انتمت. أنا أعرف أن هذا الانتفاء لن يطول، فنحن، في الحقيقة، لسنا إلا أجراء، لكن مسافة الطريق، بين اللاذقية وقرية «ح» أعطتني إحساساً بالشخصية، كما أعطتني المسافة بين إسكندرونة واللاذقية إحساساً بعالم مستقل داخل الأنوبيس الذي نقلنا. إن هذا الإحساس بضالة الشخصية، وأحياناً ضياعها، سيظل يلزمني في المدن الكبيرة، وليست إلا الألفة في هذه المدينة أو تلك، هي التي خففت من هذا الانعدام للكيان، وحققت بعض التوازن الذي بفضل عشت، وتلاءمت بعد سنوات طوال من الإقامة الدائمة.

كانت الأم، وهي تسير خلف الوالد، ما تفتأ تتلفت إلى وراء. كان بها خوف دائم زرعتة الغربية، والتشرد وفقدان الضمائية، وأحسب أن هذا الخوف انغرس عميقاً في ذاتي، وهو الذي كان وراء مشاعر الانتفاء، والتوجس، والقلق، والاكتئاب التي أحس بها، وهو الذي صار مع الأيام إعياء نفسياً، كافحت ضده عمري كله. لقد كانت حربي مضاعفة. مع مجتمعي، ومع نفسي، وكثيراً ما اندفعت في المعركة الخارجية، صد فرساً والاقطاع، وبعجت في أن أكفّ الخوف، وأمتلك الإقدام والحماسة اللازمتين للضال والكتابة، ملقياً بجسدي دون تفكير بالعواقب، لكن حربي ضد نفسي، ضد إعيائها، وخوفها، واكتئابها، فقد كست أنتصر فيها مرة وأهرم أخرى، لكن الحرب استمرت، ودان الخوف، داخلها. موازياً

للظلم خارجياً، ولعلمها اندغماً في واحد تعذبت في مقاومتها عذاباً لا يطاق
خوف الأم كان على العائلة، انبثق مرة وإلى الأبد في ليالي السويدية،
حين كان الأب برحل، وتَظَلَّ في البستان، وسط اللصوص والحيوانات
المفترسة، وهي، الأم، من أول الليل، تغلق الباب، في الكوخ الطيني
وتضع وراءه بعض الأعمدة، وتظل متوجسة، موسوسة، متوقعة في كل
خطة أن يطرق الباب، أن يفتح، أن ينقب الجدار، أن تفتح كوة في
السقف، وأن يأتي منها اللصوص ويختطفوا أحد أولادها، أو ينجح ضبع ما
في كسر الباب والدخول علينا فينبش أنيابه فيها وفيها.

لذلك كانت مروعة دائماً، تدور بنا، وحولنا، مستطلعة، متفقدة، سائلة
ربها أن يدفع عنها الغائلة، ويحمينا من الأذى الذي لم تكن تعرف، أو
تملك، طاقة الوثوب عليه، فهي تدراه بالأدعيات، والنذور، والحذر
والسهر، وكل الدفاعات السلبية التي في متناول يدها، معبرة عن خوفها
بلسانها الواجب الذي ما ينفك يتضرع، يستغيث يتشفع، وبالصلاة، عند
المغيب، أمام المسيح المصلوب، أو أمام العدراء، ونحن وراءها وهي تضع
منديلاً على رأسها، وترفع يديها إلى ربها، في خشوع كامل، صائحة: «يا
رب، يا يسوع، يا مريم، استروني، لا تفجعوني، احموا صغاري هؤلاء
الذين ليس لهم في هذا القفر سواي»

وكان خوفها من المجهول بتضاعف وهي في الريف، ويلجأ عليها إلحاحاً
مرصياً، وقد خيل إلي أنها اليوم، ونحن نسير وراء الطنبر، قد عاودها
خوفها المرضي، فهي تحسب حساب الليل، وما فيه من ظلام وربة
وأعداء، وتفكر بالكوخ الذي سنقيم فيه، والكرم الذي سنطزه، وأشجار
الزيتون التي تتحول في العتمة إلى أشباه، لا تلبث أن تنقلب إلى وحوش
ولصوص تنقض علينا ونحن في العلاء.

كانت تنفقت إلينا، وهي تمشي بجارية الطنبر في سيره، وتتوقف إذا
قصرنا، فتحننا على السير، أو نقول شيئاً مفرحاً، بغية إزالة الوحشة التي

نحسّ بها، أو تسأل، هذه الأخت أو تلك، عن الأشياء التي جلبها معنا،
وتشير إلى أشجار الزيتون قائلة.

— ما أنقل حملها المبارك.

ويرد الوالد:

— الموسم جيّد ما شاء الله

— سيكون علينا أن نجمع كمية جيدة.

— الكرم أمامنا، وحش وشطارتنا

قالت أختي:

— سأكون الأشطر بينكم . غداً ترون . .

قالت الأم:

— أنت دائماً الأشطر يا حبيبي . .

— أما أخوك، أضافت الأم، فسينبر^(١) لنا الزيتون.

قلت لأفرح أمي:

— سأنبر وأجمع أيضاً

قال الوالد

— سأنتقي لك مرواطاً^(٢) متيناً وخفيفاً . وسأساعدكم في النهار، حين لا

تكون هناك نظارة على البورة.

قالت الأم:

— ستتساعد . . الله بارك بالكثرة . . ما دام القلب على القلب فإن العذراء

معنا . .

بعثت هذه الكلمات الانتعاش في القافلة الصغيرة أحسنا، الآن،
أنسا على ما يرام، وأن الرحيل إلى الريف ليس فاجعاً كما خيّل إلينا.
وشدّدت كلمات الأخت من عزائمنا، فغداً خطونا أوسع، أوقع، أجرا،

(١) ببر الزيتون ضربه بالمرواط ليهرّ على الأرض

(٢) المرواط قصب طويل من التوت أو غيره.

ونبتهم أحدهما للآخر، وتبسم الكون من حولنا، فكان أصابع غير مرئية قد
مست أفئدتنا، فهي الآن مشرحة، متطلقة، مندعمة مع ما حولها، والنور
الذي يشع من الشمس المائلة باتجاه البحر، قد أضاءنا من الداخل، رسم
علينا تعويذة المسرة، والفضاء الرحب قد رحل بنا عبر الأمداء الخضراء من
حولنا، والرياح الخفيفة، الرهوة، ربيع المساء، في الخريف هذا، قد أحيت
مادبل من أوراقنا، فاحضر شيء ما فينا، والتمتع، كما أوراق الحور، في لونه
الفضي، وتشكل، مع ذهب الأصيل، فصار مينا للوحة عنوانها: «قبل
الغروب... في الريف»

حتى البغل المعجور، الذي يجر الطنبر، استشعر بهاء الأصيل، وتمتع،
على نحو ما، بالبرودة، وبالجو الذي يبس بالراحة ويسبقها، فانطلق على
رسله، وكف صاحب على الصباح، والتلويح بالسوط، ومررت عصفير
صغيرة، سوداء المناقير، فوقنا، منطلقة من الساحل إلى الجبل، تحوم في
الفضاء، راسمة أشكالاً جميلة من الدوائر والمستطيلات، مزققة وهي تتنقل
بين شجرة وأخرى، ودغل وآخر، وبدأ في البعيد، على خاصرة الربوة
المغطاة بخضرة الزيتون، دخان مبعث من تنور، وجاء عواء كلب يعود مع
القطيع إلى القرية، وهفت علينا رائحة خبز تنوري شهية، تغالطها رائحة
القطيع الذي مربنا، وتقاطعت في السماء الصافية تواسيح ضياء، وهبطت،
شيثاً فشيثاً، سكوناً على قلوبنا.

وصلنا أجمة حور، اجتزنا ساقية على كنفها حديقة فيها برتقال، وفيها
بيت ريفي جميل قال الحوذاني إنه ملك بيت «ف». أشار بسوطه إشارة
شملت الجهات الثلاث التي أمامنا قائلاً: «كل هذا ملك بيت «ف» كانت
ثمة، حيث أشار يمينه، أراض لا حد لها، تتخللها بعض الروابي، وكلها
مغطاة بأشجار الزيتون الخضراء اللطيفة، التي تتدلى أغصانها من شدة
الحمل وكثافته، وكانت التربة، من تحنها، محروثة، وأثلامها ظاهرة،
والشوك فيها كثير، وبينها شجرات تين، أعطت ثمرها، ولم يبق عليها منه
سوى حبات قليلة، ضائعة بين الأوراق التي مع احتفاظها بالخضرة أخذ

اللون الأصفر بيرفشها

طالعتنا مفرق تمتد منه درب صاعدة نحو الرابية ذات البيوت الفلاحية القليلة، وبينها «قناق»^(١) للسادة أصحاب القرية، بقرميد أحمر، وطابقين، وواجهة حجرية، وباب عريض، صالح لمروور الدواب، في الفتحة الموجودة على أحد مصراعيه، كما هو صالح، إذا فتح على سعته، لدخول سيارة أو عربة حنطور. وقد ذكرني، فوراً، بباب البستان الكبير، الذي عملنا فيه أجراء عند السيد خريستو، عقب هجرتنا من قرية الأكبر إلى قرية «قره أغاش» في ضواحي إسكندرونة. فقد كانت ذكرى ذلك الباب، وما يتمتع عليه من حوش كبير، وما فيه من بيوت، وأحصنة، وبقر، ماثلة في ذهني، تحكي عن طفولتنا الشقية في ذلك البستان الذي يجاور المقبرة الفرنسية.

رؤية القناق بعثت في شعوراً بالانقباض. ليس لأنها ذكرتني ببيوت السادة الذين خدمنا عندهم فقط، بل لأن تصوّري كان قائماً على أننا لن نلقى سادة في هذا الريف، وسيخل بيننا وبين الأرض والزيتون، وأن بهاء الطبيعة لن يسيء إلينا منظر يذكر بالفارق الاجتماعي بيننا وبين الآخرين. حسبت أننا سنسكن البيوت على الرابية، أو حوش السيد، وأنا سنكون تحت أنظارهم ليل نهار، وأن الوالدة والأختين سيشتغلن، كرهة أخرى، خادومات، وأن العزلة التي أرغب فيها، بعيداً جداً عن الناس، لن تتوفر لنا، وهذا ما ألقى ظلاً من الخيبة على صورة الريف كلّهُ، وما جعلني، لدقائق، أعود إلى تلك الحالة الأسيفة التي كنت عليها في المدينة.

غير أن الخوذي سرعان ما قال لنا وهو يؤشر إلى القرية:

— من هنا مفرق «ح».

سألت الوالدة:

— سنمرّ بها؟

(١) القناق: القصر الربيعي.

أجاب الوالد:

— لا شغل لنا فيها. إنما نحن نواظِر زيتون، وسنبقى في الكرم.

تَحرس البورة.

توقّف الطنبر ريثما سألنا عن المكان الذي نقصده، وبعد لحظات عاد
الوالد قائلاً:

— من هنا. من هذا الدرب الضيق بين الزيتون. وصلنا. البورة في
قلب هذا الكرم.

عرج الطنبر على الدرب الضيق، غترقاً صفوفاً كثيفة من أشجار الزيتون
الهمرة. كنا نتبعه على مبعدة مؤطرين برائحة زيتية، وينكهة خاصة
للغروب، ويزقزقة العصافير، وكلّها من الدوري، تنطلق في حركة صحابة
بين الأشجار، باحثة عن مبيت، مترددة في الانتقاء، هائجة فرحاً كخليفة
لحل في الربيع، وحراقص نظير أماننا، وشيء ما، كالهسيس، كالمهممة
الخفية، كحركة تنفس، تنصاعد من الأرض، فيما الظلال الطويلة،
المتشابكة لأشجار الزيتون تفرش نفسها بساطاً تدوسه الدواليب الحديدية
للطنبر، وتطاه أقدامنا، في سيرنا البطيء، المستطلع، باتجاه البورة حيث
سيكون علينا أن نبيت، وأن نحرس الزيتون المكوّم بياذر عليها.

كان الوالد يتقدّمنا، الأم بقيت بيننا، ساد صمت فيه توقّر، كان التوقّع
بعكّر ابصارنا الراحلة عبر الكرم. هذه هي أرض الهجرة الجديدة، هنا
سنقيم، ونظر، ولنبر الزيتون، ولجمع حباته، بأصابع فتية، رشيقة غير
معتادة على الانغراس بين المدرات والشوك، لكنها مجبرة أن تفعل، وعلينا
أن نتقبّل واقعاً لا حيلة لنا في دفعه، ومن الأفضل أن نتلاءم معه، ونحبه،
ونعيشه بغير تذمّر، أو بكاء يريد من الشقاء الذي نكابه العائلة الصغيرة في
حياتها الريفية الجديدة.

في فسحة من الأرض، خالية من أشجار الزيتون، سُويت على شكل
باحة، كانت البورة التي بقصد. لم تكن كبيرة جداً، وليس فيها أية تسوية

ترايبية، والعشب النامي على حوافها كان يابساً، وثمة، على جوانبها خيمتان أو ثلاث، وفي وسطها يرتفع الزيتون الأخضر، المرقط بحبات سوداء، كجبل، أو كتيب رملي، تفوح منه رائحة زيتية حادة، ويتنفس حرارة منبعثة من جوفه، يحسها من يقترب منه، حتى إذا دس يده داخل الزيتون، أتاه ما يشبه اللهب الهيل، وهذا هو السبب، كما علمنا قبلاً، في حرص العاملين على البورة ألا يتأخر نقل الزيتون إلى المعاصر، لئلا يتأكسد الزيت الذي في حثائه، وتسود الحبات أكثر فأكثر بفعل هذا التأكسد

توقف كل من على البورة عند وصولنا إليها، ردوا تحية الوالد، برفع أيديهم إلى رؤوسهم، حينهم الوالدة بلطف شديد، بيما التزمنا، شقيقتاي وأنا، الصمت، وهرعنا، منذ توقف الطنير، إلى إنزال أمتعتنا من فوقه، ونقلها إلى فيء ريتونة معمرة، بانتظار أن يبت في مصيرنا، وتحدد لنا الإقامة، ونعرف تحت أية خيمة مسكن. كنا ما نزال غارس شعوراً بالقرية، وكان الجوُّ كنه، في القرية، والبورة، والنظارة وجمع الزيتون عربياً علينا، وكان الوالد قد ذهب إلى الوكيل يستفسر منه عن الترتيبات التي علينا اتخاذها، قبل أن تغرب الشمس، وكان الوكيل، الذي يشرف على القبان، منهمكاً بالعمل، وقد اضطر الوالد إلى الانتظار، وخلال ذلك أشعل سيكارة، بينما عادت الأم إلينا، ووقفتا جميعاً حول أغراضنا، تختلس النظر إلى ما حولنا، يلزمنا شعور بأننا في العراء، ومحط الأبصار، وأن من الأفضل الإسراع بدخول أية خيمة، حتى نشعر بالأطمئنان قليلاً

أعطونا شادراً لننصبه في الجهة الفارغة، التي علينا أن نحرسها كان المكان على حافة البورة، في سفح رابية. وقد هرع رجالنا لمساعدة الوالد، وانطلقا يسويان التربة، تحت ريتونة صخمة، سوداء الحب، واندفعنا لإزالة الأحجار، من الأرض التي يمهدها، واقتلاع الشوك، وإزالة الأعشاب، ولم يستغرق ذلك كله إلا قليلاً، ثم رأينا الرجال يقردون الشادر، ويربطونه في الزيتونة من أعلى، ويدقون أوتاداً من الجوانب، وبعد ذلك شدوه بالحبال وفرضنا حصيراً فيه، وشرعنا بنقل أمتعتنا إلى داخله.

نَمَ كُلُّ ذَلِكَ بِسُرْعَةٍ، وَحِينَ صَرَا دَاخِلَ حَيْمَتِنَا أَمَدَلْنَا بَابَهَا، فَاحْسَا بِالرَّاحَةِ، وَطَلَبَ الْوَالِدُ مَحَاتًا مِنَ الْقَهْوَةِ، وَأَوْصَحَ لِلْوَالِدَةِ أَنَّ عَلِيًّا أَنْ تُشْعَلَ نَارًا صَغِيرَةً لِهَذَا الْغُرُصِ، فَخَرَجَتْ أَمَعَ عِيدَانِ الرِّبَنُونِ الْيَاسَنِ، وَخَاءَ الشَّجَرِ، وَوَجَدَتْ مَنَعَةً فِي ذَلِكَ، فَقَدْ كُنْتُ جَائِعًا إِلَى الْعَمَلِ، وَإِلَى الْعَمَلِ الْعَصَوِيِّ، وَكَانَ مَقَرُّ النَّارِ، فِي التَّرْبَةِ، بِمَقَرِّ، وَهَذَا هُوَ السَّبَبُ فِي أَنِّي أَحْسَسْتُ بِشَاطِطِ حَفَةِ حُورٍ، وَقَرَّرْتُ، بَعْدَ مَعَايِنَةِ الْخُجَّةِ الَّتِي تَهَبُ مِنْهَا الرِّيحُ، أَنَّ أَحْمَرَ الْأَرْضِ لَأَصْبَحَ مَوْفِدًا، وَحَتَّى ثَلَاثَةَ أَحْجَارٍ فَصَعْتُ الْمَوْفِدَ، وَأَشْعَلْتُ لُحَاءَ الشَّجَرِ، وَالْقَبْتُ عَلَيْهَا الْعِيدَانَ، فَطَرَّ إِلَى الْوَالِدِ مَنَسِمًا، وَمَشْتَعًا، وَخَرَجَتْ الْأُمُّ بِرُكُودَةِ الْقَهْوَةِ، فَرَأَيْتُ الْمَرَّاحَ عَلَى قِسْمَاتِهَا، كَأَنَّمَا لَمْ نَكُنْ نَتَوَقَّعُ أَنْ يَكُونَ كُلُّ شَيْءٍ عَلَى مَا يَرَامُ فِي هَذِهِ السَّرْعَةِ، وَأَنْ لَحْدَ التَّرْحِيبِ مِنَ الْوَكِيلِ، وَالْمُعَاوَنَةِ مِنَ الرَّحَالِ، وَتَنْصَحَ لَنَا خِيَمَةً، وَيَكُونَ عَمَلُنَا فِي الْبُورَةِ وَمَا حَوْلَهَا

الآن اسْتَعْدَدْنَا الْعَاقِبَةَ كَأَنَّهُ عَادِيَةٌ مَعِيَّةٌ، وَكُنَّا نَحَاجَةُ إِلَيْهَا، لِنَحْتَلِصَ مِنْ شُعُورِ الْعَاطِلَةِ الْمُغْصَرِّ، وَالْبَيْتِ الْمَغْنَمِ، وَالْإِنْكَسَارِ كَأَنَّهُ عَلَيَّ أَنْ نَصْصَحَ حُرَّ مِنْ جَدِيدٍ، وَنَمْتَلِكَ إِرَادَةَ الْحَيَاةِ الَّتِي فَقَدْتُ كَثِيرًا مِنْ مَقُومَاتِهَا فِي مَحْرَمَاتِنَا وَفَعْرَاتِنَا وَتَحْرُجَرَاتِنَا فِي أَحْيَاءِ الْمَدِينَةِ نَحْنًا عَنْ بَيْتِ لِسْكِنِهِ صَارَ الْآنَ فِي وَسْعَا أَنْ نَكْسِبَ عَلَى قَدْرِ الْعَمَلِ، وَكَانَ فِي هَذَا الْكَسْبِ افْتِشَاتٌ كَبِيرَةٌ، لَكُنِ الْآخَرِينَ كَانُوا مِثْلَنَا، وَكَانَ الْمَهْمُ، بِالنَّسَةِ إِلَيْهَا، أَنْ لَجِدَ مَوْضِعًا لِرُزُوسِنَا، وَعَمَلًا لِأَيْدِينَا، وَأَنْ نَكُونَ عَلَى يَقِينٍ، مِنْذُ أَنْ لَبَدْنَا، أَنْ لَقَعْنَا صَارَتْ مَوْثِقَةً، وَأَنْ مَا يَتَوَقَّعُ عَلَيْهِ تَحَاحُّهُ هُوَ الْجَهْدُ الْمَبْدُولُ وَدُونَ أَنْ نَتَمَتَّعَ فِي الْأَمْرِ، كَانَ الْعَرْمُ بِلَعْمَا وَبِمُبْضٍ، وَلَقَدْ وَدَدْنَا أَنْ نَاشِرَ الْعَمَلَ مَدَّ وَصُولًا، لَوْلَا أَنَّ الْوَكِيلَ، الَّذِي شَرِبَ قَهْوَتَهُ مَعَنَا، نَصَحَنَا بِالتَّشْرِيطِ حَتَّى النَّصَاحِ، وَقَالَ لِلْوَالِدِ -

- أَلَيْتَ تَتَقَى مَعِيَ عَلَى الْبُورَةِ حِرَاسَتِكَ، عَدَمَ الْإِذَاخَةِ، فِي هَذِهِ اللَّفْعَةِ، وَالْعَائِلَةُ حَرَّةٌ فِي أَنْ تَقْصِدَ السَّاحِبَةَ لِنَتَرِيدَهَا مِنَ الْكُرْمِ، وَلَسَوْفَ أَوْجِئُهَا، عَدَا، إِلَى مَنْظِفَةِ كَثِيفَةِ الْحَمْلِ مَهْدَةً الثَّرَى، وَسَتَسِيرُ

الأمور على أحسن ما يكون

قالت أمي

- نحن لا نعرف كيف نشكرك يا أبا نعمة

وقال الوالد

- نحن هنا بفضل مساعدتك، وسلكون عائلة واحدة

- كوسوا مطمشين، الحراسة هاشكلية هذا ملك بيت «ف»

والشواصي، أبو اسكندر، يقطع ظهر من يجرؤ على الاقتراب منها

سألت أمي لكي نظمش علينا

- إذا لا خوف من الخرامية

قال أبو نعمة

- أحرامي، يا أحيي، يمكن أن يدخل طرف الكرم خلسة، ويمشق حفنة

من الزيتون الأحضر، يأكلها، عدم المؤاحدة، مع عياله، أما السرقة من

البورة فتعني السطو وتغناح إلى سلاح، وإلى رجال، فمن يجرؤ على

الإقدام عليها؟

وقال الوالد

- نحسب الرزق دائراً^(١) إذا قلت بيت «ف» قلت الحكومة، فمن يجرؤ

على سرقة الحكومة؟

قال الوكيل وهو بصطع الخطورة:

- الخواجة «د» دولة، إذا دخل السراي ارتجت تحت أقدامه

وقال رجل يقف إلى جانبه

- هذا هو العز

قال الوالد

- ولا عز بيت سرق إدن؟

- أي سرق هذا؟ قال الوكيل، أقول لكم بيت «ف»، هذا يعني، عدم

(١) دائراً، دائماً

المزاحمة، معد، وعز، ومال، وأملاك. كل هذه القرى لهم!

سالت الوالدة مستغربة -

وكلها ريتون؟

- الريتون يعطي هذه الأحياء. يحتاج الإنسان إلى أسود كي يقطعها

مشياً. والداقي الأرضي فلاحه، محضصة للحبوب، وللفمخ خاصة

قالت الوالدة -

- المعطي هو الله

- تبارك اسمه - سألوه وأعطى. قال لهم حدوا

كنت أظن في طرف الخلفة، أسمع ولا أتكلّم. كنت عا قدّر على الكلام بوحود الأودم كما تسبهم الوالدة، وكان ذلك، لو حري، ومسل وصولاً، يعني العدا، قطع الررف، إحراج العائلة. لهذا كانت الوالدة تنظر إليّ متوسّلة من طرف خفي، فكهرت عجري، وكهرت طرروف العائلة، وقام في نفسي ما يشبه الصراع بين ما أسمع وما أعنفد. تحببت بيت «ف» ملوكا، امراء، ذوي مكانة، هبة، سلطة، وتصورات الخواجة «ف» حاراً، نهزّ خطوه الأرض، لكي أتكرت أن تكون المسألة، في كل هذه الملكية، قد تمّت هذه السهولة.

مضيت إلى الخيمة. شددت الوحدة لأفكر بما سمعت. تركت الخلفة التي تصدّرها الوكيل. أبي من حزب بيت «ن»، الوكيل من حزب بيت «ف». الرجال الذين يعملون على البورة يتسسون، مثلها، إلى عائلات، كل عائلة حزب، والكتلة الوطنية تجمع عائلات، ومقابل بيت «ن» وبيت «ف» هناك بيونات، أحزاب، وقلت في ذات نفسي: «أنت من أيّ حزب يا ولد؟» وأحت على تساؤلي: «أنت لست من هذه الأحزاب، لأنك لن تكون رتبة أيّ من هذه العائلات، أنت لم تصب عصباً في أيّما حزب. تعرف شيئاً واحداً؟ قرّسا نحتل سورية، إذن هي عدوة، والإقطاع حليف فرنسا، إذن هو عدو، وهؤلاء الملاكون الكبار ضد الفقراء، فإذن هم أعداء أيضاً، وهذه الأفكار عرفتها في إسكندرية وقالوا لك إن ها حرباً هناك، لكنك، في اللادقية، لم تنفع له على أيّما أثر

كانت الشمس قد غربت ابتعد الجو، صارت له طراوة خاصة، محيية،
ونفست الأرض رائحة زكية، وثبتت السماء رائحة طيبة، وبعثت الحضرة،
المشروعة على مذ القدر، شمياً حلواً في الجو، وفي طرف الأفق، في المكان
الذي رحلت إليه الشمس، كانت عمائم قمرية، وفي القبة السماوية،
بساط كبر كبير، سماوي، مقعر، والثور الذي يسفل، بجلي مكانه للجنة.
أنت لا تستطيع، في أي لحظة، أن ترى كيف أن الليل يولج في النهار، لكنه
يعمل، وندو أشجار الزيتون، وأنت تنظر إليها من الريبة، سقفاً لا حد
لسمته، سقفاً من الأدغال الرصاصية، الداكنة، الممتدة في صفوف لا
تنهي، والمظلمة تنعشها رويداً رويداً، وشيء ما، في السماء العالية، يرقب
الأرض، وتحوم تظهره نصية في الأبعاد، في الأعالي، وسكببة رائحة نعيم
لكون، فيها أحراس أحمال، كالنوافيس في الأديرة، ترون وتقترب، قاصدة
البصرة لثقل الأحمال الأخيرة من الزيتون في هذا اليوم

لكم يوم الإنسان لو يسى نفسه في وقفة ما مع الطبيعة، في مساء
صبيح، والدنيا من حوله انتهت، والصمت يتكلم من داخله، كأنما يناجي
الله، ويبعث على أوجه الأثير ابتهاجات لم تخشع لها كلمات بعد. هذا
النوح يكون حين لا نكون في الحياة طمأنينة، أنت حائف من شيء ما،
لعله فقدان العمل، أو المسكن، أو اللقمة، أو الثوب، أو هدية العيد، أو
الغربة، ولعله، ساطعة، الشعور بالفراغ، أو تقدم العمر أو الموت. لكنك
أيضاً تشعر بالفلق لسبب مجهول، وعدتد يكون لقلبك سبب مرصي،
منشؤه احساسية المفرطة

في تلك الليلة الصبيحة، الأولى في قرية «ح»، وعلى بورة الزيتون،
صارت الريبة بالنسبة إليّ حيل التجلي أو عوسجة الشوك كنت متوحداً،
معتزلاً، موصولاً مع الملا الأعلى، في شفافية هبة، لا أريد معها شيئاً، ولا
أفكر في شيء. كل ما في الأمر أن المدينة بهظتني، وهنا، على هذا المرتفع،
أريد للريح أن تدخل جوفي وتطهرني، أن تسقط كل الأوراق الذابلة قبل
الأوان، كي تنبت حول الضلوع أوراق جديدة، خضراء، نضرة، طازجة،

فإذا كان العدد أقلت على العمل بهم شديد، وعريضة حديده، كأنما، لشدة
 حوغي إليه، أريد أن أكله، أمضغه، أملاً به جوي وورثي وعيبي، أريد أن
 أهبه حياتي ليظل قلبي ممتعاً بالحياة والنشاط. العمل! العمل! العمل! ما
 أعهد هذه الكلمة وأقدسها، وما أحنها حين تكون عاطلاً، وما أشد عافيتها
 حين تكون في قلب المعركة لتحقيق ذلك على محو ما

أنت الرابية التي أقف عليها تطل على كروم الزيتون من كل جهة.
 كنت مرقاً نلسة لما نخنها، لكن الأرض، من الجهات الأربع، محجوبة
 بالأشجار، سحر من الرقة الداكنة، تبرر فيه رؤوس نبحابة رصاصية كأنها
 أكوام وسط محيط ساكن الماء.

أعرف أنني سألقي بنفسي، سيد العدد، في هذا المحيط تلك فرحة
 مضمرة، وبانتظار أن أعيشها فعلاً، استعدت توربي، قلت في نفسي: «ها
 قد صار لي عمل أحياه». فكرت بالدنيا، بالعالم، سامحرة، بالبطالة،
 وحظرت لي بعض الأساطير التي قرأتها. كانت هذه الأساطير تطوي على
 عقوبات ضد الإنسان. وكانت هذه العقوبات تتدرج من الحكم بعدم
 الموت، أو عدم الدفع، أو الحبس الانفرادي، أو النفي إلى بلد بعيد، بموت
 فيه المعنى بعيداً عن وطنه. لقد عشتها، من خلال القراءات، وأحسست بما
 فيها من فسوة بالغة، لكن الحرمان من العمل على النحو الذي كابدته في
 اللادقة، وما ولد في نفسي من شعور قاتل بالفراع، كان أقسى تلك
 العقوبات في نظري، لذلك كرهت الراحة، ولو في الحقة، وباركت حواء،
 التي جعلت آدم يعض، ويهبط معها إلى الأرض، حيث العمل والكفاح.

فحاة أنصرت دحاناً بتصاعد من سطح الرابية. كان ذلك دخان سار
 أشعلتها الواحدة على طرف السورة. كان وهجها، في غبش المساء، بصيء
 كفعة تقط تشتعل على سطح البحر، ومن حولها الظلمة كهوف، على
 حوفاها تتكسر الأنوار التي تخلق في فحوات الموج نوراً مضيقاً. تلك النار،
 في عباءة الليل، والدخان المتصاعد منها، والفدر المرقوعة على الموقد،
 واشتعال أعصاب الزيتون، كل ذلك وصعني، مباشرة، في قلب الريف. لا

قرية هسا، لا بيوت، لا ماشية، غامة زيتون مترامية الأطراف، ونحن
وسطها، بضعة رجال، ويضع ساء، وكلب، وقافلة مقيمة، جماها راكعة،
نحتر طعامها، والرجال يملأون عراوات كبيرة بالزيتون، ينقلونها إلى القبان،
ثم تحمل على الجمال التي ما تفتأ تهرأ أعناقها فتهترأ الأجراس النحاسية
الصمراء الصغيرة في هدوء المساء، كأنما ثمة دبر يدعو رهبانة إلى صلاة
المعيب التي تشترك فيها الأرض وما عليها

كل هذا ملأني بهجة حلوة، أداوب عن قلبي شيئاً ما كالدهن، كان يتبّع
على الخلد فيسدّ المسام ويمنع لنفسها قلبي مضحّة لحمية تحرّرت من أسار
الدهن. اغسلت بالصابون وتطهّرت بالروفا. روحي غدت طليقة.
شرايبي تصحّ الدم فيدفن في العروق مجدداً الدورة كلها ربما نورّد وجهي،
وربما نهلت أساري، ليس لديّ مرأة. لا مرأة في هذه الغابة. قد تكون
لدى אחتي واحدة صغيرة، لكنها عرص لسائي خاص. أنا رجل برغم أنني
أرندني بطلاً قصيراً. ليس لديّ السطال الطويل. لا أملك ثمنه. الوالدة
تعرف. لاحظت ذلك، لكنها لا تملك هي الأخرى. هذا زمن الصيف.
نصيب المودّع الحمام لا ينف على الزيتون. رأيت الدرغل، والرزور،
والعصافير الصغيرة، لكنني لم أر حماماً. لو وجد لكان هديله يأتي من بعيد،
كان شجوه يملأ الحوّ. ولشارك في صلاة المعيب، كان مسجد كالنفس،
واستراح من تعب النهار، واستسلم مثلي هذه الهبّات الرائعة، وطار حاملاً
نخبتي إلى بعيد، إلى امرأة أحسها ولا أعرفها، أريدها ولا سبيل إليها.

لمادا فكرت بالمرأة، في وقتي تلك على الرابية؟ لقد استيقظ المراهق الذي
في حسدي فجأة. أنا فرح، أنا من الطبيعة. المرأة رمز الطبيعة، عنوانها،
المرأة هي العرحة، وهي فرحتي شفتها، ثمنيتها ونحسرت عليها.

كنت، في تلك السن، أعرف المرأة في الحلم فقط. في النهار أعود إلى
الواقع. أدرك على نحو جلي أن ليس من امرأة في هذا الوجود تريدني. أنا
فقير إلى حد الإملاق، يائس إلى درجة التعاسة، وليس لي أن أحلم،
حقيقة، محببة. لكن الليل ما يكاد يقبل، حتى تعنادني أحلام داعرة،

وحتى تسيطر الأنثى على مشاعري، فيستيقظ بها ما كان مكبوتاً. وكان كل هذا طبيعياً جداً، ما دمت في سنّ العاطفة المشبوبة، وما دامت عواطفِي، جوارحي، تشتهي المرأة، وقد تكتفي منها بنظرة، بابتسامة، بكلمة، إذا لم يكن ثمة إمكان للمزيد.

غير أن الأيام، ولا سيما خلال شهور الحجرة، أقنعتني أن ما أتمناه سراب بالغ الخلية. وشيئاً فشيئاً انطويت على اعتقاد أن المرأة، بالنسبة إليّ، بعيدة، وربما غير موجودة، ولم تخلق بعد، وأن عليّ أطراح كل تفكير فيها.

هذه المشاعر عذبتني. كانت تعيش في ذاتي، تلوب ساغبة في جسدي، تناديني بأصوات ذات صجيج صامت. كانت تفترسني منذ أن أضع رأسي على الوسادة حتى يغلبني النوم. وما هي، الآن، وأنا أقف على الرابية، تهاجمني في اليقظة أيضاً، فماذا أفعل؟

التجأت إلى العقل، بدلت قوة إرادية خارقة حتى يسيطر العقل. قلت في نفسي إن الحب سيصير يوماً ستكون هناك امرأة، وسيكون هناك حب، لكن ذلك كله بعيد، وأن عليّ أن أنسى، وليس مثل العمل وسيلة للنسيان.

طوّفت بالرابية. هذّأتني قليلاً ريح المساء. رحت أناجيها آيتها الريح! بلغني الحبيبة المقبلة سلامي. أنت تريدني، ولكنك لا تستطيعين. أنت، حتى الآن، لم تحملي أبداً امرأة إليّ، فمتى، يا عزيزتي، تحمليها إليّ؟ ولم تحب الريح. هل تعرف ولا تحب؟ القدر يمنعها أن تحب؟ كل شيء له أوانه، مكانه وزمانه، له مشيئته، قراره، حكمته. القدر قمر أزرق، مثل أوراق الزيتون هذه البانعة. القدر أبيض، كالقمر تماماً، صامت كالصخر، ملتهب كالنار، يسقط نيزكاً، شهاباً، شظية كوية، ويصيب. إنه يدمر أحياناً، يخرب كل ما قبله، ويصنع ما بعده. قبل القدر باطل، بعده حق. وكالأهنة، يحتاج إلى ندور. . . يدي خالية. لا نذر عندي أقدمه. أجمع له باقة من الزعتر؟ رزمة من الأزهار البايسة؟ غمراً من سنابل الزيتون؟ أنا أعرف

أن كل هذا غير مجد. أفهم أن قدرتي طفل أخرس. أدرك أنه لن يوافيني، ولن يكون لي حبيب في البعاعة أو المراهقة. إنني فتى، بينطال قصير، عتيق، وقميص أزرق، مرقع، ووجه شاحب، ضامر، وشفتين واجفتين، وفي حال كهذه، فإن الحب يظل إحساساً دفيناً، يراود العاطفة الملتاعة، ويتدفقاً على حنين مراوغ.

اشعلوا مصباح اللوكس. شمع نوره في محيط البورة، تركّز حول القبان، حيث الوكيل يقوم بجرد حساب النهار. كانت الجمال قد حملت بالزيتون، وركب الجمال حماراً وسار في المقدمة تتبعه حيواناته الصحراوية الاليفة. كانت أجراسها ترن وهي تحب بين صفوف الزيتون. ثم ابتعدت، وتلاشى رنينها، وعادت السكينة تلفنا، لا يقطعها سوى فحيح المصباح، وطققة أعواد الزيتون في النار، وكلمة من هنا وأخرى من هناك، بينما العاملون على البورة يفجّون بيدر الزيتون برفوشهم، كي يتنفس، وتتسرّب الرطوبة إلى أعماقه فلا يفسد، ولا يسودّ من الحرارة.

إن هذه العملية التي تتكرّر كلّما حملت الجمال، كانت تحمل معها رائحة زيتية حادة، لم تكن قد ألفناها، لكنّها، مع نسيمات المساء، كانت تفعم الجوّ بعطر خاصّ، مبارك كما قالت الوالدة، وترتفع أعلى فأعلى، كأنها مادة أثيرية تنشقها السماء، وتعبّها مع أنفاس الأرض المتصاعدة بحركة ديبية، يحسّها المرء ولا يراها، لكنه لا يملك نفسه من الافتتان بها، والخشوع للترنيمة الجماعية المنطلقة من الجهات الأربع، ابتهالاً بالمغيّب الذي ما يزال وشاحه الأرجواني على الأفق الغربي.

كانت الوالدة، فيما الطنجرة على النار، والاختان تُوقدان تحتها، قد عمدت، بإذن من الوكيل، إلى انتقاء وعاء صغير من الزيتون الأخضر الذي ورد متأخراً إلى البورة، وجاءت بحجرين كبيرين، أملسين، وشرعت برص الزيتون وتحليته، ليكون لنا أداما. إنها ابنة الريف، تعرف قانونه. «من خير الأرض يأكل الذين يعملون فيها» وكانت تعتبر نفسها، منذ وصولها، عاملة في الأرض، وقد أحضرت معها من المدينة جرّة فارغة لذلك، وكانت

مسرورة بعملها، تقول وهي ترصّ الزيتون وتلقيه في طست مليء بالماء :

- ما شاء الله - زيتك كثير المبارك .

ولما لم يكن من أحد قربها سواي، فقد التفتت إليّ وتابعت :

- هذا الزيتون يقطع واحداً من عشرة .

قلت في نبرة غير متوقّعة :

- لكن جمع العشرة ليس بالأمر السهل .

- إذا نحن اجتهدنا كان ذلك سهلاً .

- نعطي التسعة لناخذ الواحد . .

- وماذا في ذلك يا حبيبي ؟

- ظلم . .

توقفت عن رصّ الزيتون، وبجديّة وطيبة رجعتني قائلة :

- لا تتفوّه بما لا يليق أمام الوكيل .

- لكنني أقول الحق . .

- أنا أصدقك . تحسّبي لا أعرف؟ ولكن من يسمع للحق . ؟ أنت، يا

حبيبي، ابن مدرسة . لكن الذي في الكتب غير الذي في الحياة . كم

مرة عليّ أن أقول لك ذلك؟ أنت تشقي نفسك دون فائدة، هذا الذي

تقوله عن العدل لن يصير .

- سيصير يا أمي . .

- من فمك لأبواب السماء . لكن الكلام عليه، ونحن نعمل في ملك

الأسياء، ليس في مصلحتنا . وأنت عاقل . . أنت عاقل بما يكفي كي

لا تقطع رزقنا . أليس كذلك؟

- ربما . .

قلتها وابتعدت . أمي غير مخطئة، لكنني أنا الآخر، غير مخطيء، أنا

أحب أمي، أفديها بروحي، ولن آتي بما يكدرها، لكن إلأم السكوت؟

وكيف يعرف الناس ما لهم وما عليهم؟ الخوري يقول: مكتوب في الإنجيل

« أعط ما لقيصر لقيصر »، وأمّي شديدة الايمان بالخوري وإنجيله . هذا كلام

المسيح تقول. لكن الآخرين - الذين سمعته في إسكندرونه، والكراريس التي قرأتها، تقول أعط المال لصاحبه. وقلت لهم: «من هو صاحب المال؟» قالوا: «الذين يعملون في جمعه». إذن نحن نجمع الزيتون، ونحن أصحابه، لا أولئك الأسياد أصحاب القنّاق الكبير في قرية «ج».

سأسكت على مضض. سامضغ المראה لقد كانت رحلة حياتي، ورحلة فهمي، غير متكافئتين.

من إسكندرونه، وشقاء حارة المستنقع، والظلم النازل بعمّال البحر والسكك الحديدية، إلى الاحتلال التركي واستلاب حقّ العرب في اللواء، إلى الهجرة والنوم في المقبرة، ثم الطواف كالمُتسوّلين في أحياء اللاذقية، إلى هذا الريف وجمع الزيتون، سلسلة من حلقات الاستعمار والظلم والاعتصاب، وأنا، على صغر سني، أعي كل هذه النوازل، وكرمي لأهلي عليّ أن أسكت. تقول أمي «اللاذقية غير إسكندرونه» هذا، كما يبدو، صحيح، ولكن لماذا الأمر كذلك؟ أنكون اللاذقية مدينة بغير حياة؟ دون غمّل؟ لا ترى شقاء عمال الميناء، والريحي، وعبوديّة الفلاح في الريف؟

إسكندرونه! يا إسكندرونه! يا مدينة الرفض. يا رافضة الاحتلال، ومقاومة الأتراك، والمتمرّدة على الوضع الاجتماعي البائس، يا مدينتي الحبيبة، أبنتها الغافية الحلوة المستلقية على شطّ الخليج، يا من تعلّمت فيك، لا القراءة والكتابة وحدهما، بل الاحتجاج على الاحتلال والظلم والاستغلال أيضاً.

جلست مهموماً أمام موقد النار. طلبت من الأختين أن تدعاني وشأني. رجوتهما أن تبكلا إليّ مهمة إضرام النار تحت الطنجرة. أحسست بالمرارة، بالكآبة، انتفت نفحة الرومانتيكية التي عطّرتني في الميحب. الغروب، الآن، صار إلى ظلمة. ليّل الليل، سجا، وفتون الرابية، والكرم، والبورة، والنار في الفلاة، ورنين أجراس الجمال، وكلّ بهاء الطبيعة تراجع إلى وراء. أفسدته بتفكيري المسبق بالعمل، هذا الذي أنا جائع اليه، لكنني مدرك كم فيه من استغلال. لقد ألغني تصوّري أنه

سيكون علينا، من الصباح، أن نثير الزيتون، ونجمعه من بين المدر والأشواك، وغلاً به السلال والأكياس، ونحمله إلى البورة شأن هؤلاء الفلاحين التعساء، ليكون لنا واحد من عشرة، قيمته لا تكفي لإطعامنا في هذه البرية التي علينا أن نعيش فيها شهوراً، ثم لنجمع حوائجنا وننحدر إلى المدينة وليس بين أيدينا ما نسدّ به رمقنا.

انتهت أمي من رصّ الزيتون، نضج الطعام. مدّت حصيراً، فتحت شرشفاً، دعّتنا إلى العشاء، كان الطعام مجدّرة. كان لذيذاً في هذه البقعة المنارة باللوكس، وكان البصل سائغاً، شهياً، والماء الذي في الجرة طيباً، وكانت جلسة الوكيل معنا للعشاء، وامتلاء الأم بالسعادة لهذه «اللفتة الكريمة»، والظلمة المعلقة بأهداب الفضاء من حولنا، كلّ ذلك طمأن قلقي.. لكن ذلك الشعور بالطمأنينة لم يدم، إذ سرعان ما سمعنا، في الدرب الآتية من جهة القرية، وقع أقدام، وتلفّتنا جميعاً، ثم لم يلبث الوكيل أن صاح:

- أبو اسكندر.

وهبّ جميع من على البورة وقوفاً...

كان ذلك القادم هو الشوباصي الذي ترتجف خوفاً منه مقاصل الفلاحين والعاملين في أملاك بيت «ف» كلّها.

كان أبو اسكندر رجلاً طويلاً، مليشاً، دون كرش، فهو، في السنين، يحافظ على قامته لم تل منها السنون وكان عريض المنكبين، رجب الصدر، له ساعدان ينتهيان بكفين ضخمتين، مما يعطي لبيته ضخامة في العظم، ومثانه في التركيب، مع وجه ضحري، فيه عيبا باشق، وشارب كثيف أبيض، تحت طربوش عليه لفة، وغنبار تحته سروال أبيض، وحذاء كبير، أسود، مغبر، وكل الهيئة اللازمة لجيل انتهى دون أن يعرف البطل.

اعترف أن حضوره أفسد جو الألفة العائلية الذي أحسنه في المساء، ونحن نتناول عشاءنا. كان والذي قد حدثني عنه نقلاً عن الدين عرفوه ومع كل لا مبالاة الوالد، ومشاكسته، وانتفاء حاسة الخوف، أو الرهبة، عنده، فقد ترك المعلقة، والطعام، كما فعل الوكيل، ونهض لاستقباله. ونحن ألقى تحية المساء، بصوته الأجش الخارج من بين شاربيه، وتقدم نحو البورة، كان الفلاحان اللذان به سلال عليها، قد تركا الخبز والريتنون، ووقفاً جامدين على مبعده منه، وكف كل منهما على صدره تحيياً.

لم يحفل بنا، نحن العائلة الصغيرة، الوحيدة، على البورة، مع أن الوالدة نهضت لتحيته، وانتظرت إشارة منه، فلما لم تصدر، عادت فجلست، وطلبت منا أن نتابع عشاءنا. أما هي فقد كفت عن تناول الطعام بينما انصرفنا أنا إلى مراقبته، وقد داخلني خوف لا أدري سببه،

كرهت معه أبا اسكندر هذا، ورغبت، لولا الفضول في رؤية ما يجري، وما سوف يقوله، دخول الخيمة والنوم باكراً

كانت في يده عصا جبلية غليظة، وفي كتفه بندقية، وقد طلب، دون أية مراعاة للمائدة التي تحن حولها، أن يؤق باللوكس، فحمل اليه فوراً. طاف في البورة، حول بيدر الزيتون، وأرسل عصاه في قلب البورة، سابراً حرارة الزيتون، ثم لاحظ أن ثمة بقايا زيتون على حواف البيدر، من أثر تعبئة الغرارات، لم تجمع وتُعدّ إلى مكانها، كما أن الفلاحين العاملين، أهملوا فتح الزيتون للتنهئة والاستبراد بالليل، فصاح بأحدهما:

- تعال «ولاه»^(١)

تقدّم الفلاح الذي اسمه بوس، غير متوقع، هو البريء، المجتهد، أن يُتهم بأي تقصير، لكن أبا اسكندر، وجد في العمل تقصيراً، فرفع عصاه، ودفع بطرفها، في ضربة قوية، صدر الفلاح الذي تأوّه وتراجع إلى الوراء مدعوراً.

- بخرب بيتك... تأكل وتترك الزيتون يئلف؟ أنتم لا تستأهلون ثمن أكلكم.

قال الفلاح:

- يا معلّمي

صاح به بصوت جهوري، غاضب:

- علم في جنباك حيوان

- لا تغلّمني يا معلّمي

- تستحقّ الطرد

- وماذا فعلت؟

- تجلس والزيتون بين الأقدام؟

(١) «ولاه» لفظة دارجة للاستهانة بالمخاطب

- وهل أكل على الوافق؟

كان الفلاح الآخر، واسمه عزيز، قد ركض يفتح الزيتون برفشه، ويجمع ما تناثر من حبات قليلة حول البيدر، والوالد يقف قريباً، يده وراء ظهره، وفي عيته نظرة تساؤل عما إذا كانت هذه المعاملة ستسري عليه أيضاً. لم يتدخل بين الشوباصي وفلاحه. كان قادراً أن يسرر فعلة الشوباصي بسبب من إعجابه به، إضافة إلى أنه يعتبر نفسه ابن مدينة، وليس ثمة مبرر للتدخل في شأن لا يعنيه. غير أنه، أمام قسوة الشوباصي، تجمد في مكانه، وترك الوكيل يدور حول هذا الأخير، حاملاً اللوكس، وهو يشرح عمل اليوم، والكميات المجموعة، والتي أرسلت إلى المعصرة، ويطلب بزيادة الغرات والجمال، حتى يمكن نقل المحصول في يوم جمعه بالذات

قال الشوباصي بلهجته الصارمة :

- ولماذا أنشأنا البورة إذن؟

- لكن نقل الزيتون في اليوم نفسه إلى المعصرة أكثر فائدة؟

- وماذا نفعل به هناك؟ نتركه في الغرات حتى يتلف؟

- ولماذا يتلف ما دامت المعصرة موجودة؟

- للمعصرة طاقة معينة .

- في هذه الحال أسف .

- الأسف لا يجدي . . أنت غشيم .

قالها والتفت إلى والدي :

- وأنت؟

وبعد أن قاسه بنظرة جارحة من رأسه إلى قدميه أضاف :

- ماذا تفعل؟ لماذا تقف ويداك وراء ظهرك؟

نهضت الوالدة من فورها. ثوقنا نحن عن الطعام. وضعنا أيدينا على قلوبنا. لم نكن نقدر أن الشوباصي سيأتي من الليلة الأولى لوصولنا لم يدر في خلدنا أنه على هذه الخشونة، وأنه سيحاول إهانة الوالد أمام الوكيل

والفلاحين وأماننا. كانت الوالدة مستفزة للتدخل، لا لنصرة الوالد، بل للتوسل طلباً للرحمة، لأننا لم نباشر العمل بعد. كانت غريزة الخوف هي التي تتحكم في تصرفاتها، وتأتي ردود أفعالها على شاكلة هذه التصرفات، صادرة عن خوف مزمن لا حيلة لها في درئه أو التغلب عليه.

أحسست أن اللقمة ييست في فمي. صارت رملاً. صارت شوكة من الذي كانت تأكله الجمال بانتظار تحميلها. لم يعد ثمة لعاب. غدا كل شيء تراجيدياً الآن: القسوة، ضرب الفلاح، السخرية من الوكيل، التحرش بالوالد، الجزع من أن يهين الأم. هكذا امتلأت بالفهر. نزل القهر إلى معدتي وصعد إلى دماغي. زاد في سوته أنه مقرون بالعجز. أنا لا أستطيع أن أتكلّم، الوالدة نهتني عن الكلام. وحتى لو أباحتني لي فإن سطورة الشوباسي أحدثت ما يشبه القشعريرة في جسمي. وبين سؤاله وجواب الوالد، مرّت لحظات مكهربة، مرعبة، بطيئة، ثقيلة عليّ. لو ضرب والدي لوقفت إلى جانبه ودافعت عنه. لذلك تقدّمت خطوات متوقّعة شراً، كلاماً ساخراً أو مهيناً، لكن الوالد أجاب بلا مبالاة:

- أنا هنا حارس يا أبو اسكندر...

قال الوكيل:

- الحارس الجديد. سالم المصري.. وهذه عائلته...

عندئذ فقط التفت الشوباسي نحونا. قال بنبرته الصارمة نفسها:

- مساء الخير يا أختي!

أجابت الوالدة وهي تتقدّم منه:

- يسعد مساءك يا أبو اسكندر..

- تعرفين اسمي..

- حدّثنا عنك زوجي..

قال الشوباسي ملتفتاً إلى والدي:

- ومن أين سمعت عني؟

- من الناس.. من الذين يعرفونك..

- وماذا قالوا لك؟
- ما رأيته الآن .
- احذر إذن .
- قال والدي بلالته نفسها .
- الحذر لا ينجي من القدر . عشت ورأيت ، من مرسين إلى إسكندرونة إلى اللاذقية .
- هم . فهمت . تريد أن تقول إنك غير سائل .
- أنا رجل فقير . مهاجر من اللواء . جئت مع عائلتي لنعمل . أنا أسأل خاطرك . لكن دون ذلك لا حق لأحد علي . حاسبني إذا قصرت .
- قالت الوالدة وقد تقدّمت خطوة باتجاه الشوباصي :
- حاسبنا إذا قصّرنا .
- انتهرها الوالد :
- دعي الكلام للرجال .
- قال الوكيل :
- ستكلم ونحن نشرب القهوة .
- قال الشوباصي :
- المصري لم يعزّنا على القهوة .
- وقال الوالد بغير ملاحظة :
- أنت لم تترك لنا مجالاً لدعوتك .
- قال الشوباصي وهو يخلع البندقية من كتفه :
- بسيطة . . . مستقابل كثيراً .
- قرقص والبندقية في حضنه ، لم يفرد وجهه ، لم يتنسم - وبنبرة تهديد أضاف :
- المصري معذور . . لم نتعارف جيّداً .
- قال الوالد وقد أحسّ بنبرة التهديد :
- أنت ضيفنا على كلّ حال . . ونحن في حمايتكم .

- حماية الله أقوى .
 - بعد الله يأتي العبد . كلنا عبيد الله . - وأب يا أبو أسكندر أقوى قباً
 هنا . أنت تأمر ونحن نطيع .
 أخرج أبو أسكندر علة النع ولف سبكارة غليظة ، ثم دفعها سائجاً
 الوالد

- تعال لفت سبكارة .

لم يرفض الوالد حسنه سبعل . كان أكثر حرة . لقد قال ما أراد ،
 لورينه شفت نفسه . احتملها الشواصي . كان داهية فوق أنه ذنب عحور .
 ولم يكن الوالد ، في حرته ، لامبالته ، مشاكسته ، شجاعته اللاإرادية ،
 أقل منه قدرة على أن يكون ذنباً عند اللزوم ، وهذا ما فهمه أبو أسكندر ،
 فترك للأيام أن تخفف من عنجهية رجل لا يملك شيئاً ، ولا يستطيع أن يؤديه
 في شيء ، سوى أن يقول له : «عُد من حيث أتيت» وقد أدرك أن الوالد
 قمين بأن يعود بالرودة نفسها التي أت بها

يا رب كم أحببت والدي ، وكم كرهته ، وكم أحسنته مرة أخرى ! أحبته
 هذه الجسارة التي تشد عذوبة فيه . كرهته هذه السديمة في الوحدا . كنت
 أعرف ألا أمل فيه ، وأنه لن يتوقف عن الرحيل والسكر والعشق ، وأنه
 خاسر دون أن يكثر خسارته ، دون أن يحس بها ، أو يقدر نتيجتها قبل
 وقوعها ، كان نوعاً من المعصية عبر المسؤولية . لم تكن به لونه ، ولم يكن قافداً
 لأي من ملكاته العقلية ، لكنه كان يتصرف بحسب ، وكان يشد لدى
 الملاحظة الدقيقة ، أن جسوته غير مسؤول ، لأنه صبيحي فيه ، فهو عقله ،
 أصله ، فطرته ، ولم نحس كل التحارب ، كل الحيات ، كل نوبات الندم ،
 في أن نظوره ، أو تبدل من بهيمة سلوكه . ولأني يقبضه في هذا ، وأحمل
 كل موروث أمي من الطيبة ، وحس المسؤولية فقد كرهته . ثم لأني أرغب
 أن أكون في شجاعته ، فقد أحببته في مواقف الشجاعة ، وتبنت لوررع الله
 في صدري قلباً كقلبه .

هذه الليلة أعحت والدي لم يقل شيئاً خافاً، لم يدفع الظلم عن العلاج، لم يحه نهديد الشوباسي، لكنه، في كلماته القليلة، أظهر أنه يعرف أمثال الشوباسي، وأنه لا يكثرث بهم، لم يسكت، لم يقطع، لم يمنح إلى التملق، كان كما يجب أن يكون لرحل أمام الأحرار، لا سيما أسرته، وكان، دون وعي، يتصرف تصرف عامل من المدينة، عامل حقيقي، يعرف أنه لا يحسر شيئاً في مقاومة استبداد السيد أو وكيله، مادام لا يملك شيئاً.

كنتي بأن تادي والدي

- أعدّي لنا القهوة -

جعلت أقرب كفيّ الصحنين، والعروق الرق الساهرة في طاهرهما، وهو يلف سبكرة هادئة، منمهلًا، تاركاً للوكيل أن يتكلم، وللشوباسي أن يصغي لأده. ويتصرف بفة حواسه إلى رؤر هذا الحارس المفروض أمامه، والذي فكر بترويضه، ناديه، كسر شوكته في أقرب فرصة تتاح.

دارت القهوة - ترشها الرجال الثلاثة - عادت الأم البيا، أمام الحيمة، وحدثني حالاً على الحصر، كان الحو. الآن، قد عدا لطيفاً جداً، والجوم بعيدة أرسلت ضياءها إلى الأرض، فاحترقت كثافة العتمة وصيرتها سيجاً دكاً شفافاً، ماعحة للبحال الصخمة على رؤوس أشجار الريفون أن تتحدّد في هالات سود، سابحة في فضاء الريف الهادي، الساكن إلا من عواء أساء أوى، أو صاح الكلاب، أو حشخشة رواحف في الأعشاب والأشواك القريبة، الأمر الذي أفرع الشقيقتين، فدخلنا الحيمة حشبة الأفاعي وانعقارب.

أنا وألم وحداً فنياً جالسين في ما يشبه الطلّ، المتشكّل عن سور اللوكس المعلق في ربتوة فوق الرجال كان والدي قد بدأ يتحدث. كان يعرف أن يتحدث - كان فاصاً بالمصطرة، وغاربه التي لا تعدّ، جعلت له مذخراً لا ينفد من القصص - تحدث عن خدمته العسكرية في برّ الأناضول،

وعن هربه الدائم وما لاقى من أهوال . كان صوتاً من الماضي ، نغمة ارتدادية في الزمن ، صادفت هوى في نفس الشوباسي ، الذي لم يلبث أن طلب الفرارات الفارغة ، وجلس على واحدة منها ، بينما جلس الوكيل والوالد على عرابة أخرى مقابلة ، وظلّ الفلاحان مقرّفين على مبعدة من الخلفة . كان الشوباسي يصغي باهتمام ، وقد امتصّت حلاوة الحديث كلّ الصلف الظاهري فيه ، فاندفع بضحك باقتصاد ، متدخلاً في القصّ ، متبّعاً ، معبّراً ، راضياً ، ناسياً نفسه إلى منتصف الليل ، حيث نهض وهو يقول :

- تأخّرنا . خطفنا الحديث .

نهض الجميع لهوّه . . كذلك فعلت الوالدة . وقد اغتبطت بغير حدّ ، حين استدار نحوها قائلاً :

- قهوتك طيبة يا أختي . - دائمة .

وقالت الوالدة بصوت فيه طيبة وزلفى :

- شرفتنا يا أبو اسكندر . . حياتك الدائمة . .

وأتت الأرمجة أبا اسكندر فقال :

- غداً هو يومكم الأول . . لا تنقّدي بالصفّ . . الحفي الشجرة الحامل . .

انبروها جيّداً ، وبعد ذلك تعادون على اللقاط . . مستمرّ أصابعكم . .

وأنتم وجهدكم . . هذا إذا لم يتشاطر عليكم المطعون (الوكيل) بالقبّان .

قال الوكيل الذي فهم الإيماء :

- ولو . . نحن تربيتكم .

وقال أبو اسكندر وهو يغيب بين أشجار الزيتون :

- تصبحون على خير . .

فرددنا جميعاً .

- وأنت من أهله . .

في الفجر استيقظت على رنين أجراس الجمال . أفاق الوالد قبلي وخرج .

كان من عادته أن يفيق باكراً، ويشرب سبكاة في فراشه، ثم أخرى بعد أن يغسل وجهه هذه العادة لازمته طويلاً، وكان يحلو له أن يمدح عادة الافاقة باكراً، واستقبال الصباح قبل طلوع الشمس، ناسباً إليها عماد كثيرة، منها أن الصحة تصبح جيدة. ولقد كنت أعترم أن استيقظ باكراً، وأخرج إلى الطبيعة وهي تتمطى في سريرها قبل النهوض، وأن أعين الشروق، وأستمتع بهائه، وأسمع تسايح القبرات في الفلاة التي يقول والذي إنها تصلي لله على طريقته. كذلك سمعت أمي في المساء تقول لأختي إن علينا أن نهض باكراً، وأن نهجم على العمل قبل أن تغمى الشمس ويشند الحر. ولقد نهضت بالفعل في اللحظة التي كانت فيها أمي تهم بالنهوض، فطلبت مني، برجاء لا يرد، أن أشعل لها النار، كي تعد القهوة للرجال.

خرجت من الخيمة في غبش الصباح. بدا الرجال على البورة كاشباح. كانت الجمال تتميز بهياكلها الضخمة العالية، وكانت أجراسها ما نفثاً ترن، وهي ترعى العشب والشوك على الخواف، وكانت حركات شعاهها، وهي تقضم وتشغط، تشبه خشخشة مناجل الحصاد وزحف القنائد. شممت مع هبوب نسائم الصباح، رائحة فطرائية، ممتزجة برائحة قحمر الزيتون. كان الفلاحان يوس عزيز يغرفان برفشيهما من البيدر ويملان الغرارات، وكان صوت الوكيل، على القبان، يبرطم بما لا أدري، والوالد يحاول مساعدة الرجال في الوزن والتحميل، والفجر الحلو يطلع أبيض، كأن فتحات خفية في الأمداء البعيدة ترزه على شكل ذرات أثيرية، تمارج العشب وتخلوه في استضاءات لا يدري المرء كيف تصير، ويهجه، في الوقت نفسه، أنها صارت. وكانت رفرفة أجنحة تعلو بين أشجار الزيتون، وخوار أبقار وثغاء أغنام من جهة القرية، وزقزقة عصافير تتقاطع في الفضاء، من جهة المشرق، وديوك تصيح مؤذنة بالصباح.

كان الماء بارداً، منعشاً، وقد اغتسلت بهمة، وفرح، وصبيت على رأسي كمية منه، ثم أشعلت النار، وأضرمتها دونما حاجة لذلك سوى التلذذ بمراها. راقبت الوالدة وهي تظهو القهوة، واللّهب يضيء وجهها الكهل

ويعطي لملاحة قسماها طيبة مضاعفة، ولم البث أن صعدت الرابية، ومن قمتها أشرفت على امتدادات كروم الزيتون، ورأيت تيجانها أشبه بالقبب الصغيرة الرصاصية، في صفوف متطاولة، والعصون مثقلة بأحماها والأوراق الخضراء، المضيئة، تسمح، في هذه الفتحة أو تلك، لحبات الزيتون الخضراء والسود، أن نبين وأن نتلقى في لمسات مزهرة، أشعة الشمس الأولى، فتألق كعنايفد عنب رقيقة وطويلة، وتبسم على استحياء للسماء التي تنور في كل لحظة، وهي تشرق برعم الطبقة السديمية التي تترأى كتوشيحاح تزيين الفقة العالية. يا إلهي! ما كان أكبر السماء وأعلاها، وأحفلها بالعظمة والشمخ الذي بدا لي أنه وحده الجدير بالتأمل، كأن ليس في الحياة من كبير، سوى الأرض والسماء، وسوى البحر الذي نسيته، وسرعان ما استدركنته واستغفرته على خطيئتي المعينة

بعد قليل لحقت بي أمي. كان وطؤها خفيفاً، كأنها تحشى أن تزعج الأديم، وقد لبست تنورة واسعة، عتيقة، وانتعلت خفّاً، وربطت على رأسها منديلاً، فبدت على أتم استعداد لمباشرة العمل الذي كانت مثلي تتحرق اليه. كانت تتأمل أشجار الزيتون بأكثر مما تتأمل الفضاء. كان همها هذه الأشجار التي على عطائها يتوقف رزقنا، وحين رأني مأخوذاً بما حولي، غافلاً عن وقع أقدامها، سادراً بما لا تدري من أشياء تترأى لي في الأفق البعيد، المتكور في قوس طويل محجّر على البحر، داخلها قلق أن أكون، كما لاحظت دائماً، مجذوباً إلى عوالم سحرية تخاف عليّ منها. لم أقالك نفسي. فعانقتها حين بلغتني. كنت أجد رائحة الأمومة في عنقها، وكانت رائحة ركية تشبه البيلون^(١) المطيب، وكان إحساسي، رغم فتوتي، أنني ما أزال صغيرها الذي كنته، وكانت هي تأتي أن تنظر إليّ إلا على هذا الأساس، مما يعطيني الطمأنينة، كأنني عاجز، وكأنها حاميتي، وهذا ما دفع بي كثيراً إلى الخوف عليها، والخوف من فقدانها، وتحيل جسامته المأساة في

(١) نرارة حلبية توضع على الشعر عند الاغتسال

- حياتي لو حدث ذلك لاسمح الله .
- قلت لها وأنا أغمرها .
- يا حبيبي .
- قبلتي وقالت -
- لماذا أنت هنا؟ هل أفطرت يا حبيبي؟
- هرزت رأسي بالنفي . عاتبني بنظرات حنون . قلت :
- ما أجل كل هذا . لقد كانت فكرة رائعة أن جئنا إلى هنا .
- هل تشعر بالتحسُّن؟
- بتحسن كبير . نسيت مامراً معنا في المدينة خلال الشهور الماضية .
- كنت هناك قلقاً، شاحباً . ما الذي ضابقت في اللاذقية؟
- الغربة والبطالة .
- وكذلك البيت .
- كنت أحس فيه أنني أختنق .
- لاحظت ذلك . أنت نحن إلى بيتنا في إسكندرونة . ذلك الكوخ .
- كان بيتنا حقاً .
- ومع ذلك كان صغيراً .
- كان جميلاً على كل حال . كنت أشعر فيه أنني على ما يرام . كان كوخاً
- كسائر الأكواخ، لكنني كنت أحس فيه أنني في بيت أبي .
- وفي اللاذقية؟
- أحس أنني في بيت شعبان وزهرة .
- ذلك العجوز المسكين؟
- أنا أيضاً أراه عجوزاً مسكيناً . ما ذنبه إذا كان قد استأجر هذه الخرابة
- وأجرها للآخرين؟ إنه، على كل حال، يريد أن يربح قليلاً كي يعيش،
- وهذه المسكينة زهرة
- تشفق عليها، أليس كذلك؟
- الفقر هو الذي دفع بها إلى بيت شعبان ولا شك . . هذا العجوز الفاني لم

يعد فيه ما يفيد امرأة . الزمن اضطرها إلى الاستقواء به ، ومعاشرته
كرهاً ، في سبيل اللقمة . يا لقدارة الدكان التي يسكنانها .
- لا تذكرني بها ، أرجوك . أنا لا أستطيع شرب كأس ماء من يد زهرة .
- وأنا لا أقوى على النظر في وجهها .
- هذه خلقة الله . ماذا تفعل ؟
- لو توقفت عنهاها عن السيلان . . . وتلك الأسنان الصفرة ، والشياب
الرثة . يا إلهي ! كم من شقاء على هذه الأرض !
- أنت مهموم لذلك ؟
- وماذا تتصورين ؟
- لنس ذلك كله . . تعال . . أشرقت الشمس . . علينا أن نأكل شيئاً
ونغضي إلى الكرم .

انحدرنا عن الرابية . اقتلعت رجلي من ترابها بصعوبة . كنت ، ثمة ،
على ما يرام . . لماذا تذكرت شعبان وزهرة ؟ وما الفرق بين هذين البائسين
وكل أولئك البؤساء في المدينة ؟ وما الفرق من هذه الناحية ، بين إسكندرونة
واللاذقية ؟ لا فرق سوى الوعي . . في إسكندرونة يعون يؤسهم
ويقاومونه .

أفطرنا خبزاً وريتونا أخضر ، الفلاح يونس أعطانا ملء وعاء صغير منه .
كان الوالد قد قطع مرواطين من شجرة التوت عند مفرق القرية ، وأذن له
الوكيل أن يمضي معنا ، يدلنا على العمل ، ويعود لحراسة البورة . سرنا رتلأ
صغيراً . تقدمنا الوالد . حملنا معنا زجاجة ماء ، سلتين ، طبقين من قش ،
وشوالاً . كنا قافلة صغيرة ، في غابة الزيتون الكبيرة . وكانت القبرات تطير
مدعورة لوقع أقدامنا . وعصافير الدوري تنتقل من شجرة إلى أخرى ،
فكرت ببندقية صيد ، بفتح حديدي أنصبه كما وأنا صغير ، ثم أطرحت
الفكرة سريعاً . لمت نفسي ، كنت غير قادر على صيد هذه العصافير
الصغيرة ، الملونة ، الحلوة ، وقد سألت والدي حين أسرع وحاذيته :

- ألا توجد حساسين هنا؟
- هذه توجد في الجنائن . هنا الدرغل . وقد يوجد الحجل في المرتفعات الجبلية .
- وقالت أختي :
- لو عندنا حسون في قفص . .
- أنا لا أحب الأقفاص والعصافير سجينة فيها .
- وقالت الأم :
- وأنا كذلك . . ما ذنبها، المسكينة، أن نحبسها ونرغمها على الغناء؟
- قال الوالد :
- لكن صوت الحسون حلو . .
- قالت أختي الصغيرة :
- ولكنك لم تأت لنا ولا بحسون صغير . .
- سأتيك بواحد . . وربما باثنين . . العصفور يتسلّى برفيقته .
- قالت أختي :
- سأكون سعيدة عندئذ . . أنا لن أؤذي الحسون . . ساحمل إليه الماء والطعام . . ولن أرغمه على الغناء .
- قال الوالد :
- الحسون يغني لنفسه . . لا يستطيع إلا أن يغني . .
- قالت الوالدة :
- ربما يغني شوقاً إلى أمه . . للعصافير أمهات أيضاً . . لكن ليس لها أب .
- فكرت في نفسي : «هل ذلك لأن الأب غير ضروري؟» .
- كنّا نغضي دون قصد، نتبع الوالد . نبحث عن مكان ملائم . ولم يكن

الوالد على خبرة كافية، بينما الوالدة، التي تحدثت إلى أحد الفلاحين ليلة أمس، فهمت منه أن علينا أن نبحث عن الزيتونات الفتيات. هذه تكون حاملة، غير عالية، ومن السهل برها. أخبرها أيضاً أن الجهة الغربية جيدة، وعلينا أن نبدأ منها. لكن الوالد رفض إرشاد الفلاح، قال لنا إن الزيتونلة الصغيرة تعطي زيتوناً صغيراً، قليلاً، بخلاف الزيتون الكبيرة، التي تعطي وحدها ما يملأ شوالاً.

كنت أحسّ، كلما ابتعدنا عن البورة، براحة نفسية. معنى هذا أننا وحدنا تماماً. عالم خاص بنا. غابة زيتون، ظلال لا نهاية لها، سكون عميق، وعائلة بمفردها، ليس لأحد من سلطان عليها. كان الإحساس بالوحدة في البرية يملأني بقدسية سماوية. نحن والله، الله من فوق، ومن سماواته، ينظر إلينا. ليس لأحد أمر علينا. نعمل ما نريد، ندوس حيث نريد، ننام أو نستيقظ. نرتاح أو نعمل. كل شيء لنا، لا أحد يحدجنا بنظراته، لا سوط، لا بندقية، لا صوت، ولا خوف. أمنا رئيسنا. ما أحل أن يكون نعمة مجتمع الأم رئيسه، في حال كهذه ينتفي الظلم، ينتفي الخوف.

انتقينا بقعة صالحة. كانت أرضها غير مفلوحة. تشبه أرض البورة. لا أنلام، لا مدرات، ولا أشواك. عشب يابس قليل، وتراب ناعم، ممهد، وكومات صغيرة من التربة التي أخرجها خلد ما هنا وهناك، وفي، وزيتونات مثقلات.

اقترح الوالد أن تبدأ من هنا، ولم تمنع الوالدة. كانت تريد أن تبدأ، كانت مثل أي منا، مشتاقة إلى العمل، إلى الشعور بانتقاء البطالة، وإلى العافية النفسية التي لن تأتي ما دام الفكر مشغولاً. كانت أجسامنا متصلة، وليس سوى التعب الذي يبعث فيها النشاط من جديد، التعب المبذول في عمل نافع ذي مردود.

تناول الوالد مرواطاً وتناولت الآخر. لاحظته كيف يضرب أطراف

الاجمة الفضية للزيتونة يضربها بشكل مائل، بحيث يشق المرواط الحب وينبره. كانت الضربة تبعث، في سكية العابة، صوت النديف، وسمع بعدها، هدير مطري للحب الذي يشبه الحرر الأزرق. لم ألبث، أنا الآخر، أن رفعت مرواطي وضربت. كانت ضربتي أخف، أقل جدوى، لكنها، مع ذلك، أسقطت حباً كثيراً، وحين همت الوالدة باللفظ صاح بها الوالد: «دعي ذلك إلى حين الانتهاء من نبر الزيتون كلها» فاطاعت. أما أنا فقد أثارني نبر الزيتون وزخات الحبوب المتساقطة، والأوراق الخضراء والفضية المختلطة بها. ابتعث ذلك في داخلي فرحاً غامراً، فصممت أن أتولى، بعد عودة الوالد إلى البورة، وباعتباري ذكراً، هذا العمل العضوي الذي لا تحسنه النساء. فكرت، من جهة أخرى، بطريقة أفضل لجمع الزيتون، خطرت لي إحضار شرشف، وفتحه تحت الزيتون، فيتساقط الحب داخله. في هذه الحال لا يكون علينا سوى ضمه وإفراغه في الكيس. هذا الاكتشاف ازدهاني، عرضته على الوالدة من فوري فقالت:

- الفكرة جيدة، لو كانت التربة، تحت أشجار الزيتون، مهيأة.. أما عند وجود المدر والشوك فإن الشرشف يتمزق لا محالة

- ولماذا لا نمسك به من أطرافه، تحت الشجرة، ثم نبرها فوقه؟

- لأن ذلك غير عملي.. فنحن لا نستطيع الوقوف تحت الزيتون المتساقط، كالبرد، ولأفج رؤوسنا، ثم أن الشرشف يتملص تحت ثقل الزيتون المتجمع فيه أو يتبعج.

- وماذا لو أتينا بحصيرة؟

- الذي يتساقط فوقها سيكون أقل مما يتساقط خارجها.

- لنجرب..

- انتظرن أن الفلاحين، والذين يلقطون الزيتون لم يجربوا، ولم تخطر لهم أفكارك يا بني؟

كان الوالد قد غادرنا. ببر لنا ثلاث زيتونات وعاد لحراسة البورة. شرعنا

بلفظ الزيتون، كان ينتشر في دائرة واسعة من حوالي كل شجرة وكان عليها أن تبدأ من الطرف، حتى تملأ الأرض جيداً، ولا تترك وراءها ريتون واحدة. ذلك أن الشوباسي سيأتي للرقابة والكشف، وقد يأتي أحد من طرف أصحاب الكرم، وربما جاء السيد الكبير نفسه، وفي حال اكتشاف الهدر أو الصباغ أو عدم النظافة، سيعتبر ذلك قلة أمانة، وسيطردوساً من البورة والعمل كله.

قلت.

- لكنّ أحداً لم يأتي.

فقالت الوالدة الطيبة، الأمية، المحلصة في عملها وسلوكها

- إذا كان السيد لا يرانا فإن الله، من سمائه، ينطلق إلينا

سألت אחتي الصغيرة:

- هل يمكن أن أرى الله لو نظرت إلى السماء؟

- سأحك الله، هذا كفر لا تعودني إليه. - الله حاصر باطر. يرانا ولا

نراه.

- من أين ينظر إلينا؟

- من فتحة في السماء.

نظرت لأحت فلم تر فتحة في السماء، وعندئذ سألتني

- وأنت - هل ترى فتحة كما نقول الأم؟

قلت.

- الله لا ينظر من فتحة في السماء. يرانا دون فتحة.

- أمي لا تكذب.

- أمك تردّد ما تسمعه من الخوري.

- والخوري لا يكذب.

هررت كتمني، لم أساقش الوالدة كنت أشك بكثير من الأقوال والأفعال. لكنني لم أكن أملك الخميح الكافية لدحض ما أسمع. إضافة إلى أنني لا أريد أن أسبى إلى أمي. كنا قد فرفصا وجعلنا تلفظ الريتون بأصابعنا كما تفعل الدجاجة بالقمح. وكنا الكت اليسرى سرعان ما تمزق. وعندئذ نقرعها في الوعاء الذي أمامنا، حتى إذا أمنا الوعاء أقرعناه في السلة. كانت لعبة مسلية تلك، وكنا نقرع وظهرنا بحبة، ونستقل، خطوة إثر أخرى، على الوضع نفسه الذي نحن عليه. ودون إعلان، قامت بسا مافسة، دخلنا شه ماراف، فارت فيها، في الريتونة الأولى، أخني، وفرت في الريتونة الثانية، وقالت أمي.

- عافكم الله. لو علمنا هذه الرتيرة فسجمع عشرة شواتل في اليوم.

- وحصل، في هذه الحال، على شوال كامل من الريتون ؟

- هذه حصتنا.

أشما للتيحة. الأجر غير سيء، رغم كل شيء. الريتونة التي ننتجها، يناسف الريتون نغنها مشكلاً ما يشه الطبق الكبير من الحب. أحياناً يكون لونه أزرق بانهاء، وأحياناً فيه بعض السواد، لكن أوراق الزينون، في الخالين، تكون حصراء باعة، ولشدة الحمل، كان الريتون المهورر بشكل، على الأرض، كويحات صغيرة، تحتفها بفرح، لأنها جاهزة، وتساعد على ملء الوعاء بسرعة. لكن الأم قالت إنه قد يكون بين الحبات بعض الورق، أو بعض العشب، أو يكون بينه قليل من التراب، وهذا لا يجوز، لأنه عش، ويؤذي الزيت في المعصرة، فيعدو عكراً.

حاولنا شكلاً آخر للعمل، يقوم على احتفان حب الريتون، بالراحتين، ثم نغنيه من العشب والورق والتراب، فوجدنا صعوبة في ذلك. كان أيسر، وأفضل لنا، أن تلفظ الزينون حبة حبة، وهذا ما نصحتنا به الوالدة التي عملت قبلاً بجمع الريتون، لكن العودة عن الابتكار الذي نجأت إليه الأحت أفقدها الأمل في الفوز من جديد، وكان بمثابة إحباط لها، وهذا ما

أفقد المباراة رحمتها، خاصة وأني خرجت منها، ساء على طلب الوالدة، كي
أنير زيتونة جديدة، بعد أن أوشكنا على الانتهاء من الريتونات الثلاث التي
نبرها الوالد

إن طلب الوالدة هذا جاء فرجاً ليس لأنه يسمح لي بالحركة،
وبالرياضة، وبفرصة نبر الزيتون، وسماع هريزه الحريري، بل لأن ظهري،
من الفرصة والانحناء، راح يؤلمني عند الحفوف. حيل إلي أن الكلبيين قد
نصرونا، فهما يؤلمانني، وقد سكّت عن ذلك، كي لا أفصح نفسي أمام أمي
والختي، وحتى لا ييسان التعب عليّ، أو أعدي الآخرين بنعمي وملي
السريعين

حملت مرواطي وبدأت العمل، كنت أشيق الزيتونة من جوابها، لكن
فمنها تحتاج إلى تسلق الجدع، وهذا ما ضاعف من فرحي، إذ أعادني إلى
أيام الطفولة السابقة، يوم كنت أنسلق الأشجار مع أنراي، بحثاً عن أفراخ
العصافير، في الأعشاش الصغيرة، في أشجار الدلب والخور والكيثا في
حديقة المشية، في مدينتنا إسكندرونة.

أنجرت نبر الزيتون الأولى وأنا أشعر بتوتر وتقلص في عضلي
الساعدين، لم يكن النبر رياضة. كان عملاً شاقاً بدا لي، في البدء،
رياضة أخذته على أنه كذلك وفرحت به، لكن الاستمرار أتعبي، فكرت
في الاستعفاء، غير أن سؤالاً سبق في ذهني: من يتولى هذا العمل؟ بعد
الوالد، أنا الرجل في العائلة، صحيح أنني نحيل، ضعيف البنية، لم أخلق
لعمل شاق، غير أن هذا لا يعفي من العمل، فإذا لم أنبر الزيتون، كان
على الوالدة، أو الاختين، أن يتولين عوصاً عني، أو كان عليّ أن أنادي
الوالد، فأواجه فضيحة مدوية، لا أمام الوالد وحده، بل أمام كل من
يعمل على البورة من الرجال

كأبرت وبدأت بالشجرة الثانية. كانت فتية، ناصرة، مثقلة بالزيتون،
وكانت دائرتها واسعة، وغلغالها كبيراً، يحتاج إلى زند قويّ، فأضمرت أن

أسرها واستريح أعود بعد ذلك إلى لفظ الريتون، أجمعه ريشا النفط
 أماسي، ريشا تحت الحروق الملتئمة في كفي من جراء الفقاعات التي ظهرت
 في الراحة اليمنى - كذلك اتوبت، إذا ما كان عليّ أن أبشر النبر في اليوم
 التالي، أن أحضر خرقه أربط بها راحتي، وبذلك أنقي ما أصابني اليوم.
 كنت أعمل وأفكر - أصرب بمرواحي خواب الريتونة، بحركة اليه تصدر
 عن جسد يعرف واجبه ويقوم به - أما عقلي فكان يرحل إلى بعيد، ونعمل
 عجلي في استرجاع ومصات الذكرى، وفي التساؤل عن معنى هذا الكون،
 وسبب محي الإنسان إليه. وموعد مغادرته دون أن يفهم لماذا جاء ولاقي
 سبب راح.

كان نساؤي يتحدّد، يتشعب، يخلق لنفسه دوائر يمرّ من إحداها إلى
 الأخرى دون أن يتوصل إلى معرفة ما كت أريد، وهو سرّ الوجود، السر
 الذي يشرح لي قصر الأعمار وطولها، امتلاك النعمة والحرمان فيها، شفاء
 أهلي الموصول، وشفاء العمال والفلاحين الدائم، نعيم الأسياء، وأصحاب
 المال، يسر المالكين الذين يتحكمون بالبائسين من أمثالنا، وعيشنا الزرقي
 تحت وطأة فقر عديم الرحمة.

كذلك كنت أعطي، أحياناً كثيرة، نصي للذكريات، وعندئذ أعيش
 الماضي، أسنعه يوماً وشهراً وعاماً، وأبحث عن وجه أليف، وصديق
 وفيّ، وفناة التقينها ذات يوم - ثم أعرج على إسكندرونة وحيّ الصاخر،
 وأحاديث البحارة، وتغرّدهم على ما هم فيه من حرمان يقودهم إلى الموت،
 وانتفاصات المدينة، ومطالب العمال، والنضال ضد فرنسا، والمظاهرات
 التي تقوم، ولربّ قيامها بفرح ونفاد صبر.

لقد كنت مسكوناً بالأفكار وما أزال، وكانت أفكارني في تلك الأيام،
 بحجم عمري وسداجتي، وإذا استعيدها الآن أصحك منها، لكنني لا أنكر
 أبداً أنها كانت صادرة عن توف إلى العدالة الاجتماعية، وما برحت كذلك.
 هكذا، وأنا أبر الزيتون وأجمعه، كنت مستغرقاً في أفكارني، وعندما

كنت أنبر إحدى الزيتونات جابهني ضجيج غريب، كريمة، ورأيت جسماً غريباً، أسود، طويلاً يتركز في الغلغال، ومنذ رأيتي انحلت كالحبل الشخين، وتدلت وهو يقلع برأسه تحوي، منفضضاً بلسانه ذي السبنتين، ثم التفت على جذع الشجرة، وانساب على الأرض، أسود طويلاً، بارداً، قبيحاً، نحيماً، فالتقيت بالمرواط ورحت أصرخ، فأراً بأنجاه الوالدة والأختين، اللواقى التفتن ورأين الحنش، فخن بدورهن وولن الأدبار مذعورات

هذا الصلّ المخيف أذكره جيداً. كان الأول من نوعه الذي نفع عليه عيناى، لم أكن قد رأيت صلاً أسود بهذا الطول، الشخن، الحجم، وهذه العدوانية في العينين السوداوين، المحاط بؤنؤهما بدائرة بيضاء أو صفراء، مما اعطاهما سعة أكبر، وأدخل الرعب إلى صدري على نحو أشد. كانت عينا الصلّ رهيبتين، وكان بدنه الأسود، اللامع، الفقري، يبدو كأنه مدهون بالزيت، وقد أشراب بعنقه، وترك لسانه يخرج طويلاً، ثم دار قربنا وانساب بأنجاه التحم مرة أخرى. قبل أن يغيب حدق فيّ، كأنه يستعدّ للوثوب عليّ، فصرخت وفررت وأنا أرتجف، ولم التفت إلى وراء حتى صرت على مبعدة منه، ومن سوء الحظ أنني تركت المرواط من يدي لشدة خوفاى، ولم يبق لي ما أدفع به عن نفسي لو انسلّ الحنش وراثى، راغباً في لدعيا أو إيذاى

انشأت الأم، حين استعادت روعها، تصرخ بي:

- لا تخف!

لكنها، هي، كانت قد خافت. وكانت الأختان قد هربتا، وفي طريقهما انقلبت سلّة الزيتون وتبعثر ما فيها، والأم التي وحدها، سبق لها ورأت حنشاً، تناولت حجراً بكلتا يديها، ورفعته فوق رأسها، عازمة أن تجبه الصلّ، وأن تقتله دفاعاً عنا. وخلال الدقائق التي مرّت على هذا الوضع، لم أعرف كيف وقف هذان الخصمان، هذان العدوان، وجهاً لوجه. كانت الأفعى السوداء، المخيفة، الزاحقة، تدافع عن نفسها بعد أن أصبتها،

ربما، بالمرواط، وكانت الأم التي تسمّرت في مكانها، رافعة الحجر إلى أعلى، مفادية عنا بجسارة لا أدري كيف واتتها.

كل ما وعيته، من تلك اللحظات الرهيبة، أن الأفعى، التي كانت في وضع الاستعداد، متلعة العنق، مشرعة اللسان، جاهزة النابين، كفت عن الوثوب باتجاه الأم. ربضت ثمة، في أسفل الزيتونة، تنتظر، لقد خافت. أنا لم أر الخوف في عينيها، لكنني قدرته تقديراً، لقد خافت، وهذا طبيعي. كل إنسان، كل حيوان، يخاف إذا أنت واجهته، لكن الأم، بدافع الغريزية، دافعت عنا وعن نفسها بجسارة نادرة. رفعت الحجر واستدارت إلى الأفعى، دون أن تلوي رأسها. كانت مستقلة، تشهد المساء، بغير كلام، على أنها، في الذود عن أبنائها، قادرة على منازلة لبوة لا أفعى فقط. السماء، على كل، كفت عن الاختبار، أو عززت إلى الأفعى أن تمضي لشأنها. لقد تمّت، في لحظات، فدية عمر. الأم فدتنا، والأفعى فهمت. أدركت ضد من تقاتل، قد تكون، هي الأخرى، أمّاً، ولهذا رافت بنا. انسابت في خطّ حلزوني، طويل، وهي تتماوج. وتلمع تحت الشمس، لم تسلق أيما شجرة، ولم تهرب، بل انسربت رويداً رويداً، كالآمن، كالخارج من معركة متكافئة، وغابت في دغل من الشوك، ولم تعد ترى، ومن المشكوك فيه، كما قالت الأم، أن تعاود الكرة باتجاهنا، فالنوع الأسود من الأفاعي، نوع الاحناش هذا، ليس مؤذياً، أو عدوانياً، إلا إذا هاجمته، والأم رفعت الحجر ولم تضرب، لم تهاجم، أعطت الأمان لخصمها، أفسحت له مجال الانسحاب، وبذلك انتهت المعركة.

خجلت حقاً من الأم، كان خجلي واضحاً، أما هي فلم يظهر عليها أيما زهو بموقفها، ولم تلمني على موقعي. كل ما فعلته أنها نادتنا، وأفهمتنا أن هذا النوع من الأفاعي غير سام، وأنه يأكل القوارض، وأن علينا، إذا رأيناها في شجرة، أو دغل، أو حتى في الطريق، ألا نخاف، أو نهرب، بل نتوقف، ونقول لها:

- اذهبي يا مباركة!

رفضت هذا المنطق، قلت لأمي :

- الأفعى ليست مباركة .

قالت الأم .

- الأفعى حكيمة . سليمان قال في أمثاله : كونوا ودعاء كالحمائم ، حكما
كالأفاعي .

- سليمان لم يكن مشرداً مثلنا ، يجمع الزيتون في البراري .

- سليمان كان حكيماً ، كان أمراً على الإنس والجن ، وكانت نهابه جميع
الحيوانات .

- ولكن الأفعى خبيثة ، تتسلل وتلدغ ، وقد ذمها الشعراء . ولعننا الله ،
بسبب إغوائها لحواء .

- أنا لا أدري . - يجوز . أنت ابن مدرسة وتعرف أكثر ، ولكن الأفعى
مخلوقة أيضاً .

- لكنها مخلوقة تقتل الإنسان .

- والإنسان يقتلها .

قالت أختي :

- سواء كانت مباركة أو غير مباركة ، فأنا لا أستطيع رؤيتها . ما كنت
أحسب أن في أشجار الزيتون أفاعي . لن أقرب من غلغال أيما شجرة
قبل نبرها .

قالت الأم :

- الأفعى لا تؤذي إذا لم تؤذ . أخوك ، يا بني ، ضربها بالمرواط ، ومع
ذلك ذهبت في حال سيلها . هيا ، نحن لم نغلا شوالاً بعد ، أين
عودكم ؟ أمس كنتم تقولون سملاً عشرة شوالاً .

قاطعتها أختي :

- لقاط الزيتون صعب كما يبدو ، لم أكن أتصوره بهذه الصعوبة . انظري
يا أُمِّي : الشوك أدمى رؤوس أصابعي .

أدركت الأم، الآن، أن حماسة الأمس اصطدمت بواقع اليوم. كانت، هي أيضاً، تتألم، كان ظهرها يؤلمها، وكانت تتجلد، كيلا تشكو، أو تقول ما يوهن هممتنا، اقترحت أن نستريح قليلاً، أن نشرب بعض الماء، كي نزول «الرغبة» التي بعثتها الأفعى. وكما لو أنها أخذت التعب لحسابها، أو أنها تريد أن تضحي نيابة عنا، فقد تركتنا تحت شجرة الزيتون، حيث نحن، وحملت السلة وذهبت إلى الشجرة المنبورة نلقط ما نحتاج من زيتون. كانت عاداتها أن تنقذ منا دائماً، أن تعمل أكثر، وأصعب، وأن تدع لنا أن نراها، وأن نخجل من تكاسلنا أو استرخائنا. وقد أفلحت، هذه المرة أيضاً، في جعلنا نهض، حياء منها، ونذهب نلقط الزيتون معها، شاعرين بمكابرتها، كي ننحز ما هو مقرر علينا اليوم، أو نصقه على الأقل. لقد صمنا في الصباح أن نجني ما يملا عشرة شوالات، وما هو الضحي، ولم نغلا شوالاً بعد، وكلما اشتد الحر، استشعرنا ببطء حركتنا، ثقلها، وأحسنا أن جمع الزيتون، على هذا النحو المضني، ليس لعباً، وأن علينا أن نتقبل واقعنا، ونتجلد مثل الأم، ونستأنف العمل..

نبرت زيتونتين أخريين. تحملت بصبر ما واجهني من صعوبة. كنت استريح، دقائق، وأهدأ قليلاً، ثم أعود إلى شيق الشجرة بالمرواط، وأنطلع نحو الأم الدؤوب، المنكسة رأسها دون كلمة، كأنها فهمت ضرورة احتمال الشقاء وأذعنت لها، وباحتمالها هذا، كانت تدفعنا إلى المزيد من المثابرة، في صمت يلقنا، كأنما نسينا أنفسنا، وصارت بيننا وبين الأرض لغة خرساء، وصار التقاط حبات الزيتون دأباً غارسه كالطقس، ما دام علينا، ونحن في هذه الفلاة، أن نأكل خبزنا بعرق جيبتنا، وأن نمضغ لقمتنا الغمسة بالدم وهذه الأشياء لم ثقلها الوالدة، لكننا فهمناها من صمتها، من تغالبها، هي التي عملت طويلاً، وكثيراً، في سبيل إطعامنا وكساننا، وكفي توفر لي بعض القروش للذهاب إلى المدرسة، لقد كان عليها، وهي حامل، وبطنها إلى حلقها، أن تقعد على طست الغسيل، من الصباح إلى المساء، وأن نخدم أسياداً كثيرين، وعمرها الذي تقضى في شقاء موصول، قد أهلها للراحة

الآن، ولكن لا مناص، ما دمنا، في هجرتنا هذه، ما نزال نحتاج إلى عملها ودعمها، وما دام الوالد لا يكسب ما يكفل لنا حياة بسيطة، تقوم على الكفاف

جمعنا ما تساقط تحت شجرة أخرى. صار لدينا ملء شوال من الزيتون. انتصف النهار، كان قائظاً جداً، ولم تكن الزيتون تفيء فيشاً ظليلاً، لأن الشمس، في سمتها العالي، أخذت تسكب على الأرض دسماً من الماء المغلي، يتبخّر ويتحوّل، عبر الفضاء، إلى ضوء ذرّاته جمرات من جهنم. أخذنا نلهث. انتهى الماء الذي معنا. اقترحت عليّ الوالدة أن أذهب وأملأ الإبريق من الجرة الموجودة على البورة. قالت إننا سنتغذى حيث نحن، ونواصل العمل بعد ذلك. امثلت لها. ذهبت، ملأت الإبريق، لكنني، في طريق العودة، رايت، فجأة، أفعى تخرج من دغل الشوك وتنساب في حركة جريئة أمامي. لقد أخرجها الحرّ من جحرها، لم تكن سوداء، كانت رقطاء مخيفة، وحين أحسّت بي، تحركت باندفاع، وانسلت على التراب تاركة وراءها خطاً متعرجاً. كانت تنسل وتتلع بعنقها، ورأسها المفلطح، بعينها المرعبتين، بترصدي، أنا الذي أسير حاملاً الإبريق، وليس في يدي حتى عصا يمكن أن أضربها بها فيما لو هاجمتني. رعيي، هذه المرة، كان أقل، ليس لأن الأفعى مرقشة، رفيعة، بل لأنها انسابت وأنا على مبعده منها. كنت حافياً، وكان مقدراً أن أدوس، في كل خطوة، على جحر أفعى، أو أن تشب أيّ أفعى، من أيّ دغل شوكي، وتلدغي بغتة، لذلك توقفت مشدوهاً، حائراً فيما أفعل. ومع كل رباطة جأشي، كان بدني قد اقتشعر خوفاً. لقد خفت على نحو ما، لكنني تماسكت فلم أركض. تسمرت حيث أنا، ورحت أراقب الأفعى، التي هي من نوع «عقدة الجوز» وهي سامة جداً

حين اختفت الأفعى تماماً، على مسافة بعيدة عني، تابعت سيرتي، سالكاً طريقاً آخر، متجنباً أن أمُرّ قرب الدغل الذي لطيت فيه. لقد غيَّض مرآها كل رومانتيكية الحياة التي تخيلُنها وأنا على الرابية عند غروب شمس

أمس، حيث لم أفكر بالأفاعي. صحيح أن هذه الزواحف المرعبة كانت في الظن، ولكن ليس من اليوم الأول، وبهذه الكثرة، وفي الأشجار وعلى أديم التربة الحارقة. فكرت وأنا أسير بالطريقة التي يمكن بها معالجة لدغة الأفعى فيها لو حدثت. شغلني ذلك جداً. كنت أعرف أن على الملدوغ أن يربط العضو الذي لدغ، ولكن من أين لنا الرباط؟ وكان على الرجل السليم، والأفضل أن يكون شيخاً مجرباً، أن يمتص السم ويصفه. وقد تنفع، كما سمعت من الوالدة، دجاجة توضع مؤخرتها على الجرح، فتمتص السم بحركة تنفّسها. إن هذه الوسائل البدائية، كانت هي الإسعاف الأولي، وهي غير متوفرة، ونحن، في هذه البرية، في هذا الفقر، في كرم الزيتون الذي يعجّ بالأفاعي، والعقارب، نسير حفاة، وأيدينا التي تعمل في الأرض، معرضة في كل لحظة إلى لدغ الزواحف السامة. لقد كان الموت، على هذا النحو، ينتظر كل فرد منا. وإذا كنت لا أبالي بنفسي، فماذا لو كان الملدوغ أمي أو אחتي؟ ماذا أستطيع، عندئذ، أن أفعل؟ كيف أدع هؤلاء العزيزات للموت على هذه الصورة البشعة؟ وماذا ينفع، لو قتلت الأفعى بعد لدغ أيّ منا؟ إن الموت، على هذا النحو الكريه، يتربّص بنا في كل خطوة، تحت أية صورة، أيّ دغل أو شجرة زيتون. ونحن نعرف ذلك ونخاطر. يا لشقاء الفلاح الذي يخاطر، في كل يوم، بحياته، في سبيل أن ينتج الخير لهؤلاء الأسياد الذين يستغلّونه على هذا النحو الرهيب!

لقد حسبت، في اسكندرونة، أن العامل وحده هو المستغلّ، وها أنا أكتشف، في هذا الريف أن الفلاح أشدّ منه بؤساً. إن عليه، في سبيل أن ينتج خيرات الأرض، أن يدفع الكثير من صحته وعرقه وتعبه ودموعه أبساً.

هذا الإحساس المضيئ بصعوبة الحياة، ملأني نعمة عليها. رفضتها، كنت في السنّ والوضع اللذين يجعلانني أرفض الحياة وما فيها من شقاء. لكنّ ما هو أدهى، أن على، ما دمت أعيشها، أن أتقبلها، وأن أكافح، بطريقة ما، كي أخفّف عن عائلتي ما تعاني.

لقد راودتني، تلك الأيام، فكرة الانتحار. ومن عجب أن هذه الفكرة ظلت تراودني طول حياتي، لكنني، مع ذلك، لم أنتحر. لم أملك الشجاعة الكافية لذلك من جهة، ولأن الأفكار التي أحمل حمتني من المغامرة من جهة أخرى.

رغبت، لشدة قهري، ألا أعود إلى أمي في الكرم. جلست على جذع زيتونة وأنا أفكر بما نحن فيه. كنت أمضغ قهري الذي أشاع المرارة في فمي، وبغير كلام، رحت أهتف: «يا للحياة الملعونة، لو وقع للآم، للأختين، للوالد نفسه، أيّ أذى، سيكون ضربة قاصمة لنا، وستنوء العائلة الصغيرة المهاجرة المشردة تحت وطأة مصيبة داهمة!».

تناولنا غداءنا تحت زيتونة هرمة. أكلنا خبزاً وزيتوناً وبصلاً. كان الطعام طيباً. كان غيره في المدينة، وكان الخبز من بقايا ما حملنا معنا من المدينة، وعلينا، هذا المساء، أن نخبز من الطحين الذي جلبناه معنا. وقد وعدتنا الأم، إذا نحن واصلنا على العمل، بالاجتهاد نفسه، أن تطعمنا خبزاً طازجاً على الصباج، مع شيء من الزيت، وأن تطبخ لنا برغلاً ببندورة.

قالت الأخت قدسية:

- لكننا أكلنا، ليلة أمس، برغلاً بالعدس.
- البرغل، يا حبيبي عمود البيت.
- قالت الأخت وهي تمضغ رغيفها.
- ليس لنا بيت ولا عمود.
- ليكن. البرغل عمود الخيمة. ماذا عندنا، إذا لم نطبخ برغلاً، مما يسند القلب؟
- ولكن البرغل كاد يفرّج في بطوننا.
- لعمة على كل حال. انظروا غيرنا، الفلاحين مثلاً.
- ما لهم، الفلاحون؟
- لا يجدون البرغل نفسه.
- وماذا يأكلون؟

— لا أدري . أمس ، وأنت على الرابعة يا بني ، جاء الفلاح يونس وقال لي : ماذا تطبخين ؟ ولما أخبرته . مجدرة ، أجاب : هذا أكل الأوامد .

سألته :

— وأنتم ؟ ماذا تأكلون ؟

« تنهد . . . قرفص إلى جانبي هزيراً معروفاً ، وظلّ يتابعني وأنا أعمل . عرفت منه أنه أب لثلاثة أولاد ، بنتين وصبي ، وأن بنتيه في المدينة ، نعملان خادمتين عند بعض الأغنياء ، مقابل ليرة في الشهر للبنات الواحدة ، وأن الصبي يرعى القطيع للسيد . إنه مرابع ، يأخذ ما يجني ، لكن الربع الذي يأخذه لا يصل إلى يده أو بيته ، فهناك الدريّة ، وشغل السخرة ، وإنشائه الشوباصي ، وهناك الفائدة على كل ليرة يأخذها على الحساب ، منذ الشتاء إلى أن يكال الحبّ على البيادر ، ثم هناك صاحب الدكان ، في القرية المجاورة ، يعطي الفلاحين على الحساب ، من الكبريتة إلى زجاجة الكاز ، ويسجل كلّ ذلك في الدفتر ، ومهما كان الموسم جيّداً ، يبقى للحنوتيّ شيء في ذمّة الفلاح ، يبقى له دين يُدَوَّر إلى العام المقبل وتتكاثر هذه الديون ، ومعها الفوائد الجديدة ، وحين يعجز الفلاح عن الدفع ، يستعين الدائن بالدركي للتحصيل ، فتباع المواشي ، ويحرق الفلاح إلى المخفر ، وقد يرسل إلى السجن إذا لم تنفع سياط الدرك على رجليه ، وهو مرفوع فلقه بواسطة بارودة . . . السيد لا يتدخل في هذه الحال لإنقاذ فلاحه . الدركي ، خدام السيد ، والسيد زلمة المستشار ، وهذا لا أدري لمن يتبع ، وحين يمرض الفلاح ، أو يتبطل ، أو يُسجن ، تُطرد عائلته ، لأن معيّلها لم يعد موجوداً ، ولم يعد يعمل مرابحاً ، بينما الزرع يحتاج لمن يشتغل فيه ، فيؤقّ بغيره ، وتُلقى حوائجه هو في الطريق . »

سكتت الأم ونحن جلوس حولها . أرادت أن نفرحنا فأحزنتنا ، رغبت أن ترسم الفارق بيننا وبين الفلاح ، فإذا هو فارق بسيط ، يقوم على طبخة البرغل التي هي أكل الأوامد ، ماذا يأكل الفلاح إذن ؟ قالت الأم : « الفلاح عزيز أكّد لي أن بعض فلاحي الجبل يأكلون الحشيش . لم أصدقه ، أقسم ،

قال إنه رأى قِلاًحاً يرعى الحشيش مع أولاده كالبهائم. طبعاً هذا غير صحيح. أنا رأيت الفلاحين، كنت في قرية «الأكبر» في بر أرسوز، ورأيتهم هناك، حال الفلاح، في كل أريافنا واحدة. قد تميز، هنا أو هنا، بوجود الخبز، أو الماء، أو المسكن، وهو غالباً كوخ من طين، لكن من حيث الأساس، كل الفلاحين مرابعون. الفلاح يا عيني، لا يسمى قِلاًحاً إلا للازدراء. في غير ذلك يقال له «مربع»، نحن أيضاً عملنا مرابعين، في بر أرسوز كان والدكم، إضافة إلى الزراعة، يعمل إسكافياً، ومع ذلك كنا لا نجد كسرة الخبز إلا بصعوبة. . كنا لستدين، فتراكم فائدة الدين، ولستدين لتسديد الدين، فترداد الفوائد، ولم يجد أبوكم من حل سوى الوسيلة التي يلجأ إليها الفلاحون: وضع اختيكم خادمتين عند اثنين من موظفي الحكومة في إسكندرونة.

سألت الأخت الصغيرة:

— وأين هما الآن؟

— الكبيرة ماتت.

— ماتت؟

— نعم ماتت. قالت الأم وهي تجفف دموعها بمريلها.

قالت لها أختي:

— ولماذا البكاء الآن؟ أما كفك، منذ رحلت، وأنت تبكين؟

— يا حرق قلبي عليها. كانت صبية جميلة.

سألت أختي الصغيرة:

— وأين ماتت؟

— في إسكندرونة.

— وكيف ماتت؟

قالت أختي:

— لم تموت لكنها رحلت.

— إلى أين؟

انتهرتها:

— أف . . لماذا تكثرين من الأسئلة؟ . . ماتت أو رحلت . . كله سواء . .
المهم أنها لم تعد موجودة . .

وقالت الأم من بين دموعها:

— اي والله، يا حرقه قلبي، لم تعد موجودة . .

كنت أعرف حكاية هذه الأخت. لقد اتفقنا، دون اتفاق، ألا نذكرها،
لأننا أن نرى الأم تبكي عليها، كانت تذكرها دائماً، لكننا، نحن الأولاد،
كان عزمنا علينا أن نقول شيئاً.

أخلدنا، نحن الأربعة، إلى الصمت. غمطى الصمت ثقيلًا فوقنا، رادته
الكآبة ثقلاً. قصة الفلاح قادت الأم إلى الاستطراء، كانت تعرف هذه
الحياة جيداً عاشتها. غرزت، مثل الفلاحين، في وحل الشتاء، وحين
يكون المطر، والرياح، والغيوم السود تحجب السماء بطبقة كثيفة، كان
الخوف يهبط علينا، مع الليل، وعند نضوجه بعدو هماً يتغلغل الصدور
الواقفة من جوع وبرد الطبيعة، هذه المنحة الإلهية، تصبح عدوًا للفلاح،
عدوًا يلاحقه بالمطر والوحل والزمهرير شتاء، ويلاحقه صيباً بالحر والذباب
والمرض. حتى في الربيع، حين تنفتح البراعم، وتنزير الورود، يكون
الفلاح في خشية على الموسم، وفي قلق من كبسات السيد ونكده، ومن
أعمال السخرة، في شق الطرق، أو قضاء الحاجيات. وفي الخريف، حين
الغلال على البيادر، تلاحقه عيون المرابيل، وتصادر حصته، تسديداً
للديون المتراكمة. الفلاح ابن الطبيعة، يعيش الطبيعة، لكنه لا يحس
بجانبها البهي، يغتاله العمل الشاق، اللانساني، ويخنفه الزعل، وتتجمع
عليه صنوف الشقاء، خارجة إليه من بطانة سوداء حتى في الأشياء الملونة.
وأمن، الفلاح في الأصل، التي هاجرت وعملت في الأرض، ومعطات
السكك الحديدية، وبيوت الأغنياء، والتي، في الأرياف، قاسمت الفلاحين
جوعهم وخوفهم ودموعهم، كانت قد سبت عادة الفرح، فإذا كان لها
وقت للراحة، مثل هذه المنبهات التي جلسنا فيها نأكل خبزنا اليابس، مع

حبّات الزيتون التي تناذم بها، كانت نعتاها الذكريات، وترجمها إلى دائرة الحياة الشقيّة التي عاشتها

جاء الأب ومعه حمار دون سمر^(١)، حمار على الزلط كما يقولون، وقد استعاره من فلاح حمل رينونة إلى البورة، على أمل أن يأتي ويحمل عليه ما جمعنا من رينون. كان جائعاً هو الآخر، وجلس معنا قليلاً في المي، فمصيح نصف رغيث مع الرينون، واستمع إلى الوالدة نفصّ عليه حكاية الخنش، في علعال الرينونة، وفصة الأفعى التي صادفتها وأنا أعود من البورة حاملاً الماء. كان من طبع الوالد ألا يحاف، لقد أمضى حياته في أعمال المراقى والمرايع والبياس، وطوّف في القرى كثيراً، ورأى من الأفاعي، سوداً وبيضاً، ما لا يحصى، وهو لا يفهم كيف أننا، أمام حشرات صغيرة كهذه، نخاف. لعنّه، إضافة إلى فقدان حاسة الخوف عده، أراد أن يبعث فينا الشجاعة فقال:

— الحية لا تعص إلا الذي يؤذيها، أنتم تجمعون الرينون ولا تطاردون الأفاعي، وهي تعرف ذلك ولن تؤذيكم. اتبهوا، احرصوا عند رؤية حية ما، أن تدعوها تذهب بسلام.

قالت الأم:

- لكننا حفاة، والأفعى موكلة بالأكعاب.
- من قال هذا الكلام؟
- ألم يقل الله خواء، حين أغوتها الأفعى، وطردت من الجنة، أنت نسحقين رأسها وهي تلدغ كعبك.
- ومن الذي قال هذا؟
- هذا كلام الإنجيل.
- في الإنجيل لا يوجد مثل هذا الكلام.
- كنت أنا الذي قلت لأمي، فالتفتت إلي مستحدة، وسألتني:

(١) السمر، عطاء لدابة، وهو من حلد وعيدان

- اليس هذا كلام الإنجيل؟

- ليس كلام الإنجيل، قرأت ذلك في كتاب التعليم المسيحي.

قال الوالد

- الأفعى لا تؤذي إذا لم تؤذي. ساحل ما معتم إلى الورد، وأنتم نعودون إلى العمل. هاتوا المرواط كي أنبر لكم ربتوة أو اثنين.

نهضت الأم إلى العمل فتعناها بدانا، بعد الظهر، بملء الشوال الثاني، فكرة ملء عشرة شوالا كانت خيالية، من نسج حاسة خيوطها عكسوتية. حتى الظهر لم عملاً سوى شوال واحد، ومعنى هذا أننا سنكون شيطرين، مجذيين، إذا ملأنا ثلاثة شوالا. لقد اكتشفنا أن حساب السوق لا يعنى على الصندوق، وأن ما كنا نطنه لعباً، هو عمل مجهد، يتفوس فيه الظهر لشدة الانحناء، وتتصلب الركب وتغدو غير مطاوعة للفرقصة، لا سيما بالنسبة للأم التي بلغت سن الكهولة. طلبنا منها أن تستريح، أختي هي التي اقترحت هذا، لكن الأم رفضت، أصرت على أن نعمل بدأ بيد، وقصت علينا بعض ذكرياتها تسلية وتشجيعاً، فاستعدنا، بسرعة، لياقتنا، وشرعنا بعمل بهمة جيدة، مماثلة للهمة التي بدأنا بها صباحاً. وفيما كنا نعمل، ددنت الأم بأغنية فنبعناها، ووجدنا ذلك مسلياً، مبهجاً، فأخذنا به، مكتشفين أن العناء، وخاصة بصوت الأم، حلوا، حنون، وأنه يصرفنا عن التفكير فيما نحن فيه، ويسينا التعب الذي هذا. لكن أختي الصغيرة رعت زعقة رعب قاتل، ولم تقو على الوقوف، بل ألقت بنفسها جانباً، وأخذت تزحف، على أربع، وهي ترتجف من الخوف.

- ماذا؟ - صاحت الأم - ماذا جرى يا حبيبتي؟

- حبة!

- أين؟

- تحت التراب!

ابتعدنا عن الموضع الذي أشارت إليه. كانت ثمة مدرة كبيرة، ونحتها نلطي الأفعى، طلباً للرطوبة، وهي تلتف مثل كعكة، وتشرب برأسها

فقط . قالت الأم إن علينا أن نبتعد، وأن نترك الزيتون إلى غيرها، لكن
أختي رفضت، لأن الأفاعي كثيرة، ويمكن أن نجد أفعى تحت كل مدرة،
وعلينا ألا نبالي، فإذا انسابت الأفعى تركناها. لا نؤذيها حتى لا تؤذيها كما
قال الوالد.

أمام هذه الشجاعة، والإرادة في البقاء وجمع الزيتون، أحسست، بدفع
من مشاعر الفتوة، أن علي أن أمثل دور الرجل، وأن أقتل الأفعى. كان
المرواط في يدي، وقلت للأهل ابتعدوا، ثم دفعت رأس المرواط في المدرة،
فإنسلت الأفعى وهي تشرّبت، وركضت الاختان خوفاً، بينما هجمت أنا
على الأفعى التي حاولت الهرب وهي تتلع بعنقها. ضربتها على ظهرها،
ضربتها بقوة، انكسر لعنقها المرواط، فتلوت الأفعى التي انكسرت إحدى
فقراتها ولم تعد قادرة على الانسلال، وهذا ما شجّعني على صربها ببقية
المرواط الذي في يدي حتى أجهزت عليها، ثم سحقت رأسها سحقاً جيداً،
فيه نوع من الانتقام، التشفي، الخوف من انبعاثها ثانية. ولما أتممت قتلها
قلبتها، وقلبت المدرة التي بقرها، خوفاً أن تكون ثمة أفاع أخرى، أو أن
يكون للأفعى المقتولة فراخ صغار، لكن الأم، وهي تسمع أنني أنوي، لو
وجدت صغار الأفعى، أن أقتلها أيضاً، قالت متوسّلة بلطف:

— لا تقتل الصغار يا بني. دعها تذهب في سبيلها.

— ولكنها أفاع ..

— مع ذلك يجب ألا نقتلها. حرام القتل، ولا سيما للصغار، الله لا
يرضى بهذا.

— الصغار أيضاً قادرة على اللدغ ..

— ليس الآن حين تكبر، الصغار لا يؤذون أبداً.

لم نجد صغار الأفعى، لهذا لم تكن ثمة مشكلة، لو وجدتها لقتلتها.
كنت أقتلها بدافع الخوف ليس إلا. أنا أيضاً أحب الصغار، ولا أريد لها
الأذى، لكن الأفاعي سنكبر، ستغدو سامّة، وربما، بعد شهر، هي نفسها
التي تلدغ أحداً منا. الأفعى لا يؤمن جانبها، كبيرة كانت أم صغيرة، وفي

قتلها درة لخطورها، لكن الأم رفضت جميع حججي، ولم أشأ أن أخالفها، لكنني، بيني وبين نفسي، كنت قاسياً على مثل هذه الزواحف، حتى لا تأخذني شفقة عليها. لو كان جرو كلب، صغير قطة، أو كانت صغار دبة أو أسود، كان مفهوماً أن نراف بها، وأن نأخذها، ونطعمها، ونربّيها، أما الأفعى فهي مخلوق بغيض، تنسرب في عمودي الفقري برودة عند مرآها، وليس قتلها لوجه القتل، بل لدفع الأذى، لعقل الخوف الذي في داخلي.

جمعنا الزيتون من تحت الشجرة وانتقلنا إلى أخرى، كنت قد سبقت الأهل ونبرت، لكن الأشياء مرّت بسلام، ولم نجد أيما أفعى في الأشجار أو على الأرض.

طاب لنا العمل في الأصيل، مالت الشمس عن سمتها، خفت الحرارة، صار في الوسع تنسّم الهواء المسائي المنعش، وغدا انعكاس الظلّ يوحى بتلك الهالة الغروبية المقبلة، هالة الوداع، بين السماء والأرض، والفراق بين النور والطبيعة. الآن ستغمر الظلمة الكائنات، وهذه الكائنات التي ستلتقّ بالليل، وتبرد، ستفتح على نحو آخر لقد كان الأصيل، بالنسبة إليّ، فرحة كاملة، وكان بالنسبة إلينا، في ذلك العمل الذي نباشره، بشيراً باقتراب الراحة، وبذهبيّة الضياء التي توشّج الموجودات، منسجة على مهل، ملوّنة كشبكة نورانية، يجرّها القرص الكبير وراءه، ويمضي بها إلى البحر، حيث يدعنا نشاوي، من خمرة تُحسّ ولا تذاق، تُسلمنا، شيئاً فشيئاً، إلى ذلك الخشوع الابتهالي للمغيب، تتلوه سكيّة، وسجود للنفس، وصلاة ترفعها السريرة، وراحة للجسد، والفكر، وعودة إلى البوّة، ثم إيقاد النار والخبز على الصاج، وطهو طعام المساء، وتقديم جني اليوم من الزيتون إلى الوكيل، والشعور المعافي، المتولد عن عمل كان في وقته صعباً، مرهقاً، لكنه، الآن، وفي المحصلة، أصبح غلّة، هي المكافأة العذبة كأعطية السماء.

بلغ الزيتون الذي جمعناه ثلاثة شلالات ونصف شوال قالت الوالدة وهي تلتقط آخر حبة منه، وتنصب ظهرها واقفة:

- كفى! الحمد لله -

أضاعت وهي تجمع أشياءنا استعداداً للعودة:

- ليس بسيطاً ما جمعنا يا أولاد، إذا داومنا على العمل، بالوتيرة نفسها،

عدنا إلى اللادقة وقد حصلنا على مردود جيد. استريحوا الآن، خذوا

نفساً، ويمكن، عند الرجوع إلى الخيمة، أن نتعصرونا.

قالت אחتي

- لا داعي للعسروية، مادما ستعشني باكراً.

وسألت الصغيرة:

- ماذا لدينا للعشاء؟

- سأطبخ منزلة الباذنجان. وستطيع أن نأكل معها الفليفلاء الخضراء

والبصل، وسيكون لدينا الزيتون. . . خبر الصاج طيب، لا سيما وهو

سحح، حتى ليؤكل دون إدام.

فركنا أيدينا من غبطة. ما كان صعباً أصبح سهلاً. أعطينا برهاننا. .

اجتازنا الامتحان بلجاح. كان علينا أن نتظر الوالد لتحميل ما جمعنا من

زيتون. وقد داخلني زهوٌ غير قليل لأنّي فزت بشيء الوالدة على لبر الزيتون

وقتل الأفعى. مارست، في ذاتي، شعوراً بالسعادة. لم أعد ذلك الطفل

الصغير في ريف السويدية، أو ذاك الصبي في ريف أرسور. أستطيع الآن

أن أقيم منطرة على طرف الكرم وحدي، هذا لن يحدث طبعاً، لكنني

أستطيعه. لم أعد ذلك الخوّاف، الذي كتته. طلبت من والدتي وأختي أن

يذهبن إلى البورة، وأبقى مع الزيتون ريشاً يحضر الوالد راحلة لنقله.

دندنت بأغنية حين صرت وحيداً، أخذت أقطع المنطقة جيئةً وذهاباً.

احتفظت بالمرواط المكسور الذي قتلت به الأفعى. ضربت به الأرض عدة

مرات. مرّغته بالتراب لإزالة أثر الدم عنه، قرّرت، عند العودة إلى البورة،

أن أقطع غصون اليعنص وأصنع منها عصياً ليوم الغد، نهّلّت وأنا أسمع

أجراس الجمال قادمة من بعيد، كانت أشبه بالنواقيس، في دقاتها الموزونة،

الرثانة، التي تبعث على الذكريات في سجو المساء، أو عند المغيب الحلو،

الذي صار الآن مكتئلاً، ولم يبق إلا أن تسحب الشمس آخر ذبولها وتسبح في البحر الذي طالما رصدت غطسها فيه

طلب منّي الوالد، وسحب على البورة، أن أسجل في دفتر صغير مفدار ما جنبنا من زيتون في يوما وصعدنا الزيتون على القبان، شوالاً بعد آخر، وسجلت الرقم في دفترتي ذهت إلى الخيمة لأغسل وجهي ويدي. كانت البورة، في ساعة المليب تلك، تحفل بضجيج غير مألوف، كل الذين يحرسون كروم الزيتون، حملوا إليها ما جنوا في يومهم، كانت هناك نساء أيضاً، حملن أكياساً من الزيتون على ظهورهن ورؤوسهن، جئن من مسافات بعيدة وفد هنّ الثعب. لكن المطعمون، بدلاً من وزن زيتونهن، راح يثرثر معهن. كان يتكلم، يقصحك، يزن، ويسجل في دفتره، لكنه، كما قال الوالد، استبقى بعض الصبايا فترة أطول، هذا التصرف لم يعجب الأب، كان مستعجلاً، يريد الانتهاء من التقبير وجمع الزيتون من حوالي البورة ولم أعرف سبباً لاستعجاله، أنا الذي وجدت مسرة في رؤية الناس، واقتربت منهم، أسمع ما يقولون، وأصغي إلى ملاحظاتهم عن العمل والوزن، اندغمت في الجو الخلو، جو الكثرة الذي يساعد على تصعيد الفرح من الصدر. لكن الوالد ما لبث أن اقترب من الوكيل وهمس في أذنه شيئاً لم أفهم ما كان يريد، غير أنني، ذلك المساء، أدركت أن الوالد ذهب إلى خمار القرية، وأنه شرب كأساً على الواقف، وأحضر بطحة ليشربها مع الوكيل.

أتساءل الآن: هل كانت حواسّ والدي راداراً يهده، أين ما ذهب، إلى موقع الخمار من الجهات التي يكون فيها؟ هل يشمّ أنه رائحة العرق على هذه المسافات البعيدة، فيسير، هو التعب من عمل النهار، مشتاقاً كأنه ذاهب إلى لقاء حبيب؟ ترى لو واعدته امرأة، على هذا البعد، هل كان يسير إليها، وسط هذا الليل، وبين غابة الزيتون، دون أن يخشى زاحفة أو قاطع طريق أو وحشا؟ أحسب أنه، في سبيل العرق والمرأة وحدهما، كان يفعل ما فعل. أنا لم أر لسانه يخرج، أو لعابه يشطّ، عند ذكر العرق والمرأة،

لكنني اجترم أن ذلك يصبر. هو قادر، كالربّس، أن يغامر ضد العاصفة. قادر أن يجابه وحشاً، أو يأكل أفعى حيّة، أو يخرج في الليل، ويواجه بندقية مسدّدة إلى صدره. وهو لا يبالي بشيء في سبيل كأس أو امرأة، في هذه الحال يفعل ما لا يفعل، لكنه في اليوم التالي، يندم بنفس الإحساس العميق والصرامة الحادة، اللذين سكر أوزن بهما.

إنه مدمس حقاً. لا بدّ أن يشرب، لا بدّ أن يعشق. لا بدّ أن يرحل. ثم لا بدّ أن يندم، ولكنّ الندم يأتي متأخراً، يأتي ليعيش فيه حالته في السكر والعشق ثانية. بعد ذلك ينسى، يعاود ما كان فيه، دون أن يأبه لإضاعة عمل أو مال أو سمعة، ودون أن يفكر، هو الأب، بمسؤولية أبوته، وبغير أن يتساءل هل أكلت روجي وأولادي أم ناموا على الطوى. إنه حارس الزيتون على البورة، لكنه، دون شعور بأنه يخون واجب حراسته، قادر أن يبيع البورة والزيتون الذي عليها، أو يهبها لآية عاهرة، في سبيل قضاء ليلة معها. إن جسارة قلبه، ولامبالاته الكاملة بالعواقب قيمتان بدفعه إلى ضرب الوكيل، والتصدّي للشوباصي، ومهاجمة السيّد، ثم لا يكثر بما يقع، ولا يتألم والقيّد في يديه، فالسجن لا يكسر شوكرته، والظلمة لا ترهبه، والنوم هنا، في بيته، أو هناك، على رأس جبل، سواء بسواء، لأنه في الحالين، يغطّ في النوم معاق، ويضحك ضحكاً معاق أيضاً. ومن عجب أنه ليس أبله، ولا فيه بلادة، ولا يغضي على ضيم، ولدى أوّل كلمة لا تروقه، يندفع إلى مشاكسة قاتلة، يزهرق فيها روحه، أو يضرب بما في يده، من العصا إلى السكين إلى المسدس.

كنت، وأنا أراه يسلك طريقاً مظلماً، في غابة الزيتون، أعرف إلى أين يذهب. لو فلاحه رأته، وواعدته مقابل أن يعطيها جنّ نهار كامل، من حقّ السيّد أو من حقنا، لفعل بغير تردد. أثمر، جميل، شهواني إلى حدّ العار، تتدلّى شفته السفلى المكتنزة، وتقطر غلّمة، وفي عينيه ومبيض نخاله وميضاً في عيني أفعى، وحين يقرر أمراً لا يتراجع عنه.

أدركت الوالدة أنه ذهب إلى الحّمارة، قالت لي ذلك فلم أصدق. محال.

نحن في البرية، وفي كرم الزيتون، وعلى مثل هذه الحال من الفقر والتشرد، وهو يذهب إلى هناك، إلى كوخ ضائع في الريف، ليدفع آخر ما معه، وليستدين، ويشرب، ويعود متسلطناً، بجرّ الذيل تيهاً، كأنه السيد على السيد، بل سيد الكون بأسره. وكنت أنساءل: ما الذي فيه ليتحمّل هذا الشر؟ وما الذي فيه ليغري النساء؟ وأية صبوة يحملها في شفتيه ويديه وجوارحه؟

لم أُلْهُ على عشق النساء في هذا الريف. أنا أيضاً كنت، تلك الليلة، وفي اليوم الأول لتواجدنا على البورة، واليوم الأول الذي قتلته فيه الأفعى، على غاية من الاسجام الروحي، وإذا لم أشتبه الخمرة، فقد اشتبهت المرأة. تفتحت حواسي الموروثة عنه في فتور المبكرة. كان في وجهي عينا أفعى، وميضها، وكم من مرة متفول لي النساء، في حياتي المقبلة «لا تنظر أنت في عيوننا» وأسأل: «لماذا؟» ويجيب: «هكذا! في عيونك دعوة إلى الخطيئة». ولقد ارتكبت الخطيئة، أحببتها، عرفت النساء، وكنت، كوالدي، قادراً أن أحب حتى قميصي الوحيد، في سبيل امرأة، ولهذا ربما غفرت لوالدي رخاوته أمام المرأة، ولكنني أبداً لم أعفر رخاوته أمام العرق.

طوّفت في البورة وما حولها. صعدت الرابية، عشت سجو الليل، أكلته، شربته، أشعلت فوانيس النجوم، طافت بي رؤى الصبايا اللواتي حملن زيتونهن إلى البورة، تنشقت شهوة الليل، بحثت عن شعرة الصبوة في جسدي لأقتلعها، لكن شيئاً من كلّ ذلك لم يجد.

كنت صغيراً، وفقيراً، وكان وقت امتلاكي للمرأة باكراً بعد

لم أدرك ماذا كان يعنيه أبو اسكندر بقولته : «لا تتشاطر عليهم في الوزن»
إلا حينما راقبت عملية التقبين . كان المطعون ، وكييل القبان ، يزن على
هواه ، ولمصلحة السادة ، بضربات من القبان تطفّف الميزان وتسرق
الفلاحين . تأتي الفلاحة بكيس الزيتون فتضعه على القبان ، ويمدّ يده ،
بخفّة إلى البيضة ، فيحركها سريعاً ، ويفتل مغلاق القبان وهو يصيح :
- ثلاثون كيلو . . غيره . .

تحمّل الفلاحة في القبان ، ويبضته التي وقفت على رقم لا تعرف أن
تقرأه ، ثم تراقب يد الوكيل الذي يدير المغلاق ، وتغفر فاهها من دهشة .
يكون كيس الزيتون قد هدأ هذا هدأً ، وهي تحمله على ظهرها من مسافات
بعيدة ، فإذا الوزن ، عند التقين ، يعطي رقماً لا تفقه منه سوى أنه رقم
صغير ، وحين يسجل في ورقتها تعلم أنه لا يساوي نصف تعبها .
تقول الفلاحة :

- والله قليل يا مطعون . . ثلاثون كيلو فقط ؟

يتوقف أبو نعمة عن الوزن ، يرفع رأسه ليراها بعينيه الزئبقيتين من تحت
قبة القش ، صائحاً بها :

- وكم تريدین؟ القبان ، يا אחتي ، لا يستحي منك ولا مني . . أما وزنت
الزيتون أمامك ؟

- لكن زوجي، أمس، قال لي إن الكيس كان يزن خمسين كيلو على الأقل.
- وكيف عرف زوجك المحترم؟ يده قبان؟
- يعرف من رفع الكيس على ظهري.. نطقت الدم حتى أوصلته، وبعد ذلك لا يزن سوى ثلاثين كيلو!
- أنا، يا אחتي، لا وقت عندي للأخذ والعطاء.. هذا هو الزيتون، وهذا هو القبان..
- لكن زوجي..
- يقاطعها صائحاً:
- فلقبني بزوجه.. لماذا لا يتفضل جنابه ويأتي بنفسه ليرى القبان؟ أم أنه جعلك دابةً تنبرين الزيتون، وتجمعيه، وتحملينه إلى هنا، وهو قاعد يفرك..
- وبلي.. لماذا تثقل في الكلام؟
- خجلت؟ كان الأولى أن تشكريني على أنني مشيتك بسرعة. قبت لك دون أن أدعك في الصف، أنا أعرف أن أولادك في البيت يتظربوك، وأن أمامك عملاً كثيراً، من حو التنور إلى الخبز إلى الطبخ إلى.. أظنك فهمت..
- عيب يا أبو نعمة.
- لا عيب في الحلال يا אחتي.. وإلا من أين هؤلاء الأولاد؟ ما هو شغلهم في الليل؟ من العشي تنامون.. ثم بظ يا أولاد؟
- وماذا نفعل إذا لم يكن لدينا زيت كاز، وأننا نتعب في النهار، وننام باكراً كي نستيقظ باكراً، ومن جديد، من مطلع الشمس حتى مغيبها نعمل في أراضي الخواجة؟
- هكذا إذن أنت تتذمرين، غير راضية من وضعك، تريدن أن تجلسي في البيت ويأتيك كل شيء إلى عندك؟

- لم أقصد هذا . لا أريد القعود في البيت لكن العمل من الصباح الباكر إلى ما بعد مغيب الشمس يهدّنا، إننا نعمل جائعين، وليس على ظهورنا ثياب

- هذا من كسلكم وقلة تدبيركم، أنتم، كما أعرف، كما هو الواقع، خنازير.

وتحتج امرأة أخرى قائلة:

- وبلي كيف تقول هذا؟ كيف تشبهنا بالخنازير - نحن بشر - من بني آدم.

- أنتم من البهائم . .

- حتى البهائم عندها ما تأكله . . أما نحن . .

ويقاطعها ساخرًا:

- ماذا أنتم؟ . . ألا تأكلون وتشربون؟ ومن فضل من هذا؟ اليس من فضل السيد . . هيا . . اخربي . . غيبي عن وجهي . .

وتعود المرأة الأولى إلى الكلام قائلة:

- ما نقوم به تعجز عنه البهيمة . . ويعد كل تعبنا تشمتنا . ثم تعتدي علينا، وقبّانك هذا غير مضبوط . .

- يا بنت الكلب . . هكذا يتكلّمون مع الوكيل . . تهمني في دمّي . . لولا انشغالي لاشبعتك ضرباً . .

- ولماذا تضربني . . أنا أدافع عن حقّي، أنظلم من الحالة التي نحن فيها، من كثرة الشغل المفروض علينا من شقائنا وتعاستنا.

- لو كان زوجك هو الذي يقول هذا الكلام . . لكان حسابي معه عسيراً

- زوجي يشقى كما أشقى، وأولادنا في شقاء أكبر، لا مدرسة، لا حذاء، لا كساء، وهم يعملون في الأرض منذ ولا دتهم . . فماذا نفعل؟

- أنت تعرفين ما يجب أن تفعلينه . هذا شغلك . أنا أعرف ما يجري فقط . تظنّيني لا أعرف حياة الفلاحين؟ أنتم كالدجاج، تنامون من المغرب .

- وماذا لدينا في الضيعة حتى نسهر يا أبو نعمة؟ ناترو؟ سينما؟ نحن نتعب النهار كله ، ونأكل كسرة خبز في المساء وننام كالقتل .

- وماذا تفعلين قبل النوم؟ قولي . أم تخجلين؟

- الحياء واجب . الله أمر بالسّرة . أنت تقبّين لنا أم تستجوبينا . انتبه حولك صبايا .

ويضحك المطعون وهو يرفع قبعته القشّية لتهوية صلته قائلاً:

- الصبايا تعرف أكثر مني ومنك . لم يعد أحد غشياً . وإلا كيف تتزوج بنت الأربعة عشر ؟

وتدخل الفلاح بوس في الكلام قائلاً:

- تتزوج لأنها تتزوج . هذه عادتتنا . إذا تزوجت البنت باكراً تصون نفسها عن الفحشاء .

- لم نقل شيئاً . تتزوج يعني تتزوج . لم يعد أحد غشياً هذه الأيام . لا تضطري إلى الكلام على المكشوف

ضحك بعض الواقفين، وعبس بعضهم الآخر، وتابع المطعون كلامه

- أنا لست غريباً عنكم . ولست ضدكم . أراكم كل يوم، وأرى الحاجة في السنة مرة، من أقرب إليّ إذن؟ ثم هذا هو القبّان، اقترب . تعال . اقرأ الرقم الذي تقف عنده البيضة .

- لو كنت أعرف القراءة ما كنت فلاحاً على البورة .

- ماذا تعرف إذن؟ اللتّ والعجن؟ تذميم الآخرين . ؟ هذه آخر مرة أسمع فيها كلاماً حول القبّان . أنا صاحب وجدان . صاحب حقّ

وماذا ينوبني من اللّعب بالميزان . . قل أنت . . ماذا ينوبني؟ ماذا يدخل
إلى جببي . . أنا لا أخذ الزيتون لبيتي، من القبان إلى المعصرة . . قلبي
معكم، قلبي عليكم، وقلبيكم على الشيطان . . تفو . . جنس عاقل . .
هاتي زيتوناتك يا بدّور . . ضعيهم على القبان . .

كانت بدّور هذه فتاة في مقتبل العمر، ساهدة الصدر، جميلة العينين،
مكورة الأرادف، وقد سمعت ما دار من حديث، فغطت وجهها بمنديلها،
لتحجب ابتسامتها، وراح المطعون يروّزها، يتفحصها إلى درجة التعرية،
ويصبح بها .

- قدّمي . . انحني على الكيس وجلسيه على القبان . لماذا أنت جفلانة؟
- هه . . الكيس جالس، ماذا أفعل يا ويلي؟
- نحن نشغل أو نأكل هوا؟
- نشغل يا أبو نعمة . . الكيس على القبان . .
- اربطيه . .

احتنت لتربطه، أو تصلح من وضعه، فاهتبل المطعون الفرصة ليغرز
عينيه في صدرها . كان يعملق وقد التمعت في ناظرية شهوة جنس فاجرة،
وفيها هي تربط الكيس وقف وتطلّع إلى ردفها، ولزّ عليها، ودار من حولها،
ثم وزن الكيس وقال لها همساً .

- هذه خمسة كيلو زيادة لأجلك . سمعت؟ أنا أسرق الخواجة
- أخوته . . العن والده بالسرّ، ولماذا؟ كلّه لأجل عينيك يا مقصوفة .
- وأنت . . هل بلغت سلامي لوالديك . . قلت لأهلك إنني سأزورهم . .
- أين تنبرين اليوم؟ وحدك أم أهلك معك؟

فصاح فلاح من الواقفين :

- طولتها يا أبو نعمة . هل تحكي حكاية مع بدّور . . صار الليل ونحن
ننتظر

- وماذا إذا انتظرت؟ .. أنا أدقّق في القبان يا حبيبي، لا أريد أن تدخل زيتونة واحدة في ذمتي ..
- ولكنك تشلف القبان بضربة واحدة مع هذه، وتظلّ تماحك مع تلك .. ونحن على نار ..
- النار في بلعومك .. صلّ على النبي ..
- اللهم صلّ وسلم عليه ..

قالها الفلاح بتقوى صادقة، بينما عاد المطعون إلى بدور يسألها في أيّ كرم تعملين؟ سامرّ عليك غداً .. أريدك أن تجمعني لي سلّة من العطون للخواجة .. أوصاني عليها اليوم .. أريدهم عطونات على الكيف .. من أيديك الحلوين .. لا تسالي عن الوقت .. في المساء أعوّض لك أتعابك ..

كان والدي، في حال كهذه، ينزّ الشيطان من أنفه. أصغى إلى ما تقوله بدور، أضمر أن يكون هو لا المطعون في الموعد .. هناك، في الكرم، تحت آية زيتونة، يمكن أن تستسلم إليه، إن لم يكن غداً فبعده .. إنه أحقّ بها .. إذا عارض المطعون ضربه بأيّة أداة. جعله مطعوناً حقيقة. إلى الفرد بكل نصائح الأم عن التزام حسن السلوك، مع الخواجة والشواصي والوكيل، إنه حسن السلوك على كل حال. وهل الحديث مع امرأة، تحت زيتونة، فيه إخلال بحسن السلوك؟ إذا كان المطعون يطبخ لنفسه فلن يدعّه يأكل طبخته بمفرده. أما إذا قاسمه فيها، ودعاه إلى «لقمة طيبة» مع هذه أو تلك، فإنّه سيرضى، سيتظاهر بأنه لا يرى ولا يسمع، سيفضي، ويدع الأمور تسير على أحسن ما يرام، أما إذا عاكسه المطعون، فسيثيرها فضيحة.

وكان المطعون، من جهته، يلاحظ تسكّعات الوالد حوله، يتضابق، يقول له:

- أنت، يا مصري، خليك بعيداً .. على أطراف البورة ..
- أنا أساعدك .. لا أريد أن يتكاثر عليك الفلاحون ويغشوك ..
- من هذه الجهة لا تخف .. أغشّ والدهم ..

- وماذا كنت تقول للحرمة ؟
- أعوذ بالله . . اسمع . نحن هنا نشغل .
- كويس . . إذا كان هناك شغل نشغل . . ولكن هذا لا يمنعك من التحرش بالنساء . ماذا كنت تقول للحرمة ؟
- قلت لها جلّسي الكيس على القبان . ماذا في هذا ؟
- فيه أنك تريد أن ترى صدرها .
- أنا ؟ . . اسمع . . إذا عدت إلى هذا الحديث . لن تبقى على البورة . .
- وأنت لن تبقى سالماً . لن تنجو من يدي ولو استنجدت بالحكومة نفسها .
- ولكنك لا تفعلها .
- ما هذه التي لا أفعلها ؟ ضربك . تصرف ضدي تر .
- أنا أقول إنك لا تفعل تلك الشغلة مع فلاحه .
- وماها الفلاحه . . أليست امرأة ؟
- أعوذ بالله . . تريد أن تخرب بيتك .
- بيتي ؟ أين بيتي ؟ هذه الخيمة ، وهذا السهر ، وهذه السرقة . . نحسب أني لا أراك ؟ أنت لا تقبّ على المضبوط ، تطفّف الوزن ، تأكل على هذه خمسة كيلوات وعلى تلك سبعة وعلى الثالث عشرة ، تفعل السبعة وذمتها ، لكن هذا لا يدخل في حساب الخواجة . إنه يدخل في حساب الخاص . . مع كل جمال نرسل إلى المعصرة كيساً باسمك . أراك . .
- أراقبك . . إذا وقفت ضدي فسأعرف كيف . .
- هس . هس . لا ترفع صوتك . ماذا تريد ؟ أمس ، وقبله ، وقبله ، ردت في الوزن لكم . نفعتكم .
- لا تنفعنا . رنّ بحق الله . لنا ولغيرنا .

- أنا أزيد لكم .. أراعي مصلحتكم - وأنت أيضاً راعٍ مصلحتي

- ويدور ..

- ما بها؟

- وزكّية؟

- من هي زكّية هذه؟

- لا أعرف .. ولكنني أحذرك ..

لقد سمعت كلّ ما دار عن بعد، كنت أرغب في تأديب المطعون الذي يسرق تعب الفلاحين، فإذا لم يكن التأديب فالزجر على الأقل، وها هو والذي ينهض لهذه المهمة. لكنني شككت في براءة نواياه، والذي لا يكثرث للحق بل للمرأة، وسيكون تنافس بينه وبين المطعون. لكنّه تنافس معروف النتيجة، فالوالد هو الذي سيربح، ولو دفع ثمن ذلك بقاءنا على البورة.

كان المطعون قصيراً، بديناً، أصلع تقريباً، عيناه سماويتان، وفي أسفل ذقنه طعجة كأنّها حفرت بسكين ذي نصل حادّ. ولم تكن به علامة فارقة سوى صغر كفيّه، واستدارة رأسه كبطيخة، وثلعبية حركاته، التي لا تؤمن على شيء. وقد راقبته وهو يعمل، ويتحدّث، ويطوف في البورة، وكرهته لا أدري لماذا. ربما كان ذلك عائداً إلى أفعوانيته، فهو يلطي دائماً تحت قشّ الأشياء، وميله إلى أذى الناس، وخاصّة الفلاحين، أشدّ من ميل الشوباصي إلى إرهابهم.

كان هذا، الشوباصي، قاسياً، واضحاً في قسونه، كان نائباً للسلادة في هذه الكروم والأراضي التي عمل فيها الفلاحون، وهمه أن يعتصر أكبر قدر من طاقتهم، ويسلك إلى ذلك طريقاً مختصراً، الضرب بالعصا أو الكرياج، وحبس الفلاح في القيو، تحت القنّاق أو طرده من القرية نهائياً، لكنّه لا يلجأ إلى الثعلبية، ولا ينتهك نساء فلاحية، ولا يقبل رشوة أو ملاطفة من أحد. إنه يقتل عند اللزوم، وقيل إنّهُ قتل بعض الفلاحين فعلاً، وفي كل مرة كانت تحفظ وقائع الجريمة على اسم مجهول، لذلك فإنّ حظوته، عند الأسياد، كبيرة، وهيبته عند الفلاحين مرعبة، غير أنّه لا يلدغ كافعي. كان

من هذه الناحية غمراً، يمزق صحيفته بأنياه ولا تأخذه شفقة بأحد، ويطوف كل تلك الأنحاء وحده، ليلاً نهاراً، معتدلاً بقوته، وهذا هو الفارق، بين صراحته ومباشرته، وبين غموض المطعون ودسه الدائم .

على كل حال، فقد كان الوالد من صف الشوباصي، وكان معجباً به، ويكره المطعون ويناكده منذ الأسبوع الأول لوصولنا. أما أنا فكنت أنفر من الاثنين، اعتبرهما أداتين في يد الأسياد، أرى إليهما كجلادين، وكانت سرقة المطعون لحقوق الفلاحين تثيرني أكثر من مغالته لبذور أو زكية، وأعجب خال الوالد، الذي لا يسكت على ضيم، كيف لا يهجم ما ينزل بالفلاح، بمثل ما يهجم إغواء المطعون لبذور أو غيرها.

ربما كنت الوحيد في العائلة، وعلى البورة، الذي انتبه إلى الصراع الخفي بين والدي والمطعون على امرأة، وأوجس من ذلك شراً. وكنت أترقب أن يتطور التنافس إلى عدا، تدفع نحن ثمنه، بانقطاع رزقنا الذي يشكل موردنا الوحيد.

وما كنت، في ذاتي، على أدنى شك بأن الوالد سيفوز. ولهذا رحت أراقبه، وراح هو يلاطف بدور، ويحوم حولها، ويدافع عنها، بيتها كان المطعون ثرثاراً لا أكثر، خوفاً. والوالد يدرك ذلك، ويقصعه تحت إبطه، لا لأجل الزيادة في الوزن، بل لأجل العرق والمرارة.

كان العرق هو الدواء الوحيد الذي يسكن انفعال الوالد. كان مدمساً إدماساً مرضياً، ولكم نصحته الوالدة أن يقلع عنه وتح في هذا الريف، ولكم تمنيت على الله أن يصرفه عن هذا الداء، غير أن رجاءاتنا، الوالدة وأنا، ذهبت أدراج الرياح.

كانت رجاجات العرق تظهر في الليل، يحضرها الوالد لا بدري من أين، ولا يدخلها الحيلة بل يجلبها في أدغال الزيتون، هنا أو هناك، لكننا نعرف أنه قد شرب من رائحته، من ارتخاء شفته السفلى، من عيبه اللين، يشاء في فيها ماء رجاجتي خاص. وفوق ما كان يشرب وحده، كان يجلس،

في الليل، مع المطعون ويشربان، وبعد أن يسكر الوالد، يغيث بين أشجار الزيتون، قاصداً قرية ما، مكاناً ما، ويتركنا فريسة للقلق والهَم، أما المطعون فكان ينتشي فقط، وفي حال كهذه يرغب في الحديث إليسا، وملاطفة الشقيقة التي تحدجته بنظرات راجرة، فيدرك أن وقعته سوداء معها، فيقلع عن ذلك حاصراً محاولاته بالفلاحت، اللواني كان يسرفهن، يستغلهن، ويسطو على من يجد لديها رغبة في ذلك.

وكان من عادة الوالد، حين يشرب أن يظل صامتاً مصعباً، يستمع إلى قصص المطعون راغباً في تصديقها. لم يكن، من جهته، يتحدث عن معامراته وسكره. كان يعيش الحاليتين دون أن يذكرهما في قصصه الكثيرة يرى ذلك عيباً، يراه خروجاً عن المألوف. . كان من عادته التستر على مثل هذه الأمور. فوق أنه كان يرفض أن يعترف بأنه يسكر، وأنه، في سكره، يهوي إلى درك يأباه الرجل. كان يريد أن ينسى، كالباحر تماماً، لحظة ضعفه هذه، كيلا يعادوه الندم، هذا الذي يثقل وجدانه، دون أن يستطيع التحلي عن الفعل الذي كان مصدره

وكانت الوالدة تصيح، من حيث يجلس أمام خيمتنا، ناصحة إياه بالكف عن الشرب، ويحييها بأنه انتهى، دون أن ينتهي، ودون أن يترك في الزجاجة فطرة واحدة. ففي جلسة انسجام كهذه، والمطعون يروي قصصه المشكوك في صحتها، كان يحلو للوالد أن يسهر طويلاً، سبياً وأن السهر شرط في وجوده على البورة، لكنه، من حين لآخر، ينتهر المطعون، يعربد في وجهه، فيحاول هذا أن يسايره، خشية أن يناله بأذى

في قلب إحدى هذه السهرات الحلوة، سمع إطلاق رصاص في أحد جوانب الكرم أعقبه لفظ وضجة، فقال الوالد وهو ينهض، متسلحاً بعصاه

- لا بد أن حادثاً قد وقع

- لا حادث ولا ما يجزئون. . اجلس

- لن أجلس. . هيا بنا

رفض الوالد الجلوس . كان رصاصاً حقيقياً هذا الذي سمعه . وكان
يخشي على البورة ، وعلينا ، فصاح بالمطعون :

- هيا . لماذا أنت جالس غير مبالي؟

قال المطعون :

- لأنني لم أسمع شيئاً .

قال الوالد :

- أنا سمعت . . هذه أول مرة يطلق فيها عيار نارِي في الكرم . لا بد أن
حادثاً قد وقع ، وعلينا أن نتبه ، أن نذهب إلى حيث وقع الحادث .

تصاغر المطعون وازداد قصراً ، كان بديناً ، تحال أن رقبتة غير موجودة ،
وأن الرأس قد ركب على الجذع مباشرة ، بينما ساقاه النحيلتان لا تتناسبان
مع ضخامة جذعه بأي شكل . وبعد أن تشاءب قال :

- مالنا ولهم . . دُعهم يطلقوا النار . نحن مسؤولون عن البورة فقط .

- ولكنه كرمنا . . والخراس ، في طرف منه ، أطلقوا النار .

- لعنهم راوا ضيعاً .

- لنذهب ونز الضيع إذن .

- وهل تسرك رؤية هذا الحيوان التتن؟

- يسرني أن أرى ما يجري هناك . .

كانت كل من في البورة قد خرجوا . الوالدة والأختان وأنا ، والفلاحان ،
وأجمال الذي بات ليلته على البورة بانتظار جماله التي تأتي صباحاً لقد
تحرك الجميع إلا المطعون . رفض الذهاب بإصرار وقال :

- دعونا في مكاننا . . إلى جهنم بما هناك . . المثل يقول : «اللهم حوالينا ولا
علينا» .

صحك الفلاحان ، وقال عزيز :

- لكننا نحن هنا ، في الكرم . . يعني علينا وليس حوالينا .

- سدّ بوزك أنت . . تترك البورة وتذهب، وإذا أغاروا عليها في غيابنا؟
- من يجروُ على ذلك؟
- لا أدري . . هل هذا الرصاص على الفاضي؟
- قال الفلاح يونس ساخراً:
- قوّصوا على الضبع يامعلمي .
- سدّ بوزك أنت أيضاً . على الضبع طبعاً . وعلى مَنْ تظنُّ؟ من يسرق زيتوناً على أمّه؟ وكيف تكون السرقة والإنسان لا يرى إصبعه . . إذا كانت هناك عصابة، عدم المأخضة، فالخطر على البورة . . سأبقى على البورة . . انتظروا . . ساحضر الفرد^(١).
- دخل خيمته وأخرج فرداً صغيراً يكاد لا يرى . كان الفرد غمّة سبعة، لا يصيب لمسافة مترين، ومع ذلك كان المطعون يتباهى به . وقد شكّله في زنّاره، وقال للوالد:
- اجلس . . إذا صار هجوم على البورة تصدّيت بمفردي هم .
- لن يقع هجوم على البورة ما دام فردك في يدك . مع ذلك يجب أن نذهب .
- أنا لن أبرح البورة . .
- أعطني الفرد فأذهب وحدي .
- أنا لا أتخلّ عن فردي لابن امرأة .
- شزّرة الوالد بنظرة وقال نزقاً:
- أبق الفرد معك . . لكن عليك أن ترافقنا .
- لن أغادر البورة .
- أنت حرّ، سأذهب وحدي . يجب أن أذهب، أنا حارس هنا .
- أنت حارس على البورة . . انتبه . في حال الهجوم على البورة سأحمّلك المسؤولية .

(١) الفرد - المسدس

استر الوالد

- آية مسزولة هذه ؟ تطني ابن اليوم البوره سائلة، ابن بمرها احد هبا يا - إذا كان صعباً سألني به للفرحة، وإذا كان لصاً
- اعود بالله، إذا كان ماذا؟ وما كانت عصاة، وهذه تكون مسلحة، وفي الليل - اعود بالله - يا عزيز - اسمع - فركس إلى الشواصي، قل له علفت في انكرم - قل له عن لساني أن يحضر المائتين^(١) والرجال ويسرع - ساضع على كعتك -

قال الوالد بعد العصر

- يعني لن نذهب
- قلت لن أذهب

تناول الوالد عصاه ومضى يترقب أجرة التريبون - كان يمضي مسرعاً، وما لث أن غاب في العظمة، وعندئذ أرسل المظموون وراءه هذه الكلمة:

- حشري!!

قالت الأم حاتمة

- يا ويل - كيف حشر نفسه في شيء لا يعبه؟
- وما أدراك؟ الآن، إذا كان أحد لاطياً وراءه وينوء، يتناول من طهره - طلق - ويقع على الأرض، وهاب يا مطاردة في هذا الليل - الحق عليه - حشري، ماذا ذهب؟ ناديه - ناديه يا اختي!
- مادت الأم -

- يا سالم! - يا سالم!

- عبر أن أحداً لم يحب - كان الوالد قد ابتعد، وعندئذ قال المظموون -
 - دمه على كمة - سيذهب هدرًا - فالتصحت هذه محالفة - حتى لو عاد سائماً فهذه محالفة - ترك البورة حصة مسلكية - إذا كان هو لا
- (١) التريبون - السدبة، كمة تركبه

يسأل، لا يعرف الأصول، لم يخدم في سلك الدولة، لم يجرس قبل
 الآن، فلما عرف كل شيء جيداً الحارس، عدم المؤاحدة، لا يترك
 منطقته، وقعت عينا، في اللادقة، مشاحرة، فركعت في كل
 الاتجاهات، كان الليل قد نصف، لم أجد حارساً في الزاوية
 ركعت إلى منطقة أخرى، رأيت حارساً، أبلغه الساء، أتدري ماذا
 قال؟ قال إنه لا يستطيع الدخول في منطقة غيره، لا يمكن أن يترك
 حراسة الزاوية الذي هو فيه، رجونه، نجته، أحاطي، لو لم أكن
 حارساً لم ركعت معك، أما ذلك حارس، وفي هذه المنطقة، فإن
 المسؤولية تقع علي إذا تركتها سأكتفي بإطلاق الصفات فعلاً
 أطلق عنه صفات حارسه الدورية من بعيد، أبلغها عن
 المشاحرة انتهت مهمته، لم يستطع أحد أن يلموه، كان تصاطياً،
 وأمر القانون والنظام، ولا ما معنى النظام؟ ما معنى الانضباط الخاص
 بالشرطة والقرك؟

أخبرت الأم وهي ترتفع

- لا ادري، لم أكن حارسه، ولا أحد من العائلة مارس هذا الشيء.
- أنت ادري، القانون ما (وضرب على صدره) والنظام ما (وضرب على صدره ثانية) وقد كنت البيلة، نظامياً، قانونياً، ولولا عباد روجك
 شئت بالقوة، كان يجب أن أضعه بالقوة، حتى لو اضطررت إلى
 سحب القرد، أو اضطررت إلى إطلاق النار.

صاحت لأم

- ويلى، كيف تطلق النار؟ نفته؟
- نفته، نعم نفته، أنا لا أريد التكلّم عن نفسي، أنا، يا اخي،
 مشزلي، أنا، عبد المروم، فـ... فـ... يع
- أهذا كلام؟ نفته لأنه خالفك وذهب ليرى الحادث؟
- أفضله ولا تتحمل مسؤولية، سبت أبي، ها، وكيل الحواجه؟

- أنت وكيل القبان، وكيل الحسابات، لكك لا تستطيع أن تقتله الرب لا يسمع . وانت، أنت لا تفعل هذا . أرجوك .
- لا ترجئي الرجاء لا يتبع . إذا دارت في رأسي، وكان القالون إلى جانبي، فأنني أفعل كل شيء . زوجك، يا أخي، تمادي تمادي كثيراً هل عرفت ماذا فعل أمس؟
- ماذا فعل من غير شر؟
- تدخل بيبي وبين بدور، تحرش بها . زوجك «سوسجي»^(١)
- أنا لا أصدق . روحي يبح السكر، لكنه لا يركض وراء النساء .
- ماذا؟ تسترّين عليه؟ لقد فعلها ها، على البورة، وأمام عائلته، وبوجودي، وفي دائرة مسؤوليني . لا . . . لن أسكت على هذا بعد اليوم، لن أسمع له . وإذا تمادي أكثر، عدم المؤاخدة، شكوته إلى الخواجة وأبعدته عن البورة . وجعلت تعكم يضيع .
- يا شحار رأسي، لا تقل هذا . أرجوك . استجربك .
- لا تستجيري . . . لن أقبل رجاء بعد اليوم . . . يكفي . . . قلت يكفي، يعني يكفي . هذا الفرد لم أجلبه من بيت أبي، الخواجة بذاته أعطاني إياه . قال لي: «أطلق النار ولا تخف . المحافظ مثل الخاتم في إصبعي» .
- وأنت لن تطلق النار، أليس كذلك؟
- سأطلقها . نعم سأطلق النار عند اللزوم، وإلا لماذا أحمل هذا الفرد؟
- كانت الشقيقة التي ورثت عن والدي الجسارة، تسمع وهي تبتسم . كانت حركة المطعون نوعاً من تمثيل مثل بالنسبة إليها . كان تهريجاً تريده أن يستمر حتى يعود الوالد . إنها تعرف، كما تعرف الأم، أن الوالد يسكر، يرحل، ينشرد، يرتجى إذا رأى امرأة، لكنها كانت تعرف أيضاً أنه لا ينخضع
- (١) سوسجي : زير نساء .

للتهديد، ولا يصبر على صيم، ولو سمع ما يقوله الوكيل لحمله وطمره في بيدر الزيتون.

أخيراً قد صبرها كما يبدو، فخرجت من وراء الأم وقالت للوكيل باستهزاء كامل:

- أنت ستطلق النار؟

- اسكني يا بنت ادخلي الخيمة - لا أريد، عدم المؤاخدة، تدخل في شؤون الرجال

- أنت تهتد بطردنا من البورة جميعاً تخوف أمي المسكينة. أين هذا الفرد الذي تنهز به (١)؟

- الفرد في مكانه - وأنا لا أتحدث مع النساء!

- ولكنك كنت تهتد أمي

- نعم هتدتها وماذا تريد من حضرتك؟

كانت في يدها عصا تنكي عليها، رفعتها. تقدمت وهي تقول:

- أين الفرد؟

أجفل الوكيل. رفع عصاه، ناحت الأم، ركض الفلاح عزيز، وتابعت الأخت تقدمها وهي تقول:

- أعطني الفرد -

- لماذا؟

قالت باستهزاء وهي تمد يداً ثابتة إليه:

- كي لا تقوص والذي حين يعود!

- أنا لن أعطيك أي فرد -

(٢) تنهز: تشجع مع حركات تهديده.

- إذا لم تعطني الفرد أخذته بالقوة.
- أنت تأخذين الفرد بالقوة؟
- أو تطلق النار عليّ؟
- أنا أطلق النار على امرأة؟
- أنت رجل . . رجل خطير . . أنت لا تفعلها مع امرأة . . تريد رجلاً مقابلك . . وبعد قليل يأتي والدي ونرى . . ستكونان رجلاً لرجل . والدي أيضاً لا يضرب النساء . . والدي يضرب رجلاً مثله ، وأنا أخاف أن تقوّسه ، أخاف جداً ، أنحلّ من الخوف ، لذلك أعطني الفرد . . أو أعده إلى الخيمة . . هيا!
- وإذا لم أعطك الفرد ولم أعده إلى الخيمة؟
- عندئذٍ أجعل الشوباسي ، والخواجة ، والحاضرين ، يروون قصة طريفة عنك .
- لا تهدّيني . . اسمعي ، أنا لا أؤخذ بالتهديد . . المطعون لم يأخذه ابن امرأة بالتهديد ، المطعون يؤخذ باللين ، بالكلمة الطيبة . . قولي كلمة طيبة وأنا أترك الشرّ جانباً .
- أعطني الفرد إذن .
- وإذا أعدته إلى الخيمة؟
- نعود أصحاباً كما كنّا . . نعود عائلة واحدة كما عشنا حتى الآن .
- ولن تقولي لوالدك شيئاً؟
- لن أقول له شيئاً .
- اسمعي ، أنا لا أخاف من والدك ولا من غيره ، ولكنني أريد أن أكرس الشرّ .
- هذا واضح . . أنت لا تخاف . . ولماذا الخوف؟ اذهب إلى خيمتك . . دُع والدتي بحافها . . كفّ بلاءك عنها ، سمعت؟ هذه آخر مرة أسمع منك

تهديداً . نحن ، هنا نعمل بعرق جبيننا . . الميزان في يدك ، ويدك وما
تطول ، . واعتباراً من الغد سأراقب القَبان . . أنا نفسي
ابتسم المطعون :

- هوه . . هوه . . لم تصل الأمور إلى هذا الحد . . لن أهْدِّدكم . . أنا
أهْدِّدكم ، ومن أنتم ؟ عظمي ولحمي ؟ عَمَك من يكون ؟ رَوج خالتي . .
تحسيني أنسى القرابة ؟ تظنّيني لا أعرف من هو أبوك . . وكيف كان في
إسكندرونة ، وقبلها في مرسين . . يا أخي ، ابتك لا تعرف القرابة التي
بيننا (هــى ، هـى ، هـى) لعن الله الشيطان . . لم نسمع ولا طلفة
واحدة من جديد . . معنى هذا كل شيء على ما يرام . . والمسألة
سليمة . . سيعود المصري بعد قليل . . العمى وكيل بقوَص الحارس ؟
من سمع بهذا . . والدك ، يا بنتي ، أخي . . سترين الآن ، سترين حين
يعود أنا إخوة . .

عاد الوالد بعد قليل . . كان يضحك ، ويهزّ برأسه ، فوقف المطعون ،
وتقدّم نحوه ، وصاح معطياً لنفسه وضع خطورة مبالغاً فيه :

- خير . . خير . . ماذا جرى ؟

ضرب الوالد يداً بيد وهو يقول :

- يا عيب الشوم . . حسبناها معركة ، حسبناهم أطلقوا النار على
لصوص . .

- وعلى من أطلقوا النار إذن ؟

- على ضيع . . (قالها وهو يواصل الضحك) .

صاح الوكيل :

- أما قلت لكم إنه ضيع ؟

زوى الوالد بين حاجبيه ، أغمض عينه الواحدة علامة الهزء
والاستخفاف والغضب :

- أيّ ضيع هذا يا مطعمون؟ جئت . . ؟ ما دخل النواطير في الضباع في هذا الليل؟

صاح الوكيل نافذ الصبر:

- قل لنا إذن، ماذا هناك، على من أطلقوا النار؟

قال الوالد وهو يدفع شفتيه علامة الأسف:

- أطلقوا النار يا حضرة الوكيل على فلّاح؟!

- فلّاح؟

- نعم فلّاح . من وح، نفسها فتأمل! كان الفقير يمرّ بالكرم، وخطر له أن يمرش حفنة زيتون لأولاده .

- يعني يسرق؟

- وهل هذه سرقة؟

- وما اسمها إذن؟

- فشرة . .

- كيف فشرة؟ وابن هو الفلّاح الآن؟

- في الطريق . . قيّدوه وساقوه إلى البورة . . ثلاثة نواطير، وجفت مصوب إلى فلّاح أعزل، فهل يرضيك هذا؟

- يرضيني؟ نعم يرضيني . . يسرق ونقول له عافاك؟ لولا سهر النواطير لضاع الكرم، أين هذا الخنزير؟ ابن ابن الكلب هذا؟

قالها وشرع يروح ويحي . . الوالد قرفص قرب البورة يلفّ سيكارة، وظلّ الوكيل يمشي، يقف، يتكلّم، يؤشّر بيديه، أصبح مستثّاراً، خبر السرقة استثاره، وزاد في استثارته أنهم قبضوا على اللصّ، وساقوه إلى البورة .

أخرج المطعمون قضيب رّمان من الخيمة، وقام بحركات مسرحيّة

عترية، والوالد يروزه، ينظر إليه من طرف عينه، حتى إذا لم يعد لديه مجال للصبر صاح به:

- مالك يا مطعون؟ تذهب ونحنيء كالدجاجة التي في مؤخرتها بيضة، اهدأ، اجلس، ماذا ستفعل بهذا الفلاح الفقير؟

- أنا لن أفعل أي شيء، حين يصل سأطلب من النواطير ربطه بالزيتونة، تقييد جذعه إلى جذعها، وحين يصل الشوباصي يرى رايه فيه، أنا مسؤول عن البورة فقط. هو المسؤول عن الكرم، وعن الضيعة، وعن الزراعة كلها، والويل لمن يقع في يديه، سيمنى لو لم تلده أمه.

- ومن أجل ماذا؟ حفنة زيتون؟

- ليكن.. الحفنة مثل الشنبل، وهذا مثل البيدر.. السرقة هي السرقة من يسرق يعاقب، سترى الآن ماذا يفعل أبو اسكندر به. سيضربه حتى الموت، وبعد أن يشفي غليله منه يسلمه غداً إلى الدرك، ورأساً إلى السجن، وهناك، في «بيت خالته» يعرف أن الله حق، يترن.

- هكذا إذن يا مطعون؟

- وماذا تظنّ إذن؟ الدنيا سائبة؟ مال بيت «ف» داشر؟ ولماذا النواطير والوكيل والشوباصي؟ لماذا يدفعون لهم أجورهم؟ والدرك لماذا يعلفونهم؟ أليس لمثل هذه الأوقات؟

- وما دخل الدرك في القضية؟ فلاح كان يمرّ بالكرم.

قاطعه:

- أرجوك لا تستخدم عبارة كان يمرّ بالكرم.. أنا أسمعها منك، الليلة، للمرة الثانية. الفلاح، عدم المواخذه، لم يكن يمرّ بالكرم بل قصده، تسلل إليه ليلاً ليسرقه. هذه جناية موصوفة، عن سابق تصور وتصميم.

قال الوالد بهدوء وتأنيب:

- وما هي هذه الجنابة الموصوفة؟ وما معنى موصوفة، وعن سابق تصوّر ونصميم... تكلم بالعربي، تريد أن تعاقب هذا الفلاح الفقير، أم تلغلف القضية كأن شيئاً لم يكن؟

- ما شاء الله! قال حارس قال.. أنت حارس وتقول هذا الكلام؟ كيف، بالله عليك، تفعل إذا جاء فلاح غداً وسرق البورة أمام ناظريك؟

- سرقة الزيتون عن البورة شيء، ومرش حفنة زيتون للأولاد الجياع شيء آخر.

- كلاً واحد. السرقة هي السرقة أينما وقعت.. لقد سرق.. وقبض عليه، وهناك شوباسي، وحكومة.. ليكن هذا كله في علمك.

- كثر الله خيرك.. شهم والله!

- تعرّض بي؟

- استغفر الله.. من يجرؤ على التعريض بالوكيل؟

- لا تستغفر الله على الخطأ الأصل ألا تخطيء.. أنت، يا مصري، صاحب مشاكل. أعرف شقيقك، حذروني منك، ومع ذلك قبلت بك حارساً.. انتبه، أنا لا أستطيع، عدم المواخذه، أن أحميك كل الوقت.

- وأنا لا أحتاج إلى حمايتك..

- إذن صبّ لسانك.. دعه في حلقك.. لا تتدخل بما لا يعينك.. وهذه المرحلة التي عملتها الليلة لا أريدها أن تتكرّر. حين لا تكون السرقة على البورة فلا دخل لنا. أما إذا كانت على البورة فعندئذ أظهّر مرجلتك

- العمويّا جناب الوكيل..

- لا تستهزئ.. هذه السخريّة المسمومة لا أريدها

- أنا أقول العفو... من يجزؤ على سرقة البورة ورجل مثلك موجود عليها؟
- تنتقص من شجاعتي؟ أنت، يا مصري، لا تعرف من هو المطعون
بعد... لا أريد الكلام على نفسي، عيب على الإنسان أن يمدح نفسه،
أما عندما يحدّ الجدّ اسمع... لولا أن استعجلت بالذهاب لكنت
رايتني أخرج الفرد والقمة... أجعله جامزاً للإطلاق... وإذا اقترب ابن
امراة يلقى مصيره.

قالت أختي التي كانت تسمع الكلام:

- منذ ذهابك يا والدي وهو يتهور بفردة... احذر فقد يطلق النار عليك.
- علي؟ قال الوالد بسخرية (ومتوجّهاً إلى الوكيل) حقاً تطلق النار علي؟
- عندما يكون هناك موجب لا أتردد.

- مثل ماذا؟

- كان تنهون في الحراسة، أو تنهون مع اللصوص... قد لا تصل المسألة
إلى حدّ إطلاق النار، ولكن إذا اقتضى الأمر، انتبه أقول إذا اقتضى
الأمر.

قال القلاح عزيز:

- الوكيل يفعلها... أي نعم، يفعلها.

كان الوالد يدرج سيكارة، فلم يرفع رأسه بل قال:

- العفو منك يا مطعون... ولكنني، إذا أخرجت الفرد ثانية، سأضعه
هنا.

فاها وأشار إلى مؤخرته.

استثارت حركته الضحك من حوالبه، بينما أربد المطعون تغيير لونه.
ملأه الغضب، وعوى بغير داع:
- هذه قلة حياء...
- هذه قلة حياء...

نهض الوالد . ركضت أختي ووقفت في طريقه . أزاحها ، تقدّم بهدوء ، بأن الشر في العقدة بين حاجبيه ، لكن المطعون تراجع ، وصاح بالفلاح عزيز :

- انظر ماذا يفعل ؟ أنت شاهد . . سأخرب بيته إذا مدّ يده عليّ .

وما كان الوالد ينوي ضربه . أراد إخافته فقط ، فتراجع حتى صار على باب خيمته ، منكشأً ، متضائلاً أكثر مما هو في الواقع . وفجأة ضحك الوالد . قال وهو يخرزه بعينيه :

- لن أضربك . . أنت لا تستحق ذلك . . يا ضياع الضرب فيك . . أما إذا تأنّفت بعبارة مماثلة مرة أخرى فسترى !

لم يجب المطعون بشيء ، كان الفلاحان عزيز ويونس حاضرين ، وكان ، على أطراف البورة ، بعض الناس . وقد استيقظ الخوف في ذات المطعون ، ركبه وسواس من النوع الذي يعتاده إذا هدّده أحد ، لذلك أخلد إلى الصمت .

وحين تراجع الوالد إلى وراء ، خرج هو من الخيمة ، وتوجّه بالخطاب إلى أمي :

- ليس كرمي له ، بل كرمي لكم ، اعتبر ما كان كان لم يكن ، أنا ، بعد كل شيء ، لا أخون الخبز والملح . أنا هو الوكيل لا زوجك ، ومن الآن فصاعداً سأجعله يعرف هذا ، وأعامله كعزيز ويونس تماماً ، دون اعتبار للقرابة البعيدة التي بيننا .

قالت الأم ملطّفة الجو :

- زوجي لا يقصد شيئاً . سمع صوت الرصاص فذهب ليرى ما هناك ، وهذا لا يستدعي كلّ هذا الغضب منك .

- ماذا ؟ لا يستدعي غضبي ؟ ولماذا أنا وكيل هنا ؟ تظنّين أن الوكالة جاءتني بسهولة . . هذه حصيلة أعوام من العمل والتفاني والثقة التي نلتها

بوفائي وإخلاصي ..

- نحن نعرف هذا. نحترم وكرامتك لا نخالف تعليماتك.. بماذا تماهلتنا؟
قل، حاسيني إذا اقترفت ذنباً.

- أنت طيبة. أشهد بالله أنك طيبة، ولم تبدر منك بادرة سوء، أما زوجك؛
وابنتك، فلهما حساب عندي، وباله من حساب عسير.. حين يؤون
الأوان.

في هذه اللحظة علت ضجة من بعيد. كان النواظير الثلاثة،
وزوجاتهم، وأولادهم، يسوقون صخر الفلاح مقيداً، وقد ركض بعض
الفلاحين من هنا وهناك، وحاول بعضهم تسوية القضية، كيلا تصل إلى
البويرة أو يسمع بها الشواصي. لكن الناظور الذي أطلق النار رفض ترك
صخر وأصر على تسليمه إلى الوكيل.

كان صخر الفلاح طويلاً، بارز العضلات، معافى البنية، في عينيه
جسارة، وفي وقفته نوع من التحدي الذي زاد في رهبة المطعون، وجعله
يزعق بأعلى صوته:

- يا ابن الكلب، تسرق زيتوننا؟ قل لي منذ متى وأنت تسرق؟، وكم شوالاً
ملأت حتى الآن، ولمن بعت الزيتون المسروق؟

قال صخر الفلاح هادئاً متماسكاً:

- أنا لم أسرق أي زيتون، لامن كرمكم ولا من الكروم الأخرى. أنا
مرايع عندكم، وقد تشققت كفاي من العمل في فلاحه هذا الزيتون،
وكننت ماراً بالكرم، فخطر لي أن أقطف حفنة لأولادي الذين يعيشون
على خبز الشعير الأسود اليابس.

- اخرس، أنت كنت تسرق.. أما فلاحه الأرض فهي من واجبك ولك
عليها أجر.

قال صخر:

- أيّ أجر هذا يا مطعون؟ . إنه لا يطعمنا خبزاً . نحن حفاة عراة
نشأّم بالحشيش . إننا لا نعرف الشبع ، حياة الكلاب أفضل من
حياتنا .

قال المطعون :

- على فرض أن ما تقوله صحيح . . فهل يبرّر هذا سرقة الزيتون ليلاً؟
- قلت لك ما كنت أسرق . . مصادفة مررت بين الزيتون وقطفت مقدار
حفنة ، فهل هذه سرقة؟

قال الناطور الذي أطلق النار عليه :

- وكيف تكون السرقة إذن؟

- تكون بالغجوم على الكرم ، وقطف الزيتون بالقوّة .

قال المطعون :

- لو كان لديك سلاح هاجمت البورة نفسها .

قال الفلاح بحقد :

- يا ليتني فعلت . . هذا الزيتون المكوّم هنا ، من حقنا ، من تعبنا ، من
عرق جباهنا .

- والأسیاد؟ وأصحاب الكرم؟

- يبقى لديهم ما يكفي ويزيد . .

كنت أقف في الحلقة التي وضع صخر وسطها . . والبنادق مصوّبة
إليه . كان جبلاً ، بعينه السوداوين ، ولامبالاته بكل ما ينتظره من
عقاب ، لقد سرّني مرآه ، أسعدتني كلماته . كانت كلمات مما سمعتها في
إسكندرونة . وتعبيراً عن إعجابي ركضت وأحضرت له طاسة من الماء ،
فشربها كلّها ، حين أدنيتها من شفثيه .

قال لي :

- تسلم يداك

عندئذ انتهرني المطعون :

- من أمرك بجلب الماء له ؟

- أحضرته من تلقاء نفسي .

- لو فعلها غيرك لأريته كيف يتجاسر على ذلك .

قال الوالد :

- ولكن الرجل عطشان . . وهو تعب ، وربما جائع ، فهل نتركه يموت لأجل حفنة زيتون ؟

- هذا ليس شغلك . . اهتم بما يعنيك ، إذا تساهلنا مع سارق حفنة الزيتون ، نجعل الفلاحين يطعمون فينا . يسرقوننا وعبونا مفتحة ، العدل ملح الأرض ، من يسرق يعاقب ، ونحن نعاقبه لأنه سارق .

فكرت بالعدل الذي هو ملح الأرض ، وبهذه العينة منه ، وتساءلت : من الذي يعرف العدل ويطبقه ؟ القاضي موظف في السلطة ، والسلطة بيد الأسياد ، والعدل ، إذن ، غدُفهم ، ولمصلحتهم ، وليس للفقراء والمضطهدين من أمثالنا .

أخيراً طلب المطعون تقيد صخر إلى شجرة زيتون غليظة الجذع أوصاهم بشده اليها جيداً . فعلوا ما طلبه منهم ، أوثقوه بالحبال ، ولم يصرخ أو يتأوه أو يحتج ، ظل قوياً ، شجاعاً ، متماسكاً ، وفي وجهه تعبير ساخر بكل ما يجري .

بعد ذلك أخرج المطعون قضيب الرمان من الخيمة . كان الآن متعطشاً للانتقام ، للإرهاب ، لإدخال الرعب إلى قلوب الحاضرين ، ومن أجل ذلك ساطه بضربة على خاصرته ، تبعها بضربة أخرى على فخذه ، وانهاه ، بعد ذلك على جسمه كله ، ولم يوفر حتى وجهه . وصخر صامت ، لا يصرخ ، لا يتأوه ، لا يئن ، ولم يقل إلا عبارة واحدة :

- ستدفع الثمن يا مطعون . . .

ولم يكثر أحد بما قال صخر، عدّوا كلامه تهديداً عابراً، صدر عن
الم وجروح ملتبة في الجسم الإنساني الذي أصبح الآن مدمى كله.
وفجأة وصل الشوباسي. وصل الرعب الذي لا يقاوم. أوقف
المطعون عملية الجلد وهرع للترحيب به. قال:

- أمسكنا بهذا السارق بالجرم المشهود.

سأل الشوباسي وفي وجهه يتشهى غضب قاتل:

- ومن الذي أمسكه؟

تقدّم الناطور الذي أطلق النار وقال:

- أنا يا أبو اسكندرا!

- وما هي كمية الزيتون التي سرقها؟

- ليست كبيرة . .

وقال الوالد:

- مجرد حفنة يا أبو اسكندر.

غير أن الملاحظة لم ترق للشوباسي، فحدجه بنظرة صارمة،
وأجابه بجفاء:

- أنا أسأل الناطور لا أنت. ابق ساكناً.

امتل الوالد للطلب أغلق فمه وابتعد. فعل ذلك على مضض. كان
يعرف أن الشوباسي غير الوكيل، وأن الشجار معه سيؤدّي، لا محالة، إلى
الموت أو مغادرة البورة.

بعد هذه الكلمات ساد صمت تامّ على البورة، كان الرعب قد حلّ
عليها. ومع أن الفلاحين عزيز ويونس كانا يتألّمان لربط صخر بالشجرة،

وجلده بقضيب الرمان، فإنها أثرا الصمت، وذهبا فوقاً على الطرف الآخر للبورصة.

الكلمة الآن للشوباسي. هو الذي يحكم في الموضوع توقع الجميع حكماً قاسياً لا رحمة فيه. لكن الشوباسي، لإطالة عذاب صخر والحاضرين، لزم الصمت، وراح يلف سيكارة وهو مطرق مفكراً.

أنهى لف سيكارتته أشعلها، شربها كلها، ثم نهض وسار بخطى وثيدة، راسخة. عنيفة، حتى واجه صخر، ودغماً كلمة، صفعه بكفه الضخمة صفعة استنفرت الدمع من عينيه

- كلب، قال، تشتغل عندنا وتسرقنا، أين الأمانة لمن يزورك ويطعمك؟

رفض صخر الكلام. اكتفى بنظرة تكثف فيها حقد حارق كالنار. إنه لم يسرق. ما فعله لم يكن سرقة، كان إداماً قليلاً لعائلته، وكان هذا من حقه الذي لا يعرف طريقة لاسترداده

وكان الشوباسي، بخلاف الوكيل، يكره اللجوء إلى الدرك، يميل إلى تأديب الآخرين بنفسه، وكان يتز غصباً وهو يرى الفلاح «السارق» أمامه، لكن هذا الفلاح كان قد تمزق جسمه، وجرت الدماء من وجهه وعنقه ويديه، وقد سبقه إلى ضربه المطعون.

مع ذلك كان عليه أن يثبت، هو لا المطعون، أنه كتلة الرعب التي تنتقل من مكان إلى آخر. وهذه الكتلة هي هنا الآن، أمام سارق ضبط بالجرم المشهود. كان عنفه من نوع آخر، كان عنفاً تكفي فيه النظرة، الحركة، الكف التي خلقت للصفع، لذلك اكتفى بعدة صفعات، وبضربات موجهة من عصاه الغليظة وقال لمن حوله:

- اعتبروا بما ترون، لقد رأيتم ما حل بهذا اللص

عندئذ صاح الفلاح، من بين دموعه وجراحه:

- لم أسرق.. وحق الله لم أسرق.. كل ما فعلته أنني مرشت حفنة زيتون

للأولاد. ليس في بيتنا شيء، وخطر على بالي أن الكرم أكرم من صاحبه،
وأنتي يمكن أن امرش حفنة زيتون، ليأكلها الأولاد فريكام مع الخبز
زقق الشوباصي وهو يدفع قبضته في صدر الفلاح:

- اخرس يا عرص!

خرس الفلاح، لوى رقبة من الألم، وطلب أن يقيدوه إلى الشجرة وهو
جالس قرقص المطعون.

في اليوم التالي جاء دركيان على حصانين، بأيديهما الكرايج، وعلى
كتفيهما البنادق، وراح المطعون يتمسكن أمامهما، ويشرح لهما ما وقع،
وكيف ضبط صخر وهو يسرق الزيتون. لم يكن الفلاحون في الريف
يعرفون الحكومة. كان الدركي هو الحكومة، وكان يتصرف على هواه،
ويضرب الفلاحين بغير رحمة، وأحياناً، إذا كان المطلوب فاراً، يقبض على
والده أو أخيه أو ابنه، وتعمل يد التخريب بكل ما في بيته من مؤونة أو أثاث
قليل.

وأمام مشهد الدركيين يترجلان عن فرسيهما، دبّ الخوف في الجميع،
وقبل أيّ تحية أو سؤال، اتجها إلى صخر وانهاالا عليه ضرباً بكرهاجيهما،
وكعادته بقي صخر صامتاً، بعض على شفثيه ولا يصرخ، حتى إذا ضرباه
بما يكفي، أفطرا مما أعدّه لهما المطعون، وأوثقا صخر بمؤخرة سرج الفرس،
وساقاه إلى سجن اللاذقية.

وراحت امرأة صخر تستجير، ترمي على قدمي المطعون، وقدمي
الدرك، وتتشفع بالموجودين، وتبكي، لكن ذلك لم يفد، فقد ساقاه عبر
غابة الزيتون، وابنه الصغير يركض وراءه وهو يصرخ:

- إلى أين يأخذونك يا ببي؟

مضى الدركيان بالفلاح صخر مقيد اليدين، مربوطاً بحبل ثخين إلى سرج الفرس، وسارت وراءهم امرأة الفلاح وأولاده، وظل طفله الصغير يصرخ ويتمرغ في التراب. وحين ابتعد الموكب قليلاً، لكز الدركي فرسه فانطلقت خبياء، واضطر الفلاح المربوط إليها إلى الركض بدوره، وتبعته العائلة مهرولة، ويكي الأطفال، وعبثاً حاولت الأم أن تسكتهم، وعبثاً حاولت حمل الصغير إلى القرية، فقد كان، في هذه اللحظة، يريد والده، وليس من شيء في الدنيا يعادل أن يعود إليه، ويضمه إلى صدره.

أنا لا أعرف بيت «ف»، لكنني تساءلت: لو كانوا موجودين، ماذا كان في مقدورهم أن يفعلوا أكثر مما فعل الوكيل والشوابعي ورجال الدرك؟ هؤلاء ليسوا أصحاب الملك. إنهم حرّاسه، رجال الاقطاعيين، وكلّ اقطاعي يتقوى بملكه ورجاله أيضاً. هؤلاء ليسوا رجالاً. إنهم عبيد حتى أذانهم. لقد بدا والدي، على ما بيني وبينه من نفور، الرجل الوحيد بينهم، الرجل الشجاع الذي قال رايه، وهو يعلم أن أحداً لن يستجيب له. ما هم! الكلمة تبقي أثراً، وقد رأيت أثر كلمات الوالد على الفلاحين عزيز ويونس والآخرين، الذين أذلّم الموقف، أحقّهم، أغضبهم، لكنهم لم يجرّكوا ساكتاً. ما كانوا قادرين على شيء، لكن كان في عيونهم وعيد. نظراتهم توعدت. حركاتهم توعدت. شعور رؤوسهم توعدت، وفي قلب

الصمت الذي ران على البورة بعد سوق صخر إلى السجن، سمعت وعيدهم مسحوباً على المستقبل

اعترف أبو اسكندر كان شجاعاً. كنت قد سمعت من والدي عنه، لكنني، وأنا أراه يصنع الفلاح، كرهت شجاعته نفسها، لقد استعملها في غير محلها، وأمي التي ركضت تقدّم القهوة إليه، كانت تصدر عن خوف لا عن تكريم. الوكيل ناول القهوة أيضاً ألقى أمام الشوباسي إلقاء الكلب أمام سيده، الشوباسي يقفي أمام أسياده بدوره، وألقى الفلاحان، بعد قليل، على طرف البورة، وراى الصمت.

كل الدين كانوا هناك هبطت عليهم سكتة مباغتة لم يتكلم أحد وفي عيني الوالد كان ظلّ يرتجف، إنه يغلي من الداخل. لم يفهم كيف، لأجل حصة زيتون، يفعلون بالفلاح كل هذا. وكان عتب واضح في عيني الشقيقة، لكنها، بحضور الوالد، لم تكن تتكلم، ارتدت إلى الوراء تركت لأم نفوس بالخدمة، لكنها، عندما التفتنا، تحت زيتونة بعيدة قليلاً، سألتني

- أرايت؟

لم أجب كنت قد رايت. كانت تعرف أنني رايت لكنها سألت مستنكرة كان هذا الاستنكار منها غيرة بالنسبة إلى أخي حينني نصامت معي. كان نصامها واضحاً، شكراً يا أخت ما كنت سيئة، وما كان الوالد سيئاً، لكننا لسنا إلا غرباء، لسنا إلا أجراء على السورة، عمالاً ميامين، كسه مشدّين، نحاول أن نأكل خبزنا المعموس هموماً

لشوباسي لم يتكلم أيضاً كان وقوراً رهيباً، بطاشاً، كان عدواً كله، من أنامله لقط العمودية، لكنه، لم يقل شيئاً، لأنه رأى نظراتنا الخائفة. احرم ما فيها من غضب، أدرك، هو الخبيث، أنا فوحشنا بالمأساة، وأما نثر الماء، وأن من الخبيث أن بدعنا نداءي عواطفنا. إنه يعرف الفرق بين الفلاحين نحن لسنا فلاحين نحن من المدينة، وهو يعرف هذه الحقيفة

يعرف أيضاً أننا ، إذا ما صرنا غداً فلاحين ، فيكون نصيبا نصيب الفلاح صخر ، هو ، عندئذ ، سيجلدنا سيصفعنا كما صفع الفلاح ، وسيصربنا بالعصا أو قضيب الرمان ، وإذا قاومنا فيقتلنا ، إنه قادر على القتل ، ومستعد له في كل لحظة هذه مهته كان شجاعاً ، وشهاً وربما كان إنساناً ، لكن السادة اشتروا شجاعته وشهامته وإنسانيته ، صبروه يدهم الضاربة ، وبدقيتهم القاتلة ، وضميرهم المدود ، إنه لا يتكلم ، حين يفعل ذلك يصدر أحكاماً نافذة هو ، ها ، الحاكم ، يتحكم باسم السادة ، وباسمهم يتعد الحلد والضرب والعقوبات ، ومقابل ذلك يعطونه أن يعيش جيداً ، وربما أباحوا له ما لا يباح من أنفسهم ذاتها .

ارتفعت الشمس منسلقة جانب القبة المساوية كانت حارة مد الصباح ، الآن ، بعد الذي شهدته ، ازدادت حرارتها غضبت على طريفتها ، أرسلت أشعتها شواطئاً حارفاً ينفذ دموع الأرض وإنسانها المعذب أبي كان معذباً ، أمي كانت معذبة ، أنا وأختي كنا معذبين ، لكن عذابنا توحدت الآن رأسها كان عذاب الفلاح ، هو أيضاً تحمل ، في سبيل حفنة زيتون لعائلته الجائعة ، وصمة السرقة كان يضرب ، يؤثث بالقيد ، يُرَبط إلى فرس ، يُجَرَّ حَباً إلى المدينة ، حيث السجل قاهر لهم لتلق أمثاله ، دون أن يصرخ أو يتوسل في السجن سيحكى قصته سيصدفها بعضهم يرفضها آخرون قالدين أحرما يرون الإجرام في كل من يدخل قاووشهم ، أما الأبرياء ، المظلومون ، سيفقمون إلى جانب هذا البريء مثلهم قد يكون بينهم من يسمع القصة ويردّها إلى أصلها الاجتماعي ، وقد يكون من يتسل بها ، كحكاية لا رابط بينها وبين ما يجري في المجتمع ، لكن الأحاساس بالظلم سيمر الجميع هنا أيضاً أخوة ، في السحر أخوة من نوع آخر ، هي النوع الأكثر شعوراً بالرابطة الاجتماعية ، لكن صحر لن يلهم ذلك بالسرعة المطلوبة سيمع ، بدوه . قصص الذين وقعوا في الأعماق المظلمة مثله ، وسيري المصائب كثيرة وكبيرة ، سيرها منحذرة من حيل إلى حيل ، وقد يقع في حيرة وهو يشاء ومن

يرفع عن صدورنا هذه الجبال الرصاصية؟» لكنه سيجد الآخرين، الذين تركوا عيائهم بائسة، والذين بكى أطفالهم وهم يساقون مكبلين كما بكى أطفاله، وينظراتهم الغضوب، سيخترقون جدران السجن بنظرات شاقبة، نظرات ضاقت ذرعاً بالصبر ولجأت إلى شتم الدنيا التي لا تترد مظلمة. ولكن لا بأس! هؤلاء أيضاً سيتعلمون في هذه «المدرسة» جيداً، سيعرفون أن الإنسان لا يموت لمجرد أن السادة يريدون له الموت، وأنه قادر على المقاومة، وعلى الصبر بحقد يتغذى من ذاته، وقادر أن يفهم ويفهم ويعيش ليوم يخرج فيه وهو يطلب ثأراً لا يدري متى يدركه.

على البورة كان المطعون يروي للشوفاصي كيف سمع إطلاق الرصاص، وكيف ذهب الوالد ليرى ما هناك، وكيف بقي هو لحراسة البورة. كان يقول: إني مسؤول هنا، وكان عليّ الاستعداد للدفاع عنها، وقد أخرجت المسدس، واستنفرت الرجال، وأكثر من ذلك، قدتهم للبحث حول البورة، وطمأنات النساء، وكنت الليلة كما كنت في ليالي خدمتي في الدرك، جندياً يؤدي واجبه.

ولم يرّد الشوفاصي عليه، ولا تكلم الوالد، والفلاحان عزيز ويونس ابتعدا. وخيم الصمت، بينما أبو اسكندر ينكت الأرض يعود في يده، ويستمع إلى هذر المطعون حتى النهاية.

كانت الأيام قد علمته هذا الأسلوب في المواجهة، فالمطعون لم يذهب لأنه لا يجزؤ على الذهاب، صدره ينطوي على قلب عصفور، وقد همّ، أكثر من مرة، لإيقافه عن ثرثرته، لكنه كان ينتظر من والذي أن يتكلم، أن يقول كيف كانت حالة المطعون وهو يسمع صوت الرصاص.

الوالد لم يتكلم، التزم الصمت التام، والمطعون تجنّب الدسّ عليه، لكنه، بعية إبراء الذمة، أبلغ الشوفاصي أن كل شيء، بفضل قيادته، كان على ما يرام.

وقال الشوفاصي أخيراً:

- لو كنت ابن حكومة لا اقترحت لك وساماً .

قال المطعون :

- رضاك هو الوسام .

- استغفر الله . . أنا لم أواجه وضعاً كهذا الذي واجهته الليلة . . (وملتفتاً إلى والدي) أليس كذلك يا مصري؟

- مَنْ يدري؟ . . شجاعة الوكيل لا تذانيها شجاعة .

قال المطعون :

- تُعرّض بي؟

لم يجب الوالد، ظلّ سادراً، منصتاً، متأملاً، عصياً على التلاؤم مع الجوّ، وهذا ما دفع الشوباسي إلى التحرش به :

- إذن خالفت تعليمات الوكيل يا مصري؟

كان واضحاً أنه يسخر من الوكيل ، وأنه يريد إبلاغه أنه أدرك قصده من تلميحاته . . لكن الشوباسي كان في أعماقه، قد ارتاح لفعلة الوالد، ولم يشأ أن يظهر أيّاً من لويّات عواطفه هذه، واكتفى بالسؤال، راغباً في أن يسمع جواب الوالد، وأن يغيّر جوّ المأساة التي لحظها في كلمات وتصرفات العائلة القادمة من المدينة، وغير المعتادة على رؤية الفلاحين يجلدون على هذا النحو الرهيب، ويساقون إلى السجون .

قال الوالد وهو يلفّ سيكارة :

- خالفتها يا أبو اسكندر . .

أضاف :

- انتظرت من الوكيل أن يذهب ويرى ما يجري ، لكنّه كان مشغولاً بتلقيم مسدسه . . (وبعد وقفة) المهمّ أنني مرتاح لأنني ذهبت، فقد رأيت بعيني . .

سببه الشواصي كمن لدغه عثرت - لم بكر يشطر هذه الامالاه
سلطه - ان يذهب الولد، حارس النورة، فهذا وجه للاختلاف، لك
هو، أو اسكندر، رجل الوفائع الكبيره، لم يكثرث بواقعة صغيرة كهذه
أما ان يتكلم حارس ما يلهجه استكار، ويسلف بما فعله الخراس
الأحرون، فهذا يعني شيئاً في لعمري محضته

مع ذلك لمالك على عادته لم يسرع لم يظهر ما في صدره، ولم يرد
على الولد رداً مباشراً، فيه إفصاح عما في نفسه
قال وهو يبتد شواره

- كذا يحب أن يذهب وأن ترى نفسك

أصاف

- هذا يفعلك في السفل

قال الولد هادئاً وبغير اكترات

- عشت وراثت يا الواسكندر - قل عني إلى ما كنت في أم السوا
هناك أيضاً الموات - وهناك شواصه، وفلاحون، ودرث الصورة
يأها - لا حديث عني من هذه الناحية

- اعلمني - حسنت ثقتي من اللادقة إلى هنا مباشرة

- حتى لو كان الأمر كما تقول، فإن ما من على رأسي كذب لأن أعرف
الحياة

- عرفتها بحلولها ومرزها إلا؟

- عرفتها بمرزها أكثر - ومع ذلك فما المانع أن يرى ما أبصاً حبري
أرضكم تحت حناكم - وما تحكمون به تنقله - العيب لا ترتفع
على الخاجب

لم يرض الشواصي عن كل هذه الاحوية - رعب أن يؤذت الولد على

طريقته. لكنه لا يريد. لأن التوالد ليس ملاحظاً، ولأنه رجل شجاع، لذلك
عنه أحدثت سائلاً

- فلان أحولك؟

- أحمي

- كنت في إسطنبول؟

- وصلها في مرسى

- وماداً كنت لتعمل؟

- في البناء

- هناك أيضاً وقلة لأصحاب الأعمال؟

- هناك أيضاً وقلة، يصرفون أموالهم، وعانتهم إدلال العمال، لكنهم،
هناك، لا يستطيعون

- يكونون أكثر لطفاً في المدينة يكون الركيل أكثر لطفاً ماذا تفعل إذا
كان الرقيب يفتضي ترك اللطف حلياً؟ من لا يعرف كيف يعايش
الذئاب أفضل له أن يتسلل في القبية شربة القسط

- ونقطع الحرمش أيضاً ثم إن الذئاب في كل مكان

اتفق أبو اسكندر إلى بعة وقال

- أسمع ما يقول والدك ؟ تعلم أن تكون دساً إذن هل تدرس أم
تعمل ؟

- أعمل

- ماذا

- في الخلافة لم أستطع إكمال الدراسة

- وماداً تكملها ؟ أصعب إلى والدك تنفع أكثر فحارب الحياة علمته

- الولد، قال والدي، لا ينقصه علم... هو أيضاً كان في المرفأ..
- هكذا إذن... علم المرفأ أكبر من علم الزيتون.
- تدخلت أختي.
- العلم في كل مكان... لو كنتم من إسكندرونة، وهاجرتم مثلنا.
- وماذا في إسكندرونة أكثر مما في اللاذقية؟
- لا أدري... لكن اللاذقية ليست إسكندرونة... هناك لا يضربون الناس.
- هه... النعمة واحدة.
- قال الوكيل:
- أعوذ بالله..
- يبدو أنهم أتعبوك يا مطعون!
- التزم المطعون جانب الحذر وقال:
- لم يتعبوني... المصري رجل طيب... ثم نحن أقرباء... أخوه زوج خالتي..
- ضحك الشواصي وقال:
- قرابة غير منتظرة... لا تتفقوا علينا إذن..
- قال الوالد:
- لا اتفاق ولا اختلاف... المطعون يعاملنا مثل النواطير الآخرين... يهددنا عند اللزوم.
- يهددكم؟
- وقال المطعون:
- معاذ الله، رغم أن ذلك وارد إذا ظل المصري مشاكساً

نهض أبو اسكندر فجأة وهو يقول :

- موسم ويمضي . لا تشد إيدك على الجماعة يا مطعون . .

وقال الوالد :

- حين ينقضي الموسم نلتقي في اللاذقية . وحدّوا الله يا جماعة . القمر لا يخرج من اللحم .

وقال أبو اسكندر :

- هذا صحيح .

والنتف إلى أمي قائلاً :

- شكراً على القهوة يا אחتي .

قالها ومضى طويلاً، ممتكاً وثيداً، واثق الخطو، بيده عصاه، وفي كتفه البندقية، لا يلتفت إلى وراء، جرياً على عادته، فكأنما لا شيء، في الخلف، يابه له . ولم يجرب المطعون أن يتبعه . أوقفه عن ذلك حين تحرّك، ونحى إلى، وأنا أتابع قفاه، أنه جامد كوجهه الذي لا تعرف منه حقيقة مشاعره، وقلت في سرّي، متذكراً ما سمعت من علاقته بإحدى النساء «إنّه كفؤ» ولم ألبث أن تساءلت : «ماذا حبّبتها فيه؟ أهو الإعجاب برجولته؟ أمهي مكافأة على بطشه؟ أم أن في صمته شيئاً يجذب إليه، وفي صوته الضخم العميق، ما ينم عن فحولة تحبّها المرأة، خاصة حين تكون امرأة من النوع الشبق؟» .

• وما كاد الشوباسي يغيب، حتى جاء المطعون إلى والدي يستقرئ دخليته .

- أنت مرتاح يا مصري؟ أنا لم أقل شيئاً، أو لم أقل شيئاً سيئاً إليك، مع أنني كنت قادراً على رواية ما وقع كما حدث، وأترك للشوباسي أن يتدبّر أمره معك .

قال والدي :

- ولماذا لم تفعل؟

- لأنني أريد البرهنة عن حسن نيتي تجاهك.

- وماذا فعلت لسوء نيتك تجاهي؟

- تركك البورة لم يكن عملاً في محله..

- من قال هذا؟

- أنا..

- طظ..

- ألا تهتم بي إذن؟

- لا فيك ولا في غيرك.. لست فلاحاً، ولا أجيراً كما تتصور، ولم أفعل ما

أؤاخذ عليه، وحتى لو فعلت فإن الشوباسي لا يقطع رأسي. إنني غير

مرتاح لضرب الفلاح صخر. وغير موافق على هذه المعاملة الظالمة، ولو

سألني أبو اسكندر لقلت له ذلك، وأنا مستعدّ، الآن أيضاً، أن أقولها له

ولللخوارج معه، وتستطيع، دون حرج، أن تذهب وتقول ذلك عن

لساني.. فهمت؟

- فهمت ولكنني لن أقول..

قالت أمي:

- أبو نعمة لا يقول كل ما يسمع.

قال والدي دون أي ميل إلى المصاحفة:

- يقول أو لا يقول، هذا ليس من شأننا.. ساكون على البورة مساء،

وسأراقب القبان، ولن أسمح بغش آية فلاحه، وفي الليل سأذهب،

وكلمة واحدة تجرّ كلمات.. وكل حديث له في وقته حديث آخر.

قالها وطلب قهوة. أمي الطيبة هرعت لإعدادها، وصاحت عندما

أصبحت القهوة جاهزة:

- يا أبو نعمة، تعال أشرب القهوة . سنفطر ونذهب إلى الكرم
- ولم يقل، الوالد شيئاً، ما كان يريد دعوة المطعون إلى القهوة، أما وقد صدرت عن الوالدة، فإنه لم يعترض، لكنه قال:
- في هذه الحال أعدّي القهوة للجميع (وبصوت مرتفع) تعالوا يا إخوان، تفضلوا لشرب القهوة.
- جاء المطعون، وجاء الفلاحان والجمال، ولم يتكلم أحد على ما جرى، لكن يونس الفلاح نظّرع، ذلك النهار، جلب الماء لنا . رفض أن تذهب الوالدة أو الأخت للماء الجرة . أخذها منها وقال:
- بعد اليوم نتناوب . الرجال يملأون الماء، والنساء يقمن بعمل آخر.
- قاطعت الوالدة:
- شهم والله .
- وقال المطعون:
- هذه اللفتة كانت يجب أن تأتي منذ وصولكم.
- قال الوالد:
- المهم أنها أنت . شكراً على كلّ حال .

شربت القهوة مع الرجال . حسدت والدي على رجولته . تذكّرت قولة أختي «أرايت؟» . كانت رجلاً في جلد امرأة، أحببتها . سأظلّ أحبها . لقد رايتها وهي تواجه المطعون . كانت قادرة على ضربه، لم تهّب مسدّسه . أرغمته على إعادته إلى الخيمة . فعلت ما كان ينبغي أن أفعله أنا، فعلته عني، عن أبي وأمي، عن جميع الذين على البورة، وبعد اليوم لن يجرؤ المطعون على التحرش بها . قد تكون، غير راضية عن الوالد، لكنها معجبة به مثلي من غير شك، فهو شجاع، ولم يبدل موقفه أمام الشواصي نفسه .

أختي هذه، ستكون تعويضاً بالنسبة إليّ . فيها أهمّ ما أفقده أنا، وهو المجابهة . ولقد فكرت أنها صبية ما تزال، ومن المبكر أن تتخذ صفة المرأة

الراشدة، لكنها، في اندفاع شجاعتها، لا تماثلها أي امرأة راشدة، وهي البديل التام عن أمي... المرأة، حين يستيقظ وعيها، قادرة على نقل الجبل من مكانه كما في الأسطورة. ولكم أسفت أنني لا أعرف أن أعبر عن أفكارني لأزيد معارف أحتي، لأجعلها تقوم بما تقوم به بالوعي مع الشجاعة، لا بالشجاعة وحدها.

أفطرنا وتوجهنا إلى الكرم. ذهب الوالد معنا. لم تكن الجمال قد جاءت، ولديه متسع من الوقت، ولم يستأذن المطعون، وجاء الفلاح عزيز، بعد قليل، ونبر لنا زيتونين. أراد، هو الآخر، أن يظهر تعاطفه معنا، أن يقول، بغير كلام، إننا متضامنون، وقد لاحظت كل ذلك، وامتلأت سروراً به. قلت في نفسي: «الفلاحون يفهمون جيداً، ويعتبرون، بغير خوف، عن فهمهم هذا... وأنا، لو رايت عائلة الفلاح صخر، سأنبر لها ريتونة أو اثنتين، سأعطيها ريتوناً مما جمعنا، سأفعل أي شيء تشعر معه أننا إلى جانبها. لكن عائلة الفلاح لم تأت إلى الكرم، كان جمع الزيتون، بالنسبة إلى الفلاحين، باكراً بعد نحن النواطير، وكذلك المقربون إلى المطعون والشواصي، بجني من الكرم القطعة الأولى، نبر زيتونة ما، نترك أخرى، نلحق الجانب الثقيل بالحمل من الكرم، ولا يسمح للفلاح، إلا حين يشارف الموسم على نهايته، بأن يعمل جماعة، وبالصفت، وأن ينظف الكرم جيداً. لأن دوره، في نظر السادة، يأتي في المرتبة الثانية.

سألت الوالد، ونحن نبر الزيتون:

- لماذا لا يسمحون للفلاحين بجني الزيتون مثلنا؟

- لأنهم مشغولون بالزراعة.

- وكيف يجني الذين أمثالنا على هواهم، ويتركون الزيتون الصعبة، قليلة الحمل، للفلاحين؟

- هذه هي العادة.

- عادة سيئة.

- يكفي ما تدخلنا بشؤون الفلاحين وأسيادهم . هناك كثير من العادات السيئة يا بني

- موقفك كان جيداً اليوم . الفلاحون كانوا ممتنين كما لاحظت .

قال الوالد بغير اكتراث :

- أنا لم أفعل ما فعلت لأجل الفلاحين .

- لكنك قلت ما يجب أن يُقال .

- لأنني لا أسكت على واحدة .

- على كل رأيت كل شيء بعيني . الفلاحون مظلومون .

- يستحقون .

أجفلت . لماذا يقول والدي هذا؟ كنت أحسبه إلى جانب الفلاحين، وها هو يتكشّف عن إنسان لا يسكت على واحدة ليس إلّا . إنه، إذن، ليس مثلي، ولا مثل אחتي، وربما كان يعطف على نفسه لا على الصّلاح . إنه يرفض الظلم، وهذا كل شيء، مع أنني حسبته يدافع عن الفلاحين .
عدت أسأله :

- كيف يستحقّ الفلاح ما ينزل به من شقاء؟

- لأنه يصبر عليه .

- وماذا يفعل؟

- يقاتل .

- يقاتل الوكيل أو الشوباصي أو الأسياد؟

- لا أعرف . المهم أن يقاتل .

- إنه مغلوب على أمره، ولو كان واعياً كما عندنا، هناك .

توقّف الوالد عن السير ونظر إليّ ملياً، بكثير من الحنان وقال

- لا تردّد هنا، في اللاذقية، ما كانوا يقولونه في إسكندرونة هناك .

كيف أقول؟ إسكندرونة تختلف .

- ولكن الظلم واحد
- الظلم واحد ولكن الناس يعلمون
- وهنا سيقومون كما أمروا هناك
- ليس الأمر بهذه السهولة
- لكنهم سيقومون معها طال الوقت
- وقالت الوالدة
- إن شاء الله

وقالت الأخت

- لو كان في اللادقة مثل فابز الشعنة وأسبرو لأجروا
- وقلت لمسي هذه المرة وثقاً

- سبصير مثلها ، ربما وأحد من عمال الربحي ماصلون ابصاً
- بعد ذلك شرعنا بجمع الربوت

كنت الآن، فرحاً، كنت مسروراً لانعادي عن البويرة، لاسرياح ظل الشوباصي والمطعمون، لبقائنا وحدنا في هذا الكرم الكبير، الذي لا تشكل بقعة في بحره. كان الصباح جميلاً. كان يحتضن بجماله رغم الذي حدث فيه. وكنت أحب الطبيعة، أو لعلني أحبها أكثر لأن فيها أمثال أخي ووالدي. وكان وجود أمي معنا طمأنينة بدانة. ولم تكن أخي الصغيرة تشكل شيئاً سوى البراءة. وكنت أعاملها كصغيرة، شاعراً على هذا النحو أنني كبير، وأن الحياة التي أسلمتني إلى عذابتها مكراً، قد حلفت مي فتى مندوراً للعذانة مستغلاً. أهلي لا يفهموني. لا يعرفون ما أقرا، وربما لا يكتربون به، لكنني عارف، عارف أن علي، أنا الابن الوحيد لهذه العائلة الفقيرة، أن أعمل كي أحصل على اللفة، وأما أنعلم لأني بذلك أنقل نفسي من جهالة فرصتها علي الأيام، فأصبح واعياً أكثر. أما قراءتي فليست

(١) من أعمال ولاية المستعم،

للتسلية ولم نكون كذلك. التسلية كانت واردة، المتعة كانت أساساً في
فراغ الي، لكنني كنت أشد ابصاراً المعرفة، وهذا أحفظ الشعور، وأدون
الكلمات الصعبة لأراجعها في القاموس، وأسأل عمياً عمض علي. هكذا
وعيت الأشياء. أدركت أن الحياة طائلة وأن نعمة من يريد، ويعمل، لإزالة
هذا الظلم. ومنذ المدرسة قام في ذهني أنني واحد من أولئك الذين
يساعدون، بشكل ما، على إزالة. ومن هذا المطلق، ولأنني أساساً
ألتبس العداء وأشدها، فقد كانت تشوهات العيش تؤلمني، وكان
الاستمرار، والاستغلال، والتسرب، والتعديب، والاحتلال الأجنبي،
وحكم الأعوان في الرب، وحكم الأسياء في المدينة، يؤذني في نفسي رغبة
في المقاومة، لا تنزع عن نفسها لأفعال أو الأقوال، بل تنحصر ذلك في الصدر
الذي سيفتح يوماً. لقد كبرت الإسكندرية في عبي مرتين الأولى لأن
فيها من يتأصل ضد الظلم، محلاف الحواء الذي يبرس على اللادقية،
ولأنني، هناك، كنت أحد من يساعدني في فهم بعض القضايا التي تدور في
عسيرة على الفهم.

من أجل ذلك كان الأفراد الكرم الأفراد بالذات. إنه عالم قائم بذاته،
وكثيراً ما تميت لو أجلس تحت زيتونة فأقرأ وأقرأ حتى يهبط الليل. وليس
نادر ما تركت عائلتي، وهي تجمع الزيتون، ومصيت مع مصري بين الزيتون
حتى أنتعد عن الأنظار. وكانت والدتي تراعي حاجتي إلى هذه الانفرادات
بدائي، كانت تحسني نعماً، وصحراً، أو راعاً عن العمل، لكنني، محلاف
ذلك، كنت أعمل، أفكر، أحفظ، أتصور مصري، أنا الغريب عن
اللدقية، التحيل أكثر من كل فتاتها، ألتبس إلى حد استغلال الرشاء،
مشراً في هذه المدينة بما كان يشر به «الطيون» في مدينة إسكندرية،
وكانت الحيرة التي أتحبط فيها هي كيف أبداً، ومع من أبداً، وفي أية عجينة
أصع حيرتي.

عاد والدي إلى البويرة بعد أن ساعد في بير عدة رينوسات لنا. لم تعد
الأفاعي مزار رعب شديد. كان علياً أن نوظف النفس على مواجهتها، ما

دمنا في الكرم، وما دام علينا أن نقلب المدرات لنلتقط ما تحتها من زيتون. إضافة إلى ذلك، كانت الافاعي تتدلى حبالاً بين الأغصان، أو تلتف كمكبات في غلاغيل الأشجار، أو تقبع تحت الأحجار وكان منظرها يبعث على الرعب، أقله على البرودة، ولم نتوصل قط إلى الألفه معها، حتى عندما قلّ خوفنا منها، أو صار خوفاً معجوناً ومخلوطاً بالعمل. والذي قتل عدة أفاع. אחتي قتلت أفعى. أنا قتلت الكثير منها، وصار وجود العصي معنا ضرورة، فكنا، إذا ما أتلتعت أفعى برأسها، وانسابت أمامنا، نلحقها ونقتلها، وإذا أنسلت وابتعدت تركناها وشأنها. في هذه الحال تعلق الأم أهمية على ما إذا كنا قد آذينا هذه الأفعى، تعتبر ذلك تحرشاً، اعتداء، ستقبله الأفعى بمثل، وأن علينا أن نحتاط، وكنت أفهم رقة الأم هذه، فهي تكره أن تقتل روحاً ولو كانت مؤذية كالأفعى، وإذا هربت منا كانت تكرر قولها: «اذهبي يا مباركة واتركينا» وحين نحاججها، تقول: «قد تكون أمّاً، ولها صغار» فتردّ الأخ:

- أنا من جهتي سأقتلها وأقتل صغارها.
- ولكن هذا حرام. . إذا لم تؤذنا الأفعى فلماذا تؤذيها؟
- ولكن كيف تعرف أنها ستؤذي أم لا؟ ننتظر حتى تلدغنا؟
- أظن أنها لن تفعل. . هي أيضاً تخاف. . الأفعى تخاف يا أولاد.
- ونحن نحاف أيضاً. نحن نحاف أكثر، وهذا هو الخطر. . علينا ألا نخاف منها بعد الآن.
- لنسأل الله اللطف بنا. . لنسأله الرحمة بعائلتنا وجميع الناس.
- رحمة الله على الرأس، ولكن رحمة العصا ضرورية.
- تقولها الأخ وترفع عصاها تضيف:
- إذا لم نقاوم الأفعى لدغتنا أليس كذلك؟

كنت أكبر جراً אחتي، إقدامها، هجوميتها التي تنقصني، لكنني أرتبك أمام موضوع الأفعى، فأنا لا أريد، لو رأيت أفعى ومعها صغارها أن

أقتلها، بينما أختي تعتبرها عدوًّا، وتستحلّ قتل العدو على أية صورة. كانت قد ورثت بعض صفات والدي. لا شيء يخيفها، وكان هذا واضحاً وطبيعياً في سلوكها اليومي، وهذا ما جعلها محبوبة وأثيرة عند الوالدين، وبقيت كذلك حتى رحيلها عن الدنيا.

بدأنا نجمع الزيتون كعمل يومي لا بدّ منه. كانت رغبتنا في العمل مبعثها حاجتنا إليه، ولكنه، في حيا الاندفاع، أخذ يصبح لعباً، يصبح متعة وممارسة لنشاط اجتماعي غير ملحوظ منا. اقترحت الأخت أن نغني. كان صوت أختي الصغيرة حلواً. لكنها لم تكن تحفظ الأغاني، وكانت الأخت تحاول أن تعلّمها. نقول لها:

- ردّي معي . .

| | |
|-----------------|-----------------|
| يا راجحين ع حلب | حبّي معاكم راح |
| يا عمّلين العنب | تحت العنب تفاح |
| كل من وليفه لفي | وأنا وليفي راح |
| يا ريّ سمة هوا | نردّ الوليف ليا |

وتبكي الأم لسماع الأغاني القديمة، الأغاني التي تذكّرها بأهلها وأحبّائها، وإذا تشارك فيها، ترنّ نغمتها حزينة، ملثاعة، وما تلبث الدموع أن تطفر من عينيها، وعندئذ تنور الأخت:

- لماذا البكاء؟

- هكذا. . لا شيء. . أنا لا أبكي.

- ولكنك تبكين. . ماذا جرى؟

- تذكّرت الأهل. . تذكّرت الجيران. . أيا منا في إسكندرونه. . ترى هل

يذكروننا كما نذكرهم؟

- لا بدّ أن يذكرونا. . عشرة العمر لا تضيع. . كنا إخوة حقيقيين.

- إخوة وأكثر. . لا وفق الله تركيا التي فرّقتنا.

تدخلت في الكلام فقلت:

- لعن الله فرنسا . هي التي كانت السبب . تأمرت مع تركيا .
دهشت الأم :
- ما معنى ما تقول ؟
- احترت في الجواب :
- يعني فرنسا دولة مستعمرة . ولأنها كذلك فهي تبحث عن مصلحتها ،
ومصلحتها كانت مع تركيا .
- قالت الأخت :
- أنا فهمت مثلك ، لكن لا أعرف أن أشرح .
- وعادت الأم تردّد يقينها السابق ، وتدافع عن فرنسا .
- مع ذلك تبقى فرنسا دولة مسيحية .
- فكّرت وقلت :
- لنذهب إلى الشيطان . . أقول لك إنها مستعمرة وتقولين إنها مسيحية . .
لو وقف المسيح نفسه ضد مصلحتها لأعادت صلبه . . إنها عدوّتنا وتحتلّ
بلادنا .
- أليست هذه إرادة الله ؟
- لا . . هذه إرادة استعباد بلادنا ونهب خيراتها . . وهذا هو معنى
الاستعمار .
- مهما يكن . . فرنسا هي التي أنقذتنا من تركيا . .
- لم تفعل ذلك لسواد عيوننا ، بل لتحتلّ بلادنا .
- تدخّلت الأخت لتغيير الموضوع . أدركت أن الأم لن تفهم إلا عملياً ،
وأنه سيأتي هذا الفهم يوماً ما .
- اقترحت :
- لنواصل الغناء . . هيا يا أختي ، اطلعي أنت وتحنّ نلحقك . .

غَتَّتِ الأخت الصغيرة مَوَّالاً، وتابعتها أختي بميجانا، لكن الأم سرعان ما بدَّلت اللحن، راجعة إلى أيام صباها، بأغنية عذبة، تترقرق مع ما في صوتها من شجن وغنة:

يا طالعين القصر لفوق يا نازلين سلّموا لي
على غزال وعيونو سود والمهنق أبيض بلوري

ردّدا نحن هذه اللازمة، فتابعت الأم:

يا بيض صبحكم بالخير يا سمر يسعد مساكم
لضل صبح وميَّ طول ما جيبى معاكم

شعرت أن علي أن أتوقّف عن المشاركة في الغناء، كنت أعرف أن صوتي قبيح، وأجهل الأغاني، لكنني استمتعت إلى حدّ الطرب، وأخذتني حماسة ضاعفت من نشاطي في العمل. لاحظت أن الأيدي قد نشطت تلقائياً فيما الأفواه تغني. لم يكن آنذاك راديوات، ولا مسجّلات، كان الناس الذين مثلنا يغنون لأنفسهم، كان ذاك طرباً ذاتياً، أليفاً، حبيباً، وكان يصعد بالفرحة الهاجعة في الأعماق، لأنه غناء جماعي. وهنا، في الريف، ونحن ضائعون في كرم الزيتون، كان الغناء بمثابة تأكيد على وجودنا على تخطّينا للمصاعب التي تحيق بنا. وقد سرقتنا الأغاني من أنفسنا، فلم نشعر إلاّ بمرور سيارة من قربنا، على طريق اللاذقية دمرخو - كسب. ركضت بين الزيتون، كانت السيارة قد ابتعدت، قفزت التخم ووقفت على الطريق العام، متأملاً ما حوّل من زيتون يغطي الروابي والمنبسطات، ويتراعى إلى حيث يصل البصر. كان ذلك كلّهُ لعائلة واحدة، قدرت، منذ وصلنا «ج» أن ملكيتها كبيرة جداً، ولكن أن يكون طرفها في القرية، وطرفها الآخر على طريق كسب، فهذا ما لم أتصوّره، كما لم أتصور أن عائلة بهذا الغنى، تطلق النار على فلاح يمرش حفنة من الزيتون لأطفاله، ثم تضربه، بأيدي زلمها، وترسل به إلى السجن. داهمني تفكير فرض نفسه عليّ، فرحت أسير على الطريق «الإسفلي» راغباً أن أمشي وأمشي فلا أعود إلى الكرم أبداً أصبح

الكرم في نظري شجراً ميكلياً، شيطانياً، مغروساً في أمعاء الفلاحين، ومنها ينبت ويستمدّ نسغه. كان، كما خيّل إليّ، في أساس كلّ شجرة فلاح، فالأرض، تالياً، قبور، والشجر يتعالى فوقها، وفي هذه القبور أجساد تفسّخت، لكنّها ما زالت تحتفظ بهياكلها العظمية، وهي ترصد، من مشاوبها، المهزلة التي تدور حولها، وقد رأت، بغير شك، مأساة هذا الفلاح.

مشيت، مشيت، مشيت. كان كرم الزيتون عن يميني، وفكرت أن أعدّ صفوف الأشجار، ثم أعدّ كم شجرة في كلّ صف، وأضرب الناتج بعضه ببعض، وعندئذ كم يغدو الرقم؟ إنه سيكون كبيراً إلى درجة لا تصدق، وكميّة الزيت التي يعطيها لا تصدق أيضاً، وكلّ هذه الكمية ستحصل عليها عائلة واحدة، دون تعب، دون نفقة، دون أيّ مجهود يذكر.

لم أكن، تلك الأيام، قد سمعت بملوك الحديد والنحاس والنفط والمعادن، وإلاّ لأضفت إليهم ملوك الزيت، هؤلاء الذين يكدّسون الثروات بينما الفلاحون الذين يعملون في كرومهم يسلقون العشب ويقتاتونه.

رجعت أدراجي مغموماً، كانت أمي وشقيقتاي على الطريق العام يتظرّني. يفتّنين أثري، وصاحت الأم حين رأتني:

- أين أنت يا بنيّ، ماذا هناك؟ غمّ تبحث في البعد؟

- لا أبحث عن شيء...

وقالت الأخت:

- كان يفكر...

سألت الأم:

- بماذا؟

قلت:

- بهذا الكرم الذي لم أستطع الوصول إلى نهايته.

- لبارك الله لأصحابه .

نظرت إلى أمي، أحيينها أكثر، فاص الحنان في نفسي إليها، ونصورتها واحدة من نساء شعبنا، اللواتي سيمضي وقت طويل قبل أن يستيقظن ويعرفن الحقيقة. إن مباركة أمي لأصحاب كروم الزيتون لن تزيد في مردودها، ولكن أمي، بهذا الدعاء، تكرر «حق الملكية المقدس» حق الإقطاع الذي يفقرنا ويذلنا.

ويلهجة فيها أمي، وإشفاق، قلت لها:

- مباركتك وصلت، وفي العام المقبل سيكبر الكرم أكثر. وستقوم كروم أخرى. وستزداد ملكية عائلة «ف».

وقالت الأم:

- لا تكن حسوداً، الله لا يرضي بهذا.

- أنا لا أحسدكم، ولكن أقول إنهم يملكون كل هذه الكروم.

- وماذا إذا ملكوها؟

- لا شيء... إنهم أغنياء بشكل لا يصدق، ونحن فقراء بشكل لا يصدق أيضاً.

- إنهم أغنياء أباً عن جد.

- ونحن فقراء أباً عن جد.

• وقالت أختي، كأنما لتنفذي من ورطتي مع أمي:

- انظروا ظلال الأشجار لقد انتصف النهار، وأنا جائعة جداً، هيا إلى الغداء، لا عمل قبل الأكل.

قالت الأم:

- ولكننا تأخرنا في الصباح، وها هو الظهر ولم نجتمع شوالاً من الزيتون، كيف تطالبون بالغداء دون أن تعملوا ما يقابله؟

قالت الأخت :

- نحن جوع - اتحسبن عشاءنا أمس كان عشاء؟
- وماذا نفعل إذا كان هذا هو طعامنا؟ ماذا يأكل الفقير مثلاً؟ نحن في الزيتون ونتكبر عليه؟
- جلسنا تحت زيتونة قديمة - مدت الأم قماشة بيضاء، وضعت عليها أرغفة من الخبز، وصحنا من الزيتون، وجاءت بحجرين فكسرت بينهما بصلة، وقالت:
- باسم الله... ولنبدأ

مددت يدي إلى رغيفي. كان يابساً. كان حجراً، ولم تكن بي شهية. لقد مللت هذا اللون من الطعام الذي لا يتغير، وقالت أُمي تستثير شهيتنا. في المساء سنطبخ برغلاً...

قالت أختي :

- وهذا مللناه أيضاً
- لماذا؟ وما هو طعام الفقراء إذن؟
- ومللنا الفقر أيضاً.
- صيروا إذن أغنياء
- لا نستطيع
- كيف استطاع بيت «ف»؟
- قلت:
- لا أدري...

نهضت ومضيت إلى أعماق الكرم كربة أخرى، رغبت، هذه المرة، عن العمل، والعودة إلى الأهل، والبورة، ورؤية الوكيل أو الشواصي. بل رغبت عن التفكير في كل الذي جرى، والذي سمعت ورأيت. كنت أنزف من الداخل. ارتطم الفهر بجدار الفهر، فتولد في نفسي إحساس بعثية ما

نحن فيه . وكان الشقاء والتبدل ونسيان الواقع الذي نحيا شيئاً مستحيلًا، وكل هذا بلبلني إلى درجة الصباح، ومع ميلي إلى الراحة، وترك التفكير، والخلاص من جو إسكندرون، ومن الكلمات الغريبة، الجريئة، التي كان رجوعها يلزمني، فإنّ القبول بما نعانیه، وما يعانیه الفلاحون هنا، والفقراء في المدينة، شيء ضد المنطق، ضد الإمكان. ورفض فكري الهدنة، وراح يعذبني في غير طائل.

الوحدة، في وقت كهذا، كانت عبادة حقيقية، أسير، أجلس، أنام، أستيقظ، كلّ مقبول، إلا أنّ أكون مع الناس. إنني أعرف العزاء الذي تجلبه المشاركة، وكان عزائي بين أهلي مستمدًا من شجاعة أختي، من اندفاعها، إقدامها، لامبالاتها بالمصاعب، لكنني، عند انحسار المشاعر الباسلة، عند هجوع القوة الروحية، كنت أنأى عنها، كيلا أخجل من ضعفي أمامها. القراءة وحدها، في مثل هذه الحال، كانت تمتصّ بعض نعمتي على ضعفي، وبعض حنفي على الوجود، وشيئاً من الإحباط المبهظ الذي أستشعره، لكن القراءة تتطلب كتباً، وفي الخيمة لا يوجد سوى كتابين، قرأتها وانتهيت، منذ اليوم الأول، كان شيء من الأمانة المستحيلة يداعبني في الذهاب إلى قرية «ح» والبحث عن كتب، لكن الذين سألتهم أفادوني أنهم في القرية يجلبون الكتب، لأنهم يجلبون القراءة، ولقد سألت المطعون عما إذا كان لديه أيّما كتاب فتفى ذلك، وسألته عما إذا كان لدى الشوباسي كتب من أيّ نوع، فضحك وأجاب:

- في القرية لا توجد كتب يا شيخنا .

- وفي بيت الأسياد؟

- ولا في بيت الأسياد أيضاً هنا لا يقرأون .

ثم أضاف:

- حتى لو وجدت عندهم، أتحسب أنّك تستطيع الوصول إليها؟

- أستعيرها .

- لا تحلم بهذا .

- ولكنني قرأت عن بعض الأسياد، في بلاد العالم، أن لديهم كتباً، ويمكن أن يستعيرها أحد ما .

- أين هذا؟

- في روسيا . غوركي كان خادماً .

- ومن هو غوركي هذا؟

- كاتب . .

- في المحكمة؟

- كاتب كتب . . أديب . .

- لم أسمع به . . أنا لم أسمع بأي كاتب . .

فكرت بالواقع الذي كشف عنه المطعون، فاغتممت جداً. قلت في نفسي: «ما أشدَّ تخلف ريفنا! حتى الأسياد لا يقرأون، والقرى لا تعرف الكتب، والكلمة غريبة، والأفكار يتيمة، لا مأوى لها ولا أهل، وفجأة، كأعزَّ الأمانى، انبثقت في نفسي هذه الأمنية:

- ما أجمل أن تكون في القرية كتب أيضاً!

خطر لي أن أغادر «ح» إلى المدينة. هناك لا بد أن أعثر على ما أريد، لكن شراء الكتب يحتاج إلى نقود، وليس معي منها شيء، ولا أحسب أن الوالد يملك شيئاً، وهكذا استحالت الأمنية إلى لعنة، لكن ولعي بالكتب دفعني، ذلك المساء، إلى الطلب من الجمال، أن يأتيني بجريدة من المدينة، فقال:

- إذا وجدت فعلى رأسي . .

ورحت، طوال أيام، أحلم بأن يصل الجمال، ومعها الجريدة الموعودة، لكن هذا الحلم لم يتحقق أبداً. الجمال لم يمرَّ بسوق المدينة، ولم يجد مكاناً

يبيع الصحف، وهكذا خابت مساعي جميعاً في العثور على ورقة مطبوعة،
أقرأ فيها الحروف التي صارت عزيزة لشدة الاشتياق. ثم يثت من وصول
جريدة ما، ومن العثور على كتاب، ولم يبق إلا أن أقرأ على أديم الكرم، أو
صفحة السماء، وأن أهدق في الأرض، أو أرفع رأسي إلى أعلى، في هيئة
تجعلني نصف عاقل أو نصف مجنون.

تعبت من دوراني في الكرم فعدت، كان لا بدّ من مواجهة الواقع
والنزول عند أحكامه. إنني حرّ في أن أكل أو لا أكل، وحرّ في أن أنام أو
أسهر، لكنني لست حرّاً في مسألة العمل. إننا نستدين على الموسم حالنا،
هنا، كحال الفلاح، والفارق الوحيد بيننا أننا لا نسكن القرية، ولا نعمل
في الزراعة، ولم يكن الموسم الذي نستدين عليه قمحاً أو شعيراً أو غللاً
نتصرّف بها في نهاية الخريف، بل كان زيتوناً حصّتنا فيه واحد من عشرة،
ومن هذه الحصّة نأكل ونشرب ونسدّ الدين، وقد ندّخر شيئاً للشتاء، إذا لم
يكن نقوداً، فشيئاً من زيتون، وشيئاً من برغل، كمعادة الناس في المدينة.

اشتغلت إلى المساء، لم أتكلّم، لم أنذمر، لم أشارك في الحديث أو الغناء،
جمعت كمية طيبة من الزيتون، وفي نوع من التحدي ضاعفت جهدي،
وكانت أختي تقول:

- أخي يكاد يسبقنا. لو دخلنا في سباق معه لخسرنا.

وقالت الأم:

- أخوك ليس على ما يرام. يتألّم من شيء ما.

قالت الأخت:

- يتألّم لحالنا.

- وماذا نفعل؟

رجوت الأم:

- لو تركنا الكلام على وضعنا لتحدثت في شيء آخر .

- لكنك لا تتحدث في أي شيء .

- أفكر . .

- وبماذا تفكر يا حبيبي ؟

- لا أفكر بشيء معين . لا أريد أن أتحدث أو أغني . .

- لو فعلت لتسليت . . فرجت عن نفسك . .

- أنا مرناح مع نفسي . .

قالت أختي :

- إنه يفكر كثيراً . مثل ابن عبده بني .

- الذي جُنْ ؟

- نعم . .

- يا ويلى . . التفكير يقود إلى الجنون إذن ؟

قالت أختي :

- يجنّ أو يصير فيلسوفاً .

- ماذا ؟

- فيلسوف . .

رسمت الأم علامة الصليب على وجهها . ضحكتها لحركتها . إنها تسمع بالكلمة للمرة الأولى . والأخت سمعت بها ولا تعرف معناها ، أما أنا فلا أستطيع تفسيرها . كنت أعرف أن الفيلسوف هو من تبخر في العلم ، وأن كثرة التفكير من علامات الفلسفة ، ولقد كرهت التفكير وأحببته ، كرهته لأنه يسبب لي الآلام ، وأحببته لأنه الطريق إلى الفلسفة ، ولم أسأل نفسي ما هي الفلسفة ، متى أصبح فيلسوفاً . إذ كنت عند نفسي ، وفي البيئة الجاهلة التي أنا فيها ، فيلسوفاً صغيراً ، ومنذ زمن بعيد

في المساء عادت الحياة إلى ضجيجها على البورة .

لكن حادثاً وقع بعد أيام ، أدخل جديداً إلى الحياة الرتيبة التي سحياها . كانت بظلة الحادث الفلاحة بدور ، التي حاول المطعون إغراءها ولم ينجح ، وقد اتهمت بأنها عادرت الكرم إلى البيت ، وفي صدرها وجيوبها كمية من الزيتون . زعم المطعون هذا وقال إنه رآها بعينه ، وأنها تفعل ذلك منذ بدأت العمل ، وهذا يُعدّ سرقة ، وسيخبر الشوفاصي ، ولديه شهود على ذلك . زاد قائلاً إن بدور تحمل ، حتى في هذه اللحظة ، زيتوناً في صدرها وتحت فستانها ، وأنه سيفتشها .

في البدء ظنّ الحاضرون على البورة أن المطعون يمزح ، لكنهم وجدوا مزاحه ينقلب إلى جدّ ، وأنه سيفتش الفلاحة حقاً . وقد ضحكت بدور أول الأمر ، ووجدت في اتهام المطعون تسلية ، لكنه ما لبث أن أصرّ عليه ، وأوقف التقيين ومنع بدور من العودة إلى قرينها ، طالباً من الوالدة إدخالها الخيمة وفتيشها .

قالت الأم :

- حرام عليك يا أبو نعمة . لا تتهم الناس زوراً .

قال المطعون :

- فتشها يا أختي تجدي ما أقوله صحيحاً .

دهشت لتخريف المطعون . . رددت ذلك إلى رغبته في التحرّش بها ، باعتبارها امرأة صبيّة ، جميلة ، لكنني ، أمام إصراره ، وصرامة وجهه ، وإيقاف العمل . تساءلت : « هل يمكن هذا ؟ وأين تخفي بدور الزيتون المسروق ؟ » صدرها ، كحال كل يوم ، عامر ، وهذا طبعي من شابة ريفية ، صحتها جيدة ، لكن جيوبها غير متفخة ، ولم يبق إلا سرواها وتلك ندالة لو خطرت للمطعون . غير أنها خطرت ، وهذا هو السبب في أنه طلب من والدتي أن تحملها على خلع ثيابها في الخيمة .

تخلّق جميع من على البورة حول المطعون، كانوا يضحكون في البدء. حسبوا الأمر نكتة اخترعها المطعون لترفزة بدّور، غير أنّ هذا كان يعوي، كمن به مغص، طالباً من بدّور دخول الخيمة وخلع ثيابها. ولم تتحرّك بدّور من مكانها. غاضت ضحكاتها، جمدت، تغيّر لونها، أريدت، وتوفّر الفلاحون، وتوترّ الجو، أصبحت القضية، الآن، قضية كرامة، قضية شرف، ومساس بالآخلاق، لكن المطعون لم يتراجع، رفض الوساطة. أخذته العزة في الإثم. فقلب ما كان مزاحاً في البدء، إلى اتهام صريح، لو أثبتته، ويريد اثباته، لأدّى بالمرأة إلى السجن، أودعها إلى الطرد، وإضاعة كلّ ما لها من حصة عملت للحصول عليها منذ أوّل الموسم.

كنت أراقب هذه التراجيديا الصغيرة دون أن أستغربها. أليس الفلاح، كالمرأة، نهاية السّلم الاجتماعي، ومصيّب الظلم الطبقي في حياتنا؟ الفضيلة، في مجتمع كهذا، تبحث عن ضحايا، على هذا النحو يطاردون امرأة فقيرة ويرجمونها. أما الدعارة في بعض القصور فهي عميّة، مسوّرة بالأزواج أنفسهم. ومن حين لآخر، يقبضون على فتاة بائسة ويدخلونها المبيع، أما البغاء العلنيّ، ذو الشبايب العالية، فليس من يستطيع حتى التطلّع إليه! وهذا المطعون، الذي يعرف أنّ العثور على ضحيّة، من حين لآخر، يبهج المتفرّجين ويرضي الأسياد، يريد أن يكون للزيتون ضحيّته، حتى يقال إن الوكلاء يسهرون على كروم السادة.

تمنّيت، لوقت غير قصير، لو تدخل الوالد. انتظرت ردّ الفعل من الأخت التي كلّفها بعد الأم بتفتيش بدّور. أرسلت خيالي مع الفلاحة وهي تدخل الخيمة، وتتعرّى قطعة قطعة، بحثاً عن حبة زيتون عالقة في مطاوي الثياب. خطر لي أن أركض إلى «ح» وأخبر الشوباصي بما يجري، لعله يأتي ويكفّ أذى الوكيل، لكنني، وأسفاه، لم أفعل شيئاً. كنت عاجزاً، وأعرف عجزني. لم تكن لي نزعة الوالد في القتال، ولا قدرة الأخت على الخصام، ولم أكن لاصطدم بأيّما مخلوق، وكنت أفلسف هذا الضعف بأنّ العمل الفردي لا يأتي بنتيجة، وأدّخر نفسي للعمل الجماعي. . . كنت،

والأسفاه، ذرائعياً، أعطي لترددي تبريراً يخفف من وطأته في نفسي.

رفضت الأخت أن تفتش بدور. قالت إن الحية لم توجد لمثل هذا. عندئذ عاد المطعون يطلب من أمي أن تفتش الفلاحة، فرفضت بدورها. ولم تكنف الأخت بالرفض. صدر عنها ما كنت أتوقعه وأرغبه. قالت بلهجة قاسية، وهي تزوي ما بين عينيها، في عبوس أعرف أنه يخفي انفجاراً قادماً:

- ذغ بدور تذهب إلى بيتها، فهي لم تسرق شيئاً، وليس في ثيابها زيتون كما تدعي.

- ومن أدراك أنت؟

- في وجهي عينان..

- وفي وجهي عينان مثلك. لقد جرت العادة.. هذه ليست أول فلاحه نفتشها، وفي الماضي عثرنا على الزيتون المسروق واتخذنا بحق السارقة ما يجب من إجراءات.

- وما هي هذه الإجراءات؟

- الطرد من الكرم، أو التسليم للدرك، أو مصادرة حصتها مما جمعت من زيتون.

- هكذا إذن!!

- نعم هكذا.. هذا ملك بيت «ف» وليس داشراً.. أن يأكل المرء غظم أفعى أسهل من أن يأكل الرزق وأنا وكيل..

- وأنت؟ الست تاكل أيضاً؟

صاح بها بصوت قوي:

- الزمي حدك، وإلا أدبتك.. سفيهة!

أجابته بهدوء:

- السفية هو انت .. اضبط لسانك وإلا قطعت ..

التفت إلى والدي شاكياً:

- أسمع يا سالم؟ أسمع يا مصري؟ أهذا ما انتظروه منكم وأنا أقوم
بواجبي؟

صاح والدي بأخني:

- ادخلي الخيمة ولا تتدخلِي ..

- لكن بدّور مظلومة .. أيهون عليك أن تظلم ولبقى ساكتين؟

- بدّور لن تظلم .. أبو نعمة طيّب القلب ..

قالها والتفت إلى بدّور قائلاً:

- وأنتِ .. اذهبي ، إلى بيتك .. دون كلمة حول ما جرى ..

صاح المطعون:

- لن تتحرّك من هنا .. أنت لا تملك هذا الحق .. من فوّضك لتتدخل فيها
لا يعينيك؟

قال الوالد وقد أربد لفرط عصبتيته:

- أنا فوّضت نفسي .. دع المرأة تذهب وشأنها .. هي لم تسرق .. بدّور
شريفة لم تسرق ، وأنت تنحرّش بها .. تفعل ذلك لغاية .. وربما وراء
غايته من يدفعك إليها ، لكن احذر .. لن أسمح بأن تمرّ الأمور على
خير إذا كنت لا تدع بدّور تذهب إلى بيتها ..

انفجرت أسارير بدّور .. لاحظتها كانت تتطلّع صوب والدي بكثير من
الرجاء .. كانت نعمة من النوع الذي لم يعتدّ تعكير الماء على أيما ذئب ،
لكنها ، فجأة ، وجدت الذئب أمامها ، وها هو الراعي الذي سينقذها .. إنه
مسحة من الله ، الله أرسله ليساعدها ، ومهما كان سبب تدخله ، فإن هذا
التدخل أرضاها .. لقد كان والدي عنيداً ، وكان هادئاً ، وقمينا بأن يفعل ما
يقول ، لذلك سألت الله في سرّي ألا يتطور الموقف أكثر من ذلك .. وفي

اللحظة التي وجدت تدخل الوالد مبسراً، ومتوقفاً، وكل من على البوابة يؤيده، وباركه، تساءلت في سري. «لماذا يندفع الوالد هذا الاندفاع؟» كنت أخشى أن يكون على صلة خفية مع بدور إنه يحوم حولها منذ وصولنا، وهو يعرف أن المطعون يريد لها لنفسه، لكن المنافسة بينهما لا أدري كيف حلت. ربما كان تحرش المطعون بالمرأة انتقاماً، وربما كان بدفع، كما لمح الوالد، من الشوباسي. ومهما يكن فلإنها امرأة، وفلاحة وثمة ثلاثة ذئاب حولها: المطعون والشوباسي والوالد. ولكم تمتت، في هذه اللحظة، أن تكون نية الوالد سليمة، خالية من الغرض، وأن يكون دفاعه عن بدور لوجه الحق وليس لوجه الشيطان.

توقعت عراقاً بين المطعون والوالد، لو حصل ذلك لكان كارثة، أعرف والدي، إنه لا يبالي بالكوارث، ومهما كان الدافع وراء موقفه هذا فلإنه سيمضي إلى النهاية. ويدافع الخوف على عملنا، ومنعاً للاشتباك المتوقع، وبحمية زائفة، تقدمت من المطعون وأمسكته من ذراعه.

- يا عم أبو نعمة. لا يليق هذا الموقف بكما. تتضاربان وأنتما أقارب؟

نجح المطعون:

- قل له إذن. قل لوالدك أن ينجل..

صاح الوالد:

- وإذا لم أخجل؟

- عندئذ يكون بيننا حساب.

لم يقل الوالد شيئاً. كانت في يده عصا كانت عصا من السنديان، كانت عصا حارس حقيقي، فخيّل إلي أنه سيضرب بها، لكن الوالد اقترب من بدور وسحبها من يدها قائلاً:

- هيا بنا..

ترددت بدور. احتارت فيما تفعل. لكن قبضة الوالد أطبقت على ذراعهما بإحكام، وبقوة دفعتهما إلى أمام، فسارت الفلاحة والوالد وراءها، وراحت

العيون، من حولها، تخلق غير مصدقة. كان الجميع ينتظرون ردة فعل المطعون. من جهتي توقعت أن يدخل خيمته ويأتي بالسدس فيشهده على الوالد. توقعت أن يطلق الرصاص، أن يسرع ويقف في طريق بدور، حائلاً بينها وبين العودة إلى بيتها، لكن المطعون لم يفعل أي شيء من ذلك. غادر البورة إلى «ح» وقال وهو يبتعد:

- لا أحد يتحرك من مكانه. كلكم شهود. سأخرب بيتك يا مصري. . . سأبلغ الشوباسي أنك خنت الأمانة التي أوكلت إليك. أنت لست حارساً، أنت متواطئ مع الفلاحين، أنت شريك بدور، ولن أعود إلى عملي ما دمت أنت على البورة، هي كلمة واحدة: إما أنت أو أنا، وكفى مهازل.

خلت البورة من الاثنين: المطعون والوالد: أحدهما ذهب ليشتكى، والآخر، المشتكى عليه، ذهب يوصل بدور إلى بيتها. عقب ذهابها علا اللغط. قال الفلاحون إن المطعون سيقم الدنيا ويقعدها، وأنه سيأتي بالشوباسي معه، وعندئذ الويل لبدور، والويل لمن ناصرها. وقال آخرون إن الخير سيبلغ بيت «ف» أنفسهم، وأن تحقيقاً سيجري، وسيطردونا من الحراسة، ويمنعونا من جمع الزيتون، وسنعود إلى المدينة، إذا لم يكن إلى السجن. الأم خافت. كادت تنهوى، وجدت فيها حدث امتحاناً من الله. وجدته كارثة حقيقية، وغضباً يلاحقنا منذ تركنا مدينتنا إسكندرونة. جلست أمام الخيمة واضعة يدها على خدّها. ولم تلبث أن بدأت تبكي، وكل من على البورة يراها، مما دفع الأخت إلى التوسل إليها أن تدخل الخيمة، وأن تكف عن البكاء، لأن الدمع لا يفيد، ولأننا، لو طردنا، سنأخذ حقناً ونعود، ولا بد أن نعثر في المدينة على عمل. كانت شجاعتهما تمدها دائماً بما تمزق به الستارة السوداء التي تنصبها الوالدة في مثل هذه الظروف. لقد اهتمت، لكنها وجدت ما فعله الوالد منطقياً، ولم تكن آسفة عليه، ولم تتعجل الأمور، وجاءت إلى تسألني:

- ما رأيك؟ يأتي الشوباسي الآن؟ ترى يضرب والدنا، يعاقبه، يطرده من

عمله؟

- ربّما . . كل شيء جائز . . غير أنّ الوالد فعل ما كان يجب أن يفعل، حمى بدّور وهذا هو المهمّ.

- لتذهب بدّور إلى الموت لقد تسيّبت لنا بمشكلة . .

- لو لم تقع المشكلة اليوم، لوقعت غداً! كان الاصطدام مع المطعون متوقّعا.

- وهل تحسب أن بدّور سرقته؟

- وأين تخفي ما سرقته؟ إنه افتراء إرهاب تهمة مزوّرة، الله يعلم الغاية منها.

- أنا أعلم . . هذا السفية لا يتّهمها إلّا لوجه الشيطان . .

- إذن موقف الوالد صحيح . .

- ومن قال إنه خطأ؟ . . لكن الأمور ستطوّر الآن . . ثم أنظر الفلاحين ما أكثرهم على البورة، والجمال لن تلبث أن تصل، والعمل معطل، والزيتون قد يفسد، وكل هذا سيتحمّل نتيجته الوالد . . اليس كذلك؟

- ستحمّل مسؤوليته كلنا . . ما اظن أنّهم يتركونا نجني زيتونة واحدة بعد الآن.

- للقرّد . . نعود إلى المدينة . .

- وماذا نعمل في المدينة؟

نظرت إليّ بعينين عاتبتين. كانت تحاول، وقت المصيبة هذا، أن ترتفع عليها. ما هو الأسوأ في الأشياء؟ أن تتوقّف عن العمل؟ حسناً! وماذا بعد؟ ما يفعل المطعون والشويصاوي والسيد (د) نفسه؟ أنها تدفع الأشياء إلى نهاياتها. تصل إلى المرحلة الأسوأ وتتصدّى لها بشجاعة، بينما أنا أنطوي على خوف، وأسأل الله في سري أن تنقضي الأمور على خير.

فجاءة سالتني :-

لماذا لا نعمل؟

وماذا نعمل؟

— أنت تكتب وتقرأ — هيا إذن . استلم القبان ، وخذ ورقة سجل عليها ما

تسلمه من زيتون . وهذا أفضل من الوقوف مكتوفي الأيدي .

— لكن هذا عمل الوكيل . . .

— وإذا تأخر الوكيل؟ تترك الزيتون يفسد؟ وإذا عادت الجمال من

المصرة، مَنْ يُقْبِن أحماها؟ هيا اذهب إلى القبان وأنا أساعدك . انتبه .

لا تحطئي في الوزن، لا تتقدم الناس، ولكن لا تدع ما تسلمه

ينقص . .

ذهبت إلى القبان، تفحصته . سحبت البيضة . ضبطت العيار،

وصاحت אחتي بالفلاحين :

— تقدّموا بالدور . . . دون مزاحمة ولا تدفيع . . .

جثت بورقة وقلم، جلست على الكرسي . اضطربت في البدء، كنت

أخاف المسؤولية . رغبت أن أؤكد من ضبط العيار . من جديد سحبت

بيضة القبان، وضبطت العيار ثانية . بدأت العمل مراعيًا فيه أن يكون

الوزن إلى جانبي قليلًا، حتى إذا أعيد الوزن لم يكن ثمة أي نقص .

الفلاحون دعوا لأختي، طلبوا لها طول العمر، والصيت الحسن، وأن

يرزقها الله ابن حلال، وأطاعوها في كل شيء، حين طلبت منهم أن يفرغوا

الزيتون المقيّن على طرف البورة، وآلّا يمسوا بيدرز الزيتون الذي يرتفع في

وسطها .

أمي لم تكن مرتاحة . راد تشاؤمها . صاحت بأختي :

— أنت ووالدك ستخربان بيتنا .

وقالت الأخت لي :

— لا تردّ . . هيا . ماذا تنتظر؟

بدأت، كانت أصابعي ترتجف، كنت أزن كيس الزيتون مرتين،
ولاحظت אחتي، فاقتربت مني وقالت:

— أسرع. — هذا ليس ذهباً. مهما يكن من زيادة أو نقص، فإن بيت
(ف) لم يخسروا شيئاً.

ومن بعيد تعالى رنين الأجراس. أقبلت الجمال، وبان الجمال على حماره
في المقدمة، وحدثت صجة، لكن الأخت، بقوة شخصيتها، ومهارتها،
ضبطت الأمور، وطلبت من الجمال أن يستريح، وذهبت لتعدّ له فنجاناً
من القهوة.

نسيت، في غمرة العمل، مخاوفي. انسجمت فيه، تحيلت نفسي
الوكيل، كانت العملية سهلة، ولم تمض دقائق حتى كنت أسحب بيضة
القبان بثقة، بل أسحبها رأساً حول الرقم الذي أقدره، ثم أذبذبها قليلاً،
فإذا لسان القبان يستقيم، وأنا أصيح:

— غيره.

وطفق الفلاحون يضحكون، ويتعاونون معي. ينتظرون دورهم، ولا
يجادلون في الكمية، بسبب ثقتهم بأنني لا أغشهم. كانوا يحملون أكياسهم
إلى حيث أشارت الأخت، عند طرف البورة، فيفرغونها ويمضون، وأنا
أرهق السمع، لمعرفة ما إذا كان المطعون قد عاد، وما إذا كان الشويباصي
قد أقبل، أودع الوالد من القرية، وأتمنى أن يتأخر الجميع، حتى أفرغ من
المهمة التي انتدبني لها الأخت، وأظهر للجميع أنني قادر على الفوز بما
تصدّيت له.

فرعت من وزن الزيتون الذي جمعه الفلاحون. جاء دور تحميل الجمال.
كانت هذه ترمي العشب اليابس والأشواك، على أطراف البورة. وكان
الحمار قد انفصل عنها، ليأكل عليه، والجمال يجلس أمام الخيمة، يدخن
سيكارة بعد أن شرب القهوة التي أعدتها الأخت، كان اسمه مصطو، وكان
ربعة، على رأسه كوفية، وفي يده عصا، وفي وجهه تعبير شكر للدنيا، كأن

كل شيء فيها قد استقرّ على نحو جيّد. ذهبت إليه، تشاورت معه حول تحميل الجمال، فأبدى رغبة في التحميل والعودة إلى المعصرة بسرعة، خشية أن يتأخّر المطعون، ويفسد الزيتون الذي على البورة. وافقت الأخت التي انضمت إلينا وقالت:

— لا بأس، غملاً الغرارات ونقبّس . .

— وأين الدفتر الذي نسجل فيه الكميّة التي حملناها؟
— نسجلها على ورقة برّانيّة. وحين يعود المطعون ينزلها في الدفتر.

سال مصطو الجمال:

— والوصل الذي أخذه للتوقيع من المعصرة بالاستلام والإعادة؟
قالت الأخت:

— هذه مشكلة .

ثم سألته:

— ألا يحدث، حين يكون المطعون مشغولاً، أن تأخذ وصلين معاً؟

— يحدث .

— إذن تأخذ وصلين في النقلة القادمة . . أعطنا الغرارات الفارغة .

تردّد الفلاحان عزيز ويونس اللذان يعملان على البورة، لكن أختي التي سحبت الرفش، ونهتّهما إلى أن الزيتون، لو تأخّر التحميل سيفسد، بثّت فيهما شيئاً من شجاعتها، وهكذا بدأنا العمل من جديد، شاعرين هذه المرة أننا أوقعنا المطعون في ورطة. كان بيدر الزيتون ضخماً عالياً، فما إن دفعنا الرفش في جوفه حتى انتشرت رائحة زيتيّة حادّة، وهذا يعني أنه يجب التحميل دون تأخير، وإلا تأكسد الزيت وتدنّت قيمته بعد العصر.

ملأنا ستّ غرارات. خطّناها وقبّناها. بقيت أرمع. كنّا نعمل بحماسة، باندفاع، بنوع من ثار، وكنا نريد، في أعماقنا، أن نفرغ من التحميل، وتغادر الجمال قبل أن يعود المطعون. تواطأنا، على هذا النحو، أن نصنع له مفاجأة، مؤدّاهاً أننا قادرون على القيام بعمله تماماً، وأنه

يستطيع أن يُضرب، أو مجرد أو يذهب إلى وح أو المدينة، دون أن يختل توازن القبة الزرقاء.

كان الوالد أول من عاد، دهش حين رأى العمل يجري، والجمال تحمّل، دون أن يكون أثر للمطعون، فصاح وهو يرانا:

— كيف تفعلون هذا؟

قالت الأخت:

— وماذا نفعل إذن؟ نترك الزيتون يفسد؟ المطعون أقسم ألا يعود إلى البورة ما دمت أنت عليها، وما أنت هنا، وهو هناك، ولن يعود إلا مع الشواصي، وعلى فرض أن هذا في المدينة، أو في قرية مجاورة، أو يتفقد الحبوب على الببادر، فماذا نفعل في حال كهذه؟ غاية المطعون أن يتوقف الشغل، أن يفسد الزيتون، وأن يلقي عليك بمسؤولية كل ذلك، فلماذا ندعك تتحمّل المسؤولية؟

— ولماذا أحمّلها ما دام هذا شغله؟

— سيزعم أنك أجبرته على توقيف العمل، ولم يعد بالإمكان تقبين الزيتون قبل أن يأتي الشواصي، سيخترع ألف قصة، ويلقى ضدك التهم، وما فعلناه، على فرض أنه لم يمرض الشواصي، فإنه لن يزيد الموقف سوءاً..

— الشواصي لن يكون راضياً.

— ممّ؟

— من كل ما جرى..

— أنت تدافع عن موقفك، ونحن ندافع عن موقفنا.

— ومنذ متى كان لكم موقف مستقل؟

— منذ أن تركتم البورة وذهبتن، أنت والمطعون.

قالت الأم:

— كبرت المسألة. الله يستر.

قالت الـاحـت:

- ليحدث ما سوف يحدث . أنا لا أبالي . .
- أنت لا تباليين . . أنت لم تخلفي إلّا للصدام .
- صاح الوالد بالأمّ:
- كفى!

كان قلقاً، مختاراً، متردداً، لكنه، بعد ذلك، اعترف:

- البت فعلت عين العقل . . ولكن كيف تمّ الشغل بهذا اليسر؟ هل سجّل أحوك كل شيء كما يجب؟

قلت:

- نعم فعلت . سجّلت الزيتون الوارد، ووضعناه على حدة، إنه هناك، تلك الكومة التي على طرف البورة، وسجّلت الصادر، وكل شيء على ما يرام . .

لم يقتنع الوالد تماماً . كان على شكّ من أن كل شيء قد تمّ كما يجب، الآن فقط شعر بأنه أقدم على فعلة أدّت بالمطعون إلى الحرد . لفّ سيكارة وأشعلها . قرفص تحت زيتونة وراقب ما نعمل، فلما حمّلنا الجمال وانطلقت نبهته أجراسها إلى الواقع، فابتسم وقال:

- القصة كبرت يا أولاد . لسوف نواجه الطرد . سيطردوننا لا محالة .
- قالت الأمّ:

- إذا حدث ذلك فهو بسببك . .

عندئذ انفجر، كأنه كان ينتظر كلمة منها لينفجر . .

- لماذا بسببي؟ ماذا فعلت؟ وماذا تريد من بعد؟ هل كان يجب أن نترك بدور بين يديه؟ كان يرضيك أن نجبر على خلع ثيابها؟ لماذا رفضت تفقيشها؟ ماذا لو دخلت الخيمة وخرجت، ثم قلت له: «لا شيء تحت ثيابها؟»

- قالت الأم:
- بدور ما كانت تخفي شيئاً. إنه اتهام كاذب. افتراء على امرأة بريئة.
 - وقالت أختي:
 - فعلت ما كان يجب أن تفعل، فلماذا تندم الآن؟
 - دافع عن نفسه:
 - لست نادماً. لكن المسألة تطوّرت. لنتظر ما سوف يفعل هذا الكلب. إذا أدت شكواه إلى طردنا قبلي سأضربه، نعم. سأفعل ذلك.
 - صاحت الأم:
 - لا تضربه، أرجوك، ليذهب إلى جهنم هو البورة والزيتون. كنا بغني عن المشاكل.
 - قال الأب:
 - لا يستطيع الإنسان أن يعيش دون مواجهة المشاكل. هي التي تفرض نفسها عليه. ما بقي هو أن يواجهها أو ينحني لها. أنا لا أنحني حتى للعاصفة. في حياتي رأيت كثيراً من العواصف. واجهتها، ولم أنحني أمامها.
 - لكنك لم تنجح ولا مرة.
 - هذا بسبب الخطأ.
 - بسبب سوء التدبير.
 - مهما يكن. ما فعلته اليوم كان لا بدّ منه. أنا لست امرأة، ولن أكون امرأة ولا في يوم من الأيام.
 - وأنت لست رجلاً أيضاً. وإلا ما ضعت بهذا الشكل.
 - الرجل شيء، والتوفيق شيء آخر. الذين يتوقّفون لا يكونون رجالاً دائماً.
 - وماذا يكونون؟

— امرأة مثلك . . . اللعنة على حواء! . . .

انسحبت الأم صامتة. هي تعرف أخلاق الوالد، إنه على حافة الانفجار، وإذا انفجر فسيضرها. في حالة الغضب لا يسأل عن شيء. تستوي الأمور عنده، لكنه، الآن، لا يقدر أن يضربها، أمام أولادها، لم يعد ذلك لائقاً، وليس لائقاً أكثر أمام الناس. في حالة الغضب يضرب السيد نفسه، ومن الأفضل ألا تستفزّه. لقد قطعت الأمل، منذ زمن بعيد، من انصلاحه. هذا هو: سكير، خاسر، مشاغب، لا يسكت على واحدة، ولا يأبه، حين يتصرف، بالعواقب، هذه التي تتصل بالخوف، بالحد، وهو لا يخاف ولا يحاذر، ويستطيع عند اللزوم، أن يقتل، وأن ينام ملء جفنيه، ليلة شنفه نفسها.

من جهتي كنت أعرف والدي، لكنه، في كل تصرف جديد، يبدو جديداً تماماً، كأنه لا يكرّر نفسه. هكذا، بشعور من الأسف الشديد، رحت أراقبه، لاحظ كل حركة من حركاته، عسى أن أفهم ما هي دوافعه. لكنه كان يفاجئني، حتى أحسب ألا دوافع وراء أفعاله، وأنه يتصرف بعموية لحظته، ثم لا يبرر سلوكه، كأن ما أناه هو الصواب الذي لا يأخذه في أمره شك. ليس معنى هذا أنه لا يندم في حال واحدة كان يندم، هي حالة السكر، كان يستشعر عاراً بحق رجولته، وأسرته، لكن ندمه كان عيشاً ثانياً لفعلته، لا يمنعه من الإقدام ثانية على فعله أسوأ، كأنما يندم لأن من طبيعة الأشياء أن يتصرف على هذا النحو، أو كأن الموبقة تتطلب ندماً، وهذا يتطلب موبقة جديدة.

لست أجزم بأنه انتصر ليدور لأنه يريد، لكن بدور وجدت في هذه الحركة تصرفاً رجولياً يستحق الالتفات. هكذا تضعه تصرفاته اللامسؤولة أمام إغراءات لا يقوى على الصمود لها. بدور ستقع بين يديه، هو لا يستعجل، لا يبالي، لا يتحسر، وحتى ولو لم تقع فلن يتأثر أيما تأثر. ما يقال له حب، ما يقال له عشق، وما في الحب والعشق من لوعة، من هيام، من غرام يجعل الرجل على الذبول، على النحول، على البكاء، غير وارد في

قاموسه إنه يعيش اللحظة لذاتها، يتصرف بحق الفعل الطبيعي، وبعد ذلك يترك كل شيء للمجرى الذي يتخذه. لقد دافع عن بدور، حماها، وأنقذها من التفتيش عنوة، وسيدفع ثمن كل هذا راضياً، دون أن ينتظر أجراً أو شكوراً، فإذا ما جاء هذا، وإذا ما استسلمت بدور، فإن ذلك أمر آخر، منفصل، لا علاقة له بما قبله. إنه لا يراكم الأسباب، ولا يربطها، ولا يكثرث بها، وكل تصرف يقوم به يُعدّ جديداً، وحتى لو تورط، فإن غاية ما يستطيع أن يبرّر به تورطه هو إرادة الله، ففي نظره كل شيء يعود إلى الله، لأنه هو، بعد كل شيء، مسؤول عنا، ولأن شعرة، كما قال المسيح، لا تسقط من أبداننا إلا بإذنه.

تميّت، عمري كلّهُ، أن يكون لي ما كان لوالدي من لامبالاة. أن تكون لي شجاعته، إقدامه، تموّره، وتسيانه أيضاً. فقد كنت أنا، لا هو، من يجب أن يدافع عن بدور، بحميها، ويوصلها إلى قريتها. لكن الحذر كان دائماً قيداً في عنقي، وهكذا ضاعت الفرصة، هذه التي لم يفكر بها والدي، لكنّه لم يضيّعها، ولست أدري ما قاله للمرأة، لكنّه، أثناء الطريق، قال أشياء ترضيها، ولا شك، أو ربما تعهد لها بأن يضرب المطعون، وترك لها، مقابل تعهده، أن تفكر فيه على هواها، فإذا فكرت لا بدّ أن تُعجب، والإعجاب طريق مفتوح لكل الاحتمالات. لقد كنت في السادسة عشرة من عمري، كنت في سنّ المراهقة، وفي مثل هذه السنّ يشكّل جسد المرأة إغراء لا يُقاوم، وفي الحقيقة أغرائي جسد بدور، لكنني رفضت فكرة تفتيشها، وحتى لو أرغموني عليه فسنكر أنها سرقت ألبما زيتونة، ولو وجدت زيتون الكرم كلّهُ في طيّات ثيابها. إنني، من ناحية المرأة، أتساوى مع والدي، ويظلّ الفعل هو الفارق، يظلّ الحذر غلاً في عنقي، بينما والدي حرّ، لا يعرف الأغلال، منذ ولد. نعم لقد تميّت أن أعرف، وهو يمشي معها، ما قاله لها، لكنني رغبت رغبة صادقة أن يظلّ عفيفاً معها، فلا يتلفظ بكلمة غير لائقة أبداً.

هذا ما كان شعوري - ولم أتساءل ما هو شعور أختي، فقد كانت طاهرة

في نظري، أما أمي فقد كانت نوعاً آخر من المرأة. لم أتصوّر يوماً أن نفسها جاشت بما نجيش به النفوس الأخرى. خيّل إليّ دائماً أنها خلقت كبيرة، خلقت أماً على نحو ما أراها. ولم تكن هذه الأم تعطي لنفسها أي حق من الحقوق. كانت مع الوالد مستلبة الحقوق جميعاً، وكان يخيّل إليّ أنها قانعة بذلك، فإذا وفّت بواجبها الزوجي فإنما تفي به كارهة. والذي هو الذي أطفأ كل إحساس فيها استلّه منها على نحو بطيء مستمر، حتى أضحت جسماً فارغاً من الداخل، قصبة جوفاء، مكرّسة لخدمته، للعناية بنا وتنشئتنا، وما رأيتها مرة تروح وتجيء، إلّا والهّم يروح ويحيى معها. كانت طيبة، مؤمنة، قديسة، وتكره، بشكل لا يظهر عليها، زوجها، وتضمر عتياً غير قليل على حظّها الذي رماها به، ثم هي تعزو كلّ ذلك، بعد الحظّ، إلى اليتيم. تقول إنها كانت يتيمة، وكانت تعمل في بيوت الناس، وأنها تزوّجت دون حبّ، دون رغبة، دون معرفة بما وراء الحب والزواج. لقد كانت صغيرة، وكان والذي يكبرها، وكان يمكن، لمشاعرها أن تفتّح أو تنغلق نتيجة موقفه منها، ومن سوء الحظّ أن هذا الموقف تبدّى إنانياً، بشعاً، كريهاً، وهكذا انقلبت حرارتها الجسدية إلى برودة، ومن الصعب أن يكون حادث اليوم، وذهاب والذي مع بدور، وما يتوقّع لذلك من أثر في علاقة رجل بامرأة قد أثار فيها أيما انفعال.

طاب لي، بعد الانتهاء من تسلّم الزيتون، وتحميل الجمال، وغسل الوجه واليدين، أن أشرب فنجاناً من القهوة. ما كنت أدخن، لكنني، في نشوة داخلية أعيشها وحدي، رغبت في القهوة، وشاركتني فيها أختي. ما كنا نشرب الشاي، في إسكندرون لا يشربون الشاي إلّا مع الإفطار. إنه أدام طعام الصباح، ما عدا ذلك، فإن القهوة هي التي تقدّم للضيف، وتشرب للمزاج، وتؤخذ للاستمتاع في الأصباح والليالي.

كنت، الآن، على مزاج طيب، فقد بعث بي الإقدام على ما أقدمت عليه، شيئاً من شعور بالثقة، بعضاً من الراحة، وقليلًا، قليلًا جداً، من الزهو، كان يمكن أن يكون أكبر وربما وصل إلى حدّ الغرور، لولا توقّعي أن

المطعمون سيقبم الدنيا ويقعدوها بعد عودته. ولم يكن خوفي من المطعمون هو كلٌ خوفي، كان هناك الرعب من الشويباصي، الذي سمعت عنه من كل من صادفته، ورأيت منه، بعد أن عرفته، ما ثبتت هذه القناعة الرعبية في قلبي. . . وما هو الوكيل يذهب إليه شاكياً، وسيعود به هذا المساء لننال جزاء تصرفنا الخارج عن المألوف، أو المضاد لكل مألوف، في مهمة الحارص التي كانت تقتضي من والدي أن يكون مع الوكيل وضد بدور، لا مع بدور وضد الوكيل.

شربت قهوتي متمهلاً. كانت قهوة حلوة، ترشفتها متلماً، متمياً أن أشرب فنجأنا آخر، دون أن تخطر لي السيكارة، هذه التي سأعرف، في الكبر، أنها مع القهوة تساوي ثقلها ذهباً. وقد سألتني أختي، التي تعرف تحسباتي:

- لماذا أنت مهموم؟
- لست مهموماً.
- وما رأيك بما فعلنا؟
- جيد لولا أنه.
- فاطعتني:
- ألا تستطيع العيش دون «لولا» هذه؟
- ولكننا.
- قد نُطرد، أليس كذلك؟
- على الأقل سنحاسب.
- دَعْ عنك هذا. . . حين تُقدم على شيء، لا تبال سلفاً بما ينجم عنه أنت رجل، ستصير رجلاً، فأعرف كيف تتصرف إذن. . . لا تخف من أي شيء، وعندما تكون على حق، أو تعتقد أنك على حق، كن شجاعاً وتحمل تبعات.

فكرت بما قالت، وخطر لي تبرير خوفي فقلت:

- لو لم تكن فقراء.

أضافت:

— حتى مع الفقر كن شجاعاً .

أضافت أيضاً:

— الشجاعة، مطلوبة خاصة مع الفقر، ليستطيع الفقير أن يواجه الحياة .

— أنا لا أنكر ذلك . . .

— ومتى ستعمل به؟ كنت أتوقع أن يصدر عنك ما صدر عن أبيك .

— لماذا؟

— هكذا . . والدك غير متعلم، والدك لم يقرأ تلك «الكراريس» التي

قرأتها، ثم هو غير معنيٍّ بالعدالة مثلك .

— لماذا وقف مع بدور إذن؟

— لا أدري . . ربما وقف مع بدور بمقتضى الشهامة، بينما كان عليك أن

تقف إلى جانبها بمقتضى المبدأ . . ألا تقول إنك صاحب مبدأ؟

أزعجني ما تقول . كان صحيحاً وهذا ما زاد في إزعاجي، صحت بها:

— كفى تفريعاً . .

— أنت حرّ، ولكن أيّ رجل ستكون، إذا ما استولى عليك الخوف أمام آية

مشكلة؟

— أنا لست خائفاً . .

— لكنك لست جريئاً . أنت تستمدّ من وجودنا بعض الشجاعة . . تريد

أن تصرف نفسك عن التفكير بما قد يحدث .

— وأنت؟

— أنا مثل والدك، لا أبالي . .

دون تفكير، صدر عنيّ هذا السؤال السخيف:

— وكيف تفعلين كي لا تبالي؟

— لا شيء . الله خلقتني هكذا .

فالتها وغادرتني وفي يدها عصا . كانت العصا تعبيراً عن ذات صدامية .

لم يكن هذا ليفوتني ، غير أنَّ العصا في يدي ، ما كانت لتعطي المعنى نفسه
لا بدَّ أن أبدل نفسي إذن . . يا الله ، كيف يبذل الإنسان نفسه ؟ هبني هذه
النعمة يا ربّي ! اجعلني أتبدّل ، صيرني مثل أبي ، صيرني مثل أختي ،
غير أنَّ ذلك لم يصّر . كان باكراً بعد ، وكان عليّ أن أكون متاضلاً
لاكون شجاعاً وبالعكس .

طالت غيبة الوكيل . طولها أعطانا المبرر، أختي وأنا، لنقول إننا كنّا على حق . كان المطعون، في قرارة نفسه، يحسب أنه فعلها . ما كان مهتماً بالزيتون، ما دامت المسؤولية، بعد كل شيء، ستلقى على والدي . ولم نكن، حين شرعنا بالعمل مكان الوكيل، نعلم أنه سيتأخر إلى هذا الحدّ، قرارنا كان عفويّاً، غير محسوب بالمسطرة كما ظهر فيما بعد، وقد ارتحنا، عند هبوط الليل، أننا فعلنا ما فعلناه، فقد سيرنا الشغل، وأنقذنا الزيتون، وأبطلنا حجّة المطعون في أننا نعرقل العمل، وأننا نقوم بالتخريب ضدّ السادة أصحاب الكروم .

أشعلنا النار، وخبزت لنا الوالدة على الصاج، أشعل الفلاحان اللوكس، وبدأ كل ما حولنا ساكناً، كأنّ الليل الساجي قد امتصّ كل سامة، ما عدا بعض الأصوات لعصافير طائفة، متقلّة، متأخرة عن أسرارها، ولبعض الجنادب، التي تصرّ في ليالي الصيف . وفي الأبعاد كانت نيران تشتعل، تلك هي نيران التناير التي أوقدها القرويون، وقد أطلعت عليها من الرابية، وسمعت، من هناك، ثغاء وخوارا، صادرين عن المواشي، وهي تعود إلى حظائرهما، وترسل النداءات لصغارها المنتظرة في الزرائب . كان بهاء المساء يفتني، وقد أحسست، هذا المساء، بفتنته على نحو أروع، برغم ما بي من قلق من جرّاء الحادث الذي وقع .

ولقد رغبت، في هذه الخلوة على رأس الرابية، أن أتملّ الكون، وأكون وحيداً، فأنترد بنفسي وأحلّل مشاعري على مهلٍ ومن نافلة القول، أنني كنت راضياً، لا بما قمت به من عمل، وإن كان هذا قد أَرْضاني، بل بما أثار إعجابي، مما أظهره الوالد من جرأة تحدّث المطعون في أعزّ شيء لديه! وظيفته! قلت في نفسي: «لو أن الوالد على وعي قليل لكان أشدّ جرأة ثم خطر لي أن جرأة والدي تأتيه من لامبالته، من نزقه، من انعدام الشعور بأيّما مسؤولية لديه حتى تجاه العائلة. إنه الفلتان، التصرف حسب الطبيعة بدائية الفعل حين لا يعقله حدٌّ، فهل كان الوعي، لو واثق الوالد، يلجم بدائية فعله هذه؟ يدخل دائرة الحسابات والمحاذير؟ يجعله يفكر بما يفعل، قبل أن يفعل؟ يصبح مثلي، على الأقل، أنا ابن المدرسة، الذي يعرف الحق والباطل، أو يتخيّل إليه أنه يعرفهما، لكنه، أمام قيد العقل، لا يندفع مع غريزته، ولا يتصرّف دون رقيب من وعي يقول له افعل هذا ولا تفعل ذاك. إنني أناجي ربّي، أسأله أن يهبني جسارة كجسارة والدي، وشجاعة كشجاعة أختي. لكن والدي وأختي أُمَيَّان، لم يذهبا إلى مدرسة، ولم تتهدّب طبيعتهما القطرية، وهما يصدران عنها في نوع من عنفوان، يجعل التملل الداخلي الذي أحسّه عمداً صريحاً عندهما. أكفر بالمدرسة إذن؟ أكفر بالوعي الذي عقل اندفاعاتي الطبيعية؟ أضع اللوم على ما قرأته ووعيته من الظلم النازل بالناس؟ أم أن طبيعتي هي طبيعتي، فأنا حذر بالفطرة، وحذري هذا، إذا كان له أن ينتفي، فإن دفع الظلم عن الآخرين، أو الإيمان بذلك، هو ما سوف ينفيه رويداً رويداً؟

لقد كان فايز الشعلة جريئاً، ولم يكن أُمَيّاً. وكان سبيرو الأعور جسوراً، ولم يكن غافلاً، وقد قال لي فايز الشعلة مرّة: «لا تشكّ من ضعفك الجسدي. هذا لا شيء. القوة في القلب، هناك تكون أو لا تكون. الشجاعة تأتي مع الإيمان، الموت نفسه، يأتي مع الإيمان. حين تؤمن بشيء فأنت على استعداد لأن تموت من أجله، أما إذا كنت مستسلماً لموج الحياة، فإنك لن تحمّد السباحة في بحرهما، ولن تكون قادراً على مواجهة مصاعبها

الخوف ليس فطرة . . الجراءة ليست فطرة، كلاهما يُكتسب اكتساباً . وقد صنع هذا الكلام لي بهجة . منذ ذلك اليوم تبدّلت . كنت انطوائياً فصرت اجتماعياً . كنت متشائماً فصار لديّ بعض الأمل . كنت يائساً، ولو ملكت الجراءة لانتحرت، وما أنا المتخلّص من يأسِي وضعفِي شيئاً فشيئاً، لكن الجراءة التي تأتي مع الإيمان لم تواتني بعد، فهل ذلك لأنني لم أؤمن بشيء بعد؟ أو هل ذلك لأن إيماني غير كافٍ؟ وما دامت الجراءة، بالفطرة أو بالوعي، هي الجراءة أخيراً، إذن ما الفارق بين الفطرة والوعي؟

كذلك قضيت ساعة كاملة وأنا أفكر . كان في داخلي معمل للتفكير، ما إن تدور آلهته حتى يجذبنني كورقة بين مستناته، فتروح أسطواناته تدور بي حتى أدخل عالماً منفصلاً عن عالم الأرض، عالماً أليفاً، حبيباً، لكنه لا يفضي إلى شيء، وهو، في أحسن الأحوال، يجعلني أضطرب في متاهات ما تفشأ تشعّب وتتفرّع وتقودني إلى متاهات أخرى، فأضيع، وأحتاج إلى الهرب من عقلي وتفكيري كليهما .

أخيراً اضطرت إلى التجوال . جعلت أهبط الرابية وأصعدُها كرامة أخرى . وجدت في هذه الرياضة بعض التسلية، ومع أنه لم يسبق لي أن قمت بجولة في الكرم أثناء الليل، فقد غامرت وذهبت إلى بعيد، متتبهاً في كل لحظة، إلى أيّما خشخشة بين الأعشاب، خوفاً أن تكون ثمة أفعى، أدوسها فتلدغي دون أن أظن إليها .

بلغت في سيري طرف الكرم الآخر، لم أكن في الواقع أقصد هذا البعد كله، لكنني، حين أوغلت في الكرم، قررت أن أخرج منه وأعود إليه عن الطريق العام، الذي جئنا منه يوم وصولنا إلى قرية «ح» . كان طرف الكرم ينتهي عند مجرى سيل . كان المجرى، في الصيف، جافاً، وعلى كتفه رأيت خيمة أمامها فانوس مؤطر بزجاج، ينير فسحة جلس عند طرفها، تحت ريتونة شاهقة، رجل في مثل عمر والدي، وإلى جانبه فتاة عرفت من صغر سنّها أنها لا يمكن أن تكون زوجته .

تنحنحت حتى ألفت النظر إلى وجودي . كنت أستطيع أن أظّل وراء

شجرة زيتون، أراقب ما يجري في الفسحة المؤطرة بضوء الفانوس، لكن معرفتي أن هذا ناطور آخر من نواطير الكرم، وأن هذه ابنته، دفعني إلى الإعلان عن نفسي، كأنما كرهت أن أتلصص، أو حكمت بأنني لن أفعل على أيّ مشهد مثير، أو أن رغبة خفيّة دفعني إلى التعرف على حياة ناطور، وإلى رؤية ابنته التي تبدّت لي في الضوء الناعس على قدر من الجمال لم أتوقع رؤية مثله في هذه البرية المقفرة.

صاح الرجل:

— من هناك؟

— أنا .

رأيت يقف، ويتناول عصاه، وتقف ابنته وراءه، حالما جاءهما صوتي الغريب، غبر المؤلف منهما. تقدّمت باتجاه الضوء، وتقدّم الرجل باتجاهي، وظلت الفتاة مكانها، وقد ارتسمت على عيها ظلال وشحتها بقلالة من جاذبية مضاعفة.

— من أنت؟ صاح الرجل.

— أنا من البورة، ابن الناطور هناك .

تراخى صوته بعد توتره:

— تفضل . . أهلاً وسهلاً . .

أضاف:

— تقصدنا أم كنت ماراً من هنا؟

— كنت ماراً فرأيت الضوء، ووجدت من المناسب أن ألقى عليكما تحية

المساء

— أهلاً وسهلاً . . أهلاً . . الاسم الكريم؟

— أنا ابن الناطور . .

— ابن سالم الذي على البورة؟

— هو بعينه . .

صافحت الرجل الذي قال إن اسمه عبد الله، وصافحت ابنته التي

قدّمت نفسها باسم رثيفة، وتردّدت بين الجلوس وبين البقاء واقفاً، لكن عبد الله الذي كان يشرب كأساً، محاولاً إنعاش نفسه بعد تعب النهار، أصرّ على جلوسه، ودعاني إلى كأس معه.

المرّة لا يعرف كيف تقع المصادفة. يكون خالي الذهن من أيّ شيء، يعيش أيامه بوتيرة واحدة، وإذا المصادفة تنبت زهرة في كفه، فيتضوّع منها عقب يعطر أيامه. حتّى قبل ساعة، عندما كنت على الرابية، وقبل ذلك على البورة، كان محالاً عليّ أن أحزر أنّه في هذه الليلة، هذه الليلة بالذات، سيشرق في ظلمة حياتي مصباح يحمل النور والبهجة والأنس، وسيقبل الجسود الذي أحسّه، إلى نشاط في دمي وعملي وتفكيره على السواء. المجهول ستاره عدميّ يخفي وراءه مفاجأة. أنا جثت من وراء هذه الستارة، أهلي كلّهم جاءوا من ورائها. أمي وأبي كانا، كلّ منهما، وراء ستارته قبل أن يلتقيا، الحياة نفسها ستارة، ومن وراء سجفها يبرز ذلك المجهول ليصير معلوماً، ليقبّل ما كان إلى ما هو كائن، وما هو كائن إلى ما سوف يصير، مُغيّراً، في لحظة، مقادير الناس على نحو مفرح أو محزن. أحمد ربّي لانه يبعث الضجر في عروفي، فقمّت في هذا الليل بجولة كنت قبلها أخافها، أو لا أتوقعها، أو ربما أخشى أن أقوم بتثلها؟ أسأل الله أن يزرقني كثيراً من هذه الجولات، وأن يكشف أستار حياتي، سترأ بعد ستر، كي تشرق في أيامي أنوار تضيئها؟ ربما كان على الإنسان أن يخطّط، أن يدبّر، أن يرسم، مثل ورق الجوز، خضرة غده المنتظر، ولكن الغد، هذا الذي في رحم الأتي، كثيراً ما يجانف ما خططنا وما دبّرنا، وكثيراً ما تأتي رسمه ورق الجوز رسمه ورقة دلب، أو رسمه ورقة الدلب رسمه ورق ورد، فالقلم الذي بيد المقادير، لا ينصاع كلّ مرة للأنامل البشرية، ولا يستوي مع التفكير الرغبيّ الذي يمتدّ حلماً طيباً، مباركاً، مزهراً، ثم يحصد من حلمنا هذا شلواً ممزّقا للباس والعجز. إنه القدر، في حالات الابتهالات القصوى، يتبدّى لنا في صورة غير التي أنشأناه عليها في حلمنا، مع ذلك فإن الحلم مبارك، ولا بدّ أن تحلم الحلم ضروريّ للحياة، لكنّ هذه، أحياناً، تائبك بتحقّقات

حلمية لم تخطر لك يوماً على بال. إنني أعيش مع عائلتي منذ مدة في هذا الكرم، وربما كان الكرم كبيراً بحيث لا أفكر أن أطوف به كله، وربما كان صغيراً. ومع ذلك لم أقم بالتجوال فيه، ثم فجأة تتشكل رغبة في النفس، ويندفع الجسد للتنفيذ، وإذا المصادفة تضع صاحبها على الطرف الآخر للنهر، الطرف الذي ما خطر له يوماً أنه سيصله.

فكرت، وأنا أجلس إلى جانب العمّ عبدالله، كيف لم أعرفه قبل الآن؟ وكيف لم أخظه حين كان يحني إلى البورة، وحتى لم أكثرث به؟ وكيف أننا جيران، ولم يخطر للوالد أن يحدّثني أن في الطرف الآخر من الكرم ناطوراً مثله، وله بنت بمثل عمر شقيقتي؟ وما هي الموانع التي كانت تحول دوني ودون القيام، في الامامي، بجولة في الكرم؟ ولماذا الليلة، دفعني شعور مبهم إلى التغلب على خوفي، وإلى تجاوز تحفظي، وترك حذري الدائم، والانطلاق في الكرم، لاكتشف، في طرفه الآخر ضوءاً، ثم لاكتشف، في نور هذا الضوء، ذلك الناطور المتوحد وابنته الجميلة رقيقة؟.

ربما كانت السماء، التي تعرف أن ههنا، على أرضها، ينهض فتى يزخر حشاه بكل العواطف الطيبة، أرادت أن تكافئني على طيبي، وربما، أيضاً، أرادت أن تقتصّ من خلوي، فرمتني بهذا الشجا الذي سيلهب خيالي. إنني لا أجزم. كل ما في الأمر أن واقعاً جديداً يتشكل، وفي حيث لم أكن أتوقع تشكله قط، وأن هذا الواقع، يضعني أمام طاولة عليها ورقة بيضاء، ثم لا أدري من ذا الذي سيكتب عليها، أنا أم قدري؟ ولا أدري، فوق ذلك، ما هو الذي سيكتب، وهل يكون حظاً سعيداً أم نحساً مشؤوماً؟ إنني أفتح صفحة جديدة، وستقرأون هذه الصفحة بكل ما فيها من حسن وقبيح، لأنني سأكون صادقاً، فالكتابة على صفحتي يقوم بها قدري.

كان مضيبي يجلس جلسة مستريحة على حصيرة، ويستند بيده اليسرى على وسادة، وأمامه طاولة خشبية صغيرة، عليها كأسه، وحول الكأس بعض الصحون، ومن ورائه، وفي شجرة الزيتون، علّق فانوساً مؤطراً بالزجاج، اتقاء للريح، وإلى مبعده، عن يمينه، جلست فتاته التي لا تتجاوز

السادسة عشرة من عمرها. كان الهدوء تاماً من حوله، وبعد حرّ النهار، بدت طراوة الليل متعشة، وكان رداء العتمة، منشوراً حوله، ومن خلاله تين صفوف أشجار تمتد إلى بعيد ثم نفوس في هذه العتمة التي كانت شقافة في ذلك المساء الصبيّ الجميل. ولم يكن الرجل يتحدث إلى ابنته، أو يعني على عادة والدي إذا ما جلس إلى الشراب في الأمسيات. كان هكذا ملكاً صامتاً، وفوراً، منسجماً مع نفسه، مكتفياً بانسجامه، سعيداً كأن لا هم يلمّ به، ولا هاجس يشغله. كان صورة للناطور الذي يقوم بواجب الحراسة قياماً كاملاً، فهو، بعد، لا يبالي بما يحدث خارج كرمه وكوخه ودائرة الضوء من حوله. كان أشبه برجل عزل نفسه عن الناس، وأثر عزله حتى لا يعثره قلق بما يجري خارجها. إنه، في السن التي بلغها، يعرف شيئاً واحداً، أن يعمل نهاراً ويستريح ليلاً. وكان آمناً حتى كأن مملكته الزيتونية لا يتهددها لص ولا يسورها ليل في طواياه خطر، وما كان بينه وبين ابنته جفاء، لكنه لا يتخذها ندبة أو سامرة، فهي لا تشرب معه، ولا تبادل حديثاً، ولا تقترب فتجلس على الحصيرة التي يجلس عليها. كانت مؤدبة، راضية، في عيها بعد لا يدرك كنه. وكانت مليحة، في وجهها وسامة، وعلى خديها عمارتان، تكسيان طلعتها بهاء إذا هي ضحكت. أما إذا ابتسمت فإن الغمازتين تغدوان معجبتين في البشرة العجيبة القمحية الموردة من صحّة ونضارة. وكان شعرها ليلياً، طويلاً، يتهدّل في جديلة على ظهرها، ويبقى منه بعض خصلة تندلّ على صفحة الوجه، كأنها تريد أن تحجب خفراً بوشح المحبّ، والشفة العليا منشرة قليلاً، كتدبير تكويبي لإظهار صفّ من الأسنان البيض المنتظمة انتظاماً سمطياً. أما الأب فقد كان في العقد الخامس أو يزيد، وكان ذا شعر رماديّ، وله ذقن مندفعة، تدل على عرض الفك الأسفل، وعينان خيليتان، فيها لمعة تعطي للوجه كله إضاءة تكسيه طيبة محيية. وكان، كما يبدو من كتفيه، فارح القامة، عريض المنكبين، وله طلة استعراضية، وجسارة تلوح من كبانه كله.

صَبَّ لي قدحاً من العرق مزجه بالماء، وسألي وهو يشرب نخبي.

- ألا يشرب الوالد؟
- يشرب .
- كل يوم؟
- كل ساعة إذا أردت
- صحك
- إلى هذه الدرجة؟
- وأكثر - والدي مدمن
- وأنت؟
- هذه هي المرة الأولى التي أشرب فيها من كأس محصنة لي وحدي
- العرق طيب - وستعاده وتعبه
- لا أرغب في ذلك
- لم؟
- هكذا - كرهته منذ رأيت والدي يدمن عليه
- بخيل إلي، من كلامك، أنه يسكر بسرعة
- بسرعة شديدة - يا إلهي! - جسمه لا يقاوم العرق أبداً.
- أما أنا فلا أسكر - أشرب قليلاً، كل ليلة، ولكن لو شربت كثيراً فلا أسكر أيضاً - أنا قادر على المقاومة
- لم تشترك رغبة في الحديث - لعل الموضوع ما كان يعينها، أو لعلها في خمر الصبا ما زالت تحتفظ في الكلام مع رائر غريب - كنت أزورها من طرف خفي، ألقى نظرة جانبية عليها فأراها تزداد انكماشاً، حتى أنني للحظة، يشت من أن تبادل كلمة، لذلك انصرفت إلى الأب الذي كان يشرب ويتحدث مسروراً كما بدا، لأن إنساناً طرقة في هذا الليل، وجلس إليه يتسامر وهو في انسجامه الكامل مع الطبيعة.
- سألني بغتة
- أنهيت الدراسة؟
- نعم - أعني المرحلة الابتدائية .

— هذا جيد . وماذا يريد أمثالنا أكثر . ؟ الشهادة كافية لأن يكون الإنسان قارئاً كاتباً وبعدها المهنة . المهنة سوار من ذهب . . ولو كان لي ولد لوجّهته إليها .

— ألا أولاد لك ؟

— نعم . . لا أولاد لي . . هذه البنت وأنا . . رثيفة وأنا . . زوجتي توفيت ، وقد كانت ضربة اليمّة . . إنه شغل الله فماذا تريد ؟ يخطو العبد إذا عارض مشيئة الله . . أم أنت لست من رأيي

— من رأيك ، على ألاّ نحمل الله مسؤولية كل شيء . .

اعتدل في جلسته ، وبعد أن حرع بلعة أكثر من المعتادة ، قال مستشاراً لأول مرة منذ أتيت :

— كيف لا نحمل الله كلّ المسؤولية ؟ اليس هو ، عدم المؤاخذه ، الذي خلقنا ، والذي سيميتنا ، ولا تسقط شعرة من أجسامنا إلاّ بإذنه ؟

كانت حكاية الشعرة التي لا تسقط إلاّ بإذن المسيح قاسماً مشتركاً بين جميع المسيحيين . كانت السند الذي يلجأ إليه كل من سمع اعتراضاً على أيّ واقع في الحياة . كانت شعرة قوية ، وكنت أراها مشهرة في وجهي كنصل حادّ .

غصت في نهر من التفكير . كنت على استعداد دائم للتفكير ، وهذا ما أرعجني طوال حياتي . كان أجدر بي ، في أوّل لقاء لي مع العمّ عبد الله هذا ، أن أحدّثه عن الكرم والزيتون والبورة ، وأن أستمع إليه يعطي رأياً في كلّ هذه الأمور . غير أنني ، منذ انعطفت بي فجأة إلى مسألة تدعو إلى التفكير ، نسيت وجوده وسمحت للتفكير أن يأخذني بعيداً . ويبدو أنه ملّ صمتي ، فتكلّم عن نفسه ، وكيف يقضي نهاره ، قائلاً :

— حين استيقظ صباحاً ، أرسم الصليب على وجهي . أكون ، بعد رسمه ، قد سلّمت وجهي لله ، ويكون المسيح حارمي . لقد عانيت في حياتي ما يكفي من الآلام ، لكنّ الألم الأكبر هو حرمانّي من الدنونة . مع ذلك

فهذه ابنتي رثيمة، المسيح أراد أن تكون لي ابنة وحيدة، وأنا قانع، ومفروض أمري إليه. أحسب أنني عشت بشرف واستقامة، بحيث شملني المسيح برعايته، وما زلت على هذا الإيمان، وعندما ماتت زوجتي صبرت على البلوى، اقتداء بآيوب، وما زلت أصبر، وأنا مرتاح لأن الدود لم يزعج جسدي بعد، كما رعى جسد آيوب. إنني أسي، وأنا أعمل نهاري كله، أن فقد زوجتي قد رماني بالموجع، مثل ألم آيوب.

— أنظرن أن التشبه بآيوب، والإيمان بعدم سقوط شعرة إلا بإذن المسيح، يكفيان لرد ما نعانيه في حياتنا من آلام؟

— وإذا لم يكونا كافيين، ماذا نفعل في رأيك؟

— لا أقول أن نفعل فعلاً معيناً، ولكن يجب أن نفكر. الإنسان، بعد كل شيء، ليس بهيمة.

— في هذه معك حق. الله خلق للإنسان عقلاً.

— وعلى الإنسان الذي أعطي عقلاً للتفكير أن يفكر، لا أن يجلس ويقتدي بآيوب.

— هذا رأي والدك؟

— هذا رأيي.

— تعلمته في المدرسة؟

— سمعته من الناس. في بلدنا إسكندرونة، لا يفكرون على هذا النحو.

.. هناك يعملون لتأليف نقابات تدافع عن حقوقهم، ويتظاهرون ضد

فرنسا، ويقولون أشياء جيدة عن المستقبل، أشياء لم أسمع بمثلها هنا،

أعني في اللاذقية، مع أن المسافة، بين إسكندرونة واللاذقية، ليست

كبيرة، وهما تقعان على بحر واحد.

أضفت:

— أنا لا أظن أن الفقر من الله، أو الاحتلال الفرنسي منه. هذه أشياء

صارت نتيجة فعل الإنسان . .

— حلوا . أنت فيلسوف (فيلسوف) إذن؟

— لست فيلسوفاً، وهل يحتاج ما نحن فيه إلى فلسفة؟

— لا أدري، لكنني لم أسمع مثل هذا من قبل . . إنه اعتراض . .

قاطعته

— اعتراض على ماذا؟ إذا كان اعتراضاً على الأغنياء، الاحتياجات والاقطاعيين، فأنا معترض فعلاً . .

— هذا اعتراض على حكمة الله . .

— استغفر الله، بل هو اعتراض على تصرف الحكومة والسياد .

— إذن هو سياسة . هذه لا نفهم بها . . نحن، كما ترى، لا نفهم بالسياسة . . السياسة لها أربابها .

سادت لحظة صمت بيننا. كانت مسألة السياسة، وتعليق كل مطلب حياتي على التعاطي معها، تحمل تاريخاً طويلاً من التجهيل. لقد أدخلوا في عقول الناس أن السياسة شيء خطير، وأن مجرد الاقتراب منها يعني التماس مع الخطر، وأن على الإنسان، إذا أراد تجنب وجع الرأس، أن يتعد عن السياسة، وها هو العم عبد الله، واحد من الذين يخشون السياسة، ولو كانت تدخل في موقفهم الذاتي من الحياة. لشد ما صادقت، وما عانيت، من هؤلاء الذين يعتقدون اعتقاداً راسخاً أن السياسة لم تخلق لهم، فإذا سألتهم لماذا؟ أجابوك لأن لها أربابها، وهم يقصدون فوراً الأسياد. كانوا مستسلمين إلى خمول ذهني، إلى بلاده تفكيرية قاتلة، إلى نوع من تطويب التساؤل والتفكير والبحث إلى غيرهم، إلى أسيادهم على الأرجح. وهكذا كان هؤلاء الأسياد يحتكرون السياسة، دون أن يبذلوا أي مجهود لذلك. إذن كانت ثمة ضرورة أن يعرف الناس، الشعب، الفقراء خاصة، أن السياسة داخلية في كل شيء، من الرغبة إلى أيما سلعة يتناعونها، وأن هذه الخشية

من السياسة لا موجب لها، وهذا الجهل السياسي عيب وإساءة إلى أنفسهم، وإلى فهمهم وموقفهم من الحياة كله

لكن ذلك كله لا يقال مباشرة. الناس يعيشون كيما اتفق أن يعيشوا، وعلى من يريد إيقاظهم، أن يدفعهم للتفكير كيف يضح أن يعيشوا، وعجرد حصول ذلك يعني نقلة كبيرة إلى الأمام، ومن هنا ينبغي البدء من هذه المسألة البسيطة الخطيرة في أن يجب أن يسلط نشر الوعي. وهذا ما سوف أمارسه، وأجد فيه صحة مطلقة عندما أكبر

إنني في جلسة التعارف هذه، لا يمكن، ومن غير المفيد، أن أدخل في نقاش مع الناطور عبد الله، الجدل معه، دون كسب ثقتي، عقيم. وسأعرف، بعد ذلك أنه ليس عقيماً فقط، بل هو مشير، لأن ذهن هذا الناطور قد تصفح ضد أية محاولة للاختراق. ضد أية محاولة لإنارة الظلمة، ولو قليلاً، في فكره الذي تجمد عند حبّ الأسباد إلى درجة العبادة، ووقف النفس على خدمتهم، مهما يصدر عنهم من سوء أو عسف.

كان الناطور عبد الله، وأنا صامت أفكر بهذه الأشياء، يروزي باستخفاف، مصدره أنني من طيبته، وأني ابن ناطور، ولا أفهم أكثر منه، حتى لو كنت ابن مدرسة، ويحسن بي، في حديثي معه، أن نتبادل المعلومات عن الكرم والزيتون والنظارة، لا أكثر

سألني:

— ماذا يجري هناك، على البورة؟

— والذي يحرس في الليل، ونحن لجمع الزيتون في النهار.

سألت رثيفة:

— عائلتكم كبيرة؟

— الأم وأختان والوالد وأنا

— لم يسبق لكم أن نظرتم زيتوناً، أليس كذلك؟

— لم يسبق أبداً... هذه هي المرة الأولى... كنت ، في البدء... أحسبها شغلة ملعونة .

— والآن؟

• كان في صوتها دلّ غريب، تضح أنثوي مبكر أيقظ فيّ مشاعر نائمة، وكالت، كما خيل إليّ، تنتظر جواباً معيناً لتفرح، وكنت على استعداد لمثل هذا الجواب المشرح. أو أني فعلاً كنت أؤمن به. أليست نظارة الزيتون لعنة؟ وهذا العذاب، والأفاعي، والتشرّد في البريّة، وجمع عشرة أمثال مقابل واحد، أليس لعنة؟ بل هو كذلك، وقد كنت، حتى إلى ما قبل مجيئي، نعيساً، ضجراً، مستاءً من أشياء كثيرة، ليس أقلّها، ولا آخرها، المشكل الذي وقع على البورة.

قلت لها ملاطفاً:

— الآن تغيّرت الحال قليلاً، اعتدنا... كان يجب أن نتعارف قبل الآن.

قال والدها:

— لم يفت الوقت...

— صحيح...

وقلت لرقيقة:

— لدي أختٌ بعمرك...

— يمكن أن تأتي بها الليلة القادمة؟

— يمكن...

صاح الأب:

— رقيقة لا تعاشر أحداً، ولا تتكلم حتى معي أنا.

فطنت، الآن فقط، إلى أن ابنته لا تشاركه الحديث، وتجلس وراءه لا إلى جانبه، وتصوّرتها من فوري سجينة خيمة قشبيّة، هي بدورها سجينة

كُرِّمَ لا بشر فيه، وأنها تتعذَّب في وحدتها، وتنتظر، بصبر نافذ، غلوقاً يؤنسها، وأنها ستتعلَّق بأختي ما إن تراها، ستحبُّنا، وتحبُّها، وربما كانت الليالي المقبلة حافلة بطعم آخر للحياة، طعم لم أدقه حتى الآن، ولكن حذساً ما ينبئني سأذوقه.

استأذنت ونهضت، لم اشرب كأسي كلَّه، ولم تكن بي شهية إليه، وقد حدثت الله أنَّ والدي ليس على هذه الشاكلة، وأنه فنان على طريقته، في الشرب والحديث والشجاعة. تساءلت ما إذا كنت مبالغاً في كرهه، حتى وهو يسكر كثيراً، فربما كانت الحياة نفسها تدفعه إلى السكر، كي يسي كثيراً من الأشياء التي يحسن نسيانها، إذا لم يشأ المرء أن يسود أيامه، وينظر من خلال نظارة معتمة إلى كل ما حوله.

حين رجعت إلى البورة لم يكن المطعون قد عاد بعد. كل شيء كان هادئاً، وكان الوالد يجلس على حصيرة تحت الزيتون المعلقة بها خيمتنا وجدته يدخن وحيداً، وليس ثمة دلالة على أنه تناول شيئاً من العرق. لعلَّه استنجد بكل ما تبقى من إرادته كي يبقى صاحباً، ولعلَّه كان قلقاً من جرأ ما حدث، فهو لا يتكلَّم، لا يغني، لا يشد مجراوية الزير سالم، وترف على وجهه ظلال جد رقيقة من ألم يكابده. حينته وجلست قربه. كانت الأم والأختان يتنزهن حول البورة، والفلاحان يلعبان الورق، وخيمة المطعون مهجورة، ورائحة عطنة تأتي من الزيتون الذي دب فيه الفساد بسبب التراكم على البيدر. كان يجب أن تأتي الجمال ليلاً، وقلت في نفسي: «من الأفضل ملء العرارات، حتى إذا عادت الجمال كانت جاهزة للنقل» وحين أعلنت ذلك لم يعارض الوالد، اكتفى بالقول:

— تأخر المطعون..

— لعلَّه لم يجد الشوباصي في الضيعة.

— في هذه الحال يكون قد ذهب إلى اللاذقية. هتاك الشكوي أبلغ. بصوّر الأمر على كيفه. يقول ليبت «ف» إنني ناصرت الفلاحين،

وقاومته، وحاولت ضربه، ومنعته من تفتيش بدّور. - يقول أشياء كثيرة، قليل الوجدان هذا.

- وماذا تتوقّع؟ يصدّقون شكواه؟ يخدعونهم ويجعلهم يرسلون الدرك؟ وماذا لو جاء الدرك؟ تستسلم لهم أم تهرب؟ وماذا ينفع الهرب. - الأفضل أن تدافع عن نفسك، أن تقول الحقيقة، والفلاحون يشهدون.

- الفلاحون لا يشهدون معي. يخافون المطعون، ويخافون الشوباصي، وأكثر من ذلك يخافون بيت «ف» إنهم يسكتون عن الحقيقة مضطرين. - يجب ألا يسكتوا.

قال الوالد كأنه نحى فرصته للهرء مني، أنا الذي أجرؤ على انتقاده بسبب السكر.

- ولماذا سكّ أنت؟

- وماذا أقول؟ بحضورك لا بدّ أن أسكت.

- ولو لم أكن حاضراً ستسكت. - كأنك لست ابني.

جرحتني كلماته. - كانت حقيقة وجرحتني. كنت أسمعها منه للمرة الأولى، وقد عجبت أنه يصمر في نفسه كلّ هذا الوجد عليّ، وأنه لا يهينني رحمة بي، وأن ما بيننا من كره متبادل، وأنه يفضل أختي عليّ، وأن ما أقوله عن العدالة والمساواة وحقوق الفقراء، يحتاج إلى توكيد، ولا يمكن أن يتأكد إلّا بموقف صحيح، يطوي على قدر من الشجاعة كفيّل بفرض احترام قائل هذه الأفكار.

لزمت الصمت. أدركت بماذا كان يفكر والدي. إنه يعتب عتياً ساخراً. لقد كان من الأولى أن أنوب عنه في حماية بدّور. كان ذلك يرضيه. يضعه خارج دائرة المواجهة مع المطعون، وكان يمكن في حال كهذه، أن يدافع عني، وأن يجد نفسه حراً وقوياً. كان والدي يفهم الكلمات بالمواقف، فما دمت مؤمناً بالعدالة، وأتكلم عن الظلم، فلماذا، حين وقع الظلم سكّ؟

طبعاً كنت، في حال الكلام، التحدي، الوقوف إلى جانب بدور، سأجعله
يزداد ضيقاً بي، لأنه، في وضع كهذا، كان يراني جديراً بمواقفي منه، أما
وأن ذلك لم يحصل، فهو مرتاح الآن، وهو يسخر على نحو فيه كثير من
التشفي.

— لم يأت دوري بعد.

قلت ذلك كي أستعيد توارني النفسي الذي اختلّ. ولم تفته هذه
المحاولة، فقال دون أن يكثر بدفاعي:

— ومتى يأتي دورك يا بطل؟ حين أموت؟ بوذي أن أرى هذه البطولة
بمعني.

— لست بطلاً، ولا أريد أن أكونه، لكن ما أقوله عن مقاومة الظلم
حقيقي.

— وكيف يقتنع الناس بحقيقته إذا كان القائل لا يؤمن به؟

— أنت تراني كذلك؟

— لست أنا وحدي.. أسأل أختك أيضاً.. أسأل الفلاحين الذين كانوا
على البورة.

— سيأتي يوم تتبدل فيه صورتي في عينيك.

— ومتى يكون هذا اليوم؟ بعد الزواج؟ حين يتزوج الرجل يودع شجاعته..
المرأة والأولاد لا يتركون للشجاعة موضعاً.. إذا أردت أن تفارق
الجسور جسارته زوجته!

— سأكون جسوراً قبل الزواج وبعده..

— ما أظن.. البداية تقرر كل شيء..

— بدايتي لم تأت بعد.. حين أعمل واستقل.. حين يكون علي أن أفدي
أفكاري حين تتعرض هذه الأفكار للخطر، عندئذ يكون الموقف

مختلفاً. أنا لا أقاتل في سبيل امرأة، ولا أقاتل في حالة السكر. لا
أدع السكر يسيطر عليّ.

رددت السهم هو البادئ. ربما كنت جباناً أمس، لكن الشجاعة
ليست فطرة كلها. سأتعلم أن أكون شجاعاً. وكما صيرتني أفكارني قوياً
بالنسبة للمرض، وللانطواء، وللكتابة، ستصيرني شجاعاً. وإلى أن يأتي
ذلك الحبل، لا بأس أن يعرف والدي أن شجاعته مصروفة في غير وجهها
الصحيح. نعم هو يقاتل في حالتين: المرأة والسكر، وقد لا أقاتل أنا،
لكنني وراء أفكارني التي أؤمن بها حتى الموت. المرأة والسكر لن يستبداني،
ولن أندفع مثله لأجلهما. أعرف أنني جرحته كما جرحني، وأعرف أنه جرح
من قولتي إن السكر يسيطر عليه، لا من قولتي إنه يقاتل في سبيل المرأة،
لكن علي أن أقول ذلك، وعليه أن يسمعه، دون أن يقلل ذلك من إعجابي
به هذا النهار.

نهضت وذهبت أبحث عن أمي وأختي. كنُ على الرابعة، كان القمر
يطلع من وراء الأفق المحجوب بالأشجار، وكان طلوعه هيباً، كأنه معلق
حيث هو، فلا هو يتحرك، ولا طرف السماء يتطامن حتى يتسلقه. كان
وردبياً، فيه صفرة وشحوب، وكانت السماء العالية، بمظلتها الزرقاء
المرقطة بالنجوم مضاءة بفعل شعاعه المنبعث بقوة خارقة. وبعد أن
أخبرتني أنني زرت عبد الله الناطور، في الطرف الآخر من الكرم، وأن ابنته
رثيفة، التي بعمر الأخت، تبعث هنّ بسلامها، تركتهن ومضيت أنحدر عن
قمة الرابعة، قاصداً طرفها الآخر، راغباً الاختلاء بنفسني لترتيب مشاعري
التي أفسدها والدي.

كنت، رغم الابتسامة، ومحاولات النسيان، واصطناع اللامبالاة، متأثراً
من نفسي لا من والدي. كان علي والدي أن يقول ما قاله كي يوقظني من
سباتي الناجم عن خمولي. كان عليه أن يطعنني بسكين الصراحة حتى أفيق
وأفهم أن الدنيا قاسية بما يكفي، وأن عليّ، إذا أردت شقّ طريقي فيها، أن
أكون شجاعاً، وأن أبرهن عن هذه الشجاعة عند اللزوم. ليس للجبان

مكان، عند الأهل أو المرأة أو الناس. إنه سالم سلامة الزواحف التي لا تفارق أوكارها. وهذه السلامة ذاتها هي مقتلة وعجيلة العار له، فالحذر يؤق من مكمنه، ومهما دفنت النعامة رأسها في الرمل، فإن الصياد يراها، ويطلق عليها ويرديها. علي إذن ألا أكون زاحفة، أو نعامة، أو صلاً، علي أن أكون نفسي، في الشرف الذي للنفس التي تعرف أن تجابه وأن تموت في وقت اللزوم. الإنسان لا يكون حرّاً من الخارج فقط. عليه أن يكون حرّاً من الداخل أولاً، أن يملك من الاعتداد ما يكفي لتوازن الشخصية، ومن الزهو ما ينبغي كي لا ينكسر أمام أية مصيبة. يقال إن طلب الحرية عبء، لكنّ الذلّ، الخضوع، العبودية، عبء أكبر، وصاحب المبدأ ينهض بعبء الحرية بأيسر ممّا ينهض عديم المبدأ بعبء العبودية. إنني لن أكون كالذين يخافون، ويندمون، وعن طريق الندم يصنعون لأنفسهم أخلاقاً ذات مقاييس متساقطة مع جبنهم. إنني لن أفرغ المي الذي أحسست به هذه الليلة عن طريق تعنيف نفسي أو إهانتها، نفسي شريفة، ومن شرفها علي أن استمدّ العزم لمقاومة الوهن، حين يلمّ بي ويقودني إلى الضعف. أنا منطقي مع نفسي، وسأمتلك الشجاعة لأدافع عن أفكارني.

مشيت، مشيت، مشيت، كان السير يفيدني وقت هذا التدفق من المنولوجات الداخلية التي كلّمت فيها نفسي، واستحضرت كلّ العبارات الرنانة التي قرأتها في الكتب. كان الأمر بسيطاً: ألا أخاف، ولكنّ عدم الخوف هذا كان بحاجة إلى مصداقية، وهذه لن تأتي إلا عن طريق الفعل، وأنا بحاجة إلى مجابهة سريعة، أحقق فيها انتصاراً يحو من نفسي أثر الكلام الذي قاله لي والدي. قرّرت العودة إلى البورة، لأرى ما جدّ فيها، ولأخذ موقفاً، حين يكون ذلك ضرورياً، أبدأ فيه البداية الموعودة، التي أُنذرت بها والدي.

سمعت، من بعيد، أصواتاً على البورة. حثت الخطر، درت بالرابية وقصدت الخيمة، راغباً في أن يحدث ما سوف يحدث بسرعة، تنتهي بها من القلق العاصف الذي يلمّ بنا جميعاً، ونكتبه جميعاً، في محاولة للتماسك،

وعدم الإفصاح عن أفكار السوء التي تتناوشنا منذ وقوع حادث بدور. كان المطعون قد عاد، كانت عودته بطبل وزمر، فقد عرج على الضيعة وأتى بالشوياصي معه، وكان، لذلك، يتكلم بصوت مرتفع، مهدداً بخراب بيوت الذين قاوموه، وكان الشوياصي يحمل عصاه، والبندقية في كتفه كالعادة، ولم يكن يتكلم، بينا المطعون يصيح بالفلاحين:

— من قس الزيتون وتسلمه؟

— ابن المصري.

— ومن طلب اليه أن يفعل ذلك؟

— لا ندري، هو تطوع من نفسه.

— وكيف سمحتم له بذلك؟

— وماذا نفعل؟ نترك الزيتون يفسد؟

— وهل نتركه يضيع إذن؟

— لم يضع شيء.. كله مسجل.. (وصاح الفلاحان منذ أبصراني) ها هو.. أسأله واعتقنا.

تقدّمت بهدوء لكن بخوف. عاد الخوف يسيطر عليّ، تمثّيت لو عاد المطعون وحده، كان ذلك أهون عليّ، كنت أكلّمه دون هذه الرهبة التي ابتعثها في أعماقي الشوياصي وهو يلفّ سيكارة، وقد عقد حاجبيه، وبرز غضب لاهب في وجهه، ورفض، منذ وصل، أن يقترب من خيمتنا، أو يلقي السلام على الوالد.

قال لي المطعون:

— تعال إلى هنا.. من الذي استلم الزيتون من الفلاحين؟

— أنا استلمته، وسجّلت كلّ شيء في ورقة، وحسبت أنني أقضي غرضاً، لأنّ الفلاحين يجب أن يعودوا إلى بيوتهم، وقد جاءت الجمال.

وكان يجب تحميلها، خوفاً من أن يفسد الزيتون، إذا لم ينقل إلى المعصرة . .

— ومن طلب منك أن تفعل ذلك؟

صاحت أختي من أمام الخيمة، موجّهة كلامها إلى المطعون:

— أنا . . حين رأيتك تترك العمل، وتدع الزيتون والناس وتذهب، وجدت من المناسب أن نعمل ما عملنا.

— هذا الذي عملتموه خطأ . . هذا شغلي، كان يجب أن نعرفي أنه شغلي، وأنا المسؤول عنه، وأن الزيتون له أصحاب، ونحن وكلاء أصحابه . .
قالت أختي دوغما اكتراث:

— يسلم الزيتون لأصحابه . . نحن لم نأكله . .
قاطعها:

— لم يبق إلا هذا . . لم يبق إلا أن تأكلوه يا خنزيرة . .

— أولاً أنا لست خنزيرة، وثانياً أنت تشمتنا أمام الشوباسي لتستر فعلتك، لكن الشوباسي جاء ورأى من الذي عطل الشغل، ومن الذي سيره .

— وتحرضين الشوباسي عليّ أيضاً؟ أعود بالله . . آية عائلة هذه؟ الأب لا ينظر، والابن الذي ظنناه عاقلاً يسعى لياخذ مكاننا، والبنت تتصدى لنا من الصباح إلى المساء، وكلما دققنا مسماراً علقت عليه منخلًا . . لم يبق إلا أن نترك الكرم والبورة والملك لكم . . لم يبق إلا أن نتوكلوا أنتم ونصبح نحن الأجراء عندكم يا أبا اسكندر، استحلفك بالله، رأت عينك، على كثرة ما رأت، شيئاً كهذا؟

لم يردّ الشوباسي، كان غير ارضٍ عن فعلة الوالد، لكنّه، في المقابل، ما كان راضياً عن تصرّف الوكيل، وإذا كان يرغب عن تدخّل النساء، فإنّ موقف الأخت كان صحيحاً، وكان المطعون نفسه يعالج الأمور بعقلية نسوية، فهو يأخذ ويعطي، ويثرثر، ويكرّر كلامه، ويدور حول موضوع

واحد حتى يزهق الروح، ويتجنى على الآخرين بشكل سافر، ويحرضهم على نفسه كأنما عن قصد، وبكلمة، تفتقد شخصيته كلها صفة الإنسان المقنع، الإنسان القادر على القيام بعمل أوكل إليه إضافة إلى هذا كان يخاف، الشوباسي الرهيب يحب من هو أرهب منه، لا يطبق الخوافين، ولا يحب المشاكل، والمطعون يخلق له كل يوم مشكلة، وإذا كانت مشاكله، قبلاً، مع الفلاحين، فهذه المرة مع الواطير، ومع عائلة من المدينة حيث لا يريد بيت «فه» أن يفتحوا معركة، أو تتناقل المدينة ما يعرفه الريف عنهم

ولأن هذه المعاني غابت عن إدراك المطعون، فقد عجز عن فهم سبب صمت الشوباسي، قام في ظنه أن هذا لا يؤيده، وأن سكوته يعني عدم الرضا على ما يقول، ويعني الرضا عما يقوله الآخرون. ثم إن طبيعته كثرثار، كانت تفتقر إلى سد من الصمت، وكلما طال الصمت فقدت الثثرة ركيزتها، وبدت كلاماً أجوف لا يحمل على الاقتناع، ويتطلب مزيداً من الثثرة التي تزيد بدورها في تخويف الكلام وإفقاده كل معقولية سابقة

هكذا بدا المطعون في اتهام الآخرين، مدافعاً عن تهمة موجهة إليه، أو صارت موجهة إليه، من صمت الشوباسي الذي لا معنى له إلا الإنصات إلى ما يقوله خصوم المطعون، هذا الذي سمع منه كل هذا الكلام الذي يردده الآن، وفوقه تهويل بأن الدنيا خربت، وأن الزيتون صار نهياً، وأن كل شيء تعطل، ولا يمكن إصلاح الأمور إلا بإنزال أشد العقاب بالعائلة التي تجاسر ربها وانتزع فريسته منه.

قال المطعون:

- لست ابن البارحة. سنوات وأنا وكيل على البورة، وكل شيء كان يجري على ما يرام إلا في هذا العام فقط، عام الشؤم، الذي أراني وجوههم.

كان الوالد صامتاً. وزن نفسه فإذا هو من وزن الشوباسي لا الوكيل. كان راغباً عن الكلام إلا إذا تكلم الشوباسي، أما إذا ظل المطعون يثرثر، فهذا من هذر الكلام، ولا بد للقرية أن تفرغ بعد قليل من الهواء، فيسود

الضمت المطلوب قرر في نفسه أن يفعلها ويخلص، تأسف، ربّما، لأنه لم يضرب المطعون من فوره، كانت، عندئذ، الشكاية تستحقّ، كان يجده، إذا طرد من البورة، سبباً وجيهاً للطرد، سبباً يجعل ابن الفاعلة هذا يندم على يوم رأى فيه وجهه حقيقة.

تابع المطعون كلامه :

- بدّور سرق، نعم سرق. رأيتها وصببتها. كان الريشون في عثها وحول بطها وبين رجليها، لحسب أن ما سرقته ثلاثة كيلوات. اصرب ثلاثين في ثلاثة، تسعين كيلو في الشهر، وإذا كانت هذه الكميّة لا تفقر السادة، فإنها، إذا لم أحاسب عليها، تتضاعف. بدّور تقول لغيرها، وغيرها يقول لغيره، وهكذا تبدأ الفلاحات بالسرقة. وربما سرق الفلاحون أيضاً. إن لهم شراويل واسعة. وللقناير جيوب كبيرة، وإذا ملأ كلّ فلاح شرواله أو غبازه، فإن الموسم يتعثر، وفي آخر الموسم يأتي السادة ومحاسبوني، يقولون: أين الموسم يا أبا نعمة؟ فبماذا أجيب؟ أقول هم الكرم لم يكن حاملاً؟ هذه خدعة. أنا لست مستعداً لخداعهم، أنا لا أغش من انتمني. ثم إن السادة لا يفشون. يعرفون كلّ شيء. من نظرة واحدة على الزيتونة يعرفون ما تحمل، ومن جولة في الكرم يقدرون الموسم. كلّ هذه الأمور واردة، وكلّها آخذها في حسابي. أنا هنا الوكيل، وما معنى الوكيل؟ إنه صاحب الرزق في عياب الموكلين، أنا هو، إذن، صاحب الرزق، في البورة أنا بيت وف، وببني أن يعرف الجميع هذا. أليس كذلك يا أبا اسكندر؟

قال أبو اسكندر

- الوكيل مثل الأصل، مادام هذا غائباً.
- رحم الله أمواتك. الوكيل يقوم مقام الأصل، أسمع يا مصري؟
- قال والدي غير آبه.
- أسمع.

— إذا كنت تسمع فلا بد أن تعرف ..

قال والدي :

— وأعرف أيضاً .

— إذا كنت تعرف فلماذا اعترضتني ؟ لماذا تدخلت لحماية بدور ؟

لم يجب الوالد ، وتابع المطعون :

— أعرف لماذا تدخلت ، أنا لا تقونني واحدة . أنت رجل هذه كلمة

حق . وأنت من إسكندرية ، وهناك الرجل شهم ، وهذه كلمة حق

أيضاً ، وبسبب من شهامتك تدخلت . أفهم ذلك . أنا نفسي ، لو

كنت مكانك ، لتدخلت . أنا لا ألومك .

قال الوالد :

— لماذا حررت إذن ولماذا تركت البورة وذهبت ؟

قال المطعون :

— هه ، هذا سؤال حلو . السؤال الحلو يحتاج إلى جواب حلو . أنا

أجيبك . خذ مني وأعطني . . . إبق معي ، أبو اسكندر يسمع

ويحكم . الشوباسي ، عدم المؤاخدة ، محايد ، نحن ، جميعاً نحترمه .

لو شتمني ما رددت شتمته .

قال والدي :

— أبو اسكندر لا يشتم . . يسمع ، ويقدر ، ثم يحكم . .

— طيب . . ها هو يسمع . . ماذا كنت أقول ؟

لم يجبه أحد ، فسكت لحظة ، ثم صاح :

— تذكرت . . كنت أقول إنك شهم . .

قال الشوباسي :

— هذه سمعناها . .

- وكنت أقول إنَّ من حقَّ الرجل أن يتدخل
- قال الشوباسي :
- وهذه سمعتها أيضاً .
- تضايق المطعون ، سبي ما كان يقول ، لذلك صفن قليلاً ، ثم انتفض وقد تذكر ، وصاح بوالدي :
- أنت ، يا مصري ، تسألني لماذا تركت البورة ، أليس كذلك ؟ أقول لك : تركتها بسببك . أنت ، عدم المؤاخذه . إنسان يركب رأسه ، أنت ، كما عرفتكَ في هذه الأيام ، يدك والضربة .
- قاطعهُ الشوباسي وهو يكاد يضحك ، ويضغط على نفسه كيلا يضحك ، فيذهب الضحك بشيء من هيئته :
- أنت ، يا مطعون ، خفت من الضرب إذن ؟ لماذا لم تقل لي ذلك من الأول ؟
- صاح المطعون وهو يركع أمام الشوباسي .
- يا أبا اسكندر ، ورحمة الوالد . . .
- قال الشوباسي :
- قل دون قسم . أنا مصدِّقكَ .
- ورحمة الوالد ، أقول هذا ولا أرخص . . أنا أعرف والدك . وأعرف معزَّتكَ له ، وأعرف أن هذا الشبل من ذاك الأسد .
- قاطعهُ الشوباسي :
- اختصر . خلُّنا في المهم . .
- نعم ، سأبقي في المهم . . أنا وسالم أخوان . . نحن ، عدم المؤاخذه ، عائلة واحدة ، ومنذ وصولهم ، طبخت زوجته مجذرة وأكلنا .
- صاح به الشوباسي :

— ما علاقة المجردة بما نحن فيه؟ أكمل . قل ما عندك

— سأقول، سأقول، ولكن . اللهم ساعدني . أين كنا؟

لم يستطع الشوباصي مع نفسه من الابتسام، كانت ابتسامته مثل الشمس في شباط، وها هو، أخيراً، يتسم، بل راد على الابتسام فتبادل النظر مع والدي، وعندئذ عمد الاثنان إلى لفّ سيكارة، كأنما حلا التدخين في الجو الذي خلقه المطعون .

قال هذا :

— بدّور سرق، هذا ما لا أشك فيه، وكنت أراقبها منذ أيام .

قال والدي :

— ولماذا تراقبها؟ ثم لماذا، إذا جاءت البورة، تركت شغلك ولحقها؟

— أنا؟ أعوذ بالله ، كل شيء ولا هذا . يمكن أن تتهمني بأية تهمة، حتى يمكن أن تمون علي، وأن تشتم والدي، بل أذهب أبعد من ذلك وقل عني أكلوا، أحب الطعام الطيّب، أحب الطيبات، أما النساء، عدم المؤاخذه، أنا حافظت طول حياتي على الوصايا العشر .

— الذي يحافظ على الوصايا لا يغش في القبان، لا يجعل السبعة كيلوات عشرة لبدور . الوصايا قالت لا تسرق، لا تزن، والشوباصي أوصاك أن يكون قبانك مثل الشعرة، ثم بيت «ف» لو علموا بما تفعل . أنا لن أنقل لهم ما أراه على كلّ حال .

كان والدي يتكلّم جاداً . مسح عن وجهه كلّ تعبير يقيد أنه يسخر من المطعون، وجاراه الشوباصي وهو يكتّم ضحكه . ولأول مرة، منذ قدومنا، لاحظ أن المطعون به خفة، وأن جنبه يعمل على التحول من متهم إلى متهم، وأن والدي اكتشف ذلك وراح يحاصره بالاتهامات، حتى نسي كل شيء، وكلّ ما كان قد أعدّه من كلام، وشرع يقسم أنه لم يسرق ولم يزن، حتى قال له الشوباصي :

— أنا لا أحاسبك . دع المصري يقل ما يريد . إنما أنت مطالب بالجواب على سؤال عديد : لماذا تركت البورة وعطلت العمل ؟

— وكيف أعمل إذا كانت بدّور سرقت وسليم منعي من إثبات سرقتها ؟

— سليم هو الناطور وهو المسؤول عن السرقة .

— وأنا ؟ ماذا أنا ؟ أأست الوكيل ؟ تشطبون صلاحياتي بجرّة فلم ؟ أخشى أن يكون قلبك تمحّول يا أبا اسكندر ! موقفك اليوم ، عدم المؤاخذه ، ليس إلى جانبي .

— أنا مع الحق .

— وأين هو الحق ؟ من المعتدي ؟ من الذي حمى بدّور وأخذها إلى بينها ؟ ثم من الذي ، أمس ، وقف إلى جانب الفلاح صحر ؟

— كل هذا صحيح ، وكان عليك أن تعلمني به . . أقول تعلمني به ولا أقول تترك البورة وتوقف العمل وتذهب إلى اللاذقية .

— العمل لم ينعطّل والحمد لله . كنت أعرف أن هناك من يقوم به . . ورغم أن القيام بهذا العمل تدخّل في شؤوني ، فإنني أنازل عن هذا الخطأ . .

أعطني الورقة (وأشار لي) أعطنيها لأرى الأرقام . مجرد رؤية الأرقام يكفي ، هذه شغلتي . خمس سنوات من عمري . دهر ، دهر كامل ، ثم ماذا ؟ يأتي المصري وعائلته . .

قاطعته والذي :

— احفظ لسانك يا مطعون . لا تورد اسم عائلتي على لسانك . . أنت تعرف ، وأبو اسكندر يعرف (قائلاً وغمز أبا اسكندر) أنك عطلت العمل ، وأسأت إلى بدّور أخلاقياً بطلبك تفتيشها .

قاطعته :

— لم يفتشها أحد ، زوجتك رفضت ، وكذلك ابنتك . . يكفي الرقص . . أنا ما كنت قادراً على تفتيشها بنفسي ، أو على تكليفك بذلك . . وكان

الامر سيتهي لو لم تتدخل ، ندخلك الأسد حطفي - كنت أريد تحوير
 بذور والفلاحين ، هذه هي الخطة - على الوكيل أن يكون مرهوباً ، تماماً
 مثل الشواصي ، وكيف أكون مرهوباً يا عبي ؟ فل أنت يا مصري
 ضع نفسك مكانى ، كيف تكون مرهوباً وسط هذا الكرم المحب ؟
 - نفش الساء ، وسعلهن ، أمام الرجال ، نخلص ثيابهن ، عمل غير
 لائق -

صاح المطعون

- أمام الرجال ؟ حق الله - من الذي طلب نفش بذور أمام الرجال ؟
 كل شيء ، ولا هذا ، هذه نعمة خطيرة ، نعمة أخلاقية - أنت تنهني
 بأخلاقى ، وقبل ذلك أتهمني بدمنى ، ماذا بقى ؟ ها هو الشواصي ، وهو
 يعرف أخلاقى ، يعرف دمنى ، يعرف نفوى -

قال الشواصي

- هذه لا أعرفها ، نفواك هذه لا أعرفها - الرجل تنفى بصوم ويصلى
 ولا يشرب العرق -

قال والدي -

- ولا يلاحق بذور - -

- وماذا في قليل من العرق ؟ المسيح نفسه شرب قليلاً - من فعل العجبة
 في عرس قانا الجليل ؟ والمصري يشرب أيضاً ، هو الذي يأتي بالعرق -
 قال الشواصي -

- ومن أين يأتي به ؟

قال الوالد

- كل مساء يعطيني المطعون كيساً من الريحون ، ويطلب مني أن أجلب
 بشمه عرقاً - أنا فعلت ، أطعنه ، جلبت العرق ، ومستعد لتحمل

المعقولة، شرط أن يعطوا المظعون أيضاً، هـ، على البقرة، هـ ورئيس،
والأعداء لهم، كان يأمروا فأنتد، يقول لي خذ هذا الكيس وعات لنا
به عرفاً، فأحل الكيس إلى الصبغة وأبدله بالعرق.

قال الشواصي

— هـ هذه سرفة موصوفة ما كنت أعلم بها، نوقف، إذن، يا مظعون
عن الورق، وأنت يا مصري عن الطقارة، وساعين من يقوم بعملها إلى
أن نصلح سبحة الخليلق.

صعد المظعون لم يكن ينوقع هذه المفاجأة، والذي اتهم نفسه بالسرقه،
وانهم المظعون معه، بل جعله المسؤول الأول والمباشر، معنى هذا صياح
كل شيء، ومما التعذيب والسحر، ولن يسحو إلا بأن يعجز الوالد أقواله،
بيده أن يحرقه أو يبرئه. ويبد الشواصي أن يأخذ القطعة كمرحة أو يفلها
إلى جد. وبدأ الشواصي جاذاً حتى حقت له نفسي أن يذهب والذي
صحة مرحة. صرحت الوالدة يدها على حذها وقالت منتمية يا ويلاه،
كنا في مصيبة وأصحا في مصيبة، لماذا يمزح أبوك هذه المرحه الثقيلة؟
وقالت الأخت: «يستحق المظعون، أنا لم أكن أعرف أن والذي قادر أن
يحرقه على هذا النحو، وقلت في نفسي: «إذا كان المظعون يمثل قلة
سحقها لوالدي، هو يعرف أن الشواصي لن يصدق، وعداً أو بعده يدبر
للواد مقلماً يؤذي به إلى اهلاك»

غير أن المظعون، في حركة نصرعية مائسة، اندفع نحو الشواصي محاولاً
تفيل يده.

— أيا يا أسكندر داخل عليك، سليم هذا يقترني علي نفسه وعلي، بل
هو يقترني علي لأني إنسان حاله، بذاته، لم يسبق له أن عرف المشاكل
من أي نوع، ولم يتهم أو يدخل باب محكمة، ظلت ابني أؤدي خدمة
حين طلبت تفتيش بدور، وكنت مفتعلاً، نعم كنت مفتعلاً، أنها سارقة،
فإن إصهار الكثرة في وحومهم ضروري، إذا ضحكت أمام الفلاح

أطمعته. الفلاح يظهر المسكنة، الدروشة، يتملق، يداهن، لكنه خبيث يريد خداعك، وهو لا يؤمن بما يقول، وبحسب أنه يضحك عليك، الفلاح الذي قصرت يده طال لسانه، وهو ثعلب، وفي سره لا يعترف بقيمة ولا بخلق، وليس له صاحب، أنت أدري بهذا الجنس، وأنت معي أن التكشير في وجوههم، بقصد إرهابهم، بقصد وقفهم عند حذمهم، كيلا يتمادوا، أو يفلتوا، أو يظنوا بك ضعفاً، واجب من حين لآخر، وأنت سيد العارفين بهذه الأمور، وما نحن إلا كأولادك، نسير على هديك، ونحاول تطبيق ما تعلمناه منك.

كنا، خلال حديث المطعون، نتبادل النظرات، أختي وأنا. كان بهرج ولا شك؛ وكل هذه الصفات التي قالها عن الفلاح تنطبق عليه شخصياً. لم يكن إلا ثعلباً، تمأوت عندما رأى الصياد إنه قمين بأن يركع، إذا تطلب الموقع أن يركع، وأن يبكي إذا اقتضت الحال البكاء، والشوباسي يعرف كل ذلك، إلا أنه الآن يستمع، يستمتع بهذه المسرحية، ويفكر بالطريقة التي «يؤذّب» بها الاثنين، والسدي والمطعون، دون إثارة أيما ضجة، ودون أن يسمح بأن يقال إنه ظلم عائلة مهاجرة من اللواء، لجأت من فقرها إلى نظارة الزيتون وجمعه في قرية «ح».

قال الشوباسي:

- ما جرى أمس كان سيئاً جداً. خدمت عند بيت «ف» منذ شبابي، وخدم والدي قبلي، ولم يحدث معنا أن وقعنا في مشاكل سخيفة مثل هذه. أنا لا أتهم أبا نعمة، لا أريد أن أشك بدمته وأخلاقه، لكنني لا أستطيع أيضاً أن أسدّ أذني بقطر. مسألة تفتيش بدور ملكانت في محلها. تستطيع، إذا أرادت السرقة، أن تذهب خلال النهار، وتضع الزيتون المسروق في أي دغل، وتعود مساءً لأخذه. وعمل فرض أنها سرقت، وأنت شككت بها، فالذي كان يجب هو مراقبتها لا تفتيشها. هل نحن جمارك؟ هل يعقل أن نقوم بوظائف الدرك؟ وماذا يقول الفلاحون إذا سمعوا غداً أنك طلبت تعرية فلاح شاب في عزّ النهار؟

صاح المظعون :

- أنا لم أطلب تعريتها والله . المصري ينهمني روراً ، ما أردته هو تفتيشها في الخيمة فقط .

قاطعه الشوباصي :

- أسكت . سمعت لك طويلاً . وجاء دوري للكلام . أنا مصدق أنك لم تطلب تعريتها ، لكن الفلاحين سيقولون هذا غداً ، فمن المسؤول ؟

- في هذه معك حق ، الكلام يتبدل ، يكبر . ما كان يجب ، مهما يكن حرصي ، أن أطلب تفتيش بدور . ساقصر ، بعد الآن ، على تفتيش الرجال .

- ولا هذه .

ردد المظعون :

- ولا هذه أيضاً !

- أما مسألة ترك الشغل ، وقت الزحمة ، عند ورّان ما جمعه الناس ، وترك البورة ، وتحميل الجمال ، وتعريض الزيتون كله للتلف فهذه أمور مؤسفة ، لا أدري ماذا أقول فيها .

- إذا كان هذا كله خطأ ، فهذا خطأ المصري . لم أترك البورة إلا بسببه ، هو الذي تسبّب ، حتى بدّور ، وأخذها إلى البيت ، والله يعلم ماذا أيضاً . أنا لا أتهم ، لا أضع أحداً في ذمتي . إنما يمكن ، في الطريق ، في البيت ، وزوجها غائب . المسيح قال للفريسيين : «لماذا تريدون إدخالني في التجربة؟» الانفراد بالمرأة غواية ، الشيطان لم يمت ، ومن يدري . المصري وضع نفسه في التجربة ، اعتدى عليّ ، ولئن أسكت ، وقد أبلغت بيت «ف» ، وهذا هو سبب نزولي إلى اللاذقية . غداً صباحاً يأتي الدرك ، ويعرفون شغلهم .

أريد وجه الشوباصي، فعلة المطعون خروج على إرادته المقررة. إنه المسؤول عن قرية «ح». بيت «ف» أنفسهم إذا أرادوا البت في أمر يتعلق بأملأهم، يعودون إليه، يستشيرونه، وغالباً يأخذون برأيه. هيئة بيت «ف» ما كانت لولا هيئته هو، كل الشوابصة في ريف اللاذقية يستمدون هيئتهم، نفوذهم، سلطتهم، من أسبادهم، أما هو، فلا يستمد شيئاً إلا من ذاته. إذا قلت «أبو اسكندر» قلت علماً. هو الجبل والنار، هو، بغياب الأسباد، السيد، هو الأمر الناهي، وقد توارث هذه السلطة أباً عن جد، وزاد فيها بما يعززها ويجعلها أشبه بالنطق الذي لا اعتراض عليه. كان على المطعون أن يعرف هذا، بل هو يعرفه، ومعنى تجاهله يحمل استخفافاً به، استخفافاً بحكمه في المملكة الممتدة على مسافات لا حد لها، وقرى ما تنفك تتسع وتتكاثر، وقد أصبح من حقه، لو كان هناك حق بالملكية لأمثاله، أن تكون له أكثر من قرية، وأن يكون سيّداً بحكم الواقع، وقوة الفعل، وسطوة النفوذ التي بها، وعن طريقها، تملك بيت «ف» كل هذه الأراضي والكروم. لقد تحطّاه المطعون. كان الشوباصي غير مكترث بما سيجل بالفلاحة بدور، وأقلّ اكتراثاً بما سينزل بوالدي، لكنه لن يتسامح بما يلحق بهيته في دائرة هو كل شيء فيها، لذلك راز المطعون بنظرات معبرة عن كره. نظرات لا تحمل الحقد الذي لا يستحقه، بل الكره الذي هو أشبه بالاحتقار، وظل صامتاً، رهيباً، مخيفاً، حتى تضعضع المطعون وهبط قلبه إلى أسفل أحشائه عندئذ باغته بصوت راعد، كأنما هو رارة أسد:

— أنت تتحدّاني إذن يا مطعون؟

ناح المطعون بصوت يقطر استعطافاً:

— معاذ الله يا أبا اسكندر. أنا، عدم المؤاخذه، لم اتحدّك، ولا فكّرت بذلك. كيف يخطر على بالي ما تقول؟ لو كنت على البورة ابن البارحة، كان يمكن، عدم المؤاخذه، أن أرتكب هذا الخطأ. أما وأنا في عملي منذ سنوات، وأعرفك، وأسمع بك قبل معرفتك، وأكنّ لك الاحترام، والمحبة، وأعيش في البورة برعايتك، وأحتمي بحمايتك، فإن الأمر

كله، عدم المؤاخذه، هو اجتهاد . نعم اجتهاد . اجتهدت فأخطأت .
قلت في نفسي : « اذهب إلى الأسياذ يا مطعون . الحق الحديدية وهي
حامية . المصري تمرّد عليّ، وعلى الشوباصي، وتصرف تصرفاً يقع تحت
مسؤولية القانون . . »

صاح به الشوباصي :

— أيّ قانون وأيّ بلوط هذا ؟ منعك من تفتيش امرأة؟ بأيّ حق تفتش
امرأة؟ من الذي أمرك بهذا؟

— اجتهاد . . مجرد اجتهاد .

— اللعنة على اجتهادك إذن .

قالها ونهض . كان يخفي، تحت جلده، رعدة غضب . لم يفارقه هدوؤه،
لكن ماذا يعني الهدوء بالنسبة لرجل تمرّس به، حتى صار سجية له؟ إنه
بهدوء يمشي، ويتكلّم، ويضرب، ويقتل بهدوء يردد كعاصلة، ويكون
الصمت نذيرها، وهدوء يحكم كلّ هؤلاء الفلاحين، ويعتصرهم كليمونة،
ثم يضرب من يشاء، ويطرد من يشاء، ويتحكّم بهم وينسانهم، وكثيراً ما
ارغمى فلاح أو فلاحية على قدميه خوفاً وتذلاً، استرحاماً واستغفاراً عن ذنب
لم يرتكبه أيّ منهما، لكن الشوباصي وجده ذنباً، وعاقب عليه ردعاً وإرهاباً .

مضى دون وداع، دون كلمة، دون نامة . مضى متماسكاً كما أقبل،
وغاب بين الزيتون، عصاه في يده، والبندقية في كتفه، والطربوش
المعصوب على رأسه، تاركاً وراءه صمتاً كثيفاً، الأمر الذي أرمضني وأحزني
معاً . لقد كان مشهداً غاية في الطرافة وغاية في القسوة: طرافة المطعون،
وقسوة الشوباصي . وفي الوقت الذي ارتاحت فيه والدتي، لأن هذا الأخير لم
يوجّه أية كلمة تأنيب لوالدي، فإنّ ما تمّت عليه هيئته من قسوة، جعلني
أنصّر حياة الفلاح المسكين تحت سلطة وكيل كهذا، قادر، في كل لحظة،
أن يمتنن كرامته وينتهك حرمة، ويفتك بجسده، بعد أن أرغمه على عمل
مبهظ، ناء تحته نهاره كله، ثم لم يجد، ليلاً، ما يقنات به مع زوجته وأولاده

الذين يعملون بدورهم ، ويتخبطون في شقاء موصول ، ينزل بهم كقدر حياتهم كلها .

ودون ارادة مني ثرت في داخلي ، كانت الثورة الداخلية هي كل ما أستطيعه ، كانت ثورة مكبوتة ، محبطة ، تحز في صدري كمدينة ، لكنها كانت عزائي على ما ألقاه أنا وعائلتي من شقاء هنا وهناك ، في المدينة والريف على السواء

في الصباح جاء دركيان من اللاذقية. كانت مهمتهما محدّدة: القبض على بدّور والوالد، بتهمة السرقة والممانعة في القبض على السارقة. ولم تكن معها مذكّرة توقيف أو جلب. هذه شكليات قضائية يجري تجاوزها إذا ما كان الملاكون العقاريون وراء الشكوى. المطعون ذهب أمس إلى بيت «ف» وأبلغهم أن بدّور سرقت، وأن سالم الناطور رفض تفتيشها وحماها. وقام السيد «د» بالاتصال هاتفياً بقائد الدرك، وكفى ذلك لتسيير الدورية التي وصلت إلينا في الضحى.

كان مجرد وصولها مخيفاً، حتى أن الفلاحين اللذين يعملان على البورة تواريًا عن الأنظار، وطلبًا من الوالد أن يجتفي فرفض. كان مدينيًا لا يخشى الدرك، هؤلاء الذين يرعبون الريف. وقد مثل أمام الدركيين والسيكارة في فمه، وأجاب على أسئلتها بجسارته المعهودة. وحين أبلغناه أنه متهم بحماية بدّور التي سرقت الزيتون أجابها أن التهمة لا أساس لها، وأنها مجرد فرية تقوم على وهم، وأن الخبرة كلها ملفقة، لأن المطعون أراد تفتيشها هي المرأة الفلاحة، أمام الرجال، فرفضت، وكان لا بد من التدخل لمنع تعريتها التي قد تسبّب في حادث على البورة، وأنه فعل ذلك بحكم مسؤوليته كناطور.

قال كل ذلك وهو غير مبالي. وفي نقطة لامبالاته هذه كانت تتركز

شجاعته. كان في ذاته يعرف أن الدرك لن يصدقوه، وأنهم لو صدّقوا فلن يبقوا إلى جانبه، ولا بدّ، بعد أن جاءوا، أن يقبضوا عليه ويسوقوه إلى اللاذقية، وهناك يجرون تحقيقاً قاسياً معه، لا ينفع في درء تعذيبه، طلب الرحمة أو الشفقة، وفي رفعه، التضرع أو الصراخ.

أمام واقع معروف كهذا، كان صدره ينطوي على سؤال مريح: «ماذا بعد؟» وفي الجواب عليه قال في ذاته: «ليكن ما يكون». قالها دفعة واحدة، في تحدّيه الشجاع، وذهب إلى أقصى ما يمكن الوصول إليه، وهو الموت، وهذا نهاية كل حيّ.

على هذا النحو حسم المسألة. حسمتها شجاعته. سألت وأجابت. مرّقت رداء الخوف الأسحم. باعت الآخرة بالدنيا، حين أدرك أن الحياة تجيش بالتجارب، وهو منذ ولد يمرّ بتجارب ظالمة، فلتكن هذه في عدادها.

إنني أحلّل نفسيته في ذلك الموقف. أحاول أن أفسّر لامبالاته، إستهائته بالشدّة، أسعي لمعرفة سرّ ذلك كلّهُ. أما هو، في الوضع الذي اتّخذه، فربّما استغنى عن كل حوارٍ داخليّ، ما كان يحتاجه أصلاً، ما دامت أعصابه القوية كفته مؤنثته.

لقد وقف إلى جانب بدور، وسواء كان ذلك خطأ أو صواباً، فإنّه وقف وانتهى الأمر. لا فائدة من الندم، وبعيد عن تفكيره الرعب، ولذن فإنّ المواجهة، على هذا النحو، خير ما يفعله، وقد فعله، دوغما تردّد.

الدركيان لم يقتنعا طبعاً. كانا مجرد أداتين تنفيذيتين لا تقدّم قناعتها ولا تؤخّر. كانا بندقيّتين في يد السلطة. كانا سوطين بيد قائد المخفر، وكانت البندقية والسوط في خدمة الأسياد، ولم يكن لهؤلاء من عمل سوى استغلال الفلاحين، فإذا بدرت شارة رفض، تمرد، عصيان، استعانوا بالسلطة الجاهزة للقمع والتكيل، ولهذا فإنّ الفلاحين كانوا يسمّون الدركي بـ «الحَيّال»، وكان مجرد ظهوره يثّر الرعب فيهم، وتزوله في القرية كان كافياً لأن تضطرب خوفاً، لمعرفة أنّ هؤلاء الحَيّالة يهاجمون بيوت

المطلوبين، مخربين كل ما فيها، نائرين مؤونة الفلاحين من ذرة وشعير
وحنطة، خالطين بعضها ببعض، ضارين الرجال والنساء والأطفال،
فارضضين الإتاوة، طالبين العلف لحيولهم، والدجاج والبيض لأنفسهم،
منكّلين تنكيلاً رهيباً بالقربة، مستخدمين المختار الألعية ستارة لتنفيذ
مآربهم .

إذن كان الوالد يعرف من هم هؤلاء الدرك . وخلال الحوار القصير لم تنذ
عنه كلمة استعطاف . بل إن أجوبته الجافة كانت متحدية، حتى قال له
أحدهما :

- يبدو أنك غير خائف؟
- ولماذا أخاف؟
- ألا تستحي؟
- وهل أعرض حتى أستحي؟
- ألا تعرف ملك من هذا؟
- أعرف . .
- ولا تبالي؟
- وماذا فعلت حتى أبالي؟ . . قلت لكم الحقيقة ويدكم وما تطول . .
- في المخفر مستعرف أن الله حق . .
- عرفت أنه حق في المخفر وخارجه . .
- اخرس ! .

سكت الوالد . بينما قال المطعون الذي كان يحاول إجلاس الدركيين :
- يا مصري لا تأخذ وتعط، أنا، عدم المؤاخذة، تربيت بين الدرك،
لكنني أكنّ لهم الاحترام الكامل . ثم من هو الدركي؟

- قاطعه الوالد :
- قل هذا لنفسك .
- قلتها، أي نعم، قلتها . الدركي ابن حكومة، والحكومة على الرأس

والعين، الحكم ملح الأرض، والمسيح، عدم المؤاخذه، قال: «إذا فسد الملح» . . .

صاح الدركي:

— الحكومة ملح لا يفسد . . .

— رحم الله أباك . كنت سأقول ذلك . . إذا فسد الملح . .

وصاح الدركي الثاني:

— قلنا ملح الحكومة لا يفسد، العمى تشتم الحكومة أماما؟

— أنا أضرب مثلاً . .

— لا وقت لدينا للأمثال . . أنت الذي تقدّمت بالشكوى؟

— معاذ الله . . هذا أخي، ويدّور אחتي . . جرى بيننا سوء تفاهم بسيط،

وخفت أن يتوقّف العمل، فها كان مني إلّا أن أبلغت بيت وف،

بالحكاية . . قلت لهم كذا وكذا . . أفهمتهم أن المسألة بحكم المنتهية . .

قلت لهم، عدم المؤاخذه، أنا أنهيها، وقد أنهيته منذ عودتي . . أنا هنا

الوكيل، والوكيل، عدم المؤاخذه، ينوب عن الأصيل، وتكفي كلمة

مني لتعود الأمور إلى مجاريها، وقد عادت والحمد لله، نحن، كما ترون،

مثل السمن والعسل . . و . .

قاطعہ الدركي:

— يعني تسحب شكواك؟

— قلت لكم لم أشتك . .

قال أحد الدركيين لرفيقه:

— الشكوى من الخواجه بالذات، وهي حامية، تحرق مثل الزيت، والله

يستر . .

قال المطعون:

— نعم، الله يستر . . إذا كانت الشكوى من الخواجه بالذات فتصرّفوا،

أرجوكم، قوموا بوظيفتكم دون اعتراض من أحد . . أليس كذلك يا

مصري؟ سلّم أمرك . . اذهب مع الدرك دون مقاومة . . .

قال الوالد بنيرة حادة:

- وهل تراني أقاوم؟
- أنت لا تقاوم، لكن لسانك سليط، هذا اللسان، عدم المؤاخذة، سيؤدي بك إلى داهية. الأفندية (يقصد رجال الدرك) سيأخذون إفادتك في المخفر. في هذه الحال، وتجنباً للشر، وكى تسير الأمور في مجاريها، اعترف، قل نعم، لا تخالف، وفي الأخير ابصم. إبهامك جاهز، وأنت، عدم المؤاخذة، لا تقرأ ولا تكتب، وما عليك إلا البصم، ابصم على الإفادة وينتهي الأمر
- وجدت، في هذه اللحظة، أن من المناسب التنبيه إلى أمر، قلت:
- والذي لن يبصم على شيء. يقول ما عنده، ويعدّث يقرأون عليه الإفادة.
- قال أحد الدركيين ساخراً:
- في هذه الحال تفضل تُب أنت عنه.
- وقال الدركي الثاني:
- نأخذ الاثنين بالمرّة. الأب والابن.
- قالت أختي:
- الأفضل أن تأخذوا العائلة كلها. ما رأيكم إذا أخذتم العائلة كلّها من أجل وشاية كاذبة؟
- في المخفر سنعرف إذا كانت الاخبارية صحيحة أم كاذبة.
- كاذبة. المطعون هو الذي افتعل المشكلة. افتعلها وركض إلى اللاذقية يبلغ عنا، الأولى أن تأخذوه هو، أو أن تأخذوه مع الوالد، ومن المواجهة بين الاثنين تظهر الحقيقة.
- قال الدركي الثاني:
- اسكتي يا بنت. حين يتكلّم الرجال تسكت النساء.
- قال المطعون:
- أعوذ بالله من هكذا نساء. هذه التي ترونها تنزل الخيال عن ظهر

حصانه . تتدخل في كل قضية، لسانها أمر من لسان والدها . قال يا سيدي عائلة من المدينة، ولأنها من المدينة فلإنها لا تخاف، وزيادة على ذلك فلإنها عائلة من اللواء، من إسكندرونه، وهناك، عدم المؤاخذه، لا يهابون الدرك ولا الحكومة .

قال الوالد :

— وماذا فعلنا حتى نهاب الدرك والحكومة؟

قال الدركي الأول ساخراً :

— إذن تفضل إلى اللاذقية، وهناك، في التحقيق، نعرف إذا كنت نهاب أم لا .

قالها ونهض . بدا مستثاراً، رأيت شراً في عينيه، ولو كان هناك فلاحون لضرب الوالد أمامهم، وربما، أمام الوالدة والأختين، وأمامي أنا ابن المدرسة . لم يستنسب ضرب الوالد، لكنه، كما ظهر من تهديده، يضرر سوءاً، وهذا ما أقلقني . نظرت إلى الوالد فلم أجد أثراً للخوف على وجهه، ظلّ، كمعادته، لامبالياً، ومع معرفته أنهم يقودونه إلى السجن، كان يتصرف، حركة وكلاماً، كأنهم يقودونه إلى كرم آخر من كروم الزيتون، وحين اعتل الدركيان حصانيهما، سار الوالد أمامهما، طليق اليدين، بخطا ثابتة، وأنجهوا جنوباً، بين أشجار الزيتون، قاصدين قرية الفلاحة بدور، للقبض عليها وسوقها مع الوالد إلى السجن .

وقفت على طرف الكرم أتابع الوالد وهو يمضي أمام الدركيين، أحسست بغصة قهر في صدري . لم يكن للغصة لون أو سابقة . كانت غصة قهر أشاعت المرارة في فمي، جفت الحلق وغامت الرؤية، تحت سماء سديمية، تقطر ضوءاً رمادياً مال، أكثر فأكثر، إلى السواد، كان الضوء إبراً شوكة تحز عيني اللتين تجمّدتا على المشهد المتباعد، المترامي، المشهد الذي أنا فريسته لا الوالد السائر على قدميه أمام فرسين يتراقصان، فيخيب بظر، تحت الدركيين اللذين ينقذان مهمة قمعية بحق إنسانين بريئين، ويشعران بالراحة لأنها نفذها على هذا النحو السهل، الخالي من التعقيد .

كانت البندقيّة في الكتف، والكرباج في اليد، وحجر تحت الجلد، والعينان تحترقان ظهر الوالد المستور بقميص من شيت رخيص لقد أحال الوضع الاجتماعي كلّاً منها إلى أداة ضاربة لسلطة غاشمة، لا تفهم، أو لا تريد أن تفهم، وربما استغنت عن الفهم منذ زمن بعيد، أن الفلاحين والعمال والفقراء بشر يعضفون حقدهم منذ زمن بعيد أيضاً. كان الأسياد لا يقلقون مجرد قلق على المستقبل. قناعتهم هي أن الأشياء هكذا كانت وهكذا ستدوم. إنهم الأقوياء بالملك والمال والمكانة. وهم رأس الهرم والأمرون فيه على قاعدة عريضة من الجماهير التي يجب أن تكون في خدمتهم، والآ ترفع الصوت في وجوههم، فإذا أنت من شكاة فإن سلطتهم تتحوّل فوراً إلى عنف، يترجمونه بالرصاص والسوط في صدور وظهور الناس، ويكفي طلب منهم حتى يروّض الفلاحون ليصبحوا أكثر طاعة، وانسحاقاً، أو ليصبحوا، كحال الوالد وبدور، في هذا السوق الاعتسافي لمجرد وشاية كاذبة.

ما أصعب أن يساق الوالد أو يهان أو يُضرب أو يُقتل أمام أبنائه لو شاية كاذبة. إن الغصة التي يحسها هؤلاء الأبناء تجمد الدمع نفسه في مآقيهم. يقفون في حالة عجز أمام الظلم الذي يروونه ينزل بهم دون أن يعرفوا مصدره. تبكي القلوب في الصدور، تنزّ المارة من ضلوع انبطوت على حرقة. ينتفع لحم الأحشاء في ماء فضة حارق. تختزن النفس الموءودة نغمتها في رمال تفرزها الغدد في الجسم كله.

ذلك الصباح عرفت تلك الغصة، المارة، الانكواء. انزعت في مكاني شاهداً على ظلم اجتماعي ينوء الفلاحون تحته، وبرغم عجزني، فقد تبنت مخارز على رؤوس أصابعي، وتساءلت في ذات نفسي: «ماذا فعل هذا الرجل وما فعلت هذه المرأة؟ ما ذنب هذين المخلوقين اللذين يسعيان وراء اللقمة؟ لماذا ينبغي أن يكون للعدل الأعور ضحايا في كلّ مكان؟ بأيّ حقّ يقاد والذي وبدور إلى السجن؟ لقد دافعا عن نفسيهما ضدّ تهمة كاذبة. بدور لم تسرق، لكن الوكيل افترض أنها سارقة. تحرّش بها لأنه يريدّها، أو

لأنه يريد أن يقول لآسياده إنه ساهر، ومن دلائل سهره أنه قبض عليها. والوالد وقف إلى جانب المرأة. قال إنها غير سارقة، قال إنها فلاح، وليس من الحق أن يتهم الفلاح بالسرقة لمجرد أنه فلاح. وحين أمر المطعمون بتفتيشها حماما، قادها إلى بيت حيث ينتظرها أطفالها، كان شهماً في عالم نذل، والعالم النذل لا يتسع للشهامة، يضيق بها، يضطر صاحبها إلى دفع الثمن، والوالد يدفع الثمن، وقد يتحمّله، بل من المؤكد أنه يتحمّله، فكل رجل وكل امرأة، في دنيا الإقطاع هذه، تحمّل وتحمل العسف والجور، حتى أصبحا ممزوجين بلقمة الخبز وشربة الماء.

خجلت من نفسي، أقسى عقوبة ذاتية أن يخجل المرء من نفسه. يشعر، في هذه الحال، أنه مُذَلٌّ، مهان، وأن ما ينبغي أن يكون، قد صار كما لا ينبغي، وأنه عجز أمام وضع إنساني، فأصبحت إنسانيته متهمّة بضعفها، وليس عليه، بعد، إلا أن يبلغ الإهانة، ويضع يديه على عينيه متقياً حتى النور الذي شهد انتهاك كرامته. وفي حال كهذه يستشعر اليأس إذا دخل قوقعة فرديته، إذا وقف إنساناً أمام إقطاع، إذا كان واحداً أمام كل، أما إذا ربط نفسه بالآخرين، وتعدّى دائرة الفرد إلى الجماعة، وصاغ من الواحد كلاً، فإنه يغدو قبيلة، كتلة، شعباً، وعندئذ لا ينسحب إلى وكر، كما زاحفة خائفة، بل يدفع صدره إلى أمام متحدّياً، شاعراً أنه لا يخوض صراعه رقباً، وأن ثمة، من حواليه، من هم مثله، وبهم يتقوى.

ولقد حماني شعور الجماعة هذا من التردّي إلى هاوية الأفاعي. جسدي لم يذبح منه العنق بمديّة اليأس. وإذا كانت هذه الجماعة بعيدة، في إسكندرونة، فثمة، حتى في اللاذقية نفسها، جماعة كائنة، أو ستكون، وعليها، ومعها، ينبغي الوقوف. إنني لا أطلب مغفرة. لا أنشد مطهراً. لا أسعى إلى عزاء، لذلك بقيت عيناى مفتوحتين مثبتتين على النقطة التي غاب فيها والدي. لقد راح، لكنه سيرجع. مديّة بيت «ف» لن تبلغ أن تذبجه كطير مهبط الجناحين فوق الضعة هو، وفوق الاستكانة، وحين، يوماً، سيطلق سراحه سيتعلم أن يكافح ضدّ الظلم بقدر أكبر من الصلاة، ولن

أبقى، أنا نفسي، محمياً به. عليّ، بعد الآن، أن أجد حمايتي الخاصة، أن أعرف حقّي، وأحصل عليه، وأدافع عنه، وغيتته عنا لن يكون لها أن تقصم ظهورنا. سنظلّ حيث نحن، وسنواصل، إذا سمح لنا، جمع الزيتون، ومنذ الليلة سانوب في الحراسة، وسأغدو ناطوراً على البوابة، وعلى هذا النحو فقط نستعصي على الانكسار من الداخل، ولحول بيتنا وبين أن يغتالنا الهمّ، وتقعّدنا الحسرة على ما جرى.

هذه الأفكار شدّت من عزمي، ما وعيته من أفكار في مدينتي البعيدة كان كثرأ في داخلي - لن أحتاج إلى التنقيب في هذا الداخل بحثاً عنه، إنه، ما إن تنطفئ الشمس، حتى ينقذح لدائه شمساً من الأمل في حياة أخرى الطّف، أعذب، أفضل، وهذا ما جرى اليوم. أختي بخلافي، تطلّ شمسها مشرقة. كلانا نبحث عن شمس، أنا أطلعها من داخلي، وهي تقبض عليها من خارجها، والنتيجة واحدة، كلانا له شمس، وستصير للناس شمسهم، ولن تكون ظلمة عندئذ، فالجراح ستشعّ نوراً أرجوانياً، ومن هذه الجراح سيتضوّع عطر يفعم الجوّ برائحة وردية، وعلى ذلك ينبغي أطراح الحزن.

«أيها الوالد الذاهب إلى السجن، أنا لن أحزن عليك. ما أتيت فعلاً يُحزن له. كنت شريفاً في وقفك وكلامك وانتصاب قامتك وأنت تمضي مع الدرك إلى حيث التحقيق. أنت تعرف الآ تحقيق، لأنهم ما جاءوا لأجله، بل أوعز إليهم أن يسوقوك إلى التعذيب، وأن يطرحوك في السجن، حتى تصير مطواعاً للسيد ووكيله، فلا ترفع الصوت ضد الباطل مهما يكن جائراً».

كبر والدي في نظري. سألت الله أن يظلّ هكذا، وألا يسكر بعد اليوم، حتى أظل أكبره وأحبّه. لكن والدي لم يكن يفكر في شيء مما أفكر به أنا... إنه، ببساطة، لا يحتمل أن يكون عبداً، ولا يسكت على نازلة، وربما فعل الآن ما فعله لأن بدور كانت مظلومة، وكانت جميلة، ومن يدري، فقد تكون وقفته لوجه الله، وقد لا تكون كذلك أبداً.

سمعت، وأنا أدير هذه الأفكار في رأسي، حركة ورائي، كانت تلك رقيقة، لا أدري من أين جاءت، ولا كيف انبثقت. كانت المفاجأة أكبر من أن أستوعبها. فرحة غامرة ارتعشت لها جوارحي. لم يكن ثمة كلام، عيناها قالتا عيناها قالتا. تلاقت العيون، اشتعلت في العشب اليابس من حولنا نار. تلون الهواء، فضياً صار، ثم غدا مائياً، وازرقت الحجارة. استيقظ في داخلي شعور كان حاجباً قبل أن أولد، اضطربت لصوتها المتضامن مع صوتي:

- أخذوه؟
- نعم أخذوه..
- ومن أجلها؟
- من أجلها..
- ترى كانت تستحق؟
- ما من امرأة لا تستحق..
- قصدت: لم تكن سارقة؟
- لا، لم تكن سارقة..
- ولماذا اتهمها المطعون؟
- لأنها فلاحه.
- فقط لأنها فلاحه؟
- وأيضاً لأنها جميلة..

ابتسمت رقيقة. خلت أن الدنيا من حولي ابتسمت بدورها. صفقت أوراق الزيتون، اخضررت أكثر، ارتسمت عليها حلالة سكر، ذاب السكر، اجتمع الكرم، بكل من فيه، من حولنا، وغنى عتاباً كانت هي الميجانا. شفتاها غنتها. مقلتها غنتها، سمعت الأغنية. رأيت الابتسامة. استيقظت من غفوة الدهور على ندائها. قالت لي الأرض إنها هي. من هي؟ جارتني في الكرم، زميلتي في جمع الزيتون. رفيقي في شفاء الفقر، لكنها، في تلك اللحظة، كانت أميرة تطل من نافذة. وجه ينداح من وراء

الغيم، يكبر الوجه. يكبر، يقترب. يقترب أكثر، يملا مساحة الرؤية،
يسيطر على الرؤية، واللسان، في صوت أغن، يعاود السؤال:

— وهل الجمال ذنب؟

قلت في نفسي: «إنه ذنب الذنوب» وقلت لها:

— أحياناً يكون كذلك .

— الحمد لله . . (وابتسمت ثانية) إني لست جميلة .

— تخافين الجمال؟

— أخاف الذنب . .

— ولكنك مذنبه . .

— كيف؟

— لن أقول . .

احمرت خجلاً، ما توقعت أن أقول، ربّما، لكنّها، في احمرارها، أعطت
ردّ فعل على المباغة التي صنعتها باعترافي الذي استدرجت إليه . ما قلت
إنها جميلة . لكنها فهمت أنني قلت، وأنها جميلة، وكان إطرائي سبباً في
توشيجة الخفر التي أطرت عيها.

بعد ذلك صمت كلانا، لم يعد لدينا ما نتحدّث به، تسينا الحديث
أصلاً. انغلق فم. انغلق فم آخر. تركنا للعيون أن تقول أشياءنا. سرنا
معاً، جنباً إلى جنب، تحت الزيتون، كما العشاق، في الحكايات، تحت
الزيزفون. زيزفوننا كان أخضر. كان مشمراً وكان أخضر، كان بهياً وكان
أخضر. والأفاعي اختفت. ملكة الأفاعي ظهرت. الأفعى الأولى، أمام آدم
الأول، ولا ضرورة للكلام، فهمت، فهمت، تمايلت شجرة الخير والشرّ،
رويدك يا شجرة الخير والشرّ، نحن في الخطوة الأولى بعدد، الإبريق في اليد،
والماء لمعة في المقلة، والسقاية قادمة، وسوف ينزع غصنك ويتشر العطر
تحية للكون.

سرت إلى جانبها ولكن على مبعده منها. خفت أن أفترس منها. خفت

أن المسها - أن أشتها، أن أرتعش أكثر فتفضحي احتلاجة ما في النبوة، في الصوت، في الهدب، في تقاطيع الوجه، كان ذلك اعتمادا في البكر في مياه الأردن المقدسة - النهر الجاري لعواطف فتى كاد يغرقني ولا أجيد السباحة. اعترف - كانت هي الأجرأ، لماذا، يا إلهي، تكون المرأة دائماً هي الأجرأ؟ تلفنت إلي. التمتعت شرارة. سقطت شرارة. غيمتان مرّتا على وجه الارض السالب والموجب في الغيم الثقيا، لم يحتكّا، ولكن الأشعة الكهربائية لجسد الغيمتين أعطت وميضاً برقياً، ثم تحرّكت الشفاه، في ذعر من الصمت، لنقول شيئاً، أي شيء، ولينتهي هذا التلاقي المثير لعاطفتين فتيتين ما اعتادتنا بعد الشوب مع هوى عذري مبكر. سألت:

- ألس تتكلم؟
- وماذا أقول؟
- ما يقوله الناس..
- نحن، صدّقي، لا نشبه الناس، أنا، على الأقل، أختلف.. أحياناً لا أعرف أن أتكلّم.
- ولكنك، الليلة السابقة، تكلمت مع والدي.
- كان ذلك والدك.
- وأنا ابنته..
- لكن كلامنا، لو صار، سيختلف.
- لماذا يختلف؟
- لأنه، كيف أقول، جديد، ما قاله غيرنا بعد.
- إذن سنحبّه أكثر.
- إذا قلناه.
- ولماذا لا نقوله؟
- لا نعرفه.
- ألا نعرف أن نقول؟
- بلى، ولكن كيف؟

- كيف وأنت ابن مدرسة؟
- من أين عرفت؟
- أختك حدثتني عنك أمس.. قالت إنك شعلة ذكاء، وكنت متفوقاً في المدرسة، وإن لك أفكاراً غريبة.
- وصدقت؟
- أردت أن أصدق..
- لماذا؟

عقب وجهها فكان جواباً. أرادت أن تصدق لأنها أرادت أن تصدق. كيف تشرح لماذا؟ وهل تستطيع، حتى لو رغبت في الشرح؟ بعض الكلمات تضر ولا يقال، إذا قيلت بهت. فقدت حراستها. اللسان، في حال كهذه، يصبح عيماً. العينان تصيران فصيحتين، رثيفة تقول بعينها. ولكن ماذا في عينيها؟ إنها لا تنظر إلي مباشرة. ما أكاد أرى وجهها حتى تغير وضع الرأس. تنظر إلى الجهة الأخرى. تتركني مستثاراً من فرط الرجاء، وتقتلني من شدة الغموض.

لقد منحني هنيهات فضية. أعطني، كالمسيح، خبزاً وسمكاً. أيقظت في داخلي عاطفة كانت هاجعة، هذه هي المرة الأولى التي تستيقظ فيها عواطفها هاجعة. التبديل يحتاج إلى وقت، لكي يتبدل الإنسان عليه أن يصبر كثيراً، أن يسمع ويرى ويعيش. أنا في لحظة تبدلت. سمعت ورايت وعشت. قام اليعازر في داخلي. تبنت غرسة حب. اخضرت وأزهرت وفاح عطرها، كيف يمكن أن يحدث هذا؟ كيف انتقلت من حالة الحزن والغضب لأجل والدي، إلى حالة الفرح والتألق منذ رأيت رثيفة؟ هل لها سلطان على جميع النفوس أم على نفسي فقط؟ الريف، في هذه اللحظات، لم يعد الريف الذي كانه قبلها. نكهة جديدة غدت له. معنى آخر وصورة أخرى. جسمي أيضاً خف. نشط. أزهرت فيه بنفسجات بيض، صارت الدنيا كلها بيضاء، نضوات. شعت، زهت، ورثيفة قريبة بعيدة. رثيفة أنثى وأنا ذكر، لكن العلاقة بيننا ليست كالعلاقة بين المرأة والرجل، ليست كما بين

أبي وأمي، ليست كما كانت، أو يمكن أن تكون، بين والدي ويدور. إنني أحب وجهها، نظرتها، ابتسامتها، ولا أحب، أو لا أجروء على التفكير، في أي شيء آخر فيها. أراها هكذا، ببساطتها، ثيابها، تسريحة شعرها، جميلة بما يكفي، ولا أريد، وأرفض، ككل ما من شأنه أن يחדش هذا الجمال، بالصورة التي ارتسم عليها.

رحت أبحث عن الكلمات. رحلت أقيس المسافة. أسأل الله أن تقصر المسافة. أن يبقى معاً، ألا نفترق أبداً. أن نلتقي دائماً. أن أجد سبيلاً للقاء، يكون مقبولاً لدى والدها. أن يسمح لي في أن أزوره، وأن تأتي هي لزيارتنا.

نحن في كرم واحد. في وضع واحد. على أرض واحدة. وأمس كانت لغة التفاهم معدومة، اليوم صارت، وغداً قد تكبر، وبعده من يلدري. لكنني أدري، شيئاً واحداً أدري، أنني سعيد، ونشط، وخفيف، وأن العيش صار له معنى، والنظرة أصبح لها معنى، والكلمة اختلفت، انتعشت، صارت أكثر دلالة، أشد حرارة، وللدنيا، من حولي، وقع آخر في نفسي، عذب، بهيج، منير، وللزمن انسياب حلو، خفيف، لذيد، وله رقب، في الأصباح والأماسي. لقد صنعت لي رثيفة عالماً ملوئاً، محبوباً، سعيداً، وأعطتني أن أقول: ما أطيب إقامتنا هنا!

مضينا تحت أشجار الزيتون، لا نعرف الوجهة التي نقصدها، نسينا المكان والزمان، نسينا أنفسنا، نسينا أهلنا، تركنا لأقدامنا أن تسيّرنا، أن نأخذ بنا حيث نريد، وحيث يحلو لها، شريطة أن نتعد بنا، قدر المستطاع، عن الناس. فالأشجار، بكلّ جلالها الثمري، بكلّ خضرتها، وعظمتها، تصنع لنا سقفاً من أغصان متشابكة توفر لنا الفء وتحمينا عن الأنظار. ولم أكن أمشي على أرض. يا إلهي! كم كنت رشيقاً، خفيفاً، طائراً، كنورس، على وجه بحر أزرق. كانت هذه تجربتي الأولى، وربما كانت تجربتها الأولى، ويبدو أننا كنا، كلانا، متلهفين إلى دخول تجربة كهذه، وممارسة مشاعر كانت قبلاً تضطرب في الذات، ثم صارت، الآن، خارجها. صارت

نظرة، كلاماً، وهجاً متبادلاً، بين جسمين فتّين لدنين لشابين غرّين
سعيدين بكلّ ما في فتوتها من سذاجة بريئة، ما تلبث أن تعي نفسها
فتأرّث.

كنت في حالة انقسام. أمشي، أنظر، أحسّ، أنكلم، وفي داخلي إنسان
آخر، يتصرّف تصرّف في نفسه، لكنّه يتحدّث بمفرده متى؟ كيف؟ ولماذا؟
وكانت هي أيضاً على ازدواج في الصوت، والنبرة، تعيش معي، وتعيش
لنفسها، تقول كلاماً أسمعها، وكلاماً تسمعه وحدها، وتتساءل: متى؟
كيف؟ ولماذا؟ ويعجب كلّ منا من السرعة التي تمّ بها اللقاء، والتخاطب،
والمكاشفة، ولا يكاد يصدق أن ذلك تمّ، وأنا حقيقة تحيا، ولنا في حلم
من أحلام المراهقة.

ولم تكن حالي، ولا حالها، لو فكّرنا في نفسنا، وضعنا، لباسنا، ظروفنا،
تسمح بأن نعيش هذه الفرحة الغامرة من تناغم ولید. ولو كان للحذر أو
التحسّب وبجرد التفكير بأننا نتبادل الحبّ قيمة في وعينا لابتعد أحدهما عن
الآخر، وشعر بذنب شديد، من جرّاء سماحه لنفسه بأن ينسى فقره وبؤسه
وأهله والزيتون الذي ينتظر جمعه ويتلهّى بشيء كهذا، شيء يدخل في باب
العواطف والفرائز، رابطاً بين قلوب لا يعرفان سوى أنها خفقا فاستجاب
كلّ منا إلى خفق قلبه.

عل أن ذنبي، في المحاولة، كان أكبر، بصفتي شاباً، يفترض أنّه أكثر
وعياً وأشدّ معاناة، ويعرف الحال التي نحن عليها في المدينة، والحال التي
نحن عليها في الكرم، وما سيطرأ على وضعنا بعد سوق الوالد إلى السجن،
وما يتهدّدنا إذا ما تمادى المطعون في انتقامه منا.

لقد كنت، في انقسامي، بين تجاذبين: أحدهما مرهّد إلى القلب والآخر
إلى العقل، ومن عجب أن القلب كان قادراً، في تلك اللحظات، على
السيطرة، مما أنساني، طوال الفترة التي كانت رقيقة معي، أن أتساءل بأيّ
حق؟

كان الحب قد بُت باسم الحب، وبحقه، وقضائه، وجرفني إلى الضفة
الآخرى، حتى ما عدت أفكر، خلال تجوالنا كله، بسوى الطريقة التي
نلتقي بها، والخشية ألا تكون ثمة طريقة، وأن يمضي يوم، أو تمضي ليلة
ولا أراها. حتى أن رثيفة لاحظت سهومي فقالت، ونحن نمضي باتجاه نبع
صغير في التخم الفاصل بين الكرمين، عند خاصرة الرابية :

— بماذا تفكر؟

— لا أدري.. هل ترينني أفكر حقيقة؟

هزت رأسها بالإيجاب وابتسمت :

— أنت تفكر بما لست أدري، وهذا هو السبب في أنك صامت...

وأنا أعذرك، فقد أخذوا والدك إلى السجن..

— لا أفكر بوالدي ولا بالسجن..

— إذن تفكر بالبيرة..

— ولا بهذه..

— بماذا تفكر إذن؟

نظرت إليها نظرة فاحصة، مدققة، متفرسة، محاولاً أن أكتشف الحقيقة
في سؤالها. هل فعلاً ما كانت تعرف بماذا أفكر، أم تحرص على أن أقوله
بنفسي؟ وهل تفكر، هي أيضاً، ولو بشكل من الأشكال؟.. تكون خلية
وأنا الشجي، تلهو وأنا أجذ؟ تتظاهر بأنها غير مبالية بهذا اللقاء وبما يليه؟
أكون المشوق وحدي، أم تشاركني الشوق؟ تعرف من شؤون الحياة أكثر مما
أعرف؟ متمرسة وأنا صاحب العاطفة البكر والتجربة البكر؟ لم أقل شيئاً.
اعتراني شعور بأنها تحاول حلي على الاعتراف. ولكن بماذا أعترف؟ وكيف؟
أقول لها أحبك؟ ومن اللقاء الأول؟ وكيف أحب ونحن في هذا الوضع؟
ألن تضحك مني؟ أليس في موقفني الاعترافي ما يضحك؟ ألن أكون مدعاة
للسخرية؟

وإذ لاحظت استغراقي في السهوم قالت :

- ألا تريد أن تقول؟
- ليس لديّ ما أقوله .
- كنت مشرقاً واكتأبت، هل أكون السبب؟
- لست السبب في الحالين . . أحياناً تتأبني مشاعر متضاربة . . بينما أكون في قمة السعادة، يعتريني الاكتئاب فجأة . . أفكر بما نحن فيه
- ألسنت راضياً عن وجودكم هنا؟
- تريت في الجواب، فكرت : «نعم لم أكن راضياً . . أما الآن؟» .
- وهل أنت راضية؟
- لا أجد آية مضايقة . .
- وكيف نعيشين مع والدك في هذه العزلة عن الناس؟
- قالت بنبرة تنم عن ضيق :
- وماذا أصنع؟
- هل يمنحك والدك من زيارة البويرة؟
- والدي يحبني . . أنا وحيدة . . أمي ماتت منذ سنوات . أنا عزاءه الوحيد . وهو، كما رأيته، ينظر في هذا الكرم، وفي النهار نجم الزيتون، أما في الليل فيشرب قليلاً، ويظلّ ساهراً يحرس الكرم . . لا أجد حولي من أتكلم معه سواه . . هذا صعب عليّ هذا يصيبني بالسأم والملل، ولكن ماذا أفعل؟
- لاحظت كل هذا عشية جئت إليكم
- كنت صامتاً تلك الليلة، تسمع أكثر مما تتكلم . مثلك الآن، هل هذه طبيعتك؟
- وما عساني أقول؟
- لماذا تجاهلت وجودي؟
- كيف؟
- لم تلتفت إليّ ولم تحاطبني . . اعتبرتني كأنني لم أكن . وهذا ما حزّ في نفسي، ومع ذلك أتيت إليك اليوم، وجدت من المناسب أن آتي، لأنّ

والدي حدثني بما وقع على البورة أمس .

— حدثك عن تلك الفلاحة؟

— قال إنها سارقة .

— كيف عرف؟

— والدي لا يأمن جانب الفلاحين .

— هل هذا لكونه ناطوراً؟ يكرههم بحكم العمل؟

— يكرههم لأنهم يسرقون . أما سمعت بقصة ذلك الفلاح؟

— وماذا فعل؟ مرش حفنة من الزيتون؟

— ولماذا يمرش؟ هل هذا رزقه؟ إنه يسرق . .

قلت بانفعال جهدت للسيطرة عليه :

— صخر لم يسرق . . له حق في هذا الزيتون الذي يحرقه كل عام . . ثم

ماذا يفعل إذا كان يعمل في أراضي بيت «ف» وكرومهم، ولا يجد في

بيته حبة زيتون يتأدم بها؟ إنه فقير . . فلاحنا فقير إلى درجة مرعبة .

— ونحن فقراء أيضاً، لكننا لا نسرق .

— نحن لم نعمل في الكرم حتى يكون لنا حق فيه .

— مهما يكن . . والدي يقول إن هذا مال الخواجات .

— ماذا يعمل والدك في المدينة؟

— والدي يعمل نجاراً . . تجاراً عربياً . . وفي موسم الزيتون ينظر في طرف

من هذه الكروم . .

— وهل يأخذ حقه من النظارة؟

— طبعاً يأخذه . . وفوق ذلك يجمع الزيتون وله حصّة . .

— له من العشرة واحد . . مثلنا . .

— وماذا تريد أكثر؟

كانت تتكلم عن قناعة بأن ما يجري هو ما يجب أن يجري . كانت تماماً
كما شكلتها أفكار والدها: الفلاح سارق، والخواجات أصحاب الملك،
وهم يتفضلون علينا بما نجنيه من ملكهم . ولم تفكر يوماً كيف تعيش،

وظروف هذه المعيشة، وكيف يكدح والدها دون أن يصل إلى كفايته . .
باختصار كانت ترى في الخواجات أسبأداً من طينة أخرى، وفي ملكيتهم
حقاً مقدساً .

سألته فجأة :

- هل كنت في المدرسة؟
- حتى الصف الثالث الابتدائي . . تركت المدرسة بعد أن ماتت أمي .
- وفي أي مدرسة كنت؟
- في المدرسة الأرثوذكسية . .
- وماذا علموك هناك؟
- وماذا يعلّمون في المدرسة؟
- ألم يقل لكم المعلم شيئاً غير الدروس؟
- حدثنا عن المطران . .
- ألم يأت المطران إلى المدرسة؟
- جاء مرة واحدة . .
- وعمّ حدثكم؟
- عن المدرسة والدراسة .

قلت ضاحكاً :

- وعن الخواجات طبعاً .
- سألتني وقد فطنت إلى سخريني .
- ألا تحبّ الخواجات أنت؟
- لا . لا أحبّهم يا رثيفة، وأنت؟
- والذي يقول كلب الخواجة خواجة . .
- وأنت على رأي والدك؟
- أنا لم أفكر بهذا . . أعيش كما أعيش، دون أن أتساءل كيف؟ ولماذا؟
- أختي بخلافك . .
- هل هذا لأنها أكبر مني؟

- يجوز. ولكن أخوتي، منذ كانت في عمرك، كانت تتألم من فقرنا،
وتعرف سببه تقريباً.

- ومن سببه في رأيك؟

- ماذا أقول يا رثيفة؟ حتى أجدادنا كانوا يعرفون أن فقر الفقراء من غنى
الأغنياء

- والدي لا يعرف هذا.

- يجب أن يعرفه.

- ما أظن. . . والدي يعبد الخواجات.

- ومدينتكم كذلك تعبدهم.

- كيف؟

- اللادقية لم تستيقظ بعد.

- من يوقظها على فرض أنها نائمة؟

كان سؤالها مبالغاً كان في محله غامضاً، وأنا لا أعرف جوابه. من يوقظ
مدينة نائمة؟ فكّرت في نفسي، لا أدري لماذا فكّرت في نفسي. في ذلك
الوقت، لم أكن بعد قادراً على التنبؤ، ولو أن جاء رجل وقال إنك ستكون
أحد هؤلاء الموقظين لما صدفت. كنت أرتعد من المهمة. كيف يمكنني، أنا
الفقير المهاجر، الغريب عن المدينة، الذي لا أعرف أحداً فيها تقريباً، أن
أفكر، مجرد تفكير، بأن ذلك سيصير يوماً. كان واجباً عليّ أن أفعل، ولكن
بين الشعور بالواجب، والقيام به، فرقاً كبيراً. ثم إن مدينة تؤمن أن الملكية
حق مقدّس، وأن الإقطاعيين أسادها، ولا تعرف التنظيم النقابي، ولا
تظاهرت يوماً لأجل مطلب عمالي، أني لي، أنا الذي أنهم أشياء قليلة، أن
اتصدى لإفهامها الحقيقة التي يصعب حتى أن أشرحها.

قلت لرثيفة:

- لا أعرف من يوقظ المدينة، لكنني أؤمن أنها نائمة وبحاجة إلى أن
تستيقظ.

- تتكلم لغة صعبة علي . .
- ستجدينها سهلة مع الايام
- ما أظن . . ثم أنا لا أحب التفكير بما نقول . . يا ألهي لماذا ترنمش
- قسماات وجهك وأنت تتحدث عن المدينة ولومها؟
- نحن نتحدّث . . ألا يرصيك مثل هذا الحديث؟
- لا . . لا علاقة لي به . .
- تفولين هذا وأنت فقيرة مثلي . .
- وماذا أفعل؟

كنّا نفق عند مفترق طريقين . رغبت رثيفة أن تعود إلى والدها، وكنت، قبلها، أرغب أن أعود إلى أهلي . لم أكن أودّ مفارقتها، لكنّ الحديث اشتطّ بنا . بات مضجراً بالنسبة إليها، وكان عليّ، منذ أخذوا والدي إلى السجن، أن أفكّر بحالنا على البورة . غير أن ظهورها المفاجئ أنساني كنت فتى، وكانت فتاة، وشيء ما، كالشرارة، اشتعل في قلبي، كان شيئاً مفرحاً . أحسست معه أن رعشة انتظمت جوارحي كلّها، رعشة جديدة، لذيدة، لم يسبق لي أن عرفتها، وكم غنيت، وأنا أرجع إلى البورة، لو أن رثيفة مثل أختي، تستشعر شيئاً من ظلم الحياة، من وطأة الفقر، من جور الملاكين والدرك . إن هذه العبادة للأغنياء، هذا الاحترام، هذه الانغلاق العقلية أمام فظائعهم، أروعيتني . وسأقضي عمري كله وأنا أصطدم بمثلها .

وصلت البورة، كانت العائلة قد ذهبت لجمع الزيتون، لم يكن ثمة إلا الفلاحان، وبعض الأشخاص، والجمال سارحة ترعى . أنجّمت فوراً إلى الخيمة، كنت ظمآن، ولم أتناول فطورتي، وكنت الآن قد عدت حزينة لأجل والدي

جاء المطعون إلى الخيمة، وبادرني قائلاً:

- هه . . حسبك ذهبت معهم .
- إلى أين أذهب معهم؟

- إلى قرية بدور .
- لارى كيف يقبضون عليها ويسرقونها إلى السجن؟
- وماذا في ذلك؟ ألا تستحق؟ هي السبب، نعم، عدم المؤاخدة، هي السبب، ولذلك هذا، أما كان الأفضل له أن يدعها وشأنها؟
- والدي، في موقفه منها، كان شهياً .
- وأنت أيضاً، مثل أختك، تتحدث عن الشهامة؟
- وعمّ تريدنا أن نتحدث إذن؟
- عن لا شيء . نحدّثوا كما النواطير، كما الناس، عيشوا بغير أن تخلقوا مشاكل لأنفسكم ولغيركم .
- نحن لا نخلق آية مشكلة أنت الذي تسببت في المشكلة . ماذا نظّر؟ هل استرحت لأنك فعلت ما فعلت؟ وماذا يعني أن يقبضوا على والدي، وأن يسحبوه . كلّ شيء يمضي، والسجن يمضي، لكن الحقيقة ستظهر، وسيعرف الفلاحون أنك ظلمتهم
- قال بحدة:
- أنا لا أظلم أحداً . ألم يقبضوا على صخر وهو يسرق الزيتون؟
- كان يمرش قليلاً لأولاده . . كان بحاجة إلى هذه الخفنة من الزيتون . . هل نعتبر هذه سرقة؟
- وما هي إذن ؟ إذا لم يكن مرش الزيتون في الليل سرقة، فما هي السرقة في رأيك؟
- لو كنت فلاحاً مثل صخر، وفقيراً مثله، ما قلت هذا الكلام .
- وأنت أيضاً تدافع عنه؟
- أدافع عنه وعن بدور . لماذا يحملون أفكاراً مسبقة معادية للفلاح؟ لماذا لا تتصوّرونه إلا كسولاً، مخادعاً؟ .

— لانه كذلك —

— وأنتم السب، لست أنت بل الأسباد، أصحاب الأملاك أنت فقير مثلاً، مثل صحر ويدور، لكك لا تعرف مصلحتك، أنت غافل عنها، مثل المدينة غاماً لذلك لا أحقد عليك

— وأنا لا أحقد عليكم اسمع فل لأمك واختك إنني لست ضدكم، هذا الكلام، عدم المؤاخذه، سأقوله لوالدك أيضاً أنا لست ضدك لم أفعل شيئاً واحبي هو الذي انصى ذلك، كان لا بد، وأنا وكيل هنا، أن أبلغ الأحوال بما حصل

— وما أنت ترى نتيجة تليقك. تسببت في سحر ثلاثة حتى الآن

— لا نفل ثلاثة فل اثنين أنا نادم فقط لأن والدك ورط نفسه أما بالسنة نصحر ويدور فليست مادماً الفلاح، عدم المؤاخذه، لا يؤذّب إلا هذه الطريقة أنت لا تعرف لو نرددت كثيراً على الضبعة، لو عرفت كيف يعيش الفلاحون فيها، لو رأيت ماذا يفعل الشوباصي، كنت وجدتي رحيماً أبو اسكندر لا يضرب العلاحين فقط، يقتلهم أيضاً، يقتلهم ليستطيع أن يسيطر عليهم، ليتمكن من حملهم على العمل

— أنا لا أشاطرك هذا الرأي الفلاح ليس كسولاً، يعمل طوال النهار والليل، ثم لا نجد الخير. وأنتم لا تسمحون له بحبة زيتون يتأدم بها. ماذا تريدون بعد ذلك؟ هددتم جسده، أزهدتم روحه، وأصبح من حقه أن يتمرد، وأن يتهرب من الشغل، وأن يسرق، لأن هذا حقه الذي اغتصبه أسياده.

— ما شاء الله، ما شاء الله، من علمك كل هذه الفلسفة؟

— الحياة، والكتب، وما أراه بعيني انتظروا تروا، لسوف يستفيق الفلاحون، ويتوحدون، ويتقمون منكم بسبب المظالم التي أنزلتموها

— ٣٣ —

— يتقنون؟ هم يتقنون؟

— ولم لا؟

— لاهم أجيب من أن يرفعوا أيديهم من الأرض .

— لن يظلوا جبناء . . الأيَّام بيِّنا

— أعوذ بالله! أيَّ عائلة أنتم! نعرف . . لو نقلت كلامك هذا إلى

الشوابعي، أو لو سمع به الخواجات، كنت تلحق بوالدك .

— وماذا يملك؟ انقلها لمن تشاء .

— أنا لن أفعل . . عدم المؤاخدة، أنتم أهلي، صار بيِّنا خبز وملح . قلت

لك إنني لست صدكم فلماذا لا تصدِّق؟ لو لم يورط والدك نفسه كنَّا

سمنًا على عسل . . أنتم فقراء، جئتم إلى هنا لأنكم فقراء، وكان عليكم

أن تعملوا، أن تكونوا إلى جانبي، أن تتركوا الفلاحين في حالهم، غير

أنكم رفضتم . . تقولون إنكم من اسكندرونة، وهناك الناس يفعلون ما

تفعلون . . أنا لم أسمع بهذا الشيء . . اللعنة على إسكندرونتكم هذه

لا تدفعني إلى الشرِّ من جديد . . كفى مما حكة إذا أردت ألا أطردكم!

قال ذلك وخرج من الخيمة . قذيفة غضب وانطلقت . إنه يحقد علينا،

هذا لا شك فيه . يتمنى لو أنَّ الأرض غارت بنا، لكن الأرض رحيمة

الأرض لنا، ولن تغور بنا، وحين ينتهي الموسم لن يرى وحوها، ولن يقبل

في العام القادم، أن يتعاطى معنا . نحن مرفوضون بسبب أفكارنا، ولكننا

لا نعمل لأجل هذه الأفكار شيئاً، لا نذهب إلى الفلاحين وبحرَّضهم، ولا

نوزع مشورات بينهم، كلُّ ما فعلناه أننا رفضنا أن نكون شهود زور على ما

يجري .

تناولت قطعة خبز وجبات من الزينون، كنت كدراً عما سمعت، وكنت

مرتاحاً لما قلت . أخيراً تجرَّأت على الكلام، قلت ما يجول في خاطري،

كسرت حاجز الرَّهبة في نفسي عبرت عن أفكاري بطريقة ما، وهذا بذاته

حسن، هؤلاء الفلاحون يحتاجون إلى التوعية، إلى من يأتي إليهم ويعدِّتهم،

إلى من يزورهم ويكشف الحقيقة لهم، وأنا لا أستطيع هذا، بمفردي لا أستطيعه، ترى، يأتي يومٌ ويحدث هذا؟

ذهبت إلى أهلي في الكرم، كنت في حالة من التهيّج يصعب معها العمل بهدوء، لقد توالى انفعالاتي، الدرك والقبض على الوالد، رثيمة والحديث معها، هذا الحوار الذي دار بيني وبين المطعون، شعوري بالأسى المتولد عن بعد المسافة بين ما أعرف أنه حقٌ وما أشهد من باطل.

لم تكن حال أمي وأختي بأفضل من حالي. كانتا واجهتين حريشتين، نجمعان ما تسائر من زيتون جمعاً ألياً، وتفكران بالوالد الذي سبق إلى السجن، وما ينتظره من عذاب على أيدي الدرك. كانتا تنتظراني، وقد بكت أمي كعادتها عند مواجهة مواقف كهذه. ولم تستطع الأخت منعها من البكاء، كما لم تشأ أن تعنفها، أو تقول لها ما لا تحب بسبب موقف الضعف هذا، تركتها وشأنها، دون أن تشاركها الجرع الذي تضخم لديها بفعل وساوس هاجعة، ما نلبث أن تهبّ وتستولي على مشاعرها الهلعة حتى تعدو عصاباً لا يزول إلا بانتفاء أسبابه.

أنا أيضاً أحسست، ما أن أطللت عليهما، بالمأساة الصغيرة التي تشتر عنكبوتيتها بينهن. كنت أدرك ما في نفس الأم من خوف قديم دائم، يبعث كلما تهددتنا، أو واجهتنا، مشكلة ما. كان خوفها هذا قديماً، ررعه الريف، والعزلة، والظلمة، ورحيل الأب، وتشرّد العائلة، وكان قد مضى زمن لم تنعّص فيه لحالة من اليأس النفسي التي عرفتها اليوم. صحيح أن الوالد كان يرحل، يغيب، وتحشى عليه الأذى، وتقلق لمصيره، لكنها أبداً لم تجد نفسها أمام مشهد مماثل لمشهد سرقه إلى السجن. أما نحن، أولادها، فقد كنّا في العمر الذي يسمح لنا أن نتماسك، فلا تركض وراء السجن كما ركض الطفل وراء والده الفلاح.

غير أن تماسكتنا تضعضع أمام دموع الأم. تجددت هذه الدموع منذ رأتني، وعبر عناقها لي عماً في صدرها من لوعة، فبقيت واقفاً ورأسها على صدري. كانت تنسج، تختلج، تعول في صمت، وبغمغمة تندب سوء

حظنا الذي حسب أنه فارقتنا. ولم أقو على الكلام أمام فجيعتها برجلها،
ولا كنت قادراً على البكاء مثلها، خجلاً من أخي التي كانت تراقبني، غير
أن الأخت الصغيرة أدارت وجهها وبكت. وكان الجو من حولنا، في
لحظات انفجار المشاعر تلك، جهماً رغم سطوع الشمس. الهواء كثيف،
مغبر، والعشب الأصفر اليابس يشكل خلفية للأسى، وخلاء موحش،
يعري بالكمد، وعائلة مشردة فقدت ربها، وباتت تحت رحمة قدر هي على
وشك أن ينسم لها.

ماذا أقول للآم؟ لقد عذبها الزمن طويلاً، جائراً عليها كفريسة مزقتها
مخالبه. لم تعد تتوقع منه إلا المزيد إرهاباً وتمزيقاً، لقد عشن الليل في
عينها. ثقت الريح خاصرتها. فرغت كفها من الأمل، وغدا القهر فلاة
في العنق النحيل. إنها لا تؤمن بالكلمات التي أقولها، تسكت أحياناً فلا
تعارضها، لكنها في الأعماق مفرغة من كل رجاء بأن الحال ستبدل، درها
الطويل ظل مقروشاً بالشوك. مرة واحدة لم تفتح وردة عليه. كانت
تحسب، ونحس في إسكندرون، أن هدنة ما قد قامت بينها وبين سوء
الطالع، لكن الهجرة ما لبثت أن انحطت عليها شوحه سوداء. دفعة واحدة
وجدت نفسها في العراء. وقفت ثمة ضد الريح والبرد والمطر. ضد غضب
الحياة التي لم تؤاتها مؤاتاة حسنة عمرها كله. وهذه الدموع التي تدرفها هي
احتجاج صامت على الدهر. عتاب بالدمع حين لم تجد سواء زفرة في وجه
الأفق الذي أنسد من حولها، كأن الجهات الأربع قد أغلقت، والرحمة
رفعتها زوبعة هوجاء.

تركتها تبكي، أنا لا أؤمن بالدمع. أخي ترفضه، لكن الآم تجد فيه
وسيلة للتعبير عن أسى ينغرز كمدية في قلبها. ليست عينا الآم هما اللتان
تبكيان. قلبها كان يبكي، وماذا أفعل لقلب عزت عليه الراحة، فالفى
العزاء في نشج صامت هو نوع من تمرد لا تحسن غيره؟ قصارى جهدي أن
أتمجد، أشعل النار في المحجرين وأنتظر. استدعي مهجة أيوب التي
صاعتها الصبر. أرحل مع نظراتي النათية فيما حولي، حيث الشجر ساكن،

والأرض تترمد، والشوك يصفّر نفسه إكليلاً للمائم، وأمي تنتفض مختلجة من آثاره الكاوية.

أجلستنا الأم على حجر. غسلنا وجهها. تحلقنا حولها دون أن نعرف ماذا ينبغي أن نفعل. قلنا لها بصمتنا كلمات مؤاسة صغيرة. رجواتها بنظراتنا أن تهدأ، وأن تسي، كي نعاود العمل الذي وحده يملك أن يحمينا. أظهرنا بكل ما نملك من حنان الأبناء تضامنا معها في ذلك الحزن الذي هو حقيقي كالوجود. قرربا دونما اتفاق أن تبدل جهداً مضاعفاً لتعويض ما فاتنا من وقت ضائع. شجعناها على تحمل الضربة التي نزلت بالوالد. طمأنأها إلى أنه سيعود، وأنهم في المدينة لن يجدوا شيئاً يدينه. غير أن كل ذلك كان تمثيلاً، ففي أعماق كل منا كان يتضخم عود من الكآبة الخرساء، لعلنا أن الأب لن يعود بالسرعة التي نأملها، ولن ينجو من عقاب لا ذنب له فيه.

رجعنا إلى العمل، كنا قادرين عليه بكل الآلية اللازمة، لم يعد الشوك، والحر، والافاعي، وتفؤس الظهر، والغبار الذي تسفوه الريح، قادراً على صدنا. كنا قد أدركنا وضعنا اليائس، وكرتاب قارب يتقاذفه الموج، صمنا على المقاومة، وعلى الماضي في الرحلة التي قادتنا إليها ظروف سيئة. ما بقي هو الدأب. مواجهة الشدة بالتحدي، الشد على الجراح حتى تكف عن النزف، ومن خلال مشاعر ترغب في تخطي الضعف، توصلنا إلى اصطبياد حاطرة عابرة، رسم ابتسامة ما مبتسرة، قول كلمة تخرق الصمت المائمي الذي ران علينا.

قالت أختي:

— غداً نذكر هذه الأيام ونضحك. من قال إننا سنهاجر من إسكندرونه، ونسكن اللاذقية، ونصل إلى هنا، ويصير ما صار معنا؟ الزمن يمضي، وكل حال يزول.

أجابتها الأم:

— سنذكرها ما في ذلك شك، ولكن من قال إننا سنضحك؟

- أنا أقول نعم سضحك أنا الآن أصحك وماذا هناك لدرء
الدموع؟

- وأولك؟

- ماله أبي؟ السج للرجال، وللنساء أيضاً لو قبصوا علي مثل بدو ما
يكبت وماذا الكاء؟ وما الفع منه؟ يريدون التحقيق؟ أهلاً
وسهلاً سيفول والذي ما جرى معه، ثم يسهي الأمر.

- هكذا بكل ساطة؟

- نعم بكل ساطة ولمرض أن التحفيز كان صعباً، وأنهم ضربوا
الوالد وعذبوه، هل هو أول إنسان نُضرب ويُعذب؟

- وإذا سحوه؟

- وحتى لو سحوه، سيفي صعة أيام ونعرج ماذا في ذلك؟

- آت، يا سبي الذين الأشياء سهلة دائماً

- وأنت، يا أمي، تربيها صعبة، وأكثر من اللازم، بل أكثر مما هي في
الواقع، وهذا بس الخوف مصيها هي الخوف

- أنت لا تخافين؟

- ومن لا يخاف؟ ولكن ما نوع الخوف؟ ما هي فاعله؟ إنه لا يعمل سوى
أن يكسب، أنا أرفض أن أخسر فإذا كان هذا لا خوف، فإني لا
أخاف نعم لا أخاف

قلت الأم وقد اسمت

- أنت حثتني خطأ، كان يجب أن يأتي صبي

- وما الذي؟

- يا ويلي، القتل ما القوي؟ تنجح؟

- نعم أجد، أنا لا أحسن دفاعاً ومدعونة للثلاثة سأشعل

سأبحث عن شغل سأسعى لاشتغل في الربيعي استروا لروا
ماذا تمسوي إذن؟

- لحبك شاباً -

- وأكثر أنا شاب وريادة

- واحوك؟

- أخي الآن صغير حين يكبر

قلت متشجعاً بحماستها

- أنا لم أعد صغيراً سأعمل أيضاً - عد بولاً من هنا سأبحث عن

عمل سينحس وضعاً وسيكون لي ماذا أقول؟ سيكون لي

موقف ورأي مثلاً يفعلون هناك، في إسكندرية

صاحت الأم -

- كل شيء إلا هذا أنا دحية عليك يا ابني لا تفعل كما يفعلون

لظرت إليّ الأخت من طرف خفي، أدركت أنني سأفعل - بحثاً رعت

عن إعلام الوالدة بذلك كانت تغتر هد التوع من الكتم المسو

تخجلاً وفي كل الأحوال فإنها، هي أيضاً، كانت تعتزم أن تقول شيئاً

لكها بحلاقي، أمسكت عن الإشارة إلى ما تريد

لقد شرب، في عماقها، التي لم أعتبر القصر على الوالدة صاحبة، وإن

سحبه لم يؤذ إلى إرهابي، هكذا وجدت في سداً، أنا التي كنت أبحث فيها

عن سد إنا مستغل هذا نصيباً ولن يبق في العاطلين، وللدية

بأن لا تشاركها، لا أخيراً، وأحوالنا ستتحسن، وهذا جهد وقد وجدت

في الوالدة عراة، وشجاعة، فقالت

- والله لن أقعد في البيت أيضاً سأشتغل في المرحي

لقلت الأخت

- في هذه الحالة نكون في وضع جيد - وسعنا على رب الفضل - عرفت

على الأقل، وبوضع لائق. . اعتمدوا علي. . هذا المطعون بحسبنا متنا،
يظن أنّ القبض على الوالد قد هدّنا، جعلنا في قبضته، تحت رحمته،
فشر. لم يخلق الذي يستطيع أن يُذلنا. نحن لسنا زجاجاً، ولا قطعاً
وأنا وحدي قادرة على تحدّيه. .

قالت الأم:

— دعي التحدي جانباً، لا نريد أن نتحدّاه. . نسيت ما فعل بيدور؟

— لم أنس. . يده وما تطول. . والله قادرة على مجابهة السيّد نفسه.

كدت أصفق. رغبت أن أذهب إلى أختي فأضمّها وأعانقها. جديرة
بالعناق هذه الأخت، ليس لأنها قادرة على مجابهة السيّد، ولكن لأنها لا
تخشى المصاعب. منذ عرفتُها وهي لا تخشى المصاعب. . إنها مناضلة،
مقاتلة، وأعظم ما فيها أننا بفضلها نعرف الابتسامة في أشد الظروف
حلكة. لقد عدل وجودها الميزان، فمقابل الأم الضعيفة، تأتي الأخت
القويّة. وفي هذه البريّة التي تضطرب فيها، وفي يوم القبض على والدنا،
ليس فقط لم تبك، بل ابتسمت، وعدتنا بابتسامتها، بعثت فينا العزم،
الثقة، الأمل، ومدّت لنا في فسحة التي لم تشمل واقعنا، في هذا الريف
اللعين، بل شملت مستقبلنا في اللاذقية، المستقبل الذي كنت أراه مظلماً
جداً.

— أنت يا أخت، قلت لها، من إسكندرونة حقاً.

— وسأكون من اللاذقية حقاً. أنا أيضاً قادرة على حمل البيرق^(١).

— وسأكون إلى جانبك.

— وسيكون معنا خلق كثير.

— نعم سيكون معنا خلق كثير.

(١) إشارة إلى شخصية أم بشر في رواية «الثلج يأتي من النافذة».

هكذا، هي التي لم تمسك فرشاة أو قلمًا، استطاعت، بصربة أو صريرتين، أن ترسم لي لوحة لهوض الناس المقبل. لذلك التجمع العمالي الذي سيحدث. للليظة التي ستتظم العمال والحرفيين وتدفعهم إلى تأليف نقابات لم يكن لها وجود في اللاذقية آنذاك. أختي تنطقها روح حدسية. هي ما كانت تدرك انها تحدد، لكن اندياحة الأمل كانت تعطيها رؤية عريضة نفاذة. رأت، وهي في كرم الزيتون، ما سوف يحدث بعد أعوام في مدينة اللاذقية. معرفتها أن الناس، في الريف، والمدينة على السواء، لا بد أن يهتوا في وجه الظلم والخلل الاجتماعي والبؤس، والفقر، جعلتها على يقين أن شيئاً ما سيتبدل في الحياة، وأن الوالد سيخرج من السجن، وبدور ستعود إلى بيتها وأولادها، ونحن سنتهي هجرتنا القسرية، وسنعتز في المدينة على عمل، وسيكون لنا، حيث نعمل، مجال أن نبذر بذور الفكر العمالي ونستنبتها بالصبر والدأب.

جمعنا من الزيتون، ذلك اليوم، كما لم نجتمع في أي يوم آخر. كنت أركض، تطلقني قوة اندفاع جبارة، إلى الزيتونات فأنبهرها، ثم أعود إلى العائلة وأجمع معها ما نبرت من زيتون، وكانت الأم، الآن، في حال جيدة. جفت دموعها. عادت ابتسامتها، أشرقت تقاطيع وجهها الحنطي الأليف. شغ في عينيها أمل. استنارت بضوء الكلمات الشجاعة التي سمعتها. أخضر العشب من حولها. الشوك لم يعد شوكاً. الأفاعي لم يظهر، الأرض تملست. حبات الزيتون أسلست لنا قيادها وصارت تقفز إلى أيدينا. الأشجار مالت باتجاه الأرض لنستطيع أن نمرشها بسهولة. الريح سمت جنوبية غربية رهوة. خلعتنا عباءة الحزن، خرجنا من جلود الأسى. دبّت فينا روح جديدة، نشطة، مباركة، الساء البلورية تلونت بمزجة من أحاسيسنا الزرقاء، غدونا غيرنا تماماً، صرنا أقدر على مجابهة الشدة، وعلى تحدي المطعون أو الشوباصي، قررنا أن نجني من الكرم جنى مضاعفاً واستجابت لنا إرادتنا.

في المساء عدنا إلى خيمتنا، ثمرة عملنا كانت مضاعفة تقريباً.

اشعلت الوالدة النار، فيما الشمس تنحدر إلى المغيب، في الموقف القريب، وصنعت لنا فهوة. لم نكلّم المطعون، بل لم نلق إليه بتحية المساء، أختي أوصتا بذلك. طلبت أن نتجاهله ففعلنا. عزيز ويولس، الفلاحان اللذان يعملان على البورة ظلّا بعيدين عنا، بل إنهما، حين نلاست مع المطعون في الصباح، وقفا إلى جانبه. خافا منه الخوف يوّلد الانتهازية، انتهزا الفرصة للتقرب، للنجاة بجلديهما. خاننا بدور دون مبرّر. موقفهما لم يصدّنا. عذراهما. كنت أعرف أن بعض الناس، في بعض المواقف، لا يستطيعون اتّخاذ الموقف الصّحّ. لم أقل ذلك لأختي، لكنّها هي، المعنّدة بنفسها، لم تسأل بقبيا وحدنا. قرّرتا أن نعمل بغير كلام. أن نرضى بما نحن فيه، إلى أن نحلي العمة.

وحين جاءت الجمال، في المساء، لنقل الزيتون، أطربا رنين أجراسها، وصعنا في اللوحة المعتادة لأمسيات البورة، أعاد وصل ما بيننا وبين المدينة. الحمال رسل المدينة. رسل بكساء، لكنها كانت هناك حيث تركنا بيتنا وأقرباءنا، وحيث الوالد ويدور يثويان في السجن، ولا يدري متى يعودان.

مصطوّر الحمال جاء وسأل عن الوالد. قال إنه سمع ما جرى وأسف. أبدى استنكاره لفعلّة المظعون، كان خارج دائرة الفؤاد، كان حرّاً في تصرّفه. ونغبة له دعواه إلى فتجان من القهوة. كانت الأخت، الآن، هي التي تنصّرف. عدت المسؤولة دون أن يكلفها أحد. وجدت أن من المفيد أن تكون قائدتنا فكانت. روت الحادثة كما حرب. لم تبد أيّ خوف أو دعر. تحدّثت هدهو، قالت إن الوالد سيعود، وإنّنا غير أسفيل على الموقف الصّحيح الذي وقفناه. ولم نكرّ ظلم المطعون، أو صدر عن الشوباصي ظلم مماثل، سفت مرة أخرى، كما وقفنا، وسفول الحقيقة دون أن نهاب ذلك أو السجن.

ولم يأت الشوباصي ذلك المساء، بلعه ما حدث ولا شك لا يقع شيء في إقطاعه دون أن يبلعه. لم يحقد عليه. ولم جاء لما خفضنا الحماح.

أمامه . نحن نعرف من هو، الوالد حدثنا عنه، وكذلك الفلاحون، لكننا لم نلق منه أدنى أدى . هو خارج المسألة . هذه فعلة المطعون . ربما كان موافقاً عليها، وربما، لو كان مكانه، لتصرف بطريقة أخرى . لكن المسألة لم تكن شيئاً بالنسبة إلينا . نحن على البورة وسنبقى . إذا طردنا فسنرحل . لكن الطرد غير وارد، والمطعون، بعد الحادث، يحاول التوّد إلينا . ذلك أنه، بعد تحميل الجمال، طلب أن يتكلّم مع الوالدة . ترددت الأم، تخرجت، استشارت الأخت بنظراتها المتسائلة، وقالت الأخت :

- لا بأس . اسمعي ما يريد أن يقوله .
- لكنني لا أعرف ما يريد . كلميه أنت .
- وإذا رفض؟ أنت رأس العائلة بعياب الوالد .
- يا ويلي . . أخشى أن يقول كلاماً لا أعرف الجواب عليه .
- لكل كلمة جوابها . ثم من هو؟ إنه، أولاً وأخيراً، أجير مثلنا .

ذهبت الأم إلى البورة . تبعتها الأخت . لحقت بهما، أختي الصغيرة ظلت وحدها في الخيمة . كان الليل قد ليل . ألقى السماء غلالة من عتم على الكون . سطعت نجوم مبشرة هنا وهناك . قامت جذران بليّة من حولنا . الأشجار بدت شحيّة . الأرض تنفّست . رائحة اليريت الأكسيدية، انتشرت، وثمة، في البعيد، عند النبع، كانت صفادع تنقّ، وكلاب تنبح في الحقول المجاورة، وجنادب تثّر في كرم التين، وبهاء المساء الخريفي، الريفى، يعطي نفسه بأفضل ما يستطيع .

- نعم، قالت الأم للمطعون، ماذا تريد؟
- سلامتك . . أردت فقط أن أسأل خاطرك . . أنت، عدم المؤاخدة أختي، المصري أخى، والعائلة عائلتي، وأنا لم أرد بكم سوءاً، والله، أقسم ثلاثاً، إنني لا أريد بكم سوءاً .

— ما وقع قد وقع . هل تستطيع جمع الزيت إذا دلقته على التراب؟

- أنت على حق، ما وقع وقع . ما كنت أريد، ما كنت أظنّ، زوجك، عدم المؤاخدة، حشر معه فيما لا يعنيه، تدخّل، دون سبب، في قضية بدّور.
- قالت الأخت .
- بدّور لم تفعل شيئاً . أنت تجلّيت عليها .
- أنت، عدم المؤاخدة، لا دخل لك في الحديث . أنا أكلم والدتك .
- وأنا أكلمك أنت . بدّور لم تدب، والوالد لم يدنب، وأنت تريد، بعد قتل القنبل، أن تمشي في جنازته . اللعب غير هذه اللعبة .
- أنا لا أعب ولكنني أشفق، أنا، عدم المؤاخدة، أشفق عليكم، بيدي أن أطرّدكم من البورة كلّها .
- وماذا بهم؟ نعود إلى المدينة، لكن أنت، سيكون لك حساب مع الوالد .
- وما هو الإثم الذي ارتكبته بحقّه؟
- ألا يكفي أنك أوصلته إلى السجن؟
- إذا كنت أنا من أوصله إلى السجن، فأنا من يخرج منه، دعونا نتفاهم فقط .
- نتفاهم على ماذا؟
- على القصل بين قضية الوالد وقضية بدّور .
- وماذا يحدث إذا فصلنا القضيتين؟
- أذهب في الصباح ، والتمس من الخواجه «د» أن يتدخّل للإفراج عن الوالد .
- دع الوالد في السجن حتى يفرج عنه .
- والبورة من ينظرها؟
- أنا .

- أنت امرأة - هل تصير المرأة ماطورة ريتون؟
- أخي
- أخوك ابن مدرسة، يخاف من خياله
- كنت قد لحقت بأختي فقلت
- سأنظر الليلة، وسرى أنني لا أخاف من أحد
- لا أستطيع - هذه مسؤوليتي، أنا، عدم المؤاخدة. مسزول أمام بيت
- فـ وهذا الريتون أمانة في عقي، أنا الوكيل هنا
- قالت الأم ملاطفة
- هذا صحيح والله - أنت المسؤول. وأنت على العيب والراس
- يسلم قمك - هكذا يكون الجواب - (ملتفتاً إلى الأخت) اسمعي،
- أنا قادر على التفاهم مع أمك وليس معك - أنت مثل والدك، لا
- نعرفين مصلحتكم ولا تسكتين على واحدة
- وما هو الشيء الذي تريد أن نتفاهم عليه؟
- أعنيكم من النظارة على شرط
- وما هو؟
- أن نشهدوا، إذا احتاج الأمر، أن بدور سارقة
- صاحبت الأم
- يا ويلك من الله!
- وقالت الأخت:
- تريدنا شهود زور؟
- هذا هو الشرط. - تبقون على البورة إذا شهدتم
- وإذا رفضنا؟

— تتركون البورة وتترلون إلى المدينة .

وقالت الأخت بحسم :

— نزل .

ولم نزل . فقد تدخَّل الشوباسي ، وأوصى بفاننا

لم يستطع المظعون أن يطردها، ولا استطاع أن يفهروا، فقد تماسكتا لم نهزم من الداخل، ولا انكسرا، وكان ذلك بفضل الأخت، التي أشعلت في أوراق الربتون شموعاً للامل صوّات كل ما حولنا، حالت بين برد القربة، وفراق الأب، ولؤم الوكيل، وبين اليأس أن يتسرب إلى قموسنا. نحدث المظعون، أبدت استعداداً لترك البورة، كأن لا شيء، في هذا الوجود، قادر أن يلوي شكيمنها. وحتى الأم، الخائفة بطبعها، أزاحت خوفها جانباً، ولو بصورة مؤقتة. وأنا الذي كنت أحمل أفكاراً، بحول الخحل بيبي وبين أن تصبح سلوكاً لي، عدوت، بفضل أختي، أقلّ مبالاة بالروح العدائية، التي يحملها المظعون نحونا ولعلّ الشوباصي، الذي أمر بقتلنا، كان يريد، من تصرفه ذلك، أن يعاكس المظعون أكثر مما كان يريد رفع علامة عنا.

كنا، في النهار، نجمع الربتون، وفي الليل أحرس البورة. نقول أختي، قبل أن ندخل الخيمة لثنام، «لا تقلق كثيراً وأنت تقوم بمهمة الناطور، ليس من يجرؤ على الاقتراب من البورة، ولو اشتبهت، بأيما زوال، حركة، حشاشة في العشب، بين الأشجار، أيقظني» فأجيبها، مستمداً من كلماتها شجاعة: «هامي أنت، لا تفكري. ليس ثمة ما مخيف، ولن أصيح، أو أهرّب، حتى ولو جاء اللصوص حقيقة، أو دبّر المظعون، غارة ما، بقصد

الإيقاع بنا . لص الريتون تكفيه تصليقة كفت حتى بولي الأدبار، إنه مثل
 الفلاح صخر، يريد حفرة ريتون لأولاده لا أكثره غير أنني، في وحدة
 الليل، وحشته، وأنا أدور حول البورة، والجميع نيام من حولي، كانت
 الطمانينة تقارقي، أظل متوجساً، متلفتاً، مرهف السمع، وهذا ما كان
 ينفي يومي، ويبتع رعدة صغيرة، غير مريحة، في أوصالي، فاستشعرتفتاً
 في أعصابي، ولا تعاودني الطمانينة إلا في الفجر، حين تبلغني دقات
 الأجراس في أعناق الجمال وهي مقبلة من بعيد، مختربة صفوف الأشجار في
 طريقها إلى البورة كان الرنين الحلوى، المحمول على أكتاف الريح، يشبه
 رنين النوافيس، فهو سلام وخشوع في آن سلام يحمل نباشير الصباح،
 وخشوع لما فيه من إيقاع رتيب، يذكر بالأمسيات والصباحات للدبرة التي
 اسمع بها وأقرأ عنها .

لقد تقمّصت، تلك الليالي الصيفية، شخصية والدي، وأنا أحمل
 عصاه، وأضرب بها الأرض، وأضعها، تارة على كتفي، مشبكاً ذراعي
 بها، وأنزله طوراً، فتغدو في يدي سلاحاً خشبياً لا قيمة له، لكنه، بالنسبة
 لطفولتي تلك، كان سلاحاً ما، أتصور نفسي وأنا أستعمله، أضرب به،
 أندفع على اللص وهو مشهور في يدي، واللس، من جهته، يرفع عصاه،
 وتبدأ المبارزة، ومن كان زنده أقوى، وعصاه أمتن، هو الذي يفوز، فإذا
 تحطمت عصاي، ولم يبق لي ما أدفع به عن نفسي أصرخ، أوقظ من حولي،
 وتبدأ المعركة التي كانت متخيلة، وظلت كذلك إلى أن انتهى الموسم .

ومع أن هواجسي كانت تغتال الفرحة التي يولدها الليل الصيفي، فإن
 بهاء الطبيعة كان يفرض وجوده، والسماء ذات النجوم، تقترب مني
 لتحطفي إلى مراتعها، فيست لي جناحان، وأغدو أنا الفتى الذي ما زال،
 بسبب الفقر، يلبس بنطاله الأسود القصير، طيراً مكسواً بالريش الأبيض
 والأصفر، وبسر، كما في الحلم، أطيروا فطر في طيراني فوق الأودية الخضراء،
 وأمد يدي إلى النجوم، ساحباً معي رقيقة إلى خمائل سماوية بعيدة عن
 الانظار، حيث أستطيع، دون ممانعة منها، أن أضع ذراعي حول كتفها،

وأنا أقول كلمات حلوة، عذبة، ساحرة، وهي تبسم وتبسم، متقبلة
كلماتي بالرمح، والود، والحب الذي كان عذرياً، لكنه، في اندفاعات
الغريزة، يلامس أطرافها، صدرها، ويخطف، من عنقها، خذها،
شفيتها، فلات مسكرة

كان ذاك حبي الأول، كان حباً بكرة كالموجة الزرقاء الأولى على
الشاطئ المحصب، وكان شعل، في السهر الطويل، أن اخترع الفاظاً
أعدها للفناء المقل ولم أكن أفكر بمعنى هذا الحب، نتيجته، مصيره، أنا
الفتى الذي في النهار، حين يتلج الضوء، ويحيل إلى درات أجمل أمان
الليل، أخجل من كثير من تصوراتي. كان حبي، ذاك، فوق الفقر، فوق
المادة، فوق الواقع. كان خيالاً جميلاً، يتعدى على أحلام بريئة لمراهقة
مبكرة، لو أعطيت أن تفكر، أن تتساءل، أن تحادر، لارتطمت بصخرة
وتفتت، أو تبخرت، شأن البحر الذي يرتطم بصخر الشاطئ

وكنت في حبي الغني هذا، أخشى العيون، وأناى به عن المظان، أصونه
في الحدوتين، وأمشي إليه كأنني على حمر، شاعراً في كل خطوة، أن ثمة من
يراقبني، ومن يحصي علي أنفاسي، وخاصة الأخت، التي لا يمكن أن يموتها
تعلقي برقيقة، وغياي، في الأماشي، عن البورة، حيث أزعج أنني أقوم
بجولات في الكرم، ترويحاً عن النفس، أو أذهب إلى والد رقيقة أتبادل معه
بعض الأحاديث

طني أن أختي كانت تنظر إلى الموضوع كله من زاوية مضحكة. لم تفانخي
مرة به، ولم تومع إليه. ولا أخبرت الأم، لكنها كانت تعرف أين أذهب،
وعمر التقي. وربما ماذا أقول، وتعتبر كل ذلك طبيعياً، يتناسب مع عمري
وعمر رقيقة، ولا يشكل أية قضية تستوجب الحذر، أو التدخل، أو
الكلام، أو حتى المساءلة. كانت تجهل، أنني في بعض الليالي، أتترك البورة
وأذهب إلى رقيقة، أدور حول حيمتها، ألقى بعض البحص من بعيد، أتي
بحركات أحسب أنها كافية لتنبهها إلى وجودي، دون أن تثير انتباه والدها

الذي كان، بعد منتصف الليل، يغط في النوم على حصيرة أمام الخيمة، مثبتاً وجود الناطور بجسده الممدد والعصا قربهِ.

لكن رقيقة لم تخرج إلى مرة، في تلك الزيارات التي تكررت بعد منتصف الليل. قالت لي إنها أحست به، وصارت تستيقظ في الساعة التي تسبق الفجر، وتسمع خطواتي، حركاتي، وقع الحصى التي ألقبها على الخيمة، وأنها تمنى أن تخرج، لكنها تخاف. حذرتني من المجيء، ومن ترك البورة، ولفت نظر المطعون، أو أهلي، إلا أنني لم أبال بتحذيراتها. كنت أحلم أن أراها في قميص النوم الأبيض، مكشوفة الصدر، عارية الساعدين، وأن أخذها، دون فرس، إلى بعيد، وغشي، بل نظير، كما في تحفلاتي، اليد باليد، والعين في العين، وأن أسمع صوتها، وأرى ابتسامتها، وأبلغ، مرة فقط، أن أعانقها، وأن تلامس شفتي شفيتها، هذه المنحة السماوية التي لا أجرو على التفكير بها نهاراً، أو طلبها في الضوء، أو خطفها عنوة دونما ساتر من ظلمة، أو غبش يحجبنا عن أنظار الأرض والشجر، وعن عيون السماء التي تحدق بنا وترانا في النهار.

ومن الخبر أنه لا مرأة لدينا في تلك البرية. أنا لم أشاهد نفسي أبداً في وقفة كاملة في أيما مرأة تلك الأيام. هذا هو السبب أنني اندججت في دوري، دور العاشق الصغير، الذي نسي أنه في بنطال قصير، ووالده في السجن، وعائلته تجمع الزيتون، والمستقبل مبهم، ولولا تشجيعات الأخت كان مظلماً، ما دمنا تحت رحي المأساة. لقد تعلمت، بعد تلك العلاقة العاطفية مع رقيقة، أن الحب يتطلب ظرْفه. صحيح أن الحب ليس ترفاً، ولكن الذي يسعى إلى الرغيف، لا وقت لديه، ولا قابلية، لأن يطارح الفتيات عرامه. ولعل أختي، وكانت مصيبة، نظرت إلى حبي من هذه الزاوية، فرأت فيه نوعاً من ولدنة، ولهذا تركتني وشأني.

عجيب أمر الإنسان، إنه قادر على سبيل الوضع الذي هو فيه، وتلك نعمة كبرى. النفس، في نزوعها إلى التخطي، التحقق، الانعتاق من أسر الراحل، تبتكر حالة النسيان لتدفع بصاحبها بعيداً عن مطارح الغم، وتمد

له في أسباب العيش . . عليه ، في حال كهذه ، أن يكون قد امتلك قصبة ، فاز بحب ، عشق آخر ، أقام صداقة ، وجد ما يشغله عن التفكير القاتل بالظروف التي يزرع تحت وطأتها . هكذا نصير الحياة أيسر . تمر الأيام بسرعة . يتزاح من تحت إبهاط الزمن ، يشتعل فيه لهب ما ، يقلب برودته إلى حرارة . أنا فزت بالحب . ذلك صنع لي بهجة تخففت من التفكير المضني بما ألبس ، أكل ، أعمل ، وبالوضع الكئيب للخيمة التي تؤوينا ، والغرفة المعتمة التي هي كل مسكننا ، وحالة الفقر السوء التي يضطرب فيها . انزاحت المغموم جميعاً ، بقدرة قادر يصنع معجزته . صرت أفكر ، نهاري وليلي ، برثيفة ، أخترع لنفسي سبلاً للقاء ، والحديث ، والصلة . تثبت في ضلوعي شجرة للمسرة ، على أغصانها ثمار ذهبية . ولكي أضمن في خداع نفسي ، أقنعها بأن علاقتي تلك ذات غاية أبعد من الشهوة . أنا «صاحب القضية» راوغت في الاعتراف بأن ما أريده ينبثق من دافع غريزي ، رددته إلى دافع فكري ، وتوهمت أنني سأبدأ نصالي برثيفة فأكسبها إلى قضيتي . لكن رثيفة كانت تريد شيئاً آخر ، وكان والدها ، هو المثال بالنسبة إليها ، وهذا المثال كان على درجة بالغة من الانحطاط الروحي ، فهو يعتبر كلب الخواجه خواجه ، وقد وظف نفسه ، دون مقابل ، كلباً عند بيت «ف» ، وعزى عندما علم بالذي فعله والدي .

— هذا كفر بالنعمة ، قال لي ، والدك يكفر بنعمته .

— لماذا؟

— لأن بيت «ف» أسيادنا .

— ولنفرض أنهم كذلك ، هل نسكت عن ظلمهم؟

— بيت «ف» لا يظلمون . . هل رأيتهم يضربون أحداً؟

— قد لا يضربون بأيديهم . وما حاجتهم إلى ذلك ، إذا كان لديهم الشوياصي والوكيل؟

— وماذا فعل الشوياصي أو الوكيل؟

— وضرب الفلاحين؟ أنت لم تر كيف قيدوا صخر وضربوه ، وكيف أدخلوه

السجن

- هذا اللص
- لم يكن لصاً، من يعمل في المذبح من المذبح يأكل، إنه يعمل في الزيتون، وأحد حفنة منه لأولاده، فماداً حدث؟ لقد تصرف بحقه
- وما رأيك لو ادعى الجميع مثل هذا الحق، ماذا يحدث عندئذ؟
- لا شيء، نحن النواظير نأكل من الزيتون، هذا حقنا
- لكننا لا سرقه
- لو سمعوه علينا لسرقناه
- أنا أفي جائعاً ولا أخون الأمانة
- آية أمانة هذه؟
- ولكن الزيتون أمانة في عنقنا، ألا تعرف ذلك؟ ألا تحس به؟
- بين الحق والأمانة فارق واضح
- صاح مهتاجاً:
- وما هو؟
- فارق ما نستحق وما نأخذ
- نحن نأخذ أكثر مما نستحق
- هل نظراً ذلك؟
- بل أؤمن بذلك، نحن لا نستحق لقمتنا
- عندنا لا يفكرون على هذا النحو
- أين عندكم هذه؟
- في إسكندرونة
- اللعنة على إسكندرونة إذا كانت عاقبة

سكت أمام غضبه، كان كلب حراسه فعلاً، اعتاد هذه العبودية، وسيمضي زمن قبل أن يعي معنى الحرية، معنى الكرامة، قيمة الحق الذي هو كسب وليس منة من أحد، والذي لا يهتم بكل هذه المعايير، لكنه يرفض الظلم من منطلق الرجولة، هذا لا رجولة له، نخصي هو، كلب

حقيقي، بفوم بحراسة حقيقية، مقابل رعب وحبّات من الريتون وما هو
أكثر، أنه بفد ضد الآخرين هو الذي ففس على صحر، وربما هو الذي
وشى بهدور، والأل باصب والذي العداء، إنه ملكي أكثر من ملك. خادم
مطبخ عند بيت ده ولوست له طفر لدبح به

نحنت معاصنه حت بقي لأنحب معاصنه كانت ثمة رثيفة، وفي
سبيل أن أراها، وأن أستمر في المحي إليها، الثرمت الصمت صمغي
المكروه هذا، الذي سينكر أحياناً، كان مرفوضاً مني، لكني ما كنت قادراً
على الخلاص منه كنت أأمل إذا فكر بذلك، الذين على باطل يهاجمون،
والذين على حق يسكتون؟ أخني ما كانت لتسكت لكن أخني ما كانت
عاشقة نرى، لو كان عنده ولد، وأخته أخني، وسمعت مثل هذا الكلام
من والده، أكانت تسكت مثلها أسكت؟ أشك في ذلك

رحمت، ذلك المساء، من ريارتي نعيماً، نادماً على السكوت. عدت
وفي ظني أنني لن أذهب إلى خيمة رثيفة ثانية. لكنني، في مساء اليوم التالي
ذهبت. وجدت والدها على حصيرته، راضياً، مسجماً، يشرب كأسه، لم
يكن يفكر في يومه أو عده. كان على قناعة لا تنزعزع بأنه هكذا وُلد وهكذا
يسمي أن يموت. بلادته فوق مستوى الشبهة بالأسياء، وكل ما يفعلون كان
حساً في عيبه، وباعثاً على الراحة، كأنه أوق الأشياء حقوقها. ولقد
اصطدمت بأمثاله كثيراً. وجدتهم في المدينة والريف، في الميناء والشارع، في
الحي وسوق الخضار، في المقهى والحديقة، في الأفراح والأفراح، ووجدت
الاكتفاء قسمة بينهم، كأنما راحتهم هي عالمهم كله.

كان والد رثيفة طويلاً، محبباً من عند الرقة، له رأس كنصف بطيخة،
وعيان مغرورتان، وألف صخم تحته شاربان كفرشاة، وشدق واسع كشندق
الضبع، وفي قدميه حذاء عتيق، مقطّع، وله إلمان، واحد في السماء والآخر
على الأرض، اسمه الحواجه ده. كان أرملاً، ماتت زوجته ولم يفكر
بغيرها، وربما لن يفكر أبداً، فهو ينتم بالمنطقة الوسطى من بدته فقط، كأنه
خلق ليأكل ويشرب ويام، وقد حاولت، خلال زيارتي كلها، أن أستثير

- انتباهه إلى الحياة السيئة التي يحيها، فكان جوابه واحداً في كل الحالات
- حالنا مستورة .
 - لكننا مشردون في هذا الريف، نعمل من الصباح إلى المساء وليس لنا لباس على ظهورنا، ولا طعام سوى كسرة الخبز
 - كسرة الخبز التي نتبّلها كافية .
 - الحياة ليست كسرة خبز . . والمسيح نفسه قال : « ليس بالخبز وحده يحيا الإنسان »
 - ونحن لا نحيا بالخبز وحده، بل بالزيت معه . .
 - هكذا نفهم كلام المسيح ؟
 - هكذا يفهمه الخواجة والناس وهم أدرى منك ومني . .
 - ألا تعتقد أن للخواجة مصلحة في فهم كهذا ؟
 - وما هي مصلحته ؟ لنقل إن الوكيل يغشّ، أو أنه يفسّر الأشياء على هواه، فما رأيك بالخواجة ؟ تستطيع أن تشكّ في فهمه ؟
 - أنا لا أشكّ في فهمه . . أشكّ في مصلحته . .
 - حين يكون وليّ تعمّتنا، تصبح مصلحته مصلحتنا، أم تنكر هذا أيضاً ؟
 - أنا لا أوافقك . .
 - ليس ضرورياً أن نوافقي . .
 - ينبغي أن نفكر . .
 - ومادّا تراني أفعل ؟ أفتح فمي للريح ؟
 - وإلى أين قادك تفكيرك إذن ؟
 - إلى النوم . . أن تترك الدنيا للدنيا أفضل ما نفعل . . أم تريد أن تصير خواجة ؟ هذه لم تخلق لنا، كبيرة علينا . إنس أفكارك التي لا أعرف ما هي . . أم تريد أن تجادل لأنك ابن مدرسة ؟ هذا هو الذي علّموك إياه في المدرسة ؟
 - ألا تحبّ المدرسة ؟

- لا . ما فائدتها؟
- ألا تريد أن تتعلم؟
- ما أعرفه يكفي .
- ورثيعة؟
- رثيعة بنت، والمدرسة لم تخلق للبنات . مع ذلك أرسلتها . تعلمت فك الحرف في مدرسة الطائفة .
- فك الحروف وحده لا يكفي .
- والأفوكاتو لا يصير . نحن خلقنا للعمل ، والخوارج للجامعة . أنت من أنت؟ ماذا تظن نفسك؟ تريد أن تصبح أفوكاتو؟^(١)
- ولماذا لا؟
- نعيماً . أصحاب الكرامات عليهم علامات . الأفضل أن تفكر بتعلم مهنة . لماذا لا تتعلم مهنة؟
- تعلمت مهنة الخلافة . كنت ، في إسكندرونة أجير حلاق .
- عظيم . . ولماذا لم تكمل . ؟ غداً ، حين ينتهي الموسم ، عُدْ أجير حلاق ، المهنة خلقت لنا والعلم لهم ، العمى أسياد وجاهلون؟ ترضى بهذا؟
- أنا لا أرفض المهنة ، لكنني لا أرفض العلم .
- والعلم يحتاج إلى بيت من المال ، وأنت مثلي ، على الحصيرة .
- سأطلب الاثنين ، المهنة والعلم .
- صاح بنفاد صبر :
- يا ابني ، يا ابني ، لا تتطلع إلى فوق ، تتعب . ضع رأسك في الأرض ، كن متواضعاً . والدك تطلع إلى فوق ، فأين هو الآن؟ في بيت خالته لو كان مثلي ، لو عرف حذّه ووقف عنده ، أما كان الآن على البورة؟
- والذي دافع عن حق .

(١) الأفوكاتو المحامي

- مرحباً حقّ. الا يعرف الحقّ غير جنباه؟
- كل إنسان مطلوب منه أن يعرف الحقّ، وأن يدافع عنه.
- صاح من جديد:
- تراني أدافع عن باطل؟ الا تغلق هذا الحديث وترينيني؟

أغلقت الحديث. ثمة أدمنة تتصفّح من الداخل ضدّ الفهم. تكون مدرّعة وحديدها كتيمة. عبد الله هذا تتصالب في عقله العبودية والحواجات. لو اختلف أيّ فقير والحواجه كان في صفّ الحواجه. وقد كان مفهوماً لو أنه ينال أجراً على ذلك. إنه عبد الحواجات مجاناً، خادمهم دون مقابل، ورغم أنه، حسب رواية فلاح على البورة، يسرق الزيتون ليلاً، فإنّه لا يعدّ ما يأخذه سرقة. هنا، يعتبر المسألة مونة. إنه يمتن بما يأخذ من زيتون، يعتبر نفسه خادم مذبح، ولو أنه لم يسرق، ولو أعطي واحداً من العشرين مما يجنيه، لبقى مؤمناً أن هذا الواحد مئة من الحواجات. كان عقله في مؤخرته، وكانت هذه نامية أكثر من المعتاد، وفي جسمه كلّ خلل لا تعرف أين، لكنه مطمئن إلى انسجام الأشياء، في داخله وفيها حوله.

عندما عدت مساء، قصصت ما دار بينه وبينني على أختي، قلت لها إنه نبح، كاد يعقرني، فتأملتني ملياً وقالت: «يا ليت!» سألتها: «لماذا؟» قالت: «حتى تتألّم أكثر». كانت تريد إعطائي سدمة أكبر، كي أستفيق من خدعة أن الفقراء طيبون. هي لا تؤمن بطبيعتهم المطلقة هذه، تتأذى جداً حين ترى فقراً لا يعي مصلحته. كنت أقول لها: «هذا من الجهل»، فترد: «من العادة». أحكامها المبرمة هذه كانت مثار خلاف بيننا، فأنا إلى جانب عذّر ما، أبحث عنه لكل إنسان، أعداري كلّها تصبّ في قناة واحدة: «انعدام الوعي». لكنّها، في نزقها، قسوتها على الدين لا يعون حقهم، كرهها لكلّ هذه التشوهات في تفكيرهم، كانت تدينهم إدانة قاطعة:

- اعتادوا على تقبيل الأيدي.

- حين ينتشر الوعي..

تقاطعي:

- الوعي استعداد . هذا والدنا . تحسبه واعياً؟ لديه استعداد للمقاومة .
 - وهم أيضاً سيقاومون .
 - متى؟
 - حين نتوصل إلى شرح الأشياء لهم .
 - مع هؤلاء البلداء لا ينفع شرح . أبو رثيفة ليس نبته شاذة في غير أرضها، الناس تعلموا على الخضوع، وعلى تقبيل أيدي أسيادهم وهم راكعون .
 - ليس كل الناس . .
 - أنا لا أقول كلهم . .
 - وحتى المخدوعون ستزول الغشاوة عن عيونهم فيبصرون
 - ومن يزيلها؟
 - نحن . .
 - أنا لا دخل لي في ذلك، غير قادرة على الصبر، وعلى الكلام الكثير . .
 - في هذه الحال لن تكوني نقابية حين تعملين في الريجي .
 - ومن قال إنني أريد أن أكون كذلك؟
 - هذا من الجهل أيضاً .
 - ربما . . أنا أمية، لم ترسلني أمي إلى المدرسة، ولا علاقة لي بشيء .
- تقول ذلك بحرقه، تدرك هذا النقص وتثور عليه . غير أن ثورتها كانت فردية، هي نائرة بطبعها ولا شيء غير ذلك . تستطيع أن تقا تل في سبيل الحق، لكنها عاجزة عن شرحه للآخرين . ما ينقصها كان نصف صبري، وما ينقصني نصف شجاعتهما . إنها لا تهاب، لا تباأس، لا تخاف الحياة، دون أن تدري لماذا، ودون أن تحاول أن تجعل من هذه الصفات الطيبة صفات واعية . كانت صبيية . فارعة القامة . سمارها الخنطى ينضج بنضج الأنثى، غير أن الحب لم يكن شاغلها كما هي حال امرأة في مثل سنها ونضجها . ولقد سمعت أمي تقول لها : «أنت بت بالخطأ» كان أفضل أن

تأتي صبيًا فتقول: «يا ليت!» ثم تستدرك: «سرى ما يزيد الصبي على البنت، وبماذا ينفع أكثره وإذ أهرع للإشادة بها، لتقدير كفاءتها، تحييي بكثير من الود: «أنا لا أعنيك أنت. أنت ابن مدرسة... وأنت طبيب، ذكي، لكنك لا تحسن المجابهة»، وكنت أعجب من فراستها هذه، ومن قدرتها على تقويمي بكلمتين. وكثيراً ما فكّرت على هذا النحو: «هي شجاعة لأنها معافاة... لماذا، يا ربي، جعلت أختي في هذا الجسم الكامل، وجعلتني في هذا الجسم العليل؟ لكني أبداً ما حملت نحوها حسداً أو ضغينة، على العكس، كنت معجّباً بها، وبقيت معجّباً بها طوال حياتي

القائمة المترفة، كحورة في عزّ ثمائها، والاملاء دون سمنة، والشعر الأسود، والعينان السوداوان، والخصر الدقيق، والساعدان الرخصان، كل شيء فيها: سماتها، نقاطبها، تبرتها، ابتسامتها، جسارتها، كانت تؤهلها لصفة الخميطة بجدارة، وكانت لذلك كلّه محبوبة من أبويّ، ومتيّ، ومن أختها الأصغر، وأختها الأكبر كانت مثار إعجاب لا تنقصده ولا تطلبه، وكانت على ثقة من أنّ الزمن سيكون إلى جانبها، دون أن تمتلك مقومات هذه الثقة من علم أو جاه. عملت خادماً منذ الصغر، وحرمت من المدرسة، وكافحت في بيوت الناس، ولم تترعرع في وسط عائليّ يساعدها على اكتساب معارف تصبح معها جديرة بقوة المحاكمة وقوة الحجّة، ومع هذا فقد كانت على درجة عالية من النباهة وسرعة البديهة.

ولما حكيت لها عما يدور بيني وبين عبدالله الناطور، سألتني بحدة:

— ولماذا لذهب إليه إذا كان كما تقول؟

وبعد أن لاحظت اضطرابي وصمّني قالت مع ابتسامة:

— هل السبب رثيعة؟

— ثيعة فتاة طيبة.

— ولست نقول لي إنّك تريد اكتسابها لفصيتك.

— أحاول... لكنّ والدّها حشّار رأسها بكل أنواع الترهات.

— وأنت تدّعيه منها... أليس كذلك؟

- أجد ذلك صعباً جداً .
- هذه الجريدة تفكر مثل ذلك الضيع
- هي ليست جرادة .
- زعلت؟ إنما كنت أمزح .
- ليس من حقك أن تمزحي على هذا النحو . كنت أحس أنها صديقتك . إذا كنت طيبة معي كوني لطيفة معها
- يا ليت . هي صغيرة وبائسة ، لا أحب البائسين دون سبب
- ونحن؟ السنا بؤساء؟
- أنا لست كذلك . ولا أريد
- الفقراء بؤساء بالضرورة .
- لا ، ليس ذلك شرطاً . أعرف فقراء ليسوا بؤساء . البحارة ، في إسكندرونه ، لم يكونوا بؤساء ، كانوا يقاومون السلطة الفرنسية ، ويتزعمون رزقهم من الصخر .
- البحارة شيء آخر .
- لماذا؟ كلنا يجب أن نكون مثلهم . ثم ماذا يجدي البؤس؟ ما نفع أن نكون ضعفاء؟ أنا لا أحب الجبن ولا الجبناء . رثيتك هذه جبانة ، ولن يكون لك نفع فيها .
- أنا لا أريد منها شيئاً
- ولماذا تدور حولها؟
- هي صديقتي لا أكثر . نحن ، في هذا الريف ، لا أصدقاء لنا ، ليس جيباً أن يكون للمرء صديق؟
- بل! أنت تقول الحق . مؤسف ، ليس هنا من يصادقه . إنه دون أصدقاء .
- فالتها بأسف عميق فوحشت بها تعترف على هذا البحر أشمعت عليها لأنها دون أصدقاء كانت صريحة صراحتها كانت دائماً عتبة لا تحاول

تحت أيّ عذر، أن تراوغ - مستقيمة كالطلقة. رضية كالنسيمة، لكنها
جبارة. رائع أن نعترف بما ينقصنا. أنا أخوها، لكنني لا أعرضها عن
الصديق. والصديق الذي تريدني أن يكون على مثالها، وستعب. ربما
لن نجد. ومن يدري، فقد يطامن الزمن من تطلّعها، قد يرميها بزواج يكون
نقيضها، وفي حال كهذه آية لطفة للفراس الذي لم يأت، سنظلّ تراقفها؟

حزبت شيئاً ما لأجل أخي. كانت أكبر مني لكنني كنت أعار عليها،
أخاف أن يمسخها ضرر. أن تتصرف بشكل غير لائق، وكانت تضحك من
وساوسي. تراني محافظاً. لا أرضي إن هي تزيت، وعندما في المدينة،
استخدمت أحمر الشفاه لأول مرة ثار بيني وبينها عراك شديد. ضربتها،
ضربتني بدورها، وبعد ذلك بكيت، قالت لي: «أفهم سبب تصرفك
هذا. أنت تخاف كلام الناس...» أنكرت، لكنني كنت أخافه جداً،
وكانت حياة العائلة، في تشردّها الطويل، وما جرى لنا، مصدر هذا
الخوف، وهذا ما فهمته، لكنها لم تقل ذلك، وأصرّت على أن تكون
كالفنيات الأخريات، وكان ذلك من حقها، ولكنني كنت أريد حرمانها
منه، وكانت هي، في الدفاع عن هذا الحق، صلبة لا تباي باعتراضي.

ولم أقل لها إن موقفها من رقيقة كان جائراً. لم أشأ أن أتكلّم على رقيقة
بأكثر مما فعلت. غير أنني لم أخرج من الحديث مرتاحاً. إضافة إلى ذلك كان
وصفها بالجرادة مهيناً، ربما كان جرادة في قوامها، في هزال بنيتها، لكن من
يملك الحق أن يعيها بذلك؟ حتى أخي لا تملكه. لقد أحببت رقيقة. ولا
أريد سماع كلمة واحدة تنتقص منها، ولهذا كان التشنيع عليها موجعاً لي،
وقد انعكس ذلك في ملاعبي، وأدركت الأخت أنها أساءت إليّ بمزحتها،
وحاولت أن تصلح ما أفسدت، لكن اعتكاري لم يبيد، وبقيت العشيّة
كلّها بعيداً عنها، منفرداً، نافراً، كأن شيئاً انهدم في ذاتي، كأن لعبة جميلة
تخطمت بين يديّ.

اعتذرت عن العشاء، زعمت أن لا شهية لي. سترت جرحي بردائي،
حرصت البورة دون أن أتبادل الحديث مع أحد. خلوت بنفسني رغم وجود

الأخرين إلى جانبي . كنت غير واثق إلى حدّ اللعنة . كلمة من اخوتي بددت الكثير من خطوط الصورة التي أحملها عن رثيفة . مزقتها بأظافر حادة ، قلبتها قلباً ، رسمتها رسماً كاريكاتورياً ، وهذا الرسم ، الذي كان غير صحيح ، لم يقابل مني بالرفض ، لم أنبذه وأنسه ، ولم أبتمس لمجافاته الواقع ، بل حزت ، وكان حزني شديداً ، كان نابعاً عن مشاعر هزيلة ، عنكبوتية ، تكفي اللمسة لتحيلها هباء .

تقدّم الليل ونام الجميع ، بقيت وحدي ساهراً ، كان الطفل في نأماً على حساب الفتى . لم أعرف أن أنصرف كرجل ، أزعجتني هذه الفسولة بأكثر مما أزعجني الوصف . في حال كهذه أنقلب إلى الداخل . يدخل بعضي في بعضي ، أنكمش ، أنتف ، لا يعود لي الزهو الذي كان . أمارس نوعاً من تعذيب الذات ، تنهار أشيائي وأغدو أمام لوحة سوداء . أستشعر الحاجة للتعويض ، لا ألوم الآخر بل نفسي . تتضاءل هذه النفس ، وتبعاً لها تتضاءل شخصيتي ، تنفتت ، احتاج لوقت طويل كي أرتعها ، باذلاً جهداً كبيراً في محاولة مستميتة لدرء آثار خيبة الأمل التي تملكني .

كان الليل الصيفي بهياً كعادته ، كان من حولي مثله كل ليلة . لكنّه ، الليلة ، لم يكن كعهده في نفسي . الاحساس المرضي جعل الأشياء مريضة . السماء الزرقاء ، النقيّة ، بدت كثيفة ، الفضاء ضاق ، الريح فسدت ، الأفق انسَد ، ومرارة شاعت في فمي ، كأنني فقدت عزيزاً ، كأنّ العاطفة التي كنت أقابل بها رثيفة قد ضاعت ، ضاعت ولن تستعاد ، ولن يكون لها ذلك الأثر ، ولن أستطيع ، بعد اليوم ، أن أفتن بها ، وأن تلك الكلمة ، ستتصب جداراً ما بيننا ، وستظلّ تحفر في كبدي ما حيت .

لماذا تعتريني مشاعر كهذه أمام أيّ نقد يوجه إليّ ، أو يوجّه إلى أيّ شيء أعزّه في الوجود؟ تراني أصدق ما أسمع؟ أفتنع به؟ أتاثر إلى درجة الإحباط؟ وجودي إذن رهن بغيري ، كلمة تشعلني وأخرى تطفئني . ألهب حماسة أمام الكلمة الطيبة ، وأبرد كالضفدع أمام الكلمة السيئة؟ أكون عديم القناعة بذاتي؟ ذوقي؟ رأيي؟ حقيقتي؟ أكون فاقد التوازن ، إلى درجة أن

عالمي بختل لمجرد أنه تلقى ضربة من أحد؟ أنكسر كزجاجة رقيقة من أول صدمة خارجية؟ أذوي كوردة لأن بدأ هصرتها بأكثر مما تختمل؟ وفي حال كهده، كيف سأجابه الحياة؟ من يسندني إذا كنت أحتاج إلى السند في كل أمر أواجهه؟

أسائل نفسي، الآن، كيف تغيرت، لا أزعج أنني تغيرت تماماً، فالرواسب لا تزول بسهولة. ما رلت، في مواجهة الحياة، أحتاج اليد التي تسدي، أنا مستطيع بعيري أقول، وفي شؤوني اليومية، أبحث عن يتعهدني، من يحل مشاكلي، من يقدم إلي الحساب ناجزاً، وأنا أقوم بدفعه. غير أن أشياء كثيرة تبدلت، والفضل فيها يعود إلى الأفكار التي أحملها، لأفكار التي أنفذتني جسدياً وروحياً، وشدت من عزيمتي، جعلتني أنق بنفسي، أشيائي، ودفعني إلى المواجهة دون أن أنكمش عند الصدمة، وأدوب عند الإحباط، غدت لا أكثر بالنقد بوجهي إلي.

كل ما صار لي في الحياة اكتسبه اكتساباً، كل ما حصلت عليه دفعت ثمنه من عرقي ودموعي، ويبقى فارق واحد، أحسب أنه مفيد، هو أنني لا أعاني في الأشياء التي اكتسبتها وحصلت عليها. ليس هذا من قبيل التواضع بل الإيمان، أو من أنني فعلت بعض الأشياء، حققت بعض المنجزات، في الحدود التي بلغتها طافتي. تعلمت عمري كله، أن أحب صبيعي بأقل مما أحب صنيع غيري، وإذا كان هذا قد جنبني الغرور، فإنه، من جهة أخرى، أفقدني بعض الزهو، ما دام الاعتداد، في العمل الإبداعي، يعطي الإنسان أن يكون هو، ألا تؤثر عليه كثيراً، تجريحات الآخرين.

تلك الليلة لم أعادر البوابة كنت منكسراً من الداخل. عبثاً أبحث في ذاتي عن مقومات أفضل للحوار مع غيري، لا قناعه بوجهه نظري، لحمله على حتمي، لربطه بي من حلال الإعجاب، دون أن أفطن، إلى أن إعجاب غيري، يحتاج إلى كيزة ما، علي أن أثنى، أثبتها، أجعلها نكاة في نظلمي إلى هذا الاحباب الذي لا يتوفر لمجرد أنني أريده، أشده، أسعي إليه، وشأن لأن لي صفات الفسان أو المااصل، الصفات التي لا تبلى إلا بفناء

العمر في طلابها، بينا أنا في مستقبل العمر، لم أكتب إلا مواضع إنشاء، هي سرّ بيتي وبين نفسي، ولم أناضل إلا بشئ بعض الآراء الصحيحة ولكن الفجة، وعليّ أن انتظر طويلاً حتى تنضج ثماري التي هي إسمار في لسع الغيب ما تزال.

لقد حرمتني الطبيعة من المؤهلات الفطرية لم أمتع جمالاً في الوجه، الصوت، اليد، ولم يكن أهلي على مسكة من عني، وليس لي من الدراسة إلا حظٌ ضئيل، وجسمي الناحل لا يكمل لي أن أعمل عملاً يحتاج إلى قوّة العضل، والموهبة التي هي ملعقة ذهب لم تكن في فمي، وهكذا الفتي أمي، منذ ولادتي، في بحر متلاطم، مكتوفاً، عاجزاً، ورعبت أن أسبح، وأن أجتاز الضفة إلى المدى الذي يتناول إليه طموحها، لكن هذه الحقائق المشطة كلها، كانت واضحة، بارزة، مكشوفة لي تماماً، وعليّ، في شوط السباق، الشوط الذي يفرسه وجدان حيّ، لفتى أعزل، أن أركض وأن ألق بمنساقين بيبي وبينهم، بحكم النشأة، الدراسة، العائلة، مسافات طويلة.

أفكاري هذه هاجمتني تلك الليلة التي سمحت أخني لنفسها أن نصارحنى فيها، كانت الفكرة ذنباً، نعوي، تكشر، تهاجم، وكانت أفكاري ذئاباً تهاش، تحيط بي من كل صوب، فاعرة الأشفاق، باررة النيوب، مسعورة النظرات، وبرغم مجهود مضى، متواصل، للفرار بأمل، اتخذته سلاحاً في المواجهة، فإن الأبواب كانت مغلقة، والأرض التي أحفر فيها كتيمة، لا ربي ولا ماء، ولم تكن لي قابلية لصنع أية كرامة ترضى حلقي الجاف، لشدة ما أعاني من تقاطعات الأسى الذي خيم عليّ، في وحشة ليلي الطويل ذاك. لقد هيّظني طفولتي الشقية، وكان مقدراً لي، في معاناتي الأليمة المتواصلة، أن أقضي، أن أضيع، لفرط ما كنت ناحلاً حساساً، لكن ذلك كله، لم يحل بيني وبين التثبيت بالحياة والكفاح لشقّ طريقتي الذي أدمى قدمي بأشواكه ولم يزل.

في العجر تدلّ حالي، ابتدد دماغِي، انراحت الصحرة عن صدري،

صار يوسعي أن ارتب أفكاره أرى إليها عن بعد، أراها دون تخطيط
 للكيل. أنقشها بحيدة. أصدر قبحاً غير جائز، غير منعسف، غير
 صادر عن دهر حرب، مُثقل باليأس. السماء، فوقه، انفتحت صارت
 النجوم المترافضة مريثة مي، وصارت أمي، أحلى، وأشدّ قرباً. السماء
 أشفقت، بدت رحيمة، في مغارها ضوء، في بستانها حضرة، في إطلالتها
 أنس، ولم نعد خيمة من شعر أسود. عادت زحاحية، حانية، وفي الرجاء
 المتصاعد إليها، أسفطت على ياقات زهر، ذات عطر ملون، زاو، فيه وحده
 وجدت العزاء والراحة.

وراح الليل، شيئاً فشيئاً، يتقلص. لم يتعد مهزوماً. كان هو نفسه
 يتراجع، محكوماً بولوج النهار فيه، والدينا، من حولي، في طراوة الصباح،
 تنضواً، والأشجار خلعت قمعاتها الضخمة، السوداء، وظهرت،
 بجذوعها، فروعها، أغصانها، كالأيدي المسحورة، المرفوعة إلى فوق، في
 انتهالات صامتة، والبقطة تدب، باعثة الانتعاش في الأرض، هذه التي
 كان يخيل إليّ أنها تنفس، وأن لنفسها همماً، شدي، لوناً فضياً، والريح
 الصباحية، المدفوعة بمراوح غير منظورة، تهب من كل الجهات، حاملة إليّ
 طمأنينة تنسب من فمي وأنفي وعيني، وتستقر بين ضلوعي، مرطبة تلك
 الحنايا التي كانت تحترق بوقدة هاجرة من الصحراء.

بعد ذلك أعلنت الجمال عن مقدمها برنين أجراسها. كان هذا الرنين،
 في تلك الأصباح، يأتي موسقاً، عبره في الأمسيات. كانت الرنة حماسة،
 ومن الرنات المتتابعة، المنغمة، تنطير الأسراب، نشطة مرحة، بهيجة،
 مزودة بمهرجان حافل، صاحب، لكائنات لا نعرف كيف تنبعث، لكنها،
 في لحظة، تتشكل وتنب، وتملأ الجوّ من حولي حياة حلوة، متحركة، متلونة،
 متكاثرة، متبدلة، تشدني إلى الاندغام فيها، ناسياً ما كان يعتلج في ذاتي
 من هموم. وكانت الطمأنينة تأتي هدية صباحية مفعمة بالسكينة، معلنة
 اختفاء الظلمة والأصباح والهواجس، ويأتي معها الشعور بالراحة،
 والرضى، وانتهاء نوبة الخراصة.

لقد أحببت تلك الحمال، لا بما هي حيوانات اليفة، وخلقوات لطيفة، بل بما هي بشيرٌ بعيدٌ حديد، وعلى رين أجراسها كنت أدخل خيمتها وأسلم لرفاد هي، عذب كالحوخة الساصجة كنت، عندئذ، أنلظ خوختي، أنلذ بمذاقها، وأهدأ، متمدداً على فراشي، في شوق للنحاس الذي لا يلبث أن يقبل، ويطن جفوني، ويسلمني إلى لذة النوم، كطفل أمضى ليلة في مداكرة صعبة للدرس من دروس الحياة المعقدة بمعانها. كنت أنام بعمق، وسعادة، واسترخاء طفل، وبرائه أيضاً، وآخر ما أسمع، من العالم المحيط بي، رين تلك الأحراس المعلقة، كفلاذات، في رقاب الحمال التي تتفرق، وتدور بالحيمة، وأسمع هسيس العشب وهي تقضمه بأسنانها، وتجمعه بشفاها المطوطة، وتخزبه لنحره وهي ذاهبة آية بين المعصرة والبورة.

أفتت في الضحى. كانت الشمس تغسل الحيمة بشلال أشعتها. الظل مال إلى جانبها، فتعرض الجانب الذي أنام فيه إلى وقعة وهج كواوية. مسحت العرق عن وجهي، تمطيت، ذكرت ليلة أمس، عبت بعد إشراقه، ثميت أن أبقى حيث أنا، في خلوتي التي توفر لي جواً من العزلة يتيح لي أن أستأنف التفكير بهدوء. غير أن الحر الشديد، وضرورة الخروج إلى العمل، وهيئة البورة الكثية بوجود المطعون، كل ذلك دفعني إلى النهوض، فالاغتسال، وتناول كسرة خبز مع حبات من الزيتون، هي، الآن، فطورنا وطعامنا اليومي.

كانت الشمس قد لفحت جرة الماء، وهذا عافته نفسي. وكان المطعون أمام خيمته، وراء طاولة خشبية متناثرة الألواح، عليها أوراق مثقلة بحجارة كي لا نذروها الريح، والمطعون جالس يراجع حسابات الأسس، وعلى رأسه تلك القبعة البيضاء، المتسخة، من الفلين، وهو، بشكله غير المتوازي، يصدم الرؤية، ويبعث في النفس إحساساً بالكراهة والغثاس. صرت أنفر منه نفوري كان ناماً لا صلح معه، وكان منطلقاً من شعوري بالقرق أن نجاور مخلوقاً مؤدياً. فقد تمادي في عدوانيته، تجاه الفلاحين،

ويلغني من أمي أنه منع عائلة الفلاح صخر من العمل في الكرم. كان ربها ما يزال سجيناً بسببه، والظاهر أنه لم يشفَ كما يجب، ولم يجعل حكمة اللؤم فيه نهذاً؛ فحاول التحرش بالزوجة، وزعم أنه قادر، لو طاوَعته، أن يفرج عن زوجها، ومناها بوعود كثيرة، ثم هذَّدها، ولاحقها بالأذى، فلما امتنعت عليه طردها من الكرم.

هذه الأخبار عن إساءاته المتكررة، المتواترة، كانت تدعوني إلى المساءلة عن صبر الفلاح، ومدى قدرته على الرضوخ، وتحمل الاهانات. وبعد طرد زوجة صخر، صرت على ما يشبه القناعة أن الفلاح في الريف مستلب، مستضعف، لا يرجى منه نفع. ذلك أن المطعون كان فرداً، صيحة، كلمة تأنيب، شتيمة، لكن أحداً، سوانا، لم يوجه إليه إهانة، لم يرد في وجهه، أو يوقفه عند حذِّه، ولهذا فإنه تسلط، حتى غدا في قسوته على البورة، يفوق قسوة الشوباصي في القرية.

من جهتنا كفَّ عن التدخل في أمورنا. ابتعد عنا بما يكفي لكي نعيش في جواره ولا نكلِّمه. الأخت كانت له بالمرصاد. وكان يخافها، الفلاحان على البورة نجباناً كي لا يثيرا غضبه. الأم وحدها بقيت تحييه، برغم كل ما بذله من جهد لإقناعنا أنه لم يتسبَّب في سجن الوالد، وأن وشايته كانت منصبة على الفلاحة بدور، لأنها سارقة. أنا كنت مكلفاً بنقل الزيتون الذي يجمعه إلى البورة، وكنت أستخدم، أول الأمر، الحمار الذي يملكه أحد الفلاحين، فأوعز له ألا يسمح لي باستخدام حماره، وعندئذ أصبحت مضطراً إلى نقل الزيتون على ظهري. كنت أحمله من أقصى الكرم، وأنوء تحت ثقله، ثم صارت الأخت تساعدني، لكنني رفضت أن توصل أية كمية إلى البورة. كانت تحمل الكيس إلى مقربة منها، وأقوم بإيصاله إلى القبان، دون أن أنفؤه بكلمة واحدة. غدا الصراع بيننا صامتاً. كان صممتنا هذا يقتله، وكنا نتمسك به في مظهر للتحدي السافر، وكان الجميع يلاحظون ذلك، وهذا ما يجعل هيئة المطعون مثقوبة، معرضة للهز، حتى بالنسبة لمصطو الجمال.

أخيراً ضاق ذرعاً بهذه المقاطعة . كنت قد افطرت وخرجت متوجهاً إلى
الكرم ، حيث أهلي ، وكان يراقبني ولا شك ، بدليل أنه رفع رأسه وأنا أمرُ
بطرف البورة ، وناداني :

— هيه ، أنت !

— ماذا تريد ؟

— إذا كنت لا تستطيع السهر ، فأجد من يحرس البورة بدلاً عنك - إننا
نعمل هنا ولا نهْرُج .

— ومن قال لك إنني لا أستطيع السهر ؟ ثم ماذا نعني بالنهريج ؟ هل ما
ننهض به من عمل مُضْنٍ يُعَدُّ تهريجاً ؟

— بلغني أنك تنام . . أريد ناطوراً لا ينام .

— هذا كذب . . ما بلغك كذب . . وتستطيع التأكد بنفسك .

— هل أنتم وحدكم الصادقون ؟ اليس هذا عجبياً ؟

— لا صادق بيننا بوجودك . . أنت ، بشخصك ، عجيبة الدهر في الصدق !

صاح

— أتسخر مني . . تعلمت لهجة أختك ؟ تكلمني بهذه اللهجة وانت أجبر
عندي ؟

— دع أختي جانباً . . قل ماذا تريد ؟ أرى في وجهك شراً . . تريد أن تدبر
لي مقلباً ؟ في نيتك أن تبعث بي إلى السجن أيضاً ؟ إنني ناطور ، جامع
زيتون ، سُمِّي ما شئت ، ولكنني لست أجبراً عند أحد .

— أولاً أنا لم أبعث بأحد إلى السجن . . وثانياً لا أريد بك شراً . قم
بواجب الحراسة كما ينبغي .

— الخلاصة . . ما هدف الاتهام هذا ؟

— لماذا لا نتكلم بهدوء ؟

- تَهْمَنِي وتريد لي هادنا؟
- أنا لا أتهمك، أنا، عدم المؤاخذه، أسألك
- وأنا جاوبتك
- ألا تعرفون أنني المسؤول هنا؟
- تعرف.
- ولماذا تتشوقون علي؟
- ماذا تريد...؟ نركع لك؟
- أستغفر الله، ما أنا، عدم المؤاخذه، إلا عبد حقير.
- قل هذا لغيري.
- وأنت؟
- أنا حارس على البوابة إلى أن يعود الوالد الذي سجنته.
- صاح وقد احتقت أوداجه
- قلت لكم مئة مرة إنني لم أُنسَب في سجنه، فلماذا لا تصدقون؟
- تصدق على طريقتنا.
- وطريقتكم أن تقاطعونني...
- لا شغل لنا معك
- وحين أكون الوكيل على البوابة؟
- تصرف كوكيل ودعنا وشأننا... ألق عن هذا الكلام المردد. اليس
- عندك غيره؟ وإذا لم يكن، فماذا تريد مني؟
- أريد أن تفاهم... نهي هذه القطيعة... تقول لاخيتك أن تطامن
- غيره... ها... أن تتحل عن شراستها.
- تفاهم على ماذا؟ وهذه القطيعة ما سببها؟ أنا غير مسؤول عن أختي،

- إنها راشدة وتعرف أن تتصرف .
- أختك لا تريد أن تتصرف بعقل . نظرتها إلي قاسية، تحمل تهديداً مبطناً، وقبلها والدك نظر إلي مثل هذه النظرة . توعدني، كأنه يريد أن يقول في المدينة نتحاسب .
- إذا كان بينكما حساب فلا بد أن يُصَفَّى . من عادة والدي أن يصفِّي حساباته مع الآخرين .
- أنت لا تهتدي بدورك . أليس كذلك؟
- أنا لا حساب لي معك . أما والدي فشأنه شأن آخر . أنت البادئ والبادئ أظلم . تحمل نتيجة ما جنته يدك .
- تظنُّ هذا؟ أنت تعرف والدك جيداً، تحسب أنه ينتقم؟ أنا، عدم المؤاخذه، لا أريد الدخول في ثارات مع ابن مدينتي . نحن، عدم المؤاخذه، لن نؤيد في البورة، وحين تلتقي في المدينة يحس أن نكون أصدقاء . لتذكر الخبز والملح .
- قل هذا لنفسك . تذكر ما كان بيننا . جئنا كأهل، ونحن، كما قلت عند وصولنا، أقرباء . أما تذكرت كل ذلك حين سعت إلى سجنه؟
- ناح بصوت أراده صاخباً فحال جبينه دون ذلك :
- أنتذكر كل شيء . . إنني لا أنسى شيئاً، أنا، عدم المؤاخذه، رجل طيب . أقوم بواجب وكالتي . دعوني وهؤلاء الفلاحين . عشر سنوات وأنا وكيل، وقبل ذلك كنت في سلك الدرك، أنهم لغة هؤلاء الناس .
- وما هي هذه اللغة؟
- العصا .
- ألا تخشى أن ينتقموا منك؟ الظلم يولد الرغبة بالانتقام . إذا جرت على الجبان صيرته شجاعاً، وهؤلاء الفلاحون ليسوا جبناء .

— دعني منهم، دعني منهم . أنا، عدم المؤاخذه، أعرف كيف أؤدّبهم .
أفعل ذلك ولا أبالي . لا رأس بينهم يرتفع . ما أحسب حسابه هو
والدك . رماني بنظرة تهديد وهو يذهب مع الدرك .

— إن يكن قد هدّدك فسينفّذ تهديده . بيت «ف» لا يستطيعون حمايتك .
والذي لا يعرف ما هو الخوف، كان بخاراً .

— من أجل ذلك أريد التحدّث مع والدتك، مع أختك، معك .
الأفضل أن ينبّي هذه المقاطعة . أن نعود أهلاً كما كنّا . وأن يعرف
والدك أنّ ما جرى خطبته وصارت . وإذا كان الموسم، هذا العام، في
نهايته، فهناك مواسم أخرى، أنا، عدم المؤاخذه، لن أنخلّي عنكم .

— نحن الذين ستخلّي عنك . طلوّعنا إلى الزيتون لن يتكرّر . هذه
كانت سنة هجرة . وكان ينبغي أن تقدّر ظروفنا، أن نقف معنا موقفاً
طيّاً . وعلى كلٍ دع الأشياء للمستقبل .

— لنحاول أن نصفّي ما بيننا لأجل المستقبل . قل ذلك لأمك . قل لها
إنني نادم على ما فعلت . سأعوض عن تقصيري حيالكم . القبان
بيدي . والبورة تحت تصرفي .

نظرت في وجهه الطافح، وجبينه المحدّب، في جسمه مختلّ التوازن،
في عينيه العكرتين، اللتين تطلّ منها نظرات ثعلبية، في كرشه وساقيه
القصيرتين، ورغبت في تعذيبه . أنا لا أدري ما سوف يكون موقف والدي،
لكنّه أغلب الظنّ، لن ينسئ ما فعله به . إن دعوته التي تحمل المساومة لن
تفيده في شيء . ما معنى قوله إنّ «القبان في يدي؟» هل يحسب أننا نرضى
بزيادة بضعة كيلوات من الزيتون؟ قد تسامحه الأم، وقد أسامعه أنا، بل إنني
سامعته، أنا لا أستطيع أن أحمل حقداً، ولم يلحقني منه أذى، لكن موقف
والذي سيختلف . فهو الذي تعذّب تحت سياط الدرك، وهو الذي دخل
السجن .

غادرت المطعون دون استجابة لدعوته إلى التفاهم . أشحت بوجهي عنه

ومضيت، أسفاً أنني أضعت وقتي في سماع ثرثرته عن الطيبة والمصالحة . قلت في نفسي: «ليذهب إلى الجحيم» . والذي قد لا يكثرث به، إنه سيحقد، إذا حقد، على أسباده، لكنه، هو، غير جدير بالخصام، إنه عبد مثل والد رثيفة، مثل كل هؤلاء المرتزقة الذين يجرفون البحور، دون جزاء أو فائدة»

مضيت عبر الكرم إلى كتف الوادي . أعرف أن رثيفة تنتظري هناك . تجمع الزيتون في هذه البقعة، وسأنبئها بعض الزيتونات وتحدث . أختي، أمس، شوّهت صورتها في نظري . والدها، في كليته، في عبوديته، أقام حاجزاً بيننا، لكن وضعي، في هذا الفقر، وهذا البساط القصير، وهذه الحياة الملعونة، هي الحاجز الأكبر . لم يسبق لي أن أحببت، لكنني انتهيت، ليلة أمس، إلى أن الحب لم يخلق لامثالي . قد يكون هذا حكماً مخادعاً، تنقصه الموضوعية، يخلط بين العاطفة والواقع، لكنني، أنا، لا أستطيع، في مثل حالي، أن أتقبل عاطفة هي بمثابة الصدقة . رثيفة تحتاج إلى رجل، إلى زوج، إلى حياة عائلية، ومن الخير لي، ولها أيضاً، أن يبتعد أحداً عن الآخر، أن ينسى، وأن يفكر باللحمة وحدها .

حين رأني قادماً ابتسمت . توقفت عن العمل وابتسمت . كانت طفلة حقيقية، برغم نضج أنوثتها، وكان يمكن، لو كان آخر في مكاني، أن يتنقل بعلاقته معها خطوة إلى أمام . أن يقيم علاقة على أساس غريزي بحث أن يختلي بها، يقبلها، يضمها، يلهو بها، لكنني، أنا، لن أقدم على ذلك أبداً . محال أن ألتخذ منها أھية . لست راهباً، وأحرق شوقاً إليها، وفي الليالي، سواء على البورة، أو في الفراش، تناجني أحلام حمقاء، جسمها ميدانها، لكنني، في النهار، أزجر نفسي، أردعها أن نسيء إلى البراءة ولربلمسة أنكرها في مثل وضعي، لأنني، بمثابة لا أقوى على التخلص منها، أنكر الحب الذي ليس له سند سوى عاطفة مراهقة .

صاحت وقد اقتربت منها:

- جئت أخيراً؟ حببتك لن تأتي . . لم تكن، مساء أمس، مسروراً بالحديث مع والدي .
- كيف عرفت؟
- كنت أراقبك . .
- ليس كما تقولين تماماً . . كل ما في الأمر أن عقليّتي تختلف . . نحن جيل جديد . .
- والدي لا يستطيع أن يسمع حديثاً ضد الأسياد .
- والدك، كيف أقول؟ لا بأس . . والدك لا يعجبني، وهذا كل ما في الأمر . .
- زعلت منه؟
- وبعد وقفة:
- وهل تزعل مني أيضاً؟
- لن أزعل منه ولا منك . . أفهم وضعه وأعذره . . هذه هي نتيجة الجهل . لو ذهب إلى المدرسة .
- قاطعتني:
- أليس هذا من الوفاء؟
- الوفاء لمن؟
- لمن نعمل عندهم، للذين هم أولياء نعمتنا . .
- الوفاء جزاء الاحسان . . بماذا أحسن إلينا هؤلاء الأسياد؟
- ألا نأكل من خبزهم؟
- وتعبنا؟ هذا الشقاء الذي نلقاه هنا، ويلقاه مثلنا الذين يعملون في المعصرة، وفي الزراعة؟ تحسين أن الأجر الذي نتقاضاه هو كل حقنا؟ الأسياد يستثمروننا . .

- أنا لا أفهم، لا أريد أن أفهم . . نحن نعيش والسلام . .
- أنا لا أستطيع أن أعيش كيفما اتفق . . أريد حياة عادلة .
- إذن لن نتفق مع والدي .
- لن نتفق أبداً، وليس ذلك لأنه راضٍ بعيشه، بل لأنه، وهذا ما أثارني، يعتبر كلب الخواجه خواجه . . يضع نفسه في هذا المقام الدليل .
- أنت لن تشتمه أمامي أليس كذلك؟
- لا . . الشتائم لا تفيد . .
- وستحبني؟
- لا أدري . أنت عزيزة عندي، غالبية علي . .
- ألسنت حبيبتك؟
- لا . . لست حبيبتني . . وهذا المصلحتك . .
- كيف . . لا تحبني ثم تقول هذا المصلحتني؟
- فقير مثلي لم يخلق للحب . .
- ألا يحب الفقراء؟
- بل! ولكن ما هي نتيجة حبهم؟ ماذا أستطيع أن أفعل وأنا أبحث عن كسرة الخبز؟
- أنت اليوم غيرك بالأمس . .
- ذلك أنني فكرت . . الليلة الماضية قضيتها ساهراً مفكراً إلى الفجر . .
- لهذا لم تأت ليلاً كعادتك؟
- نعم . . ولن آتي أبداً . .
- ما هذا الذي أسمع . . هل أسأت إليك بشيء؟
- أبداً . . أنا الذي أسأت إلى نفسي . . سمحت لها أن تنسى الواقع الذي نعيش فيه . .

- أنا لا أصدق أنك يمكن أن تنساني بهذه السرعة. . أن تفتح عيني وتدير ظهرك. . تجعلني أتعلق بك وتقاطعي.
- وإذا كان هذا ما يجب؟
- أنا أيضاً أعرف ما يجب. . لماذا تحتكر الفهم وحدك؟
- لا احتكر أيما شيء، ولكنني أحكم ضميري. . أنت فقيرة مثلي، بحاجة إلى رجل، إلى زوج، وأنا لست ذلك الرجل، ولن أكون لك زوجاً. .
الا ترين بأي حال أنا؟
- وإذا كنت أقبلك كما أنت. . وكنت أحبك؟ لقد أحبيتك منذ رأيتك. . شعرت حيالك بعاطفة قوية، غريبة.
- وأنا أحبتك. . أكون كاذباً لو أنكرت، ولكن لا بد من التضحية. . ستنتقضي أيام أخرى وينتهي موسم الزيتون. . في المدينة لن يرى أحدنا الآخر. . لا أعرف ما ستكون عليه حالي، قد لا أجد شغلاً، وقد تسوء حالي أكثر مما هي سيئة. . فماذا تصنع بحبنا عندئذ؟
- حين يحدث كل ذلك نفترق. .
- سيكون الفراق، بعد الاستمرار في الحب، صعباً. . علينا أن نفترق منذ الآن، هذا هو قراري .
- علم أهلك بما بيننا؟
- أختي لاحظت فقط. .
- وهي التي طلبت منك اتخاذ هذا الموقف؟
- أختي لا تتدخل في شؤني. . قد يكون لها رأي، لكن رأيها غير ملزم لي بشيء. . لم أعد طفلاً. .
- ولكنك لست رجلاً ناضجاً. . هذا هو السبب في أنك تفكر على هذا النحو. .
- حتى لو كنت رجلاً، وناضجاً، كنت سأأخذ هذا القرار. لا أريد أن أهو بك وأتركك. .

- وإذا أردت ذلك أنا؟
- تريد أن أهلك؟
- أريد أن تحبني، وأن تستمر في المجيء إلينا كي أراك..
- وما فائدة الرؤية؟
- وماذا يفعل الحبيبون سوى أن يرى أحدهما الآخر؟ ألا تشاق إلى إذا غبت عنك؟
- أشواق.. أريد أن أراك كل يوم، كل ساعة، ولكن ما هو مصير كل ذلك إذا كنا سنفترق بعد أيام؟
- وإذا رضيت أن تراني حتى نفترق؟
- لا أستطيع.. سأتعذب.. أنت لا تريدني أن أتعذب..
- وأنت، لماذا تريد تعذبي؟ أليس أنا في هذا الموقف؟
- ربما، إنني لا أقنع بأوساط الأمور.. أن أحبك يعني أن أحبك بجنون..
- أن تصبحي كلك لي..
- وأنا كلي لك.. افعل بي ما تشاء.. لكن لا تتركني..

فالتها بنبرة رجاء حار. هذه الخوخة السمراء، الناضجة، تريد أن تسقط بين يدي، بل إنها، الآن، بين يدي، لكن ماذا أفعل بها؟ وماذا أريد منها؟ ترى، لو كانت هي صاحبة فكرة المقاطعة، أما كان موقفها قابلاً لأن يكون كموقفها؟ قالت عني «أناني»، ومن يجزم أنني لست كذلك؟.. الأنانية، هذه القرحة، كم أتلهذ الآن بحكها على هذا النحو المغيب.. ترغب وأنا أرفض. تطلب أن أبقى إلى جانبها، وأهددها بالمقاطعة. ترى، أستطيع مقاطعتها فعلاً؟ هل الذي في مثل حالي لا يحب؟ وهل هذا هو السبب في أن أختي لا تحب؟ إذا كان ذلك كذلك، وهو كائن، فعلياً أن اقتدي بأختي، وأن أوفر على نفسي عذابها، وأوفر على رثيفة أن أخدعها بشكل لا يليق بغتي بحمل أفكاراً نبيلة، أو أنه يزعم ذلك.

وقفنا حائرين. بكت رثيفة. بكأوها ألني. تقدّمت منها. تطلّعت حولي.

لم يكن ثمة أحد، كان الكريم، في البقعة التي نحن فيها، خالياً. تناولت يدها. أعطيتي يدها بغير تمنع. شددتها إلى صدري، فاستجابت، لم تقاوم. كانت تنتظر ذلك. ربما كانت تنتظره منذ التقينا ضمنتها. قبلتها، كانت قبلي الأولى. آه. آية لذة غريبة في مذاق الفم. محملة الشفاء، والرضاء، ورائحة المسك، والشعور بأن دنيا جديدة، لذيدة، سعيدة، تفتح للإنسان، كل ذلك، أعطاني إحساساً رائعاً لم أعرفه قبل الآن. ملازمة اليد استارني، تصاعدت الاستشارة مع تلاصق الجسدين، تصاعدت أكثر مع تلامس الشفتين، تفتح الذكوري في الجسم، تفتحت الأنثى، صار، الآن ما بيننا، حباً من نوع آخر، عزيزاً، شهوانياً، ماذياً، لا يقيم وزناً لكل التحسبات عن الفقر، والبؤس والزواج، إنه اللحظة المجنونة، المسعورة، الملتهبة كنار تحرق التصورات عن كل ما عداها.

ارتددت عنها ونظرت في عينيها، يا إلهي! ماذا جرى لعينيها؟ من أين هذا الاحمرار وهذا اللمعان؟ لماذا تفرق ماء زجاجي فيها؟ من أشعل البؤيين فلفظاً كان فيهما جماً؟ آية خيالات من عالم الشوق، والرغبة، والداء الجسدي، تفتحت وأزهرت في بياض المقلتين؟ والرجفة في التقاطيع، والارتعاش، كما عند مس الكهرياء، ورائحة الأنوثة، وأشياء تحس ولا تقال، لا توصف، كأنما تبدل كل شيء في لحظة عاصفة، كما في الطبيعة حين يهب إعصار ويلف الكائنات بريح هوجاء، كاسحة، عظيمة، نائرة إلى أبعد حدود الثورة. عدت إلى ضمها، استجابت بغير كلام، هس خفيف فقط، تأوه كأن الروح تفارق البدن، اشتعال غدا معه الجسد حاراً كأن ماراً أضرمت فيه من الداخل. لم تكن لديّ مرآة. وما كنت أفكر فيها، ففي عيني رثيفة رأيت نفسي، وكنت على مثل حالها حرارة واستجابة الآن، في هذه اللحظة، تدفقت الموجه البكر وأفتت نفسها على الصخر. ارتطمت، علا الرذاذ الأزرق. هسهست حصى، أطارت الريح الرمل، جن الشاطئ، السماء شفت، ظهرت رؤى، حدثت معجزة، صار كل شيء واضحاً، ودوناً تجربة، كنت قادراً، وراغباً، أن أقبلها حتى الارتواء.

انفصل أحداً عن الآخر. ومن جديد سادى أحداً الآخر. يا لغربة التجربة! أهذا ما يحدث بين شابين؟ هل هذا ما يقال له حب؟ نحن كاسيان عاريان. في ضوء النهار، في البرية المسحورة، بين الأشجار التي رأت وشهدت، فوق أرض لم تعد أرضاً صارت عوسجة. تحت سماء فاغرة الغم، نعدق منبهة إلى لعبة معدية. آيتها السماء! يا منبسطاً أزرق، مذي يدبك وأرفعها إليك. اخطفينا في سحبك، انزعج أقدامنا من التربة، حدينا إليك، غيبنا في مغارتك السورانية، احجبنا عن الأنظار ببلورك الشفاف، دعنا نحن، في إغماة ندخلها مرة وإلى الأبد.

السماء لم تحب السماء لا تحب. ترصد، ترافب، تنصت. أما أنا فكنت أرتحف. أثقلت خائفاً، أراقب الجهات الأربع مدعوراً، عقلي يقول: كفى! جسدي يعصى عقلي، غريزتي المستيقظة لا تلوي على شيء مما يندربه صميري، المتعة وحدها سيده الموقف، المتعة في أقصى انفجارها، في مدى اندفاعها، في رغبتها البهيمية لأن تندرج كموجة تحمحم، في انقاذها نحو الشاطئ، حيث الارتطام والفناء، حيث التحول الذي يحدث إثر تلاقي غيمتين، منها يتفدح الشرر ويحدث البرق.

راد في تسعير الموقف أن رثيفة لا تقاوم. فقدت كل طاقة للمقاومة. صارت عجيبة مطروعة. لم تغل قبلي، لكن النداء إلى التقييل، كان يصرخ من مسامها. وكان عليّ، أنا المصاب بكلية اللذة، أن امتنع عن السفر المحموم في طلبها، أو أوقف اندفاعي نحوها، أن أقول لها، مع قبلة على الخد، يكفي الآن يا رثيفة، لقد ذهبنا بعيداً لكنني، بدلاً من ذلك، تابعت عناقني لها. جلسنا التوت رقبتهما. ما عادت فقرات متماسكة. انحلت الفقرات. بقي اللحم وحده يمسك العنق. قبلت العنق، قبلته، ويعد لأي استطاعت أن تقول:

— لماذا فعلت ذلك؟

— لا أدري.

— ألا تنظر أنه كان يجب ألا نفعل ما فعلنا؟

- ما فعلناه كان بريئاً، كانت قبلات بريئة
 - مع ذلك، ما كان يجب .
 - نعم يا رقيقة، ما كان يجب، لكنّ الشوق، الرغبة، اندفاع الشباب،
 كانت أقوى منا لا تندمي .
 - أنا لا أندم . . لست نادمة . . ولكن ما يعزني أنك قبلتني وأنت تنذرنني
 بالهجران

وبعد لحظة صمت سألت
 - هل سنهجرني فعلاً؟
 - أيرضيك أن يتكرّر ما فعلنا . . وأنت تعلمين أنه لن يكون لعلاقتنا أيما
 مستقبل؟

- وأنت، أيرضيك، بعد العناق الذي جرى اليوم، أن تتركني؟
 - وماذا أفعل؟ أنظري! طريقنا مسدود لا إمكانية لديّ، ما أنا إلا فتى
 مراهق، اندفعت مع عاطفتي

- أنت إذن لا تحبني؟
 - أنا أحبّك. قلت لك ذلك كثيراً، ولكن ما جدوى الحب، إذا كان كلانا
 محكوماً بوضعه؟

- وضعي طبيعي أنا أحبّك وأريدك . . ما انتظرك ما شئت من
 السنوات

- لا تنتظري يا رقيقة . . مستقبلي غير مضمون . . أنت بحاجة إلى زوج . .
 - ولماذا أحببتني؟ إذا كنت لا تريدني فلماذا أعريتني بحبك؟ هل كنت
 استحقّ هذه المعاملة منك؟

الفيت في لهجتها ليرة مطالبة صار لها عليّ حق. أحببتها، فهي إذن
 تطالب بديمومة الحب حين كانت العلاقة، في حدود الكلام، ما كانت
 تربّي عليّ واجبا. ربما، هي نفسها، في ذلك الكلام المتبادل، لم تجد ما
 تربّيه الآن اختلف الوضع. أصبح من حقها، بعد أن تجاوزنا الكلمات

إلى القبل، أن تطالب بالاستمرار. لقد ذابت حلالة القبل، وظني أنها تتمسك بها، وترغب في معاودتها. كل شيء واضح إذن. ما يحدث بين كل حبيبين، يحدث بيننا، لكنني، أنا، لا أريد. أشعر بالتبعة، أحمد الله أن علاقتنا في المرحلة الوردية بعد، غير أنني، بعدها، لا أريد التقدم خطوة واحدة.

أعلنت أنني منصرف. كان انصرافي كبيراً قياساً إلى صغري. إنني لن أنسى حبها، سخاءها، منحتها، التي تشبه منحة أميرة مترفة، ومن المؤكد أنني، مثلها، أريد أن تدوم هذه العلاقة، بيد أن وضعي لا يسمح بالاستمرار. القطيعة تكون الآن أو لا تكون. هي متيمة وأنا متيّم، وحبل السرة الذي يربط بيننا سيلتفت أكثر فأكثر إن نحن تمادينا. ليست فكرة الزواج هي الرابط، ستطيع أن تضعها في خلفية الأشياء، ما هو مطلب أن يبقى الودّ، وفي هذا الإطار تقوم علاقات كثيرة، طبيعية، لا يعترضها إثم، ولا خوف، لولا أن مثاليّتي، في عدم خدع الآخرين، وعدم اللّهُو بهم، تتقاضاني احتراماً أوفر لذاتي. لا أحد يعرف بقصتنا حتى الآن، وأختي تحسب أن الرابط لا ينحطّ الألفاظ، وفي هذه البرية، ظلّ لقاؤنا مستوراً، لكن النار الصغيرة التي توقدها سيتصاعد منها دخان، وقطعة النّد ستكون لها رائحة.

قلت لرقيقة وقد صحّ عزمي على الفراق:

- هذه آخر مرة نلتقي فيها
- لماذا؟ ألم أكن طيبة معك؟
- كنت طيبة جداً، وهذا بالذات ما يدفعني إلى ردّ كلام السوء عنك
- ومن سيتقول علينا؟ نحن هنا في عزلة عن الناس.
- لكننا لسنا في عزلة عن ضميرنا.
- أنا ضميري مرتاح. لم أقترف إنهما معك
- هذا صحيح، ولكن لنحكّم عقلنا
- عقلنا؟ نحكم عقلنا. . . الست واثقاً من نفسك؟

- يا ربنا - ولكن لا نستطيع ان ندرك مسودته
 - اني به اني اني بها الله
 - نحن نعلم ان الله
 - ليس بعد - يا ربنا اننا نعلم اننا نعلم اننا
 - نرى الامر اننا نعلم اننا
 - نعلم اننا نعلم اننا نعلم اننا
 - يا ربنا اننا نعلم اننا
 - اننا نعلم اننا نعلم اننا
 - يا ربنا اننا نعلم اننا

- يا ربنا اننا نعلم اننا
 - اننا نعلم اننا نعلم اننا
 - اننا نعلم اننا نعلم اننا
 - اننا نعلم اننا نعلم اننا
 - اننا نعلم اننا نعلم اننا
 - اننا نعلم اننا نعلم اننا
 - اننا نعلم اننا نعلم اننا

- يا ربنا اننا نعلم اننا
 - اننا نعلم اننا نعلم اننا
 - اننا نعلم اننا نعلم اننا
 - اننا نعلم اننا نعلم اننا
 - اننا نعلم اننا نعلم اننا
 - اننا نعلم اننا نعلم اننا
 - اننا نعلم اننا نعلم اننا

- يا ربنا اننا نعلم اننا
 - اننا نعلم اننا نعلم اننا
 - اننا نعلم اننا نعلم اننا
 - اننا نعلم اننا نعلم اننا
 - اننا نعلم اننا نعلم اننا
 - اننا نعلم اننا نعلم اننا
 - اننا نعلم اننا نعلم اننا

وحداي، عن كثرة حاسلي، ورحمتي، في لغة مشوهة، أحرج نفسي،
أهتها، أكل ما الشاتم، حتى أعتد من شعري صاغة، من ليكت
صمغ في لحرمة حت لم يسق في الد منات يا

سرت عن غير هدي بين البحار البرتوي، كنت قد حأ وأرجأ في قد
كنت معبداً سلبتي التي أراحتي لم تكن هذه هي الداء الأولى التي أراحت
ها في السلب، كان أليس، لأحدني لم أراحتي، ملائمة، وقد خات إليه،
ووجدت الأمان، كصر هذا من الشقوق

وداعاً بعد يا حتمي الأول، وداعاً يا بلغة العاطفة، وداعاً يا بلغة التي
أحسها بكل ما في روحي من طاقة عن الحث

لم أكون أن ألبس، كان التحول، من هدف، فصل من التوجه إلى
أعني ومواجهتها بطرات أمني، كانت أريج ساق، أحباب تتر من حولي،
وعداء شفع شفع من حسدي، وألمت حاجة إلى السيل في الترم،
والطفت ولدت

الذهاب بعيداً يحتاج إلى المسافة نفسها في الرجوع. لذلك لم أشأ أن تكون مسافة الذهاب بعيدة، كيلا أحتاج إلى مثلها في الإياب. ورغم أن حبي لم يكن إلاً وليدًا، فقد تحدر في ذاتي، وحيث أن أمضي فيه. فبصبح الكوثر صعباً يمثل ما هو التحدر أردت، طوال حياتي، أن أكون منطقيًا مع نفسي، وألا أحوها فقط. ولقد كلمني فراق رقيقة الماء مهبطًا، وعتًا، وصراعًا داخليًا، إلا أن كل ذلك تغلبته في سبيل ألا أكون سذلاً، أحائف منطقي، وأحور الثقة الموضوعية في، ومع أنه ليس لائقًا، بإسناد دي حرس سليم، أن يشرع في أمر ويرتد عنه، فإن محاكمة وجدانية صعبة تعرضت لها، وكان دداعي أن الحب، حين يأتي، يكون قتلًا، وحين يعب، ويعرف أنه عث، يصبح الصل صده هذا الحب، قضية شرف، من لا يريد أن يجدع الآخر

هذا كان عزائي في العراق الذي فرصته على نفسي. وربما كان عراء كادماً، لكنني تمسكت به، ورفعت الشات عليه إلى مرتبة الكرامة كنت إذ ذاك، أبحث، في أيما تصرف، عن الصوابية التي تريح الضمير. وهذه المثالية التي نرعب النقاء، مردّها إلى تربية أخلاقية صارمة كانت دائماً تعصمي من الإمعان في الخطأ، مع اعترافي أن الحب، في أي نوع منه، ليس خطأ، ولكن نجيب الآخرين مغنة التورط في شأن، نتيجته الندم، كان وما يزال، شعاراً أخلاقياً بالنسبة إليّ.

لم أقل لأحد إنني أحبت ولم أفسر بكلمة عن قطع حل هذا الحث
 شؤن فني كانت دائماً سرّاً شخصياً أحافظ عليه حماسي على شيء
 مقدس رفعت، بإصرار، أن أقول ما بي، حين لاحظت أنني أعاني
 أزمة مشاعر حث أكبي، طال مهدي، فلت سيطرتي على نفسي، بان
 الشروء على، عجزت عن التركيز، وكادت نوبة نفسية تؤذي بي إلى
 الأبد، لولا أنني بذلت الكثير من الجهد للحفاظ على رباطة الجأش

أصبحت ما في الأمر أن رغبة لم تساعدني فيما أحدثت نفسي به من قطعية
 لم تؤمن بذلك، ولم تعد له مسوغاً. عرت الأمر كله إلى الخداع، وردته إلى
 الرغبة في التملص، حاولت كسر قراري في إنهاء ما بيضاء، لكنها اصطدمت
 بعادي الذي أنكرته، حتى بلغ من عنها أنها رميت بالحسنة فعملت كل
 ذلك بصر سألت الله أن يأخذ بيدي فلا أعود عما اعتزمت، استقرت كل
 ما في كيلا أعود عن قراري، لكن رؤية رغبة، وذلك الاضطراب الوجداني
 في سراري النفسية، وذكرى ما جرى بيضاء، في صورته الأشد إثارة للرغبة في
 الاستشفاء، حرمني الهدوء حتى نهاية الموسم، حين جاء الفرق واقعاً لا
 حيلة فيه

سقطت رغبة ضريحة الفراش، جهل والدها ما بها، وكانت، في مرضها،
 بحاجة إليّ، وراد في عذاب أنها لا تستطيع أن تكتب، ولا تعد من يحمل إليّ
 رسائلها لو كتبت، فما كان منها إلا الهزء، متحاملة على نفسها، في
 محاولات متكررة للفتني. أثناء مروري على مقبرة من القبة التي يقيمون
 فيها

وكت خلال اللقاء لطيفاً، شفيفاً، معذباً بما لا يقل عن عذابها، عبر أن
 التشتت مخوفي يمي كل إمكانية للعودة إلى ما كنا فيه لم تنفعها دموعها
 وفي ذاتي، بكيت مثلها، ولم تنفعني دموعي أبصاً، وأدركت، لأول مرة في
 حياتي، قوة الحث وجبروته، وصعوبة أن تحاله القدر، في نية للارتفاع على
 الشدة بالانسجام، ولم أهن، مرمعاً أبداً أن أكون ما أريد أن أكونه، الفنى
 الذي يريد أن يأخذ الألم كله لحسابه، لقاعته أن هذا ما يجب، بغية إنهاء

وضع شاذ، هو الاسترسال في عاطفة لن تروق ولن تثمر. كنت أقول في نفسي: «أن تمرص رقيقة قليلاً، خير من أن تمرص طويلاً، أن تعاني في سبيل الشفاء، أفضل من أن تعاني والعلّة تنشب أنيابها فيها، العلّة التي ستكون رهبة قاسية إذا خدعتها واستفاقت يوماً على الخدعة لكنها، هي، ما كانت من رأيي. فكرة الحبّ الذي ينتهي بزواج لم تكن فكرتها، أو أنها أقلعت عنها منذ شرحت لها وضعي، لكنها كانت رابعة في الاستمرار في علاقة الحب، وتؤثر الهمم على الواقع، واندفاعتها القلبية، وهي في أوج تفتحها، كانت ناراً تحرقها، وتريد إطفاءها بأيّ ثمن. كانت تعتقد أنه لا شفاء لها من حُبّها. وتعتبرني قاتلها. ومن أجل ذلك جرّبت أن تحقد عليّ، لكن حقدّها كان يتلاشى ما إن تراني، وينقلب كل شيء، إلى اشتهاى جامع في لقاء مهما كان مؤقتاً، وخادعاً، فهو وحده القادر على ردّها إلى العافية. كانت، من هذه الناحية، أكثر صدقاً مع نفسها، أشدّ إخلاصاً لطبيعتها، في حين كنت أصطنع الأشياء عن طريق الزجر، وأكبت ما في نفسي كبت من يريد تطويع عاطفته لمقتضى العقل لا القلب.

— أنت، قالت لي في آخر لقاء بيننا، لا قلب لك.

— وما هو دليلك؟

— هذا الجحود الذي ما كنت أتصوّره قبك. لقد خدعتني بكل كلمة قلتها

عن الحبّ.

— ساعحك الله.

— أهذا جوابك كلّهُ؟

— وماذا تريدني أن أقول؟ أنا عاقٍ في الحقيقة، وعقوقي ناتج عن صحوة

صميري.

— أنت لا صمير لك.

— لا بأس. اشتدني ما دام هذا يريحك قليلاً.

— أنت كاذب في ادّعائك الشفقة عليّ. دع هذه الشفقة التي لا أحتاجها.

— لا ادّعي شفقة على أحد. ربما كنت أشفق على نفسي.

- لا تشفق حتى على نفسك ، أنت غرود .
- أهذا جزاء حرصي عليك؟
- حرصك عليّ بمّ؟
- من حيّ الذي لا مستقبل له .
- وهل كنت تلهو؟
- ما دمت لا أستطيع أن أكون رجلك ، إذ ليس ثمة أمل في الزواج ، فإن علاقتنا تصبح ضرباً من اللهو .
- كان يجب أن تفكر بهذا قبل أن تبدأ . .
- أن نرجع ونحن في أوّل الطريق أفضل من أن نصبح في منتصفه أو نهايته .
- أنا لم أطلبك بالزواج يوماً .
- وماذا تريدن إذن؟
- أنت تكون غير ما أنت عليه ، أن يكون لك قلب . .
- لو تعلمين يا رقيقة كم أتعب! .
- أنت لا تعرف العذاب . . إنني أكرهك . .
- لكنك ستذكريني بالخير في المستقبل .
- سأعنيك كلّ حياتي . .
- وهل أستحق اللعنة لأنني كنت مستقيماً؟
- لا نتحدّث عن الاستقامة أو الشرف . أنت لا تعرفهما ، ولو كنت أعرف طريقة لقتلك لقتلتك . .
- أنت ناثرة ، وثورتك سببها المرض . . سيزول هذا كلّ عندما تشقين .
- ليتني لا أشفى . .
- لم كلّ هذا؟ ماذا جنيت؟
- أطمعتني بحبك ثمّ انسحبت .
- عل كلّ ، أنا لم أقطع التزاماً عل نفسي . أنت التي بدأت .
- وماذا يعني أنّي بدأت؟ . المهّم من يبدأ؟ لماذا استجبت أنت؟

- أخطأت .
- أهذا كل ما عندك لتقوله؟
- هذا كل ما لدي في الوقت الحاضر .
- وتتكلم بكل هذه البرودة . أمام اضطرابي تبدو هادئاً كأن شيئاً لم يكن .
- يا رثيمة . يا عزيزتي . قلت لك إن استمرأرتا سيكون وبالاً عليك .
- لماذا لا تفكرين بعقلك؟ ماذا أستطيع وأنا لا أملك شيئاً، لا أملك حتى سوطاً طويلاً، ماذا أستطيع من أجلك؟
- أنا راضية بك هكذا .
- أنا لا أرضى . . . إنني أموت خجلاً . . لا تكرميني على شيء يريد في عداي . .
- لو كنت قادراً على العذاب كنت تشعر عداي .
- كيف أشرح لك ما بي؟ كيف أقنعك أنني أنعذب أكثر منك، وأن هذا الفراق مؤلم جداً، ولكن بقدر ما هو مؤلم بقدر ما هو ضروري . فكري أنت .
- أنا فكرت . منذ عاشرتني آخر مرة وأنا أفكر . . لم أجد سبباً لهذا سوى مملكتك . أنت ملئتني بسرعة . . لو ابتعدت عني لتعلقت بي . لكنني أحسبك، أردت بك بكل قوتي، من كل نفسي، فكان جزائي منك هذا العفوق .
- لست إن هذا الحديث، لن نتوصل إلى شيء . أنا أحبك . أحبك أكثر مما تحبيني، لكن حين يدفعني إلى النصيحة، وأنا أصحى، وأترك للمستقبل أن نقدرني نصيحتي . . وداعاً
- قلت ذلك وسرت، تركتها مزروعة حيث هي ومضيت . لعنت نفسي أنني أحسب . كان يجب أن أفكر قبل أن أبدأ . كان يجب ألا اعتبر ذلك لعباً المرأة لا يلعب معها، ما أن تنطق بالحب حتى يترتب لها عندك حق . مستحيل أن تقنع رثيمة أن لا حق لها عدي . تعترني قاسياً ولو بلغت

البحر لن تصدق أنني فعلت ذلك لأجلها. ما تريده هو الاستمرار
مندفعة. مجنونة باندفاعها. مريضة ستبقى مريضة ما بقي لها أمل في
عودتي. حين تياس تشفى، لا بد أن تياس، علي أن أوصلها إلى اليأس،
وعندئذ ينتهي كل ما بيننا.

انضمت إلى عائلتي في جمع الزيتون. كنت كثيراً وحيداً هجرني اليوم
انقطعت شهيتي إلى الطعام، صارت حركاتي آلية. أحرس السودة أوبر
الزيتون أجمعه مع عائلتي أحمله إلى البورة، أكره أن أتكلم أفضل وقت
لدي هو الوقت الذي ينام فيه الجميع وأبقى ساهراً، وحيداً، أدور حول
البورة، بالقدر نفسه تدور الأفكار في رأسي، وحين أسترجع ما كان، ما
صار، اللقاءات، كلمات الحب، العناق، تنازعي نفسي إلى العودة، لكنني
أزجرها، أصلب عاطفتي على شجرة زيتون، أسوط إحساسي الساعب بإرادة
بليها العقل، تتفتح الرغبة أفواهاً في جسدي، وييدي أسد تلك الأفواه،
أجملها، أسكب بيتوتها فيها، أتحمل كل القهر، الألم، العذاب، كي أحرز
من مغبة التلهي مع فتاة بريئة، لن يريد لها الاستمرار إلا تعلقاً بي

ولكني أتخفف من وطأة أفكاري، جرت على جسدي في العمل
ضاعمت من جهدي كي أنعب وأنام، كي أنقطع عن بخران يتلفني كي
أوقف الاسترسال في هواجس أعرف ألا شاطئ لها لكن ذلك كله لم يجد
إلا بمقدار. ذلك أن الصراع بين إرادتي وعاطفتي كان سجالاتاً تنتصر
الإرادة حيناً، تنتصر العاطفة حيناً آخر تأتي لحظات صحو، إشراق،
شقاء من الأوجاع، نعيقها لحظات قلق، اكتئاب، نفث، وأعود، مثل
رفيق، مريضاً، راغباً في الفرار بعيداً حتى أنسى، حتى لا تسارعني نفسي
إليها وهي قريبة مني.

الحدث الذي شغلني، بعد أيام، هو خروج والدي من السجن في
الصبح عاد إليها كما ذهب، أطلقوا سراحه بعد أن عجزوا أن يشنوا عليه
شيئاً ليس ثمة تهمة لقد برأ نفسه وبرأ بذور معه، عذبه كي يقول إنها
سرق، وأنه حال، بحمايتها، بين الوكيل واكتشافه السرفة، فأصر على أن

ما قاله الوكيل باطل، وطلب شهادة الشوياسي، وكذلك شهادة الفلاحين. عندئذ أمر الرقيب أن يرفعوه فلقه، وضربه الدرك حتى دميت قدماء، لكنه أصر على أن بدور ليست سارقة، وأن التهمة ملفقة، وأنه لم يفعل سوى أن سحب بدور إلى بيتها، كي ينقذها من براثن الوكيل الذي دبر لها مقلباً، غايته واضحة.

وكانوا قد قادوه، بادئ الأمر إلى قرية «ح»، حيث قبضوا على بدور، ووضعوا القيد في يديها كما فعلوا به. بعد ذلك ساقوهما إلى سجن اللاذقية، كان عليهما، هما الرجلان، أن يسيرا شبه راكضين، أمام حصاني الدركيين الراكبين، فإذا تباطأ أحدهما، من تعب، من عطش، من جهد بلغ حدّ الأعياء، كان كرباج الدركيين ينال عليهما. ولقد تمزّق قميصه، وسال الدم من قدمي بدور الحافيتين، ولم يلتقطا أنفاسهما إلا في اللاذقية، حيث أودع هو سجن الرجال، وأودعت بدور سجن النساء، وكل ذلك دون مذكرة جلب، دون مذكرة توقيف، ولم يكن ثمة سوى هاتف من السيد، وكان هاتفه بمثابة أمر عرفي، تعطلت معه كل إجراءات العدالة.

لم يكن المحقق مقتنعاً بالتهمة، لكن الأوامر عطّلت القنوات، وكان بيت «ف» يُبلغون، يوماً فيوماً، نتيجة التحقيق، والإصرار على الإنكار، وعدم ثبوت التهمة، وظهور البراءة، لكنهم كانوا يطلبون استمرار السجن، والتحقيق، والتعذيب، أملاً في توقيع عقوبة شديدة، كردّ فعل على ما حسبوه تمرداً، أو عصياناً، أو ممانعة، وقع في كرومهم وبين فلاحهم... وقد لمس الوالد، أن الحقد على بدور، بما هي فلاحه، كان أشدّ من الحقد عليه. قال له المحقق، الذي كان صوّناً للأسياد، «أنت لست المستهدف». أنت ساطور ولست فلاحاً، أنت من المدينة، وبيت «ف» لا يخافون أن تشاغب عليهم، لكن بدور يجب أن تؤذّب كما أدّب صخر الفلاح، اللّص، من القرية نفسها». وقال الوالد، دون كبير اكتراث: «إن بدور غير مذنب، ولم يشت عليها شيء، ولا ضبطت حبة زيتون واحدة معها، وأنه سيقم دعوى، على بيت «ف» إذا لم يطلق سراحه وسراحها».

عشرة أيام كاملة بقيا في السجن، لو استطاعوا إثبات تهمة السرقة، أو الممانعة، كان السجن، لمدة عامين أو أكثر، بانتظارهما، ولو أن الوالد فلاح لاثبتوا التهمة عليه بأي شكل، فبعد تلفيقها كان التعذيب كفيلاً بفرضها، غير أن مقاومة الوالد، وتهديده، وكونه من المدينة، وله عائلة كبيرة فيها، كل ذلك أخذ في الحسبان، فتم الإفراج عنها، وذهب سجنهما وتعذيبهما هدرًا، دون قصاص من المتسببين بهما.

حين أطلق سراحهما، بفارق ساعة بين أحدهما والآخر، غادرا السجن معاً، بدور هي التي أطلق سراحها أولاً، فسألت عن الوالد، وقيل لها إنه سيخرج بعد قليل فانتظرته. كانت قدماء متورمتين، وثمة كدمات في وجهه وبعض أنحاء جسمه. فغرت بدور فاها دهشة عما ألم به. قال لها: «هذا لا شيء، المهم أنهم ما استطاعوا أن يأخذوا مني حقاً ولا باطلاً». قالت: «لكنهم عذبوك كثيراً» وماذا بهم؟ سيكون بيني وبين المطعون حساب، استدرك: «ولكن من هو المطعون؟ إنه كلب لحراسة كروم بيت «ف» لا أكثر. هم رأس البلية، وهم من أحقد عليهم، سألها: «وأنت؟» أجابت: «عذبوني قليلاً. صفعوني عدة مرات، وهذا كل شيء» قال الوالد. «لنذهب، الآن، إلى المدينة، فلم تمنع، سارت معه. صار منقذها الآن، لو أنه اعترف بالتهمة، لكانت الآن مرمية في السجن. هو غير متهم بالسرقة، تهمة الممانعة، هذه عقوبتها بسيطة، لكنه رفض النجاة بجلده، أصر على براءتها، وتحمل التعذيب، دفع ثمن الحرية له ولها، هكذا أصبح كبيراً في نظرها. أصبح رجلها، وأضحت تابعة له، معجبة به إلى حد أنها سارت معه غير مبالية، عارفة أنها منذ الآن، ستكون المرأة التي تقدم نفسها على طبق لمجرد أن يطلب أو يشير، لكنه لم يطلب شيئاً ولم يشر إلى شيء.

كان المفروض، وهو في الحال التي عليها، أن يستاجر عربية تقلهما إلى قرية «ح» حيث يمكن أن يغتسل، يداوي قدميه، ويستريح. وقد فكر بهذا، واعتمده أول الأمر، ثم سرعان ما عدل عنه، متذرعاً

بتأخر الوقت، وعدم قدرته على المثي، وخلّو جيبه من المال الذي يستأجر به
العربة

هكذا ، تلبية لخاطر عنّ له، قرّر البقاء في اللاذقية، ومعه بدّور. إنه لن
يقصرها على البقاء، باستطاعتها أن تعود لوحدها، لكنّه، في قرارة نفسه،
كان يعرف أنها ستبقى معه. لقد أدرك، منذ صارا خارج السجن، أنها لن
تقاوم له رغبة، ولن تصرّ على العودة إلى قرية «ح» بمفردها. وهو، بحكم
ضعفه أمام المرأة، وتغليب عاطفته على عقله، أو انهزامها أمام أيما إغراء،
وجد نفسه مهزوماً أيضاً. هكذا رضح دون مقاومة. قرّر دون إطالة
تفكير. إنه، أصلاً، لا يتعامل مع اثنين: الفكر والحذر، ولأنها تبدّت ليّنة،
مستسلمة، راغبة فيما يرغبه، فقد رجحت لديه فكرة البقاء، مع أنه، وهو
في السجن، لم يفكر بهذا مطلقاً. لقد ردّ ما حدث إلى المصادفة، وكان
يعتزم العودة إلى البورة ولو في الليل، لكنه، عندما أطلق سراحه عصرًا،
قرّر أن يبقى، وأن يستريح، فقاد بدّور إلى بيت أحد معارفه، ممن يتعاملون
مع الفلاحين، وذهب هو ليلاً إلى الحمام، وبعده اشترى مرهماً من
الصيدلية، كي يدهن رجليه المتورمتين. الصيدليّ هو الذي وصف له
المرهم، قال إن القدمين المتخشبتين من الحذاء والضرب، ستلينان قليلاً،
المرهم يطري الكدمات، وفعلاً شعر بالتحسن، وفشّ الورم قليلاً، وظلّت
الأصابع وحدها على شيء من ازرقاق.

لم يكن فرحاً أو حزيناً، لأنه لم يأت بما يستدعيهما. تدخّل ، في البورة،
لمصلحة بدّور، أوصلها إلى البيت في القرية. لم نقل له ادخل، ما كان
مستعجلاً، يعرف أنه سيدخل، وسيكون دخوله فتحاً، وبخلاف ما ظنّت
عائلته والآخرين، لم يكن في رأسه، وهو يدفع عن بدّور، أنه يدفع عن
قضية يؤمّس بها، وحتى وصال بدّور، في الشعور الظاهر، لم يكن وارداً. .
المطعون تصرّف بشكل يمانف طبيعة الأشياء، اعتدى، كان، في قرارته،
يريد بدّور لنفسه. هو، الوالد، فهم الموقف على هذا الوجه، أراد تخلصها
منه، ما كان يفكر بأنه يستخلصها لنفسه، لكنّ ذلك صار كذلك، تفاحة

ناضجة هَرَّتْ عن غصنها، يده كانت جاهزة لالتقاطها. التقطتها. قبض عليه من أجل ذلك، سيق إلى السجن، عُذِّب، سُجِن، ولم يكن كل ما جرى غريباً أو نظيفاً. لذلك لم يحزن أيضاً، ترك الأمور كعادته، تأخذ مجراها، وما هي تأخذ المجرى السليم. الريح الطيبة كانت دون أن يدري لماذا، إنها كائنة وكفى. ففي عينيه وميض، كما في عيني صلّ، ويدور ليست أكثر من عصفورة مبهورة تنتظر. كانت، مندبرز في البورة، تنتظر: القدر يؤاتي، هو لم يصنع أيما شيء لكي يؤاتي، لكنه، وات، والعصفورة، على غصنها، لم تعد قادرة على الحركة، على الطيران، إنها بين أشدق الصلّ، ولديه، حتى صباح غد، وقت طويل كي يتلعبها.

عندما عاد إلى بدور كان الليل يهبط كمظلة غشيّة على المدينة، الأنوار الضئيلة تشتعل في الحوانيت، بعض الباعة المتجولين يدفعون عرباتهم في طريق العودة إلى بيوتهم. الشوارع خفت الازدحام فيها، وقد تعمّد، وهو يسير أمامها، أن يوصلها إلى البيت من أطول طريق ممكن. جعل التوقيت أذان العشي، عندئذ يكون الزقاق قد أفر. يمضي بها إلى البيت، يُدخلها دون أن يشعل الضوء، ودون أن يراها أحد، هكذا كما رسم نفذ تماماً. كان الحوش فارغاً، كل عائلة في غرفتها. فتح باب غرفته ودخل، دخلت بدور وراءه، أجلسها وحذرهما من إشعال الضوء، وبعد ذلك ذهب لإحضار العشاء.

كان قد استدان بعض المال، ودخل إحدى الخمارات فشرّب كأساً على الواقف، ثم عاد إلى البيت، وأشعل الضوء، ومذّ السفرة، وبسط الطعام، داعياً بدور إلى العشاء، فاقتربت وهي حذيرة، وشيء من عبوس يعلو وجهها.

كانت، الآن، قلقّة على نحو ظاهر. كان الندم لأنها بقيت يفرسها، وليس منشأ هذا الندم خوفها بل استهتارها، فهي تدرك، الآن، أنها تسرّعت، وكان عليها أن تعود إلى القرية بمفردها، ولو وصلت ليلاً، لكن ما صار قد صار، ولن تسلم قيادها بالسهولة التي يتصورها، أو التي

كانت، هي نفسها، ترى الأشياء من خلالها.

كذلك قرّرت أن تعتبر ليلتها هذه ليلة سجن. صحيح أنها مع رجل في غرفة واحدة، لكنها واثقة من نفسها، وواثقة أنه لن يصير أي شيء ضد ارادتها، أو ضد رغبتها.

على خلافها كان الرجل، لم يكن الندم، على بقائه في المدينة، يلامس مشاعره. لقد اعتاد أن ينام بعيداً عن بيته، وعن أهله، وأن يسكر، ويبيت في القرى، في بر أرسوز، وكان الفلاحون يكرمونه، وهو يرتاح إلى عشرتهم، ويحمل لهم عاطفة صادقة من الودّ، لكنه، الليلة، وامرأة معه، فقد كان غيره في الليالي الماضية. كان، في قراره نفسه، يرى الأمور طبيعية، ومع ذلك فكّر، وظلّ يفكر وهو يرسل إليها، في جلستها المتكرّرة أمامه.

إنه رجل، وماذا يفعل الرجل حين تكون المرأة في متناوله؟ آية عاصفة من رغبة تنتابه، حين تكون هذه المرأة له اللّيل بطوله؟ كيف ينظر إليها، وهي تنظّى، عينا وشفة؟ لقد كانت ممنوعة عليه. قبل أن يعرفها، كانت أمّية، لكنها، في المنع الدائم، حين لا تكون زوجته، ولا تصير، تظلّ أمّية، تبقى مائدة حراماً، ولأنها كذلك، يظلّ الشوق إليها مشتعلًا، لإدراك الرجل أن هذه التي تطارحه اهوى، هي اليوم له وغداً لزوجها، هي الآن ملكه، وفي أن آخر ملك سواه، أو ملك نفسها. ومن المستحيل، ما دامت كذلك، أن تجلب له الطمأنينة، وحين لا تكون هذه يكون القلق، وكل الحبّ، كلّ لذّته، كلّ أواره، مع القلق الذي إن أخذ صارت المرأة روجة، أو في حكمها.

والذي لم يفلسف الأشياء على هذا النحو، لكنه كان يحسّها على هذا النحو تماماً. إنه يضيّع، والمرأة قبالة تضيّع، والريح تخفق، والأرض حمى، والغرفة جمر، والجدران آذان، والحجارة عيون، وكل الأثاث الذي يشهد، ويرى، يشارك في وليمة الحبّ المنتظرة. ومن أجل ذلك يتبدّى في نعاد صبر بالغ، يعيش جوارح تنتزى إلى تلك اللحظة المسكرة، لحظة

تعطي المرأة نفسها، تتزع، من تحت أظافرهما، من الدم المتدفق في عروقها، روحها التي ستخطف، والتي تمنحها بسخاء، لأنها منذورة للهنية التي تكون بين الموت والحياة.

لجم انفعاله، بسط الطعام على مائدة خشبية واطشة، كما في القرى. تناولوا الطعام، حدثها عن أيامه في السجن، حدثته عن أيامها فيه، قالت إنها مرت بتجربة رهيبة، نتيجة لما يجري بين النساء السجينات. ما كان يجب الكلام على الأشياء، لذلك أسكتها، ولما أمعت زجرها، قال لها: «فهمت، يكفي، اللعنة على السجن» وسألته عما يجري في سجون الرجال، فرغب عن الكلام، اختصره بجملة واحدة: «الشذوذ هنا مثلما هو هناك» وقال أيضاً: «لا أتمنى لأيما فتى أو فتاة دخول السجن، إنه رهيب، إنه بؤرة للأجرام والفساد».

ساد الصمت، الآن، بينهما، تذكر كل منهما المحنة التي مرّ فيها: القبض عليه، سوقه إلى السجن، ركضه أمام الدركيين الخياليين أو خلفهما، الحبل المربوط به وهو يتوتر ويرتخي، بمقدار ما تكون المسافة بينه وبين الحصان الذي شدّ إليه، دخول السجن، التعذيب، الأيام القاسية، الجوع، النوم على قطعة حصيرة، الحرّ، البق، رائحة التنّ في القاووش، فراق الزوج والأولاد.

عادا، نتيجة لذلك، إلى وضعهما العائلي، إلى الذين ينتظرونها هناك، في القرية وكرم الزيتون، وشعرا، لأول مرة، منذ خروجهما من السجن، أنهما ارتكبا حماقة، وأن خروجهما، في وقت متأخر، ما كان سبباً كافياً للميت في اللاذقية، ولا عذراً مبرراً لهذه الخلوة التي وسوس بها الشيطان.

زاد اكتئاب بدور، ناولها الكأس فرفضت. ازدادت ندماً لأنها جاءت. استيقظت عاطفة الأمومة في صدرها، توقفت، وهي على حافة الجرف، محاولة عدم السقوط، وفي محاولة للتراجع، قالت وهي تنكمش مع كل دقيقة تمضي:

- كان من الأفضل لو عدنا إلى الضيعة .
- كان الوقت متأخراً . ولم أكن قادراً على المشي .
- وماذا لو استأجرنا عربة ؟
- لم يكن معي أجرة العربة .
- ولكنك أنفقت على الطعام والحمام .
- استندت . وكان الوقت، بعد الاستدانة، قد تأخر .
- هذه حجة . كنت تريد أن غمضي الليل هنا .
- لو اعترضت . منذ البدء، ما كنا بقينا .
- رغبت في مطاوعتك .
- كان عليك أن تقاومي .
- وأنت، لماذا لم تقاومي ؟

حَقَّقَ فيها وهو يتناول جرعة من كأسه، فاجأه هذا التغير فيها . استغرب أن تنقلب، بعد ذلك الانفداع . لم يظن إلى أنه كان السبب . ذكرياتها عن السجن، والقرية، والأولاد، وما لا يقاوم من عذاب، بعث فيها شعوراً بالذنب لأنها وافقت على البقاء . أرادت، ولو متأخرة، أن تتوقف عن المغامرة . هي لا ترفضه، لا تكرهه . بخلاف ذلك، تحتفظ نحوه بعاطفة طيبة، ولن تمنع، في وقت آخر، أن تكون له، لكنها، الآن، لا تريد . تستشعر، في وضعها الراهن، أنها امرأة ساقطة، لو أحبت لما تمتعت، وهي لا ترغم أنها لا تميل إليه، لكن الحب، ذلك الشيء الذي عرفته مع زوجها، لم تعرفه بعد مع الرجل الذي حماها، وتعرض للتعذيب، والسجن، في سبيلها . إنه عابر في حياته . تنتهي صلتها به بانتهاء موسم الزيتون، وربما كانت هذه الليلة، هي الوحيدة في علاقتها الحديدية، ومن أجل ذلك ترتدد، لترفض أن تكون رخيصة، وعليه، هو الرجل، ألا يطلب منها ذلك، إذا كان يحترم موقف الرجل الذي وقفه، وإذا كان، هذا الموقف،

أصلاً، موقف شهامة، كما ظنّت في البدء، وكما تمثّلت طوال أيام سجنها.

من جانبه كان يفكر بهذا التغيير الذي طرأ عليها، باخت حاسنة. تصوّحت مسرة صغيرة عاشت في ذاته طوال العصر حسبها له. كلّ حركاتها كانت تدلّ على أنها له، التماعة عينها. دلّ كلماتها الغنة في صوتها. رغبتها الشخصية في أن تبقى، وأن تأتي إلى بيته، وتنام معه. لم يكرهها على شيء. في وقت آخر كان يفعل مع غيرها تصرف تصرفاً أحمق، فيه خشونة، فيه مجون، ورغم النتائج التي حصل عليها، من طرح نفسه، ومن استخدام هيئته كرجل، فإنّه ما كان، يوماً، يمثل الوداعة أو العقّة. النسك كان دائماً في الطرف الآخر، البعيد والمهمّل، إنه يشتبه، ولأنه كذلك فهو يريد، وبعض النساء قاومن إرادته، وبعضهن رددنه إلى واقع مرّ، من رفضهنّ الفظ، الخاسم، وكلماتهنّ المهينة، لكنّه ما بالى كثيراً بذلك، فالمرأة، لها، أحياناً، هذه الأطوار. كان يعزو ذلك، غالباً، إلى سكره، إلى تعجّله، إلى تهالكه المسرف، فما كان الندم، أمام مواقف رفض كهده، يؤثر فيه، أو يسبّب له إزعاجاً.

كانت المرأة، بالنسبة إليه، شهوة عابرة، يراودها، يطاردها، فإذا لم يلها انصرف عنها متذرّعاً بلامبالاته، فهو لا يحبّ، ولا يتعامل مع الحبّ، ولا يغارل. كلمات الغزل كانت مجهولة منه لا يعرفها لا تنوجد في قاموسه. يعتمد على ملاحظته، شبقه، نظرة الصلّ في عييه، وكثيراً ما كان حديثه، القائم على نسج قصصيّ بارع، يجذب المرأة إليه. هذا إذا كانت المرأة من الصنف الشريف، غير المجرب غير المحترف. أما الساقطات، في خمارات المرافق، فما كان يبذل من وقته وحديثه خنّ شيئاً، كان يسكر، يدفع، يواصل، ثم يدبر ظهره ويمضي. ولقد عرف المدينة، والريف، والبحر الترحال، وصادف كثيرات، وتألّ كثيرات، وتألّبت عليه امرأة هنا، وأخرى هناك، لكنّه لم يستشعر، في كل تلك الحالات، غربة أو عضاضة. كان يسي. يمرّه الأمر مروراً، كأنه ليس صاحبه، فهو يتعاضى مع المرأة على أنها مخلوق

جاهز، من طبيعته أن يقيم علاقة ما، لا يجد فيها ما يدعو إلى احتمال الدلال، وبذل الوعود، والمغازلة الرقيقة، أو المفاوضة الطويلة.

عمره تقضى على هذا النحو، وفي حياته كعامل في الميناء، لاقى من النساء، وعرف منهن، وخاض لأجهلن، بعض المعارك، لكنه لم يكن بلطجياً، ولم يكن فتوة، كان عامل ميناء فقط. وفي المواضع كتب عليه أن يعيش حياتها، وقد عاشها تماماً، عاشها حتى الأعماق. انغمس فيها. تلوث برذائلها، ولم يجد في ذلك ضيراً، ولم يسأل حتى ما معنى الرذيلة، كما لم يتساءل عن الفضيلة، فالمرافق له قانونه، وكان يعيشه، دون أن يعنيه من وضعه، ومن طبقة، وكيف يطبّقه العمال والبحارة أمثاله.

هذه، بدور، حالة جديدة، مطاوعتها، في البدء، لم تحمل إليه أية غرابة. ودلائها، بعد ذلك، لم يربكه، وأمام الكأس، تغدو المرأة لديه ثانوية. صحيح أن الكأس تولّد نشوة، وهذه تتطلب لوازمها، من غناء، رقص، مضاجعة، لكن الأشياء، هذه، يمكن أن يستغني عنها، إذا ما خيّر بينها وبين الشرب. هنا، هو مدمن، مريض، تنتفي مقاومته حتى كأن لا مقاومة ولا أرادة لديه. وما دام يشرب، ويتشهي، في جوّله غرابته، سحره، فرادته، لوجوده مع امرأة في بيت واحد، وفي مثل هذا الليل، فإنه يستطيع أن ينتظر، وأن يتأمل، ويدع للمرأة أن تتصرف على هواها، حتى لا يقصرها على أمر تأباه، ولو أنه أخذها قسراً، فما كان يبالي بصراخها. فالفضيحة، في حسابه، تأتي في آخر قائمة المزعجات.

غير أنه، في ذاته، انطوى على استحقاف بموقف بدور. أرجعه إلى أنها رفيقة، ساذجة، مذعورة، وتنشد الطمأنينة النفسية؛ حتى لا تفضحها حركاتها غداً في القرية. أسف، في شيء من المكاشفة الذاتية، لأنه أمل منها خيراً. اكتفى، حيال موقفها، بالأسف، دون أن يقطع الأمل من مطاوعتها. وقال في نفسه: «لو أنها تشرب قليلاً، لذهب هذا الحياء الكاذب عنها» وبعد قليل، تحوّل أسفه إلى شتيمة شتمها بغير صوت. وعندما مّد يده إليها، نفرت وابتعدت نحو الباب، رافضة بإصرار أن

تذعن لما يريد . كان الخوف من الفضيحة ، إذا ما انكشف أمرها غداً في القرية ، يدفع بها إلى الإصرار على الرفض ، ولم تُفدْ فيها الكلمات ، ولا الأحاديث ، ومع اليأس الذي تسرب إلى نفسه من أن يتأخا ، فكّر أن يفتح الباب ويلقي بها في الشارع . لكنها ، حين صارحها بما في رأسه ، توسلت إليه ألا يفعل ، وأن ينام ويدعها وراء الباب إلى الصباح .

سأها :

- لماذا ، إذن ، جئت ؟
- أخطأت . .
- ألا تعرفين معنى أن يكون رجل وامرأة في غرفة واحدة ؟
- أعرف . .
- لماذا قبلت بذلك ؟
- كنت أريد أن أرضيك .
- بماذا ؟
- بكل ما تطلبه . .
- وماذا حدث إذن ؟
- لا أدري . . كنت راغبة وانتفت رغبتني . . الموت ، في هذه اللحظة ، أفضل لديّ
- تخافين من شيء ؟
- من الخطيئة . . أريد أن تبقى كما نحن . . صديقين .
- وإذا رفضت ؟
- احتمي بنخوتك . .
- وإذا كنت لا أبالي ؟

- شرفك يردعك .. أنت أبّ لبنات صبايا
- أنتِ خدعتني ..
- لا أنكر ..
- أهذا ثمن المعروف إذن؟
- لا هذا ولا ذاك ..
- كيف؟
- لا الخداع ولا الاستسلام .. كنت شهماً .. أحببت الشهم فيك، وهذا
جزاء معروفك.
- أنا لم أصنع معروفاً .. فعلت ما يجب أن يفعل ..
- لأنك لا ترضى بالظلم ..
- أتظنين هذا؟
- كلّ الذين سمعوا القصة فكروا كما فكرت .. صرت كبيراً في عيونهم ..
- وفي عيتك؟
- أكبر من كبير .. دع صورتك جميلة في نظري .. إنني، كيف أقول،
أدين لك بمعروف لن أنساه ..
- وما يهمني من ذلك؟
- كرامة المعروف ..

جرع جرعة من كأسه، ونظر إليها نظرة باشق، ثم خفض عينيه، أمام
هيئة التوسّل التي اتخذتها. استفاق فيه شيء من عطف عليها كلماتها
أطّقت الرغبة الجنسية فيه. قالت له: «أنت أب. لديك بنات» وهو
كذلك، لكن هذا، طوال حياته، لم يمنعه من معرفة نساء كثيرات. كلّ
الرجال آباء، وكلّهم يعاشرون النساء .. أما المعروف الذي تذكّره به،

والصورة الجميلة التي تحرص على بقائها جميلة، فهو لا يابه لها كثيراً.
قال لها:

— اسمعي يا بدور . . إذا كان ما فعلته له علاقة بالشهامة، فهذا جيد، لكنني لم أفكر به . ثقي، أيضاً، أنني لم أفكر بك وأنا على البورة لكنني، اليوم، أردتك . . وأريدك، ولتذهب الشهامة إلى الشيطان! أنا لا أنعامل مع هذه الأشياء.

— والمروءة؟

— ليس في الأمر شهامة ولا مروءة . . فعلت ما فعلت بدافع لا اعرفه، ولا أريد معرفته.

لكنه كان يخدع نفسه . فعل ما فعله بدافع أن ينال الإعجاب في نظرها، وقد نال هذا الإعجاب، مقروناً بما تذكره من شهامة، وهذا ما أيقظ فيه عاطفة هاجعة، عاطفة نائمة، لكنها لم تمت بعد، هي رؤية نفسه شهياً في عيون الآخرين، أو في عيني بدور هذه على الأقل.

قال لها وقد هدأت خواطره، وسرّه، ربّما لأول مرة في حياته، أن يقاوم رغبته، وأن يكون شريفاً، كما تطلب منه!

— هيا، اللعنة على هذه الليلة، نامي ودعيني، سأسكر، ولا أريد شيئاً منك.

— إنني خائفة.

— بم؟

— منك . .

— لو أردت شيئاً بالقوة لحصلت عليه.

— ولكنك قد تسكر . .

— إذا سكرت أنام في موضعي . لن أمسك، هذه كلمة شرف مني .

نامت بدور . أعطاهما غطاء، واستلقت بعيداً على الخوان، أما هو فظلّ

يشرب، وراح يغني، وبعد منتصف الليل نام.. نام دون أن يمسيها، وشعر
بسعادة لأنه، لأول مرة في حياته، لا يكون نذلاً كما اعتاد أن يكون عندما
يسكر.

في الصباح الباكر أفاق. غل القهوة وأيقظ بدور. كانت هذه تعب من
الليلة البارحة. صحيح أنها نامت نوماً عميقاً، لكن الخوف كان يصدع
رأسها. رغبت في مزيد من النوم، في الاستلقاء دون حركة. في التمسك
بوسن ينعقد في جفنيها. غير أنه أصر أن تنهض، وأن تغادر معه البيت قبل
أن يفیق الجيران، وزيادة في الحرص أتى بوعاء غسلت فيه وجهها. ومنعها
من مغادرة الغرفة، حتى لقضاء حاجة، وقال لها، حين شربت قهوتها:

- هيا، يجب أن نخرج باكراً.
- إلى أين؟
- إلى القرية..
- ولكن ماذا يقولون عنا ونحن في الصباح؟
- لن نصل في الصباح.. سنخرج، في طريقنا، على أحد الكروم، فنمكث
فيه إلى الضحى.
- أحس بثقل في رأسي.
- هذا من التعب، والقلق، وآثار السجن.
- ومن الخوف أيضاً.
- كنت خائفة؟
- خفت أولاً، ثم نمت..
- هذا أفضل. انسي كل شيء عن ليلة أمس، وانسي، خاصة، كل شيء
عن السجن، لا تتحدثي بما وقع لك.
- وأنت، الآن نقول لأحد؟
- وهل جنت؟ من جهتي كوني مطمئنة.. ثم لم يحدث شيء.
- ألم أبق معك في غرفة واحدة؟
- وماذا يعني هذا؟ تحدث مثل هذه المصادفات.

خرجوا من البيت خفية . انسلّ انسللاً ، تقدّمها في الزقاق ومضى بأنحاء حيّ العويّنة ، لكنه لم يلبث أن عدل عن الطريق ، خشية أن يراه أصحاب الجمال ، ويكون بينهم مصطو . اتّجه شمالاً ، من ناحية الثكنة ، فلما صاروا في ظاهر المدينة توقّف حتى لحقت به ، وسارا من هناك قاصدين الفاروس ، فطريق كسب ، إلى قرية وح .

كان ، خلال الطريق صامتاً ، لكنها هي ، عادت تتحدّث عن السجل .

— لا أصدّق أنهم أطلقونا . .

— صدّقي . .

— لولاك ماذا كنت أفعل ؟

— ما يريد الله . .

— لقد كنت رجلاً . .

— في السجن أم في البيت ؟

— في الاثنين . .

— وكنت أنت رائعة . .

— أنا لم أع ممّا حدث شيئاً . .

— لم يحدث أيّ شيء . .

— يعني أنت لن تغضب مني .

— ولماذا ؟

— تسأل بعد أن رفضت أن . .

— هذا يحدث بين الرجل والمرأة دائماً . .

— لكنه غريب . .

— لا غرابة في الصدق . . كنا صديقين ، أليس كذلك ؟

— من جهتي أنا معجبة بك جداً .

— ما فعلت إلّا ما كان يجب أن أفعل . .

— وإذا اعتدى عليّ المطعون ثانية ؟

— أفق إلى جانبك من جديد . .

كان الصباح جميلاً، إلى درجة أن الأسى الرقيق، الذي غلّف الكلمات، سرعان ما تبخر. هو وهي الآن، يسيران على الدرب في الاتجاه الذي جاءا منه مهروولين، والكرباج في ظهريهما. ما أهون الإنسان في هذه الأرض! كلمة واحدة، من فم مسؤول أو متنفذ، تغير مصيره. لاحقاً، لا عدل، لا ضمانة، فالقوة، أبداً لمن يملك. في حال كهذه كان هذان الإنسانان في منتهى الضعف. وقال الوالد في نفسه: «ما أظلم الأسياء» وتولاه حنق شديد. أما بدور فقد كان الابتهاج يعلو وجهها كلما تقدّمت خطوة باتجاه القرية. لقد عادت أخيراً. عادت وهي تعرف أكثر مما كانت وهي تذهب. السجن فتح عليها على أشياء كثيرة. من الصعب، بعد اليوم، أن تتعامل مع من حولها كالسابق. نظرتها إلى النساء تبدّلت، رأت نساء من صنف آخر. سمعت قصصاً كثيرة. كانت، قبل أن تذهب إلى هناك، تعيش في حدود القرية، لا تعرف ما وراءها، لا تدرك ما يجري في المدينة. لا تعرف ما يدور في السجن، الآن عرفت، وهذه المعرفة تؤرقها، محال أن تبقى الأشياء ذاتها في نظرها. غداً ينتهي موسم الزيتون. النواظير يرجعون إلى المدينة المطعون يذهب. الشواصي يبقى. هل ثمة أمل أن يلتقيا ثانية؟

سألها:

— بمادا تفكرين؟

— لا أفكر بشيء محدد. لماذا بقينا أمس في المدينة؟

— كيلا نعود ليلاً.

— ها نحن نعود.

— وستسنى متاعبنا.

— لم تكن لدي متاعب.

— لأن الإنسان يسى بسرعة.

— أنت لا تدري كم هو صعب أن نفرق.

— ومن قال إننا سنفرق؟

— الموسم في نهايته، وأنت لن تأتي وتسكر الضيعة، لن تكون فلاحاً مثلنا.
ومن الخير ألا تكون، عيشة الفلاح مرة.

— سآتي لزيارة الضيعة.

— من الصعب ذلك.

— وأنت ستزورينا في المدينة.

— وهذا أشد صعوبة. أعرف فلاحات لم يغادرن الضيعة.

— اسمعي، إننا، الآن، صديقان، أردت احتراماً لك، وأردت احتراماً
لنفسي. لا أدري ماذا حدث. لا أعرف كيف أقول إنما في رأسي
بياض، هناك، في الدماغ، نقطة بيضاء، أنت التي اكتشفتها.

— أنا سعيدة إذن.

— وأنا سعيد مثلك.

ارتفعت الشمس وهما يسيران. بدت في السماء توشيعات من بياض
فاتح، طولانية، تتدلى نحو البحر. وهناك في الطبقات العليا، سحب
متفرقة، تنفحها الريح فتدحرجها وتكاد تذروها، والأفق سديمي، كثيف،
والحرارة شديدة، رغم الخريف الذي عصفت ريحه بالأوراق وأسفطتها تحت
الأشجار. بدا الجو، من حولهما، في أقصى صمته، كأن الطبيعة التي يحسن
بأنهما قد غابا عنها، قد خاصمتها. كانت مشاعرهما، الآن، قياصة
فالمواجهة المقبلة، مع كل الذين فارقوهما، تعطي للتوقع معنى البهجة.
وليس عليهما، وهما يقتربان، إلا مداراة هذه المشاعر، وترتيب ما سوف
يقولان، كل لعائلته. ويانتظار ذلك لاذا بالصمت، وتقدما، بخطى وثيدة،
إلى كرم على جانب الطريق، حيث ينبغي عليهما أن يمكثا وقتاً ما كافياً،
لجعل عودتهما من السجن طبيعية.

قالت بدور متسائلة:

— ألا تخشى أن يرانا أحد؟

— وماذا في ذلك؟. نعود من السجن وقد تعبنا، فعرجا على الكرم
لستريح.

- لكن الطريق غير طويلة .
- لا تنسي أننا نخرج من سجن .
- هل تأتي معي إلى الضيعة؟
- وماذا أفعل فيها؟ نفترق عند طريق البورة، ونلتقي بعد الظهر . سأذهب إلى الشوباصي من كل بدّ .
- ونمرّ علينا في طريقك؟
- هذا ما لا أعرفه . يجب أن أزورك، لكن لا أدري متى . لنعد ذلك الآن .

افترقا بدّور ذهبت إلى القرية . الوالد يمم شطر البورة . تلبّست كلاً منها صورة غير التي كانت له قبلاً . اصطنعنا هيئة من يخرج من سجن ، رغم أنهما لا يعرفان كيف تكون هذه الهيئة، إذ لا مرآة معها . جذفاً في بحر من ضياء ، دق القلبان من شوق وغبطة . بكّت بدّور . كانت مستعدّة للبكاء، ولم يعرف أحد السبب، ردّوه إلى لهفتها، إلى فرحها ببيتها، أولادها، زوجها، لكنّها هي ، في أعماقها كانت تمارس إحساساً آخر، ووجدت في البكاء متنفساً وطريقة للتنويه . أما الوالد فقد أعفى نفسه من هذا الواجب الثقيل . تصرّف كرجل ليس من حق أحد أن يحاسبه . عاد وكلّ ما فيه طبيعي ، كأنه لم يقبض عليه، ولم يسجن أو يضرب . كان ، في أعماقه، قد أدّى المهمة التي انتدب نفسه لها . لقد وفّق بانتزاع إعجاب بدّور، وحتى لو لم يوفّق، فقد كان الأمر لا يختلف لديه . لامبالاته هي نفسها، في الذهاب وفي الإياب، وحتى الحقد على المطعون ما كان يعتمل في ذاته . اقترب من البورة بهيئة من لم يفارقها . كلّ ما فيه كان سالماً، سوى قدميه اللتين فيهما بقايا ورم . كان يضع يديه وراء ظهره، كأنه قام بجولة في أطراف الكرم وعاد . ومنذ رآه الفلاحان على البورة اضطربا، سعيا بالخبر إلى المطعون . دخل هذا خيمته وأخرج مسدّسه الصغير من تحت الفراش . تصوّر أنّ الوالد سيهجم عليه ما إن يراه . تخيّل عبوساً، غاضباً، يسعى إلى الانتقام، لكنّ الوالد لم يكن في وارد من هذا، ومع أنه مستعدّ، في هذه الساعة

بالذات، أن يقف موقفه السابق نفسه، وأن يشتم المطعون ويبعثر بيدر الزيتون، ويدخل في معركة، فإن الماضي، بالنسبة إليه كان قد مضى، وليس من سبب لأن يتصرف على غير عادته، فهو ابن لحظته، وليس، في هذه اللحظة، ما يعكّر صفوها.

ركض الفلاحان إليه فسلما. لم يحذقا في عينيه خجلاً، لأن موقفهما لم يكن كما ينبغي. أما هو فقد مشى رأساً إلى الخيمة، وأول ما فعله، منذ بلغها، كان تناول الحجرة، ورفعها إلى فمه، ليروي ظمأ الطريق، بعد ذلك دخل الخيمة، وأخرج علة التبغ فلفّ سيكارة وأشعلها. لم يكن ثمة تغيير في البورة، كل شيء كما تركه، والخيمة كانت ذاتها، سوى أن العائلة في الكرم. ولم يكن جائعاً، ولا راغباً في الكلام، لكنّ الفلاحين لحقا به، وكثروا السلام، ودون أن يسألها شيئاً، أظهرها كثيراً من المودة والإعجاب. وأمام اهتمامها الزائد، حافظ هو على هدوئه، كأن شيئاً لم يحدث، كل ما أخبرهما به هو أن بدور عادت أيضاً، وأن سراحهما أطلق صباح اليوم، وأنها كانا بريئين، وقد ظهرت هذه البراءة للمحقق، فأخلى سبيلهما.

— هل عذّبوك؟

— ليس كثيراً..

— كيف ليس كثيراً؟ الورم ما زال على قدميك.

— هذا لا شيء.. المهم أن الحفرة التي حفرها المطعون لنا لم تنفع فيها.

— لكنّ المطعون يقسم إنه لم يعتمد إيذاءك..

— ومن يقول إنه أراد إيذائي؟

— أنت غير حاقّد عليه إذن؟

— ولماذا أحقد؟

خلال ذلك، كان المطعون يقف وراء الخيمة. كان ينصت للكلام، ويضطرب من خوف. لقد سرّه أن الوالد لا يحقد عليه، لكن لامبالاته أعجزته. لم يفهم، بالضبط، ما يريد أن يفعله، إذ ليس من المعقول أن ينسى بهذه السهولة، وليس من المألوف أن يعفو وهو طليق، وقادر أن يأخذ

حقه المشكلة أنه إزاء إنسان غريب، له من الجرأة ما يدفعه إلى الوقوف في وجه الدرك، وإلى تحمّل السجن والعذاب، ثم يعود مطمئناً كأنه كان في مشوار إلى المدينة.

فرحي بعودة الأب، عادل فرح العائلة كلها تدوّقنا لأول مرة بعد هجرتنا طعم الانتصار. صار في وسعي أن أستريح من الحراسة، قبله، أيضاً، صار في وسعي، يبي وبين نفسي على الأقل، أن أمارس شعوراً بالاعتراف لم أتوقّف طويلاً عند الدافع الذي حدا بوالدي إلى حماية بدّور، وتعمّل العداء والسجن لأجلها هو نفسه. في كلامه، لم يوح بأنه انتصر للحق، أو أنه دفع ظلماً، ولم يقض كلّ ما أقوله، أو أفكر فيه، عن العدالة وضرورتها ما فعله انتهى بانتهاء الحادث لم يتوقّف طويلاً عنده، لم يباخر، لم يزدّه، ولم يضحّم ما لا فاه، كأنما كلّ ذلك كان عادياً إلى درجة لا يستحقّ تعب روايته. سكّت عن ذكر بدّور. لم يعصح عن شعوره تجاهها ولم يظهر، عندما كانت تأتي إلى البورة، أيّ اهتمام خاصّ بها، وكاد يقنعني أنّه لم يعملها لأجلها، لولا أنّه، بعد أسبوع من عودته، شرع يتردّد على القرية، ويتغيّب، أحياناً، في أوّل الليل، حين تكون جميعاً على البورة، ولا حاجة لحراسة خاصّة يقوم بها، باعتبار أنّ النظارة تبدأ بعد أن نام، ولا يبقى من يسهر على الزيتون. وكنا نردّ تغيّبه إلى حاجته للشرب، في حانة القرية، وهي عبارة عن كوخ يُدعى دكاناً.

وحثّ حياة السجن، لم يأت عليها في أحاديثه، من ناحية الظلم الاجتماعي الذي تمثّله. أفاد منها أفاضل يروها بسليقته القصصيّة. صارت مادة في الكلام على ما فيها من طرافة. وكنت أفغر فمي وأنا أسمع

راويًا، صانعًا من واقعة صغيرة، من خبر لا قيمة له، مادة قصّة قصيرة أو طويلة، لا يستطيع المرء، وهو يسمعها، إلاّ متابعتها بشوق، لما فيها من إيقاع، ومن تقطيع، ومن معلّمة في إبراز الجانب الأهمّ، والتوقّف عند اللحظة المأرومة، اللحظة التي هي مركز الحادثة، خطّها الرئيسي، الذي يعطي لبدائته ونهايته أهميّة تتجلّى في خبرة قاصّ، يمسك الخيط، ويمركزها، ليعقدها، يخلّها، ويخرج منها بقصة جيدة، مقبولة، فنيّتها في صياغتها، وعنصر التشويق فيها، بأكثر مما هي في قيمة الحدث في ذاته.

ولقد راقبت الفلاحين، عزيز ويوس، ودهشتها أمام هذه القصص. كانوا، في إصغائهما التامّ، وانغماسهما بما يسمعان، يكشفان عن قدرة القصّ على التوصل الكامل. وإذا كان الوالد، في هذه القصص عن السجناء، وحياتهم، ومشكلاتهم، وموقفهم منها، وتقبلهم لها، أو ندمهم على ما اقترفوا، وإحساسهم بالظلم، وتوقعهم الفرج، لا يعطي رأياً شخصياً، فإنه كان يترك، في سامعيه انطباعاً دلالياً، هو الذي يترك أثراً بيّناً، فنحسّ، ونحسّ سمعه، بالظلم، وبجور الأغوات والسادة، وبفقد المشاكل الاجتماعية، ودوافع الواقع وراء تصرّف هؤلاء السجناء، عند ارتكاب الأفعال، وعند ردّ القصاص بهم جرّاءها.

لاحظت أنه أكثر مني قدرة على الإقناع. كل ما أعرفه، وأرفضه، عن الظلم الاجتماعي، عن فساد الحياة، عن سوء الواقع، يقوله هو، لكن بطريقة الخاصة، الخالية من الانفعال، من الوعظ، من إعطاء حكم، من تحييد أو تنكير، فكأنه يقصّ بحياديّة ليس فيها أثر لما عاشه، يرسم، بالكلمات، مجسّماً للسجن، للنزلاء فيه، لقضاياهم، نَحْمَلُكَ نعيش ما عاشه، نعاين ما عاينه، من خلال الحدث، وليس من خلال إقحام رأيه الشخصي، في نصوب أو تخطئة ما كان وما جرى.

في تلك الأيام، ومن خلال أحاديثه، اكتشفت فيه ملكة قصّ أصيلة، وموهبة على تناول حدثه من النقطة المثيرة، وإدخالك في جوهه، ثم تشويقك، وأخذك معه إلى حيث الخاتمة، تاركاً لك أن تستنتج بنفسك،

ملهاة هذا الحدث أو مأساته، مثيراً فيك قدرة على التخيل، بمقدار ما فيه، هو، من قدرة على التحليل، وتلوين الواقعة، ورفعها إلى مستوى قصة لكاتب موهوب

ولكم تساءلت، بيني وبين نفسي، عن سرّ هذه المعلمية في سرد حكاياته، وعن صدور ذلك عنه بقوة، حتى كأنه لا يفقه كنه ما يفعل، وغنيت أن يكون له بعض الوعي، بعض الفهم للأسباب والدوافع، حتى يكون في صفّ الذين لا يكتفون بوصف الظلم، بل يعملون على رفعه. وأعترف، الآن، أنه كان في تبشيعه للظلم، وتقبيح نتائجه، ورسمه بإيحاء يدعو للسخط عليه، لمقاومته، أفضل مني حين أتكلم على الأشياء مباشرة، فيظهر من كلامي تحريض مباشر، لا يكون له الوقع الذي كان لتحريضه هو غير المباشر، المتروك لدلالة الحدث.

وأذكر أن رجلاً سجن في مدينتنا إسكندرون، لسبب لم أعد أذكره، كان يشتم السجن، بعد خروجه، ويصوره في أقبح صورة، والذي لم يقل شيئاً، عاش الفترة التي قضاها سجيناً كما يعيش في بيته، ولم يكن للقلق إليه سبيل، وكان يأكل، وينام، ويتحدث، تماماً كما يفعل خارج السجن، وقد قال، ونحن نتأوه للظلم الذي حلّ به: «ولكن ماذا حدث؟» كأنّ الأشياء سواء لديه، وكأنه لم يعمد إلى مقاطعته كما فعلنا نحن، وكلّ ما فعله أنه أظهر استخفافاً أكثر بجهورته وأدعائه، ولم يُقْصِبْ عن السهرات، ولا طلب أن نعامله بشكل يختلف عما كنّا نعامله به أوّل حضورنا إلى «البورة».

ورداً على تودّعات المطعون، وتأكيداته المستمرة أنه لم يكن السبب في سجنه، ولا أراد إلحاق أيّ أذى به، كان يصمت، غير مصدّق، ولكن غير مبالٍ أيضاً، كأنما يعوّل على الفعل لا الكلام، وحتى هذا يقوله في أوانه، ويقول به جراءة كاملة، غير مكترث بالنتائج، الأمر الذي أربّه المطعون أكثر، ودفعه إلى الإلحاح في الكلام على الحادث، والاعتذار عنه، ليعرف ما سيكون موقف الوالد منه مستقبلاً.

لقد بهرني والدي، في تصرفاته تلك، بعد خروجه من السجن كنت على يقين أنه لن يقلع عن السكر، والترحال، والمغامرة، والتهالك على المرأة لكنه، مقابل ذلك، يعرف أن يتصرف بكياسة لا تنقصها الجرأة، وهو قادر أن يكون أبا، دون إظهار كثير من العواطف، وبحب العمل، لكنه لا يتقه، ولا يستمر فيه، ولا يعدم الشعور بالمسؤولية العائلية لديه، لكنه لا يجعل هذا الشعور اقنوماً له، وسهولة كبيرة، ينجاهله ويساه.

ولقد كان لي، خلال وجودنا في الريف، وحول البورة، وفي كروم الزيتون، وقت كثير للتفكير فيه، لمحاولة فهمه، لتعديل الصورة الشعة التي تكوّنت له في نفسي، وجرت صادقاً أن أفهمه وأن أعدره، وأحبه، لكن ذكريات الماضي كانت تعنادي، فتحول بي وبين أن أرى فيه ذلك الأب الذي أعزّه وأفاخر به. وإذا كنت قد أعجبت بشجاعته، فإنّ هذا الإعجاب كان مصروفاً إلى الشجاعة بدانها، وموقفي منها كموقفي من شجاعة أيما رجل آخر. ورغم أنني اكتشفت، أو كشف هو نفسه ببساطة، أن دفاعه عن الفلاح السجين صخر، وحمايته لبذور، ونصديّه، إلى درجة التهور، لكل بادرة سوء تصدر عن المضطّون، فإنه ما كان يفعل ذلك صدوراً عن مبدأ، بل عن طبيعة، ثم لا يبالي بما يقال حول فعلته، فهو، من هذه الناحية، لا يكثر برأي الناس فيه، ولا يتوقّعه، أو يعينه أمره.

قال لي ونحن أمام الخيمة، نشرب القهوة:

— إذن قمت بحراسة البورة بدلاً عي.

— هذا ما يجب، حتى لا نترك للمطعون فرصة للتحرّش بنا وإبعادنا عن البورة، أو طردنا من الكرم كلّ.

— وهل خفت؟

— شعرت بحوف، بعض الأحيان، لكنني قاومته.

— ومادامك لتخاف؟

— لا أدري، ولكنني خفت أحياناً.

- أنت ما نزال ابن مدرسة
- أصاف
- ستعلم من الأيام لا شيء يستأهل الخوف، أو التفكير
- لكنني لا أستطيع إلا أن أفكر
- لأن رأسك محشوناً لا أدري من وسواس أب من طبيعة أمك
- أمي طيبة
- لا أقول غير ذلك، ولكن ماذا تعني الطيبة وحدها؟ اسطر اختك، هي طيبة أيضاً، لكنها حريثة، ورأسها خال من الوسواس
- هل الوسواس عيب؟
- ليس عيباً إلا أنه مصيبة هذه هي مصيبة أمك، وأب طالع مثلها
- كانك لست ابني
- أنا لا أريد أن أكون مثلك في كل شيء
- حقوق في بنظرة صارمة وقال:
- أفهم ما تعنيه. ليس من الضروري أن تشبه بي. أنا لي الخطائي، عاداتي السيئة، لكنني لا أخاف الحياة. مرات عديدة رأيت الموت بعيني. في برّ الأناضول، رفضت خدمة العشمايين. رفضت السحرة والقهر وسوء المعاملة. هربت من العسكرية. كنت أهرب كلما سحت لي الفرصة. ما أكاد أعود إلى الخدمة حتى أفر منها. الأتراك أعداء للعرب. هذا رفضت خدمتهم. وحلال فراري المنكر. نعرست للموت أكثر من مرة. كنت أفع بين أيديهم. فيقبضون علي، ويعيدوني إلى الخدمة. وما هي هذه الخدمة؟ إنها ليست حمل السلاح. إنها سخرة العمل في شق الطرق، ومد السكك الحديدية، وحراسة المحطات. وكنا حفاة عراة جوعاً. كانت القروانة وهي الوجهة الوحيدة في اليوم، عبارة عن ماء مقلّب فيه حبات من العدس، عشنا كنا نبحث عنها في

الرعاة - كانت تلك حياة قاسية - قدرة مهلكة ، وقد رفضتها ، وكنت أدبر
طريقة للهروب ، ما إن يُقبض عليّ وأعاد إلى الخدمة - وكان الهرب في رَ
الاصول ، صعباً ، يحتاج إلى جرأة ، ومغامرة - كان عليّ أن أختبئ في
النهار وأمنّي في الليل ، وكانت الحال هي الطرق التي أسلكها ، ومرة
قصص عليها أشقياء ، وفرّروا إعدامي - عصبوا عينيّ ، وربطوني إلى
شجرة ، ثم صوّسوا بنادهم نحويّ ، وفي اللحظة الأخيرة عدلوا عن
قتلي ، غيروا رأيهم - كانوا من الفارين أمثالي ، وقد أخذوا عليّ عهداً ألا
أقول إنني رأيتهم ، أو أدلّ على مكانهم ، وأقسمت على ذلك ، وأطلقوا
سراحني ، ماذا كان موقفك لو كنت مكاني ؟ فل أنت - كنت تموت
خوفاً ، ولماذا الخوف ؟ الإنسان يموت مرة واحدة ، الموت أشرف من
الاصوح للظلم - مع ذلك لم أنت - ها أنا أمامك - كل ذلك لم يؤثر
على أعصابي ، لم يدخل الوسوسة إلى صدري ، بخلاف أمك التي ترتعب
من حيائها ، أنت من أنت ؟ لسحة عن أمك ، وكنت أريدك ، أنت
بني الوحيد ، أن تكون مثلي ، لكنك لم تكن ، أمك جعلت منك ابن
مدرسة ، وفي رأسك أفكار - أنا لست صد أفكارك ، لكنّها لا تهمني
كثيراً - أنا سعيد أكثر منك

- لكنك لا تقوم بواجبك مثلي -

- عن أنني واحب تكلم ؟

- عن الواحد تجاه العائلة ، وتجاه الناس -

- أعمل ما أستطيعه -

- ولكنك مطالب بأن تفعل أكثر -

- لا أستطيع هذا أنا - ولا أريد أن أكون له مثلاً - إنني مسجون

مع خمسة قرو ، وإذن فأنا صادق ، وهذا هو المهم

- أم صبيك أن يشتر في الأيف من حديد ، ويعمل في جمع الأموال ؟

- لماذا في يدي ؟ فل أنت ، أشم عليّ - حل لا بد ولا يكتب ، وليس في

- يده صفة، ماذا يفعل في هذه الهجرة؟
- وقبلها، في السويدية، والأكبر، وإسكندرونه؟
- ألا نحل؟ تريد أن نحاسبي؟ هل نطّل أني كنت ألعب هناك؟
- أنا لا أحاسبك، لكني كنت أتمنى لك توفيقاً أكثر.
- لو كان لي مال، سد، لتوفقت
- لو كنت تذاير على عمل، ونحس المهمة التي تشغل فيها،
صاح بي.
- أنا حانب ماذا تريد أكثر؟ أرى شطارتك ها قد أصبحت شائناً
واس مدرسة
- لا أريد مخاصمتك ولا لومك ما جرى جرى هذا نحن وهذا
واقعا
- قل هذا العسك
- قلته أنت تذكر أبي اشتعلت وأنا في المدرسة ساشتعل عدداً،
وستعبر حالنا
- سشتعل كلنا البيت لا يهضر على عمود واحد
- إذا كان العمود قوياً، راسخاً، يكون دعامة البيت، حسره
- لمعجه فونني أشعل سيكارة فل أن يرد بسرعة عصب
- كن أنت هذا العمود عدداً
- سأكونه لكن ماذا يفعل في مثل؟ أفضل شيء أن أواصل معلم مهمة
الحلاقة
- وأنا موافق كن حلاقاً، ولكن ناححاً وماذا تريد لأب لاسه غير
الححاح؟

قالها وبصر. هذا أول حديث صحيح بيننا، لا أعرف ماذا سيستعمل والدي في اللاذقية بعد انتهاء موسم الزيتون، والأرجح أنه سيعود إلى بيع حلوى «المشك»، ولن يوفق بأكثر مما وفق في اسكندرون، ولكن ما العمل؟ هذا كل ما بحسنة، ويكفي، بعد الآن، أن تستقر في اللاذقية ولا تعود إلى التشرّد في الريف. إنني لا ألوم الوالد. هو نفسه قال: «هذه طبيعتي» ولم يبدل، ولن يبدل أيضاً، أيّ جهد لتغيير هذه الطبيعة اللامالية، والأمل الوحيد، أن يكون في اللاذقية، بين شقيقه، وأن يكفّ عن إهماله وترحاله. لكن ذلك لن يصير، وهذا ما أعرفه، ولا أحتاج إلى التنبؤ به.

عدنا إلى جمع الزيتون، عاد هو إلى النظارة على البورة، لم تقع مشاكل جديدة بينه وبين المطعون، أظهر الوالد انضباطاً أكثر في تصرفاته. لعلّه أحسن أنني كبرت، وأنني سأحول بينه وبين صرب أمي، أو تعذيب أختي، ونخديمها عند الناس المصارحة بيما كانت ضرورية. فهم أنّ ماضيه كان سيئاً. وأنني أعرف ذلك، ولعلّه رغب أن يتخلّى عن نزواته، ومن المفروغ منه أنه لن يستطيع ممارستها هنا في البورة، وكل ما يفعله أنه يشرب قليلاً، يشرب مساءً، بحصورنا وعلماً، أو يتردّد على حمّارة القرية. كان يغيب، أحياناً، لبعض الوقت، دون أن يقول أين كان، ودون أن يسمح لنا بمساءلته عن هذا الغياب. كل ما قدرته، أنه يذهب إلى الحمّارة، ولم يكن هذا مرعجاً لنا، وقد راقبت الوالدة فالفينها غير مكترثة بغيابه المنقطع، ولعلّ شعورها القديم، في التصوّر منه، والامتناع عليه، والتظاهر بأنّ العلاقة بينها كزوجين قد انتهت، كان هو ذاته الآن، ولهذا فإنّها لم تأبه، ولم تنعصب لغيابه هاراً أو ليلاً.

ما عدا ذلك بد مستقيماً كان يرافقنا إلى الكرم، ويسير لنا الزيتون، ويحاول أن يجمعه معاً، لكنّه لا يصبر صبرنا، فيعادرنا إلى البورة، متذرّعاً بضرورة نواحه عليها، ولو أنّه، كلّما جمعنا كيساً من الزيتون، كان يستعير حماراً وينقله عليه إلى البورة، محمّلاً عنّا هذا العناء الذي كابدها، أختي وأنا، خلال سحبه.

ذات يوم ، بعد عودته بأسبوع ، ناداني وقال :

— ستذهب معي اليوم إلى القرية .

— وماذا في القرية ؟

— تتعرف إليها ، وتسلم على الشوباسي .

أضاف :

— من واجبي أن أزوره ، فقد كان ، رغم كل بطشه ، رقيقاً بشاً . أبغى عليكم في البورة ، ولم يكن راضياً عن سجنني ، وأعلن ذلك صراحة ، ولم يكتف غضبه على المطعون .

فكرت في عرض والدي . ترددت في إعلان رأيي ، كنت أريد أن أرى القرية ، لكنني أهاب مقابلة الشوباسي ، وأدرك هو ما طاف بخاطري ، فقال لي مشجعاً : إن أبا إسكندر سأله عني ، وكان مسروراً لكوني أقرأ وأكتب ، ونصحه أن يتبع لي تعلّم مهنة الخلاقة التي بدأتها .

قال :

— الشوباسي سيكون مسروراً من هذه الزيارة . المجاملة ضرورية ولي غاية فيها ، هي أن أشعره أنني أحترمه ، وأفرق بينه وبين المطعون .

أضاف :

— أبو إسكندر ذكي ، رجل ملء ثيابه ، كنت أتوقع الأذى منه ، فإذا به يأتي من المطعون . لقد راعى الشوباسي خاطرتنا . عاملنا بطيبة غير متوقعة . قدّر ظروفنا . أدرك أن الهجرة هي التي دفعت بنا إلى هنا ، ولم يشأ أن يزيد في متاعبنا ، وهكذا نجونا من بطشه الذي لا ينجو منه فلاح في كل هذه الديرة .

• قبلت أن أذهب مع والدي إلى قرية «ح» . . كنت أراها من تخم كرم الزيتون . أقف عند المفترق المؤدي إليها . أشاهد تجمع البيوت القليلة على

الراية، هذه البيوت التي يقوم بينها، وعلى مستوى أرفع، البيت المحجري ذو القرميد الأحمر الذي يتوسطها، أو يشكّل ما يشبه الحصن بها. هنا كان بيت الأسياد، الذين يأتون لماماً، وفي أوقات متاعدة، للاطلاع، للإشراف، لفضاء شغل، ثم يعمدون. وكان للشوباصي غرفة أرضية في هذا الفناء، وتقوم البيوت الطينية الواطئة، التي يسكنها العلاحون، من حواليه، وهي تحيط بساحة كبيرة، نرابية، على أطرافها بعض الأشجار، وفي هذه الباحة بعض التناير للحجر، وفيها دكان ريفي لبيع بعض اللوازم من ملح وكبريت وسكر وزيت وكاز. وعرق. وكانت عربة الحطور، أو الكرّوسة، وأحياناً السيّارة، تأتي إلى القرية، وتدخل الباحة إلى الفناء، وتترك، في الصيف، ربيعة من الغبار وراءها، وفي الشتاء، إذا جاءت، تشق الدواليب درباً لها في الأرواح.

قرية «ح» هي قرية الأسياد فيها الشوباصي، والمحنار، وأحياناً الوكيل، وتراوح بيوتها بين العشرين والثلاثين، وهي محطبة بين القرى الأخرى، التابعة للسادة أنفسهم، والبعيدة، على مسافات متباينة، حول هذه القرية التي هي المركز. كان الشوباصي، هو السيد الفعلي، المباشر، على كل هذه القرى، وعلى الأملاك التي لا تحُدّ حولها. وما من فلاح، يخاطر له الشوباصي في بال، إلّا ويرنعد، بسبب من قسوته، بطشه، مظالمه، التي تتجاوز كلّ حدود، لتصل أحياناً إلى ضرب الفلاحين، وهدم بيوتهم، ونهبيرهم، وقتلهم أيضاً.

دهبنا إلى هذه القرية في الضحى، كان شكلها، ترتيبها، جوّها، على خلاف ما تصوّرت. صحيح أنها تشبه القرى الأخرى، في بيوت الفلاحين التي هي أوكار طينية، وفي الباحة التي يسرح فيها الدجاج، وترتبط الخبول والأبقار، لكن الفناء القرميدي، ذا الطابقين، يعطيها ميزة على القرى الأخرى، قل جاهاً، سواء في الباحة التي تخترقها درب مرصوفة بالأحجار والحصى، أو في الحديقة المشجرة حول القصر.

قصداً، فور وصولنا، غرفة الشوباصي، أو جناحه الأرضي، وراينا

فرسه مربوطة إلى معلفها، وبعض الفلاحات اللواتي ينفقن الباحة، ويجتمعن روث البصر، ليصنعن منه الخلة التي تحف وتحف للشناء، كان فلاح عجوز يسقي الأزهار والشجيرات، كان محدودباً، منهذباً، أعفى من العمل الزراعي لأنه عاجز عن مزاولته. لم أر سواه في الباحة، ولم أجد أيما أثر للرجال الذين ذهبوا إلى الحصاد أو الحراثة أو جمع المواسم، وحدث الله أنني لم أشهد أيما فلاح يجلد، حسب التصور الذي أحمله من الحكايات التي سمعتها. وكان الشوباسي في غرفته، يفرم التبغ على لوح خشبي صغير، مستطيل، سميك، بسكين حادة، يلمع لصلها، ويحركات فيها دربة ومهارة.

طلبنا من العجوز أن يبلغ الشوباسي أننا جئنا لزيارته. دخل عليه وعاد يطلب منا الانتظار. حيل إلينا أنه لما يريح فراشه، أو لم يتردد ثيابه، أو أن غرفته غير مرتبة لاستقبال الزائرين، لكن شيئاً من ذلك لم يكن، فهو، كما قال لنا، يستيقظ باكراً، ويقوم، واجلاً أو على فرسه، بجولة في الأراضي والكروم، ويتبلغ صباحاً بجبات من التين الأخضر أو اليابس، وهذا كل فطره.

حسبت بادئ الأمر أنه أبقانا منتظرين اصطناعاً للوجاهة. إشعارنا بمكانته وهيئته وصعوبة الوصول إليه، لكن ذلك كله كان تصوراً غير حقيقي، فهو يراجع بعض دفاتره، وحين فرغ منها، ويأشر فرم التبغ، إذن لنا بالدخول. ردّ تحيتنا كما يجب، لكنه لم يرحب ولم يبتسم. كان، حسبما انطبع في ذهني، أقرب إلى العبوس، ولم ينهض لنا، وتشاغل بفرم التبغ عتاً، وكان في كامل ثيابه، وعلى رأسه الطربوش المغربي المعصوب كعادته.

سأل الوالد دون أن يلتفت إلينا:

- متى خرجت من السجن؟
- منذ أسبوع، وحضرتك تعرف ذلك.
- نعم أعرف. عدت لامبالياً، كأنما كنت في رحلة إلى قرية أخرى.

قال الوالد :

— استغفر الله . العين لا نعلو عل الحاجب ، ولم يصدر مني في حقكم إلا كل ملوح .

— وفي حق المطعون؟

— أنا لا أشاكلة . أقوم بالنظارة على البورة ، وعائلتي تجمع الزيتون ، ونحن تحت أنظاركم ، وقريباً ينتهي الموسم .

— لكننا قد نلتقي في المدينة ، ولا أرى سبباً لاستمرار العداوة بينك وبين المطعون

— أنت تعلم أنه البادي .

— أنا لست قاضياً ، ولا أحقق معك ، ولا يهمني من البادي . المهم أن تنتهي المدة الباقية من الموسم على خير .

— إن شاء الله . كل ما تقوله يا أبا اسكندر أعمل به ، وسأعمل به أكثر .

— ليس من السهل . أنت مشاكس . مَنْ تظن نفسك؟ كيف تجرات على المطعون؟ ولماذا حيت بدور ، كان يجب الرجوع إليّ ، أم أنك لا تحسب لوجودي حساباً؟

• ضاق صدري من هذه اللهجة الاستبدادية ، من هذا التهديد والرعيد المبطّن . من هذا «الوالي العثماني» الذي نصب نفسه حاكماً مطلق الصلاحية في رقاب وأوراق الفلاحين ، والذي يعامل الوالد كفلاح في إقطاعه الكبيرة . كان الآن غيره على البورة . كان كمن يجلس على كرسي العرش ، والوالد أحد عبيده . وقد عجبت من تواضع الوالد ، تضاوله أمامه ، وكدت لا أصدق عيني ولا أذني ، وتصوّرت حال الفلاحين البؤساء معه ، وضروب الإهانة والإذلال التي يترها بهم .

قال لوالدي بعد صمت :

— قل لي ، بصراحة كاملة ، وبيننا تماماً : كانت بدور سارقة؟

- أنا لم أفتشها، لكنني استبعد ذلك ، هذه وشاية من المطعون، كان مجرم حولها، وكان يزيد لها في الوزن، ثم فجأة انقلب عليها، عاملها بجفاء عدة أيام، أنقص لها في الوزن، ثم اتهمها بسرقة الزينون، جرى كل ذلك أمامي، كنت أراقبه، عيني لا تغفل عما يجري في البورة . أحسب أنه كان يريد منها شيئاً وأبث . لا أخطأ في دمعي، لكنه التفسير المعقول لسلوكه - إنه . ماذا أقول؟، تعرفه أكثر مني

- أعرفه في المدينة وفي القرية وعلى البورة. لا تخفي عليّ خافية. في اللاذقية، خلال الشتاء، يعمل في أحد السوادي التي يلعبون فيها القمار. شغلته خدمة اللّاعبين يسترق، لكنه، إضافة إلى هذا يقوم بكل ما يُطلب منه، وقبل الظهر يدور على البيوت، يحضر مجالس النساء، يشترك في الصبيحات، ينجم، يرى البخت في الفنجان، يعمل أي شيء تريد، لكنه لا يترك جانب الخواجات هو، من هذه الناحية، رلنتهم، وهم يثقون به . شكاته بحقك كادت توديك في داهية، لولا أنني تدخلت . أنا لا آمن عليك، لا أقول هذا لتعرف، غير أن وضعكم في الريف، آلتي، وجاء السجى ليزيد الطين بلة

- أنت مشكور على كل حال يا أبا اسكندر، لولاك كنت في السجن الآن .
- ليس الأمر كذلك . موقفك الصلب ساعد في إنقاذك، لم نعترف بأن بدّور سرق، وأنك ما قمت في تعتيشها، وهكذا عجزوا عن إثبات التهمة عليك . هذا الموقف منك أرضائي . أثبت أنك رجل، أنا أحب الرجال، المطعون هذا طرطور . ربح أمام النساء، يضحك عليه مجالسه معهن مشهورة، يدعونه إلى الصبيحات ليتسلين عليه، وهو ليس أكثر من خادم في بيت الخواجة «د» .

- لاحظت ذلك، أدركت أنه تحرّش بدّور فاستعصت عليه .
نظر الشوباسي الى والدي، رمقه بنظرة جانبية لسبر دخيله وقال .

- وأنت . هل لانت معك؟

— أعوذ بالله هذه ليست شغلتي —

— أنا لا أقول لك راودتها، أو أرغبتها، لكنّها، هي التي مالت إليك

— إللي؟ لا أعلم لي ولا حر أقسم

فقطعه الشوباصي

— لا نقسم

ارتبك الوالد فاحاه الشوباصي بما حاول أن يجفبه عن وعن الآخرين
أفهمه أنه عين ساهره قال له ما يجب في الوقت المناسب، وضعه في الزاوية
الصبيّة، وحين أنكر الشهرة، كان الشوباصي يعرف كل شيء، ويكره
الكذب، وله عيون في كل مكان، ومن رصده لكل الأشياء، يطلع على ما
يجري في مملكته، ويبطش بالقاعدين عبر راحته خلال الحطّات، رحت
أراقب والدي أحذق في عيبيه، في وجهه، في حركته، شعراً بأنه هو هو،
ذاك الأب الذي عرفته، ذاك الروح الذي ذقت أمي على يديه التويلات،
لكنني صدقت قسمه، دون أن يولي الشوباصي لي النساء لكن والدي،
طوال فترة الصمت الذي ساد، لم يلتفت إليّ تحب لطرائي اعترافه
بالذهاب إلى الحمارة أريكه كان يؤثر ألا أكون معه، وظني أنه لم يحسب
حساب هذه المقاحاة، وإلا ما اصطحبني معه

قال الشوباصي بصوته الخشن، الصارم، المنيع بالترهبة

— لماذا سكّت يا مصري؟

— وماذا أقول يا أبا إسكندر أكثر مما فنته؟

— أنت لا تنكر تردّدك على الصبيعة إذن؟

— لا أنكر، ولكنني أذهب لتناول كأس من الدكان

— أهدر إذن لا تردّد كثيراً على الحمارة، ودع السكر أيضاً، فليس هذا
أوانه

أضاف

- لو غيرك فعل ما تفعل لم أكرت أنا لست شرطياً على الأخلاق ولكن
أنت لست غريباً، ولا أريدك أن تسكر أحوك صاحبي، وأنتم عائلته
من المدينة، ولا أحب لكم الهدية أمام الملاحين - لا تصنع موفعتك
الصنح خطأ من هذا النوع كنت، حتى الآن، على الجهاد، لم أتناه
أندخل وأزديك سكت كي أحفظ كرامة أسرتك، ولو لا ذلك كنت
تعرف من أنا، وكنت تؤمن، على يدي، أن الله حق

قال والمدي

- لا أريد الدفاع عن نفسي

بأذنه الشواحي بحملة الحاسمة، الراحة في الوقت نفسه

- كنت لا تستطيع الدفاع عن نفسك

أصاف غير ميل إلى التحقير من سرته العيبة

- أحسنت بالسكران لو تكلمت، لو حاولت التخلص، لو أكرت أنك

تتردد على الطبيعة لكان لي معك حساب آخر

فحاة رقت رعدة على فسمات الوالد تحول إلى طبيعته الخفيفة،
الناكسة، اللامالية

قال

- حدث في زيادة فذرت أن الواجب يفرضها سمعت كلماتك وسكنت

أنت على الرأس والعين، لكن للصبر نهاية، إني أحترمك، أنت الأكبر
مناً، ولكي أريد أن أقول كلمة واحدة إذا أذنت -

- قل ما تريد - إني أسمعك

- يكفي هذا التفريع، إني أعرفك سمعت الكثير عك، حدثني أخي،

شمت الهبة في وجهك والعزم في حركاتك، لكني لم أسكت أمامك هذا

فقط، بل لأنني أحبك أنا كبخار، كعامل في المياه، أحب الرجال

وأقدرهم مثلك، لكني، من جهة أخرى، لا أحتمل الضيم ليس

للموت عدي حساب - ولقد راحته في حالي مصاعب وشدائد بعد
شعر رأسي، وليس للعاقبة عدي حساب - أنا في اليأس، وأنت فوق
علي

فإن الشوباسي عهداً أن يكظم عيظه

- هذه ثاني أو ثالث مرة تذكرني، أو تذكر لامي، تلك كنت في أسياء
وأنت بخير - حسب أن هذا قيمة عدي؟

- أقول هذا لأنت تعرف التجارة وعمال المياه - وربما يحزن لهم وقتاً

- لا ود عدي للمذنب

- وماد الحبيب؟

- لسا بعد؟

- أسأل لامي رأي - تقالي يذود ليس له أمة غناه شئت - ولحدت
مصادفة - أما الشرب فأعترف به

- وموقفك من الطعام؟ والكلام عن إسكندرية؟

- ماها إسكندرية؟

- لا تخوي، بقول الطعام إنكم تفاخرون بها، تقولون إنها ليس

كالبلاذقية، وهناك يؤلف الناس التفانيات ويضربون ويضربون

أعرف معنى هذا الكلام؟ إنه تحريض - إنكم تحرضون الملاحين.

وعذا، في المذبذبة تحرضون العمال، ماذا تحسون أنفسكم؟ هل الدنيا

دنية؟ اليس من حكومة؟ اليس من ينفذ هذا أعمالكم هذه؟

- أما لا أذكر أنني قلت شيئاً من هذا، وإن قال ما قلته عن إسكندرية
واقراً

- بل أنت تحك - هو وأخته لا يكفان عن التحريض استطيع أن

أفهم السب؟ ما الذي أصابكم؟ أتم تقولون في أنفسكم الطعام

سوء، والشوباسي رهيب والملاح صحة، ولو كنتم في عبر هذا

المكن، وعرفتكم الوثلا، والشواصة عند الأعوان الآخرين، ورأيتكم

كيف يعملون الملاحين، لم يرد له ما جاء في قولهم

كذلك، حتى هذه التحفة مائة أسمع قوله أن أرفع مني، دون أن
تصدر مني حركة إشارة، وإمامة، وأنت مأخوفاً بغير الشواحي، وقد كنت
أب، أكل، عن سكونه، ثم أرمي كسفه، لكنه هو، والذي، لا يلم
بالملاحين، ولا بد من الملاحين الكثيرين، إسكندرية، ولادقية، والمعبود
عاقته، أو دله أحي، قد بلغ الشواحي، وربما فلا يطعمون هو الشواحي
فعل بالثاء، وربما عدده الشواحي، والله ربيته، أو أحد الملاحين على
البر، ومن آخر أن والذي سحر بهمة حمله تدور وليس بهمة تحريص
الملاحين، فبقي هذه التهمة، في غير الملاحين المحلن، عندها السهل
والصالح، والملاحية العامة، ثم قد أشبهه أما كلام الشواحي على
الأسماء الأخرى، وعن وقتهم، فهو صحيح، وهذا كان أبو إسكندر
رحمهما الله، فقال بعبته غيره بالملاحين؟ ياله من علة! آية حياة
شبه بها الملاح الذي لا يترك القميص ولا اللقمة، وأولاده في سراج
الصف، وعن الشتاء، دون مدرسه، ودور حد أس من المسوى الإنساني؟
هذا القول للشواحي؟ أي ليل حولي بموضع الملاح في طلمسه؟ أي
مستلح من الألام بموضع به دون أن يمد إليه أحد يد الإنقاذ؟ وكم سيكون
صعباً، وسط هذا الجهل والخصوع، أن يفتقر الملاح ويعي حقه، بله أن
يتأصل من أحد الشمس، هاء محبوبة جميع كتف، لم يبعص لطعام
مها أن يح عمل إنما فلاح، ومن الشكك به أن تنشر المعرفة، أو الأفكار
التي لو فقه الملاحين في هذا الرطب، دون أن تفتد المدينة هم بد العون
والمناصب التي المدينة نفسها، تعط في سلك، ولا تعمل أيما فقه للتوعية،
وليس في اللادقية ثلثها، حتى ولا في شركة الرعي، غابة

أست لأمي أظمت والذي وحشت عن أبي، من جهة أخرى، شعرت
بضرورة محبتي، لسماع أقوال الشواحي هذه، التي لأدرا ما سمعت مثلاً،
وبهذه الصراحة

وكن الشواحي بنكم في أيا فكر كان بقول لوالدي

— إذا سمعتم نصيحتي، فاتركوا هذه الأفكار دعوا الفلاحين وشأنهم.
لقد خلقوا لما هم فيه، فلماذا اعتراضكم؟

وافق والدي على هذا الكلام، أسفت لأنه فعل ذلك. لكنني لم أدهش،
هو نفسه غارق في الجهل، دنياء لقمة وخمارة. وفي إسكندرونة، حين كان
الناس يضربون أو يتظاهرون، كان هو يسكر. كنت أستنكر موقفه، ألومه
عليه في نفسي، أحجل منه، إلا أنه كان موقفه، وعبثاً حاولت أن أحمله على
الإقلاع عنه، وعبثاً تميت أن يكون كالآباء الآخرين، الذين يتكلمون على
وضع الناس، ويتألمون لبؤس الفقراء، ويتضامنون مع العمال، ويصفون لما
يقوله الآخرون. كذلك تذكرت أنه لم يكن. يقتنع مع أسبيرو الأعور، أن
عليه أن يدافع عن حقّه، كعامل، أو يكثرث للذين اعتقلوا من أجل
أفكارهم، أو يشترك في وفد يراجع بشأنهم. كان من طينة أخرى. لا
بصغي لأنما شكوى، لا يصغي حتى لشكوانا نحن، زوجه وأولاده، وبدلاً
من تحسين سلوكه، كان ينعمس أكثر فأكثر في السكر، وفي التشرّد، ويتركنا
لرحمة الأقدار.

لم يكن من تناقض بين الشوباسي والوالدي. كان التناقض معي أنا،
فالشوباسي يمكن أن يغفر، بل هو غفر فعلة والدي، لكنه، مشحوناً بعداء
فكري لكل ما تمثله كلماتي، كان ينقم عليّ.

هكذا انفتحت عيناى على واقع بالغ العت، في النظرة إلى الفلاح، وفي
مقاومة كل كلمة تؤدي إلى إيقاظه. لقد أخطأوا في قبولنا في قرية «ح»، وفي
حراستنا على البورة، وفي وجودنا في الكرم كله، وهذا الخطأ أدركه
الشوباسي، وعلم بأمره عبدالله الناطور الذي نقل كلامي إليه، لكن
الأسياذ، في المدينة، لم يعرفوا به بعد، وإلا ما خرج الوالد من السجن.

انتهت الزيارة بشيء من المجاملة بين الشوباسي والوالدي. لم يكن هو
المقصود، وقد علمت، فيما بعد، أنه هو، الشوباسي، من طالب والدي
بإصطحابي إليه، ليقول لي ما قال، وينهذني، ويعاتب والدي على فعلته،
وبذلك بضرب عصمورين بحجر واحد. كنت أنا العصفور المقصود، وفي

نحولي، وصغري، وصمتي أمامه، استهان بالعصفور الذي كنته، وسوى
حسابه مع الناطور الذي كانه الوالد، ورأيتهما، بعد الزجر والتعنيف،
يتبادلان علبة التبغ، بل إن الشوباسي، أصرّ على والدي أن يملأ علبته من
التبغ الذي فرمه، وأوصاه بالانضباط، وحسن معاملة المطعون، وأبلغه أن
القطاف العام سيبدأ قريباً، وأن الزيتون سيجمع كلّ خلال أسبوعين على
الأكثر.

أبلغت אחتي بكلّ ما سمعته وما رأيته في هذه الزيارة. لم تعلق على ما
سمعت. لكنها أدركت بحسّها السليم أن الشوباسي سينقل ما سمعه إلى
بيت «ه» كما نقل عبدالله الناطور والمطعون ما سمعاه إليه. وجومها أيقظني
على الخطر. ربما، بالنسبة إليها، كان الأمر يسيراً. أما بالنسبة إليّ، إذا ما
تابعت الكلام على أفكار في اللاذقية، فيكون الخطر حقيقياً. وزاد في
ألمها أننا عائلة فقيرة، مهاجرة، وأن المهاجرين الآخرين، الذين بينهم من
يحمل صورة إسكندرونة المتمردة في دمه، سيكون عسيراً عليهم أن يبدروا
أفكارهم في أرض بور، إذا لم يقيم من أهل اللاذقية بالذات، من عمّالها،
فقرائها، مثقفها، من يحمل مثل هذه الأفكار، فيشرّ بها بين العمال
والفلاحين، في محاولة لإيقاظهم. لقد كان حبّ العمال والفلاحين في دمنّا،
وما نريده هو الخير لهم.

سألنتني وهي تغمرني بنظرات طافحة بالود:

— خمت؟

— ممّ؟ الشوباسي لم يتجاوز التهديد

— في اللاذقية سيتجاوزونه

وبعد وقفة:

— أما رأيت أحداً من المهاجرين الطيبين الذين كانوا يتردّدون على حيّ

الصاذ في إسكندرونة؟

— لم أصادف أحداً منهم

— ربما هاجروا إلى مدن أخرى وربما كانوا يعيشون، هنا أيضاً،

متحفين، خبّيرين كما كانوا في إسكندرونة.

- ربّما .
- اليس عجيباً أن اللاذقية لم تنجب أمثالهم؟
- عجيب حقّاً . لكننا نجهل ما في قاع المدينة، ربما هناك وعي بين العمال .
- هذا صحيح . غير أنّ اللاذقية خالية حتى من نقابة واحدة .
- وهذا ما أدهشني وأحزني معاً .
- كان علينا ألاّ نأتي إليها .
- وأين نذهب؟
- إلى بيروت أو الشام .
- ليس لنا أقرباء هناك .
- وماذا فعل لنا أقرباؤنا هنا؟ أنا شعرت بالغربة عنهم، كما شعوري بالغربة عن كل أهل اللاذقية .
- ستزول مشاعر الغربة هذه .
- متى؟
- أنا لا أستعجل زوالها . يكفي، في البدء، أن نحصل على عمل . .
- تفكرين أنهم يقبلونني في الريجي؟
- إذا سَمُوا راثحتك فلن يقبلوك . .
- وانت كذلك . .
- أنا امرأة . . لا يتوقعون شيئاً من امرأة، ولا يحسبون حساباً لوجودها أصلاً . ثم إنني أحبّ العدالة، أرفض الظلم، وهذا كل شيء، فليس لي أفكار كإفكارك، ولا أحسب أنني سأشارك في أي عمل نقابيّ كما قلت لك .
- لماذا؟
- لأنني أميّة، لا أفرا ولا أكتب، ولا أميل إلى المشاركة في أي عمل، وليس للنساء دورٌ كالرجال .

- سيكون لمن دور .

- حين يصير ذلك أفكر .

تأملت אחتي ملياً، كانت روحاً متمردة لذاتها . من الصعب أن تفهم أفكارى التي أكاد، أنا نفسي، لا أفهمها . والمرأة، في حياتنا، لم تعمل، وليس لها عمل في أيما مكان، لانعدام الصناعة، وحتى الحرفية منها . الربحي هي الشركة الوحيدة التي تعمل فيها بعض العاملات . ولم يقبض لأختي، أن تعمل فيها يوماً، حتى ولو بشكل موسمي، لهذا فهي تحب العدالة لذاتها، دون أن تقوم بأي عمل للتعجيل بها، ودون أن نعرف ما سوف يكون مصيرها شخصياً .

في تلك الأيام، من خريف عام ١٩٣٩ وخلال وجودنا في قرية «ح»، كنت أنا نفسي أجهل ما سوف يكون مصيري . كنت أنساءل، كما غوركى . «ماذا تكونين يا نفس وماذا يتجيم لك الغد؟» وستضي أعوام على ذلك، قبل أن أتعرف إلى «الطبيين»، وأدخل نقابة الحلاقين .

في مساء ذلك اليوم جاء الشوباصي إلى البورة . بندقيته في كتفه، وعصاه في يده، لابساً غنبازه التفتا، المقلم، وطربوشه المغربي المعصوب، وكل المظهر اللائق، المهيب، والأناقة التي يمكن أن يوقرها زيه العربي . ننحج عن بعد، كانت هذه عادته . لا يأتي الناس غفلة، لا يتلصص، ويرعى حرمة النساء الموجودات على البورة .

كان الآن، في المساء، غيره في الصباح هناك، ونحن لديه، اتخذ وضع المسؤول، غير الراضي عما فعل الوالد، أو عما قلت أنا . أدى الدور الذي يريده . كان يعرف، ويؤمن، أن ما طلبه من الوالد سيصير، وأن تكرار الكلام ليس من عادته، ولا يرى فيه فائدة، ومهمته الاستطلاعية هذه تأتي في ختام جولة قام بها اليوم، على الأراضي والكروم وكل أملاك بيت «ف» غير المحدودة، فهو يريد، هنا، أن يشرف، يراقب، يعاين ما يجري، ويستريح، قبل العودة إلى القناق .

المطمعون خفّ للقاءه، تلقّاه بحفاوة مبالغ فيها. أوقف التقيين، وركض إلى الخيمة فأتاه بكرسيّ، فأشار له الشوباسي بيده علامة الرفض. كان ريفياً حقيقياً، فهو يرفض، أو يجلس على حجر، أو على كرسيّ واطئ ويجد في ذلك راحته، وكان الوالد قد ترك عمله على البورة. جاء للسلام عليه، ولم يقترب الفلاحان خوفاً، أما الأم فقد خرجت وحيثه بخفر وحياء، وظلّت الأخت في الخيمة، ولم أبرح مكاني على البورة.

كانت أوقات المساء تلك تفتني، الغروب الوشيك، والشمس تسحب أشعتها الذهبية كعروس تجرّ الذيل وهي تخطو مبتعدة، وطاراة الجو، ونشيث الأرض، ذو الرائحة العطرة، العابقة بالصعتر والزهور البرّية، وصفاء الدنيا، التي استحسّت بالشمس، وهذات من ضجّة النهار، وتقاطع الألوان في الأفق، والضوء المودّع في ذرات بلّورية، تتغشاه العنمة شيئاً فشيئاً، وإحساس ما قدسيّ يصعد ابتهالات إلى الأعالي.

كانت الجمال تصل في مثل هذا الوقت، للقيام بآخر نقلة من الزيتون المعبّأ بالغرارات. تأتي في تتابع، كأنها تعلّمت نظام الدور والتزمته، يتقدّمها حمار يركبه الجمال مصطو. وحين كانت تهلّ من بعيد، قادمة بين صفوف الزيتون، يسبقها رنين الأجراس، كنت أنتعش. أشعر أن يوماً من العمل قد انقضى، أن نهاراً من التعب يمضي مؤذناً بالراحة، وكانت إطلالة الجمال حلوة، أسعد بها، لفرط ما أكنّ من مودة لهذه الحيوانات الاليفة.

وقف مصطو الجمال أمام الشوباسي محيياً. وكمادته، مدّ هذا الأخير علية تبغ الملائى ودعاه إلى لفّ سيكارة. سأله عن حالة الجمال، عمّا إذا كانت تعلّف جيّداً، وتقطرون كما ينبغي، في الأماكن المحتاجة لذلك من أبدانها. كما سأله عن المعصرة، وسير العمل فيها، ومقطوعة الزيت من الزيتون، وجودة العصير، وهمّة العمال في الشغل، وإدارة المشرف على المعصرة، وحسن قيادته للعمل، وأخيراً، طلب منه أن يزيد عدد الجمال، وعدد النقلات، لأن القطاف العام سيبدأ خلال أسبوع، تحسباً للطقس، وتحبباً للمطر الذي لم يعد مفيداً، وقد يشكّل سيلاً يجرف الزيتون المتناثر.

كنت أفق على مبعدة . وقامت الوالدة بتقديم القهوة . شكرها على ذلك وسألها عن الصحة والشغل ، وقال لها : «أصبح الموسم في آخره» فردت الوالدة : «كل عام وأنتم بخير» . كانت أساريرها منفرجة الآن . تلاشي خوفها الغريزي . أدركت أن الشوباصي لم يأت مغاضباً ، وأن ما جرى على البورة ، وسحر الوالد ، والشجار بينه وبين المطعون ، أصبح في حكم الماضي ، وأن كل شيء سيكون على ما يرام . ولقد ارتحت بدوري ، وازدادت إعجاباً بشخصية الشوباصي ، هذا الذي تملا الرجولة ثيابه ، ويزار إذا غضب ، ويطش بغير رحمة إذا ما صادف خروجاً على إطاعته أو تمهلاً في تنفيذ أوامره . لكنه كما يعرف أن يثور إلى درجة مرعبة ، يعرف أن يهدأ ويكون كيساً ، مسaire ، طبيباً عند اللزوم . ومع علمي ، نقلاً عن الوالد ، أن الشوباصي يشرب ، وله مجلسه في القناق ، وفي بيته في المدينة ، فإنه كان يرفض أن يتناول ولو جرعة واحدة مع الوالد على البورة ، أو مع المطعون ، أو يسمح لنفسه بدخول أي حمارة في قرية «ح» أو القرى المجاورة .

إنتهى التقييل . حملت الجمال ومضت ، أشعل اللوكس ، وجاء الوالد ففرص إلى جانبه ، ونادى الشوباصي للمطعون أن يدع حساباته للعد ويأتي إليه . كان واضحاً أنه يريد مصالحتهم ، لكنه لم يقل ذلك ، ولم يدفع أحدهما لتقيل الآخر ، سألها عن النظارة ، وجمع الزيتون ، والكميات التي تنقل إلى المعصرة ، وقال كمن يقرر واقعاً :

— تتعاونان جيداً ، أليس كذلك؟

قال الوالد :

— نعم يا أبا إسكندر .

وقال المطعون :

— المصري أخي . . لو لم

قاطعه الشوباصي :

— لا داعي للكلام على الماضي ، سيرة انطوت . الموسم في نهايته ، وغداً ، في المدينة ، ثلثيان . .

- لكنني، عدم المؤاخذه، أريد أن نتصافى .
قال الوالد :
- خلاص، قلبي صفا، لم يعد فيه أثر لما كان .
— أما أنا، عدم المؤاخذه، فأريد تبرئة ذمتي .
صاح به الشوباسي :
- دغ ذمتك بحالها . العمى، الرجل ساعحك، فماذا تريد أكثر؟
ناح المطعون :
- ساعني الآن، أمامك، وغداً في المدينة . أولاده قالوا إنه سينتقم مني .
قال الوالد :
- ساعحتك نهائياً . ولا أفكر بأي انتقام .
— أنا غير مرتاح من ذلك .
— هذا لا دخل لي فيه . أنت أسأت إلى الفلاحين، وحسابك معهم .
— حسابي مع هؤلاء؟ إنهم، عدم المؤاخذه، لا يرفعون رؤوسهم أمامي، فكيف في المدينة؟ الفلاح، في اللاذقية، يطلب الجيرة، يطلب السترة .
— لذلك الفلاح لا ينسى . أم نظرت أنك من طينة أخرى؟
— نعم من طينة أخرى . ابن المدنة من طينة أخرى . ماذا تقول يا أبا إسكندر؟ أتساوى أنا والفلاح؟
- قال الشوباسي بنبرة رجز :
- لا أريد أن أسمع هذه النغمة القلاح إنسان مثلنا .
— أبداً، وأقولها من كل قلبي .
قال الوالد :
- أنت لا تعرف الفلاح إذن .
— أعرفه جيداً . مند سوات وأنا على البورة .
قال الشوباسي بحسم :
- لا تتمرّج . أنت هما بحماية السادة، وحمايتي .
— بحماية دراعي . الرجل منهم، عدم المؤاخذه، يرفع رأسه .

- كفى! صاح به الشوباسي، ولا كلمة أخرى. انتهى الموضوع. لنستعدّ للقطاف، سيبدأ منذ الاثنين المقبل.
- بالنسبة لي كل شيء جاهز. ليأت الفلاحون من القرى فنبدا، أستطيع أن أنجز عملي مهما توارد الزيتون. القبان حاضر، وسأعمل نهاراً وليلاً.
- عليك أن تتسلم الزيتون وتسلمه. عدد الجمال سيزداد، وكذلك عدد النقلات. يجب أن نسبق المطر، وعلينا أن ننتهي من الزيتون لنبدأ البذر والفلاحة.
- ضع رجلك في ماء بارد. أعطني فلاحين آخرين ليعملا معي على البورة، وكل شيء سيكون على ما يرام.
- إدارة العمل تحتاج إلى سياسة، إلى قدرة على تشغيل الذين معك.
- بالنسبة لي، عدم المؤاخدة، سياسة العصا هي الناجحة، ليجرب واحد منهم أن يرفع رأسه.
- التفث الشوباسي إلى والدي وسأله:
ما رأيك يا مصري؟
- ماذا أقول يا أبا إسكندر؟ أبو نعمة أقدم مني. يعرف شغله. أنت أقدر على الحكم على كلامه. علّمتني الحياة أن الذي يقول لا يفعل. من يستخدم العصا لا يتحدث عنها. ثم إن الفلاح بشر. عشت طويلاً بين الفلاحين في ريف أرسوز وأحببتهم، ولم أسمع من الوكلاء هناك ما أسمع هنا.
- قال المطعون:
- كل شيء لديكم، عدم المؤاخدة، يختلف. هناك الوكلاء جبناء.
- وأنت وحدك الشجاع؟
- غداً ترى.
- ما دمت واثقاً فلا عّل للكلام إذن. بإشارة من يدك يتم كل شيء.

أنت تامر وهم يطيعون

قال الشوباصي :

— أبو نعمة رجل، كفؤ، شجاع . وهذه شهادتي، فهل تريد أكثر؟

— تكفي هذه الشهادة . إلا أن تكون مزحة!

نظر الشوباصي إلى والدي نظرة خاصة وقال :

— مزحة ؟ لا . جدّيتك لا تترك موضعاً للمراح!

جاءت القهوة من جديد، وشرع الوالد في حديث عن أيامه الخوالي.

وكان الشوباصي، رغم خشونته، يلين حين يسمعه . كان الوالد يقصّ ما مرّ معه من أحداث، بالمهارة المعهودة عنه، والشوباصي يصغي، يسترشد، يدهش، يبتسم، أو يطرح سؤالاً لاستعادة ما يسمع .

ولأنني سمعت قصص الوالد هذه، فقد دخلت الخيمة واستلقيت مفكراً بما سمعت، وما قاله الشوباصي اليوم، وما قاله المطعون الآن، ورثيت لحال الفلاح، ثم حملني التداعي إلى رثيفة، فتساءلت: ماذا تعمل الآن؟ كنت أراها لماماً. ولم يكن نتكلم على أسياننا السابقة. انتهت العلاقة القصيرة، الحميمية، التي قامت بيننا. عاهدت نفسي أن أقطع صلاتي بها. أن أخنق الحب الذي خلق به قلبي. وقد وفيت بعهدي، كنت منطقياً مع نفسي، وأعتبر ما حدث لصالحها. قاومت كل رغبة في زيارتها. كرهت والدها. قدّرت أنه هو الذي نقل كلامي إلى الشوباصي. كان فقيراً وفي صفّ الأغنياء. كان أجيراً ومع السادة، ولم أكن، في ذلك الوقت، أعذر الناس أو أخذ في حسابي دوافعهم الناشئة عن الجهل، وكنت غير قادر أن أغفر للناس أخطاءهم، ويعد قليل أعفيت، وبقي الآخرون ساهرين على البوّة.

في بداية الأسبوع انتهى نفرّداً ببر وجمع الزيتون حيث نشاء من الكروم انطبق هذا علينا كما على سائر التواطير وعائلاتهم. لقد بدأ القطف العام. برل القلاّحون من قرية «ح» والقرى المجاورة، في ثيابهم المتباينة الألوان، الفاقعة والصارخة غالباً، واشترك الرجال مع النساء في عملية القطف، التي أشرف الشوباصي بنفسه على انطلاقتها. كان هناك عدد كبير من الفلاّحين، معهم السلال والأكياس والأطباق القشّية المقلّعة وقفوا في صفّ واحد طويل، يعرض الكرم، وشرع هذا الجمع الكبير المتجمّع من قرى قريبة، مختلفة، والذي لا يعمل كله لدى بيت «ف»، في عملية قطف ستستمرّ إلى أن ينتهي جمع الزيتون كلّهُ، وعندئذ يعادرون للقطف في كروم أخرى.

كان هذا العمل الجماعي جديداً عليّ. إن الجماعة، بحدّ ذاتها، تشكّل لوناً من الجماهيرية التي تبعث على البهجة. فمعص الفرح لا يظهر إلّا مع الكثرة، وبمقدار ما يتكاثر الجمع، ينفث سذّ الفرح ليندفع كنهر، جارفاً معه كلّ ترسّبات الكآبة والانكماش والضيق، لأنّه في جمعيته، يتحوّل إلى عرس، مهرجان، أو شيء من هذا القبيل، لا يستطيع المرء معه، ومهما كان سلخياً، إلّا أن يخرج من صدفته، ويندمج في التيار العام.

مع ذلك أحسّنا، للوهلة الأولى، بشيء من غربة، سببها أننا نحتنط

بقوم لا نعرفهم، وأن علينا أن نقطف الزيتون مثلهم، في صف واحد طويل، يتقدّم بشكل متساو تقريباً. لقد فقدنا، الآن، الامتياز الذي كان لنا في اختيار الشجرة الحامل، المثقلة الأغصان، دون التقيد بصف، أو جهة، أو تتلقّى الأمر، أو يخضع للمراقبين الذين يأتون بعدنا، ويعاينون حسن القطاف، ونبر الأشجار نبراً كاملاً، وجمع الزيتون دون أن نترك حبة شاردة، أو غثينة تحت حجر أو مدرة، أو بين العشب والشوك. كان على القطّافين أن ينظفوا الأشجار والأرض والأخاديد وكلّ المساحة التي يعملون فيها جيّداً. إنّ القطاف الأخير، التام، الناجز، وعلى القطّافين أن لا يدعوا زيتونة واحدة وراءهم أو أمامهم.

لكن إحساسنا هذا، ما لبث أن تبدّد بسرعة، فاندمجنا بالملاحين، وشاركناهم العمل والفرحة، وكانت أختي أكثر فرحاً واحتفاء بعيد القطاف هذا. أما بالنسبة لي، فقد كان هذا المهرجان، هذا العيد، بكل ما فيه من ألوان وأصوات، ووقع المروابط على الأشجار، وضجة، وعناء، شيئاً جديداً، طريفاً، يقدّم أول مشهد للعمل الجماعي، وللتنافس، والتراكم، ومحاولة سبق، وجمع أكبر كمية ممكنة من الزيتون. لكن طرافة المشهد، كرنفاليته، مازجها شعور بعدم القدرة على الاندماج بهذا الرهط العامل، المندفع، المتصايح كنت هكذا دائماً، أستشعر، للوهلة الأولى، نوعاً من الانكماش في الجوّ الجديد الغريب عليّ. لقد غاب صعاء اللوحة القديمة. انعدم الهدوء الذي كان يسود الكرم. انتفت وحدانية الوجدان مع الطبيعة، صار عليّ أن ألقى بنفسني في ما شغل به الناس أنفسهم. ترتّب عليّ أن أعمل. وأن أحمل المرواط، وأنبر الشجرة التي في الصف، لا تلك التي اختارها أنا. كان الترويط صعباً، لأنه من غير المسموح أن أترك زيتونة في دغل من الأغصان، أو في أعلى فرع من القمّة، وعلى العائلة، أن تنظف الأرض كما أنظف أنا الشجرة، وأن تفعل ذلك بحميّة، سرعة، اندفاع، كيلا نتأخر في العمل، فتتخلّف عن الصف الذي يتقدّم من طرف الكرم إلى طرفه الآخر المحدّد.

وخلافاً لما حسبته وحشة دائمة، بين ناس لا يعرفهم، وبين فلاحين مدرّبين على ترويض الأشجار، ونير الزيتون، وجمعه في جامات قشبة صغيرة، فقد ظهر أن وحشي، كانت موقفة إذ سرعان ما اندمجت بالعمل، ولقينا مساعدة من حوالينا، وخاصة في النبر الذي لم أكن أنفته، وكان يتعني بسرعة كان القطافون يتقافزون، يتراكضون، يبيرون، يجمعون، يندفعون بحماسة، لم تلبث أن أعدتنا، فصرنا مثلهم، واختلطنا بهم، وتقدّمنا، مدفوعين بالروح الجماعية للعمل الذي اتخذ الآن شكل احتفال، طقس، رقصة شعبية، بين وقوف وانحناء، وتقدّم وتصايح، وغناء انطلق من رجل في المقدمة، تبعته الرديّات اللازمة، وزغردت امرأة، وتبعتها أخرى، فأحسنا بانتعاش، بفرحة، بلعب جماعي، كأننا احتفالية القطاف قد نظمت نفسها بنفسها، ووزعت الأدوار على كلّ من المشاركين فيها، بمن فيهم نحن.

هكذا لم نلبث أن أحببنا هذا الانبعاث الجسدي والروحي، هذا الدوران، الرقص، الغناء، الضرب الايقاعي على الأشجار، الهدير المطري للزيتون، الخشخشة التي تحدثها الأقدام في الأعشاب والأشواك اليابسة نسينا الوقت، أنقسنا، انعزاليّتنا، وجومنا. تهلّل كل شيء فينا، مضينا في هذا الصخب العامّ، وأتحت الحدود بيننا كأبناء مدينة، والآخرين كأبناء ريف، وصرنا عائلة واحدة، عائلة العمل الواحد والفرح الواحد.

وقالت الأم :

— هذا يشبه الحصاد ولقط السنابل.

— يشبه العرس .

— بل هو العرس بعينه

— كأنما الناس إخوة.

وقلت في نوع من الارتياح :

— بل هم أخوة حقيقيّون.

- لم نكن نعرف أن شيئاً من هذا سيصير .
- لأننا لم نكن نعرف الفلاحين على حقيقتهم .
- رأينا هم من خلال كلام المطعون . .
- المطعون الآن غارق في العمل حتى أدتبه . .
- وسيتلاعب بالقبان كما يريد . .
- وماذا في يدنا؟
- لا شيء . . نحن لن نبلغ أن نحول بينه وبين الغش في القبان . .

قالت الأم :

- لكنه، بالنسبة إلينا، لن يغش . .
- وقالت الأخت :
- ربما ، لكنه، بالنسبة للآخرين سيغش دون شك .
- قالت الأم :

- الشوباصي أرحم . .
- وقلت لها، متذكراً ما سمعته منه :
- لا رحمة في قلوبهم جميعاً: الأسياد، والشوباصي والوكيل، كلُّهم، ضدّ الفلاح، وكلُّهم يتعاونون عليه .
- أصرّت الأم :

- الشوباصي أرحم . . نحن لم نر منه سوى الخير . .
- ولم أشأ مناقشتها، كان عليّ أن أسرع إلى شجرة أخرى، أمانا، والمرواط في يدي، فقد كنت، الآن، لا أنبر بل العب. صار العسل، نتيجة احتفالتيّة الأسرة، ضرباً من لعب، ينتفي معه التعب. ولم نشعر بالحرّ، برغم أن أجسادنا تندّت، فقد انفرزت السموم البدنيّة، وتغلغل، في

المسام الدقيقة، هواء العافية، وتبدت السماء، في عليائها، في ررقنها، شيتا
جبيلاً، رائعاً، حبيباً، وغدت بلورات الضوء النهارتي كرسالية، تنموج فيها
الألوان، والفضاء اتسع، كأنما نحن تحت سقف غابي، يمتد ويمتد،
وتترجع، في الجهات الأربع، أصوات وصيحات وضحكات ممعمة بجبور
أخضر كلون الزيتون الذي نعمل في أشجاره المباركة. اعترف أنني أخرج
من جلدي في حالات كهذه. تنتفي كأبتي، أصبر أنا ذاتي، الإنسان الذي
هو جزء من كل. أستعيد مرحي الطبيعي، وإنسانيتي التي تتشربني في
الوحدة.

وفيا نحن نواصل رقصتنا الجماعية، في احتفاليتنا المسرحية، التي لم
يوزع أحد علينا أدوارها، بل ارتجلناها واندغمنا فيها، تعالت من حولنا
صرخة مدوية، أخافتنا، وأرجعتنا إلى الواقع الذي نسبناه.

سمعنا ولولة، وصوتاً يصيح:

— حية، عضتها الحية!

تراكض الناس، تجتمعوا حول فتاة ملقاة على الأرض، بينما اندفع آخرون
لقتل الحية التي انسابت بين الأعشاب، وتعبوها بحرص بالغ، حتى تمكنوا
منها، وعندئذ ارتاحت الوالدة، وكان مبعث ارتياحها أن السم سيتوقف
الآن عن السريان، لأنه يسري في الجسم ما دامت الحية تسعى في الأرض.

كانت اللدغة في الإصبع السبابة. كان الدم يجري، ونبوب الأفعى
تركت علامتها ظاهرة، وجاء فلاح بجبل فربط مساعد الفتاة، كي يوقف
سريان السم ويلوغه الجسم، ونادوا على أحد الشيوخ، فجاء ويسمل، ثم
وضع فمه على الإصبع وراح يمتص الدم والسم ويصفقها وأحضر شاب
مدية حادة فتناولها الشيخ وراح يشطب الإصبع والكف والساعد، والدم
ينفر من الشطوب، وفلاح كبير السن يحاول إبعاد المتجمعين من حول الفتاة
الملدوعة، وسط هرج ومرج كبيرين، ذهب برونق العرس الذي شكّله
القطاف.

كانت أيتها سكي، وأبوها يصبح بها، ولا تحدي، وقال رجل، والسم
 يصبح قاتلاً بسرعة إذا خاف اللدوغ، وبعد أن أهدت الإسماعيلات الأولية
 اللازمة، ركض بعض القبان إلى القرية، وأخطروا قروحين، وشرع
 الشبح المائع، بضم مؤخره الفروج على مكان اللدوغ، كي ينقذ السم
 من الإصبع، وبعد ذلك نقلت الفتاة، على ظهر والدها، إلى القرية، وهناك
 تابعوا معالجتها، لكنها ماتت طهرًا، وجاء الخبر للحرس، فأتى المقاتلون،
 وحتم وجوه شديد على عائلتنا، حتى اقترحت الوالدة أن تترك العمل، نحة
 بأنفسنا، لأن الأفاعي، أمام هذا الخشد من الناس، ستر من مكسها،
 وتسلم وتلدغ

شاركنا الأم وأبنا المقاتل في يدهم أكثر من أسير، ولأن نحي
 شيئاً ثلثاً حلاله، والعودة سالمين إلى النور أفضل، لقد انتهى الموسم
 بالنساء عثر أن لأخت عاصت رفضت إصرار وعة، قالت إن ما
 يصيب الآخرين نصيبنا، ومع الأثناء فلما سلم، والتسكينا بدة فخرج
 إلى الأفاعي أمام هذا الخشد، سهو قبل أن يصيب إليها، وهكذا نصيب
 لكنني بقيت حريماً، وظن وجه الفتاة لللدوغ مثلاً لمعي، وتصوّر ما كان
 يكون عليه حالنا لو أن اللدوغ واحد من العتنة، أو لو كان ينقذ مثلاً

جاء الشوباسي بعد قليل قدم من ناحية السور، وأتى متحلاً على
 معدة من المقاتلين، وقرعهم فيه، وأثنى بكثرة دور أن يكتم أهداء
 أو يأتي على سيرة الفتاة التي لمعت وماتت خلال حادثة من هذا النوع
 بالنسبة إليه، كانت الأفاعي حرة من الأرض، وتقاتل العمل في الأرض
 صيفاً وشتاء، يعني أن يستمر، وقال عند الذين يمتنون بالفتاة الأفاعي
 غير قليل، لكن ذلك من طعنة الأشياء، والشوباسي يرفقه، وكذلك
 الملاحون، ولم يكن الموت، على هذا النحو، ليبره أهداء، ثم يوقف
 العمل والذين تحفروا حول الفتاة لللدوغ، والذين طاردوا الأفعى
 وقتلوا، نغزفوا جميعاً ما إن ظهر الشوباسي، وعاد كل إلى عمله، ومن

حلف الصغوف واستعادت الحماة ولعبها، وسار النصارى سره
المهود

ومن الكرم الذي يجري فيه النصارى، صغر خط من القتل يقوم به ويتن
السورة كان واحد من القتل عالة مربية، فخصص القتل الزيتون المصروع،
بما على ظهره، نوراً له. ثم على دانه ما، وشوكة في ذلك الرجال والنساء
والعبيد وقد حاولت، أنا نفسي، أن أقوم بهذه المهمة، ولكن السوء كان
يستعجز إحدى الرواحل التي بها أيتها القتل ما حمداً ومع كل الاحتجاج
والغالب، والحماة التزكده عن روح الجماعة، كان للردود قليلاً، لأن
أفضل السحر كان قد قطع، فلكل ثلث الملاحون يستمرون أحياناً، يقولون
إسم الله بالمعترف من هذه النصارى، فقد كانت الأشجار القشة، الواظنة،
سورة، ولم تنزل إلا الأشجار العالية التي نخاع جرها إلى سلام ومروءة
حوية وفي رحمة العمل، لكنه أكثر من عصي أن صعد عليه السوء،
وتنزل النصارى المزعج، وسقط من عليه، حدث قوماً، طيلة، وهرج
الرجال للإفلا والإسعاد، وأعطوا القشة سقط، محروخاً مكسوراً، إلى
حلف الصغوف، فصيده حراجه، أو عماره حرا القصر الذي أصيب به
إذا نمت ذلك ظل إلى الغربة التي هو منها

في هذا الحق، كان على، أنا رجل العالة نهار الآب المشغول على
السورة أن أعمل كمعري، فأنزلت أشجار الزيتون والنصائب لسهها، أسوة
بالآخرين، كانت الأمم تتوقف عن جمع الزيتون، وتوقع رأسها إلى العمل،
حو السه، صالة والسلام، بخلة يدي، لتلق قل صرته من القواطع أن
الله، وأن أشجار، أو نصحي باسمه سلم ما، أصعد عليها السهر
الأطراف شطوطاً للزيتون، لقد رأي الشواحي، وعاني خوف أمي، لكنه
لم يتدخل، ولم يتكلم، أكثر بالمراقبة، وأحقتنا، تعريلاً، للصف،
وقال يستند إلى أمه، كثر القرب الظاهري من، مفرصا كعدته، وهو يفت
السيارات وينميتها في هدوء يريد من ربه وقاره.

حوالي الشهر من الحق، زلزال السه الصافية اشغتها الشمس، حلع

القطافون قمصانهم الخارجية، أو تخفوا من ملابسهم، لكن النار الكاوية لشمس الحريف الحادة، كانت تلهب الأجسام، وراح العرق يتحبب ويتفصد، من جباه وصدور الذين يتبرون الزيتون، والمراقبون الذين عينهم الشوباصي، يدورون حول الأشجار المنبورة، يتفرسون فيها، يعاينونها من جميع الأطراف، وبعضهم يقلبون الأحجار، والمدرات، ليراوا ما إذا كان ثمة حب متخلف، ومن يترك زيتونة على شجرة، أو حبة ضائعة، أو طائشة في أرض الكرم، كان يُعاقب، أو يوتخ، ويصرخ في وجهه، أو يعاد إلى وراء، لتنظيف البقعة التي تجاورها.

ومع اشتداد الحر، ووصولنا إلى مرتفع جبلي، تكثر فيه الحجارة والمدرات، انساب نسق من الأنواع ذات الألوان والأحجام المختلفة. كانت تهرب إلى أمام، وتزحف في خطوط ملتوية وهي تتلع بأعماقها، وترفع رؤوسها، منضضة بالسُّتْها، مخلفة وراءها قحيحا وخشخشة في الأعشاب، فيصرخ الناس، ويتراكم الرجال وبأيديهم العصي، وتتصب القمامات مدعورة، وتعود أمتي إلى التوسل كي نترك القطاف وتعود إلى خيمتنا في البورة، لكن الأحت ترفض، متحذبة كل خطر، مصرة على البقاء بمقردها، إذا نحن عادنا الكرم إلى البورة، وهكذا كنا نضطر إلى البقاء، وإلى البر، والجمع، والتقدم مع الصفوف، وابتلاع خوفنا، والدخول في تلك المباراة الكبيرة القائمة من حولنا.

تناولنا طعامنا ونحن نعمل. الآخرون، الفلاحون، لم يأكلوا شيئا، نخلوا عن وجبة الظهر، كي لا يفتوهم الوقت، محتملين جوعهم إلى المساء، وهم، كما قالوا، اعتادوا ذلك، فوجبة الطعام الرئيسية بالسلة اليهم هي العشاء، بعد العودة من الكرم، حيث يحملون آخر ما جمعه إلى البورة، وبعد تقيينه وتسليمه بعدون مسرعين إلى قراهم، حيث ينتظرهم عمل آخر، هو إشعال النيران، وحمي التانير، وزرب الماشية وحلبها، ثم لساول ما تيسر من طعام، واليوم، كيما اتفق، إلى الصباح، وفيه يستأنفون ما بدأوه أمس.

يوم القطاف الأول هذا، دام إلى الغروب كان الشوباصي قد قرر أن

ينتهي من هذه المهمة بسرعة، وأمر باستمرار العمل، طالما كان في المستطاع
 لبر الزيتون وجمعه في ضوء الغروب. ومنذ العصر، حين مالت الشمس إلى
 الميعب، دبت في الناس فرجة عارمة، كأنما تكاتفوا جميعاً على بذل ما تبقى
 من طاقاتهم، مع ما تبقى من النهار. ومع أننا توقفنا، قبل الأخرى، فقد
 بقينا هناك، في الكرم، تشهد العيد الذي بلغ ذروته مع اقتراب المساء،
 حيث خفت الحر، ونشطت حركة الناس، وازداد لهوهم وضحكهم، وازداد
 سباقهم غير المقترون بأي رهان، وعاد فلاح إلى الغناء، بصوت حلو، قوي،
 جهوري، يخترق الأمداء، ويؤثر الهمم.

وبعد أن نال حظّه من العتابة، في مواويل ريفية، حلوة، بهيجة، أتبعها
 بالميجانا، ثم انتقل إلى أغاني ريفية فولكلورية، كان يحفظ منها الكثير ونفخ
 رجل في مزماره، وضرب آخر على الطبل، وغنوا على دلعونا، وساعة
 التوقف عن العمل، عقدت الدبكة في فسحة بين الأشجار، وشارك فيها
 الفتيان والفتيات، في اندفاع حقيقي، يرافقه دق الأرض بالأقدام، وتمايل
 الأجسام، وترقيص الاكتشاف، واهتزاز الصدر، مما حول هذه الرفقة
 التقليدية التي أعرفها، إلى نوع وجدّي، عنيف، غاضب، فرح، وخرج بها
 عن رتابتها إلى قفزات في الهواء، وصرخات تنخية، وزغردات، وترديد
 هادر للآزمة، مع اشتداد وارتفاع صوت الزمر، وتغجر ضربات الطبل،
 كأنما ضاربه قد أخذته حال من النشوة المجنونة.

بعد ذلك انتقل الناس إلى البورة، تعاون أفراد كلّ عائلة، وشارك
 الرجال والنساء في تعبئة المحصول، واندفع الفتيان في حمل الأكياس، على
 الظهور وفوق الدواب، واتجهوا في خطوط طويلة، متعرجة، اخترقت
 صفوف الزيتون، إلى حيث البورة وعليها القبان والوكيل، وبيدر كبير كبير
 من الزيتون لم أشهده من قبل.

كان الشوباصي ثمة، يربض على طرف البورة يراقب، وكان هناك الوالد
 والفلاحان عزيز ويونس، وقام آخرون بإرجاع الناس إلى وراء قليلاً،
 وطلبوا منهم الاصطفاف، وحين هبطت العنمة أشعل اللوكس، لكن صوته

أنار بقعة محدودة، وعندئذ أحضرت لا أدري من أين، قطع مرخ^(١) بطول الزند وثخانتته تقريباً، وأشعلت وهي مرفوعة فوق الرؤوس، فيها الظلمة تهبط. وتعالّت من هذه المشاعل الصنوبرية، الأنوار والدخان، وانخذلت البورة، بدورها، مظهر العبد الشمعي الليلي، وعلت ضجة كبيرة، تداخلت فيها الأصوات بالنداءات برلين أجراس الجمال، ودام ذلك إلى العشية، حين غادر آخر القطافين البورة، بعد أن وزنوا وسلّموا ما حملوا في نهارهم.

هذا المشهد الاحتفالي، لمهرجان القطاف، في الأصل وبعد الغروب، في الكرم وعل البورة، صنع لي بهجة غامرة، خاصة وأن رقيقة كانت هناك، وكان والدها يساعد في العمل على البورة، وقد شاءت الصدفة أن نلتقي، وأن يقترب أحدهما من الآخر، وأن ينظر كل منا في عيني الآخر، نظرة فيها عتب، وفيها حنان، وفيها شعور بالفراق القريب الذي ربما لا لقاء بعده.

سألته:

- أين كنت اليوم يا رقيقة، ألم تشهدي القطاف؟
- شهدته كله، من الصباح حتى الآن.
- لكنني لم أرك... هل اختبأت مني؟
- كنت في الطرف الآخر من الصفوف، ورايتك من بعيد، لكنك لم تبذل أية محاولة للاقتراب مني.

قالت لها بلهجة أسيانة، فيها ما هو فوق العتب، «فيها أكثر من حنين. لقد كانت محبة، وما رالت كذلك، وكانت تتألم، في حين أمكني السلوان، مما عرّ عليها، فتلوّنت كلماتها بحزن شفاف، وانعكست في البؤبؤ رؤى النيران المتوهجة، وخيل إلي أنها استشرت، وأن وجنتيها تضربت، فأخذني إشفاق عليها، رعبت في الاعتذار عنه دون أن تطاوعني الكلمات.

(١) «المرخ» أجزاء مقطوعة مكسرة من جذوع الصنوبر.

عدت أسأها:

- مشتركين غداً في القطاف أيضاً؟
- لا أدري، والذي لا يرى في العمل مع هذا الحشد الكبير فائدة تذكر
- هل عاونك في النبر وجمع الزيتون؟
- كان يراقب وراء الصفوف، خوفاً من سرقة الزيتون.
- الشوباصي أوصاه بذلك؟
- ربما. لكنه قال لي إنه لا يأمن جانب الفلاحين.
- ومن ببر لك الزيتون؟
- هو. كان يتردد علي، وبعض الفتيان ساعدوني أيضاً.
- كان علي أن أفعل ذلك بنفسه.
- وترك عائلتك؟
- أنسرق بعض الوقت.
- من الخير أنك لم تفعل.
- لماذا؟
- هكذا. ما دمت لا تريد، فلماذا تغضب نفسك؟ الآن انتهى كل شيء.
- حقيقة. سنعود إلى المدينة.
- قلت:
- لكن الذكريات لا تنتهي، بل هي تبدأ الآن.
- قالت:
- لم تكن ذكريات حلوة ولا سعيدة.
- كيف؟ ولقاء اتنا؟
- تذكرتها كثيراً، وتألّمت، ثم يشتت، وغداً ينسى كل منا الآخر.

أضافت فجأة:

— اسمع! والدي يناديني. سأذهب، الوداع..

وقلت بنصّة.

— الوداع يا رثيفة.

ولم أرها بعد ذلك أبداً..

أما العائلة، فقد كان عليها كلّ صباح، أن تشارك في القطاف الذي استمرّ اسبوعاً ونيفاً. وكان هذا القطاف، مثله في اليوم الأول، عيداً خاصاً من أعياد الريف. ولم نحس بالوزن، بالضجر، بالتعب، ولا بالخوف من الزواحف، خاصّة الأفاعي، التي أمدّتنا الشجاعة الجماعية، بمقاومة كلّ ما كان يداخلنا من رعب منها. ألفنا أن نراها، وأن نطاردها، ونقتلها، وحتى في الحالات التي كانت تلدغ فيها بعض القطّافين، كان الأمر يبدو طبيعياً، وكانت الاسعافات ذاتها تتخذ، ومع أنها أوليّة وبدائيّة، فقد كانت تنقذ بعض الملدوغين، ولم نعد نحسب حسابها. نسيناها في عمرة مانسينا من أمورنا وهواجسنا الخاصّة، عندما اندغمنا في الحشد الكبير، ومضينا معه في رقصة القطاف والكفاح البشريين، اللذين هما لون من ألوان الحياة الماتعة في الريف، أو التي تصوّرتها كذلك.

لكن حادثاً وقع، قبل انتهاء القطاف بيوم واحد، بدّل صورة العيد، وأحاطها بهالة مأساوية دامية، فكان وقعها شديداً في نفوسنا، نحن الذين على البورة، من فرط ما تخلّلها من اضطراب، ومن لغط، ومساءلة، وتحقيق، وملاحقة.

وقع الحادث في المساء، عند العشيّة، حين كانت جموع الفلاحين توشك على الانتهاء من وزن ما جمعت من زيتون وتسليمه، استعداداً للانصراف إلى القرى.

الشوياحي لم يكن موجوداً، والعمل على البورة، كان في عزّه، وكان ثمة

نور اللوكس، وأنوار أعواد المرخ، ولم يقع الحادث في دائرة البورة، ولا حدث اختراق للحلقة البشرية المحيطة بها، بل كان هناك ترصد، وراء أشجار الزيتون، ربما تكرر ليالي بطولها، لكنه لم يبلغ غايته إلا في تلك الليلة المشؤومة، حين أوقف المطعون التقين، ومضى خارج البورة، بين أشجار الزيتون لقضاء حاجة. وفي اللحظة التي خرج فيها من حلقة التجمهرين، وصار وحيداً، على تخوم الضوء والظلمة، انطلق عيار ناري، وسقط المطعون وهو يتخبط في دمه.

دُعر كل من على البورة. الوالد، الفلاحان عزيز ويوس، الأم، الأختان وأنا. دُعر كذلك الفلاحون، وفي لحظة كان الحادث قد تم، وهرع الجميع نحو مصدر الصوت، وكان المطعون، الذي أصيب في صدره، يتمرغ على التراب والشوك، وحين استعاد الموجودون روعهم، التف فريق منهم حول القتيل، وطارد فريق آخر مطلق النار، الذي غاب في الظلمة، وحجبه أشجار الزيتون الكثيفة عن الأنظار.

تلك الليلة، عاينت الموت عن قرب، وقفت حياله وجهاً لوجه.. كنت أرتجف لهول الفاجعة، ولم أجرؤ على ملاسة القتيل، وسمعت أعية نارية في البعد، من النواطير الذين أفرغوا رصاصاتهم في الفضاء، إرهاباً ومحاصرة للقاتل، لكن ذلك بقي دون جدوى، وظل المطعون طريحاً حيث هو، إلى أن وصل الشوباصي، وطار الخبر إلى اللاذقية، وفي سيارة عسكرية، تابعة للدرك، وصل رجال السلطة، وشرعوا بالتحقيق، مع كل من كان تلك الليلة على البورة.

من حسن الحظ أن الوالد، وقت الحادث، كان يعمل في تعبئة غرارات الزيتون، وكان الفلاحان عزيز ويونس يساعده، وكانت الجمال تنتظر، والجمال مصطو حاضراً، وهكذا شهدوا جميعاً، وأثبت الوالد مكان وجوده خلال الحادث، فطرح عليه الأسئلة، وأخلي سبيله، لأنه لا علاقة له بما وقع، وقد ثبت أن الفاعل كان يترصد في الظلمة، فأطلق النار وتوارى.

وفي اليوم التالي شاع خبر صدم الجميع. كان الخبر موجزاً، مفاجئاً،

دهش له الناس، وقد ورد من المدينة، صادراً عن تقرير من إدارة السجن،
مفاده أن الفلاح صخر، أطلق سراحه من السجن يوم مقتل المطعون
بالذات، وعندئذ تذكر الجميع، ذلك الفلاح الذي ظلم، وعُذّب،
وسجن، وكان المطعون وراء كل ذلك... وهكذا انحصرت به الشبهة،
وانطلق الدرك إلى بيته فلم يبقوا فيه شيئاً إلا قلبوه، وخربّوه، وأوقفوا زوجته
واستجوبوها، لكن صخر كان قد غاب، وقال بعضهم إنه توارى في الجبل
واعتصم فيه.

وبعد يومين غادرنا البورة. تركنا الريف وراءنا. وقالت الوالدة ونحن في
الطريق إلى المدينة:

— تُذكر ولا تُعاد.

وقال الوالد:

— لعل الله يكتب لنا رزقاً في المدينة.

وقلت في ذاتي:

«كانت هذه تجربة مفيدة على كل حال.»

أما الأخت فقد لزمّت الصمت، لأنها كانت تشكّ في قدرة الوالد على
الصدق، والاقلاع عن الترحال، وفي خلاصنا من التشرّد معه حيثما ارتحل.

دمشق ١٩٨٥/١٢/٢٩